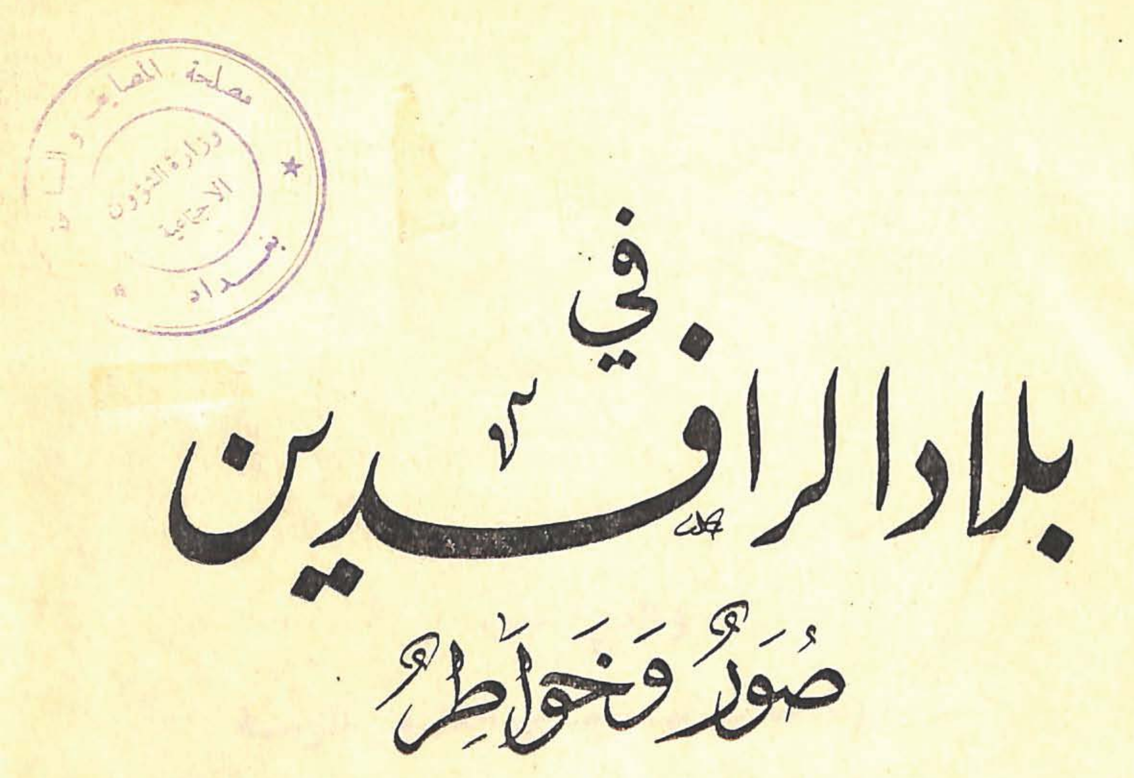


في
بلاد الرافدين
صور وخواطر
بقلم
ليدي دراور
نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه
فؤاد جميل

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي



في بلاد الرافدين

صور وخواطر

بقلم

ليدى درور

نقله الى العربية وقدّم له وعلّق عليه

فؤاد جميل

الطبعة الاولى

١٩٦١

حقوق الطبع والنشر محفوظة

مطبعة شفيق (ت ٤٢٠٩) ـ بغداد

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

الثمن : ٦٥٠ فلسا

الاهداء

الى :

والديَّ ...

(واخفض لهما جناحَ الذل من الرحمة
وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا)

(صدق الله العظيم)

(ف . ج)

شكر واعتذار

اشكر الدكاترة الجامعيين والاساتذة الكرام :

- مصطفى جواد
- شاكر مصطفى سليم
- على الوردى
- كوركيس عواد
- بشير اللوس
- سالم الآلوسى

على تفضلهم بمراجعة فصول الكتاب والتعليق عليها .

واشكر (مديرية الآثار العامة) على تفضلها باعارة بعض رواسم الكتاب.

واشكر (صاحب مطبعة شفيق) على تفضله بنشر الكتاب على نفقته الخاصة والعناية بطبعه .

وقعت أغلاط مطبعية وضعنا جدولا بها فى نهاية الكتاب فنعتذر عن ذلك .

(المترجم)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

من الاجانب الذين زاروا العراق او أقاموا فيه طائفـــة من الدراس والبحاث امتازوا بطول الاناة والدأب على تقصي أوضاعه العامة والنفاذ الى جوانب مختلفة من حياة ابنائه وانتاج المؤلفات القيمة عن ذلك كله . وللمؤلفة هذا الكتاب ليدى درور E. S. Stevens (١) مصنفات عدة تناولت فيهـــا موضوعات (الصابئة)(٢) و (اليزيدية)(٣) و (مأثورات العامة)(٤) وعـدت فى موضوعاتها من المراجع الاصيلة . ومنها هذا الكتاب (فى بلاد الرافدين) الموسوم بالاصل (By Tigris and Euphrates) وهو مجموعة نصول تنطوى على نظرات عابرة ، ولكنها عامرة ونافذة الى جوانب كثيرة من حياة البلد وسـكانه العامة : اجتماعية كانت ، او روحية ، وتاريخية كانت أو أثرية . ولقد كتبتها المؤلفة باسلوب سلس يسير ، وقصصي ممتع ، وكان ذلك فى مطلع تشكيل الحكومة العراقية فى « العهد الملكى البائد » .(٥)

ولقد أقدمت على ترجمة الكتاب لاجعل هذه الدراسات الممتعة العميقة على طرف الثمام من أيدى من لم تتح له فرصة التمكن من اللغة الانكليزية تمكنا يستطيع به أن يقرأه فى لغته الاصلية . ذلك اننى ارى أن فى ترجمة

---

(١) الاسم المستعار الذى اتخذته المؤلفة فى أغلب مؤلفاتها .

(٢) The Mandaeans of Iraq and Iran.

(٣) Lady Drower : Peacock Angel.

(٤) Lady Drower : Folk Tales of Iraq.

(٥) ذلك ان تأريخ نشر الكتاب ، كما ثبت على ديباجته : ١٩٢٣ .

ما يكتبه الاجانب عنّا الى لغتنا العربية سبيل الوقوف على رأى الغير فينا ، وقد يساعد ذلك على أن نعرف أنفسنا ونستكنه معضلاتنا على الوجه الاعم الاتم • وأرى ان نجتبى مما يكتبه هؤلاء للترجمة هذا الذى ينفع أكبر عدد ممكن من قراء العربية ، شريطة ان يبنى الاجتباء على آساس من الوعى ، والتمحيص ، والملاءمة ، والاعتدال •

وفى الحق ان الحياة العصرية التى نريدها لعراقنا الحبيب تتطلب الاستمداد الثقافى من الاقطار المتقدمة جميعا : غربيها وشرقيها على حد سواء ••• ومن كتب السلف الصالح مهما طال عليها سالف الامد • وبديهي ان الاستمداد من الغرب والشرق اليوم يكون بالترجمة الامينة السليمة لشوامخ الكتب العلمية والادبية والفنية والقصصية ، فالترجمة يجب أن تشمل كل ما يغذى فكر المواطن ويمتع نفسه ، سويا كان المواطن هذا أو مثقفا ، أو متخصصا •

وحين أخذ السلف الصالح فى تاريخنا الخالد المجيد بأسباب الحضارة لم تبهرهم مدنية دون أخرى ولم يشغلهم الشرق القريب عن الغرب البعيد او العكس ، ذلك انهم ترجموا عن اليونان العلم والفلسفة ، وترجم المغرب الاسلامى عن الرومان فى لغتهم اللاتينية ، والمشرق العربى عن الفرس والهند واللغات السامية القديمة • كما عمد هذا السلف الصالح الى الترجمة عن لغات أخرى غير لغة المؤلفين فلقد نقلوا الفلسفة اليونانية عن السريانية ، ونقلوا بعض الآثار الهندية عن الفارسية • وهم لم يعملوا على نقل العلوم عن اليونان والفرس والرومان والهنود والسريان والنبط فحسب بل عملوا على حفظها ونقلها الى العالم أجمع • لذلك صح أن نقول انه يندر ان يجد المؤرخ حركة فكرية بلغت من السعة والشمول ما بلغته حركة الترجمة عند العرب •

ان حركة الترجمة اليوم ناشطة فى بعض بلدان العرب ولكنها ما زالت قاصرة عن سد حاجة الفكر العربى • وهى ، بوجه عام ، لا تراعى

الحاجة الملزمة ، ولا الاختيار الدقيق ، ولا التبويب الصحيح ، ولا الامانة اللازمة ، ولا سلامة اللغة من هجنة العجمة .

ان الترجمة ابتداء عمل شاق ، كثير العقبــات ، معنت . ومما يعين المترجم الى العربية ان هذه اللغة الكريمة ، لغة القرآن الـــكريم والبيان المشرق الناصع ، ذات طاقة ضخمة من الشمول والاستيعاب والمرونة . لذلك ســعيت الى اشتقاق مصطلحات عربية اصيلة من مادتها الخام الاصلية كلما وجدت ضرورة الى ذلك . ثم انى فى باب (المفردات) آثرت الفصيح على المولّد ، والمولّد على الحديث ، والحديث على العامى الذى لم استعمله الا ّ قليلا . وان قدّر لي ان استعمله وضعته بين (حاصرتين) . كما انى عنيت أشد العناية باحياء الكلمات الفصيحة ، وان كان البعض منها غريبا على سمع القارىء الســوى ، ما دامت تؤدى ، على وجه الدقة المعنى المطلوب اداؤه . فأنا لا أرى هذا الرأى الآثم القائل : « ان الخطأ الشـائع خير من الصحيح المهجور » . وفى باب (المعــاني) ، لا يخفى ان المترجم له قيــود من كلام المنشىء الاصلى ، وان الامانة فى الترجمة ، ولا ســيما لدى اضطراره الى التعريب المعنوى واجبة ، لذلك عنيت بالمقاصد والمعانى التى رمت اليهـــا المؤلفة ، واحلالها بالالفاظ والمبانى العربية السليمة ، ما استطعت الى ذلك ســـبيلا .

وانك لتجد فى هوامش الكتاب تعليقــات شــتى ، وشروحا منتشرة ، واستدراكات جمة تناولت ما ورد فى متنه مما يستدعى تعقيبا او توضيحا او تصويبا ، او اكمالا ، وارضاء للنهمة العقلية .

هذا وان الكتاب فى أصله يأخذ القارىء باسلوبه العــذب ، وعباراته الجزلة ، ونسجه المحكم ، ومعلوماته الوفيرة ، واسلوب المؤلفة أســلوب صفو ساحر نضير ، ولغتها نقية طيعة ولكن الكتاب لم يخل من قلة من هــذه الصور المبهمة ، خفيفة الالوان ، مضللة الملامح ، لذلك سعيت الى أن اجلوَها عن (المؤلفة) ما استطعت الى ذلك ســبيلا ، كما اننى اضطررت فى حالات

قلائل الى تصويب بعض ما صدر منها نتيجة النظر الخاطف والتناول العاجل.
كما لاحظت انها عمدت الى الاسهاب فى مواضع يطول فيها الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والاهواء ويشتد الخلاف بين أبناء البلد الواحد ، أو انها دونت منها شيئا بلا اعنات للفكر ولا اطالة للروية ، شأنها شأن الفرنجة الذين يدونون عنا الصفحات ويطوونها او ينشرونها على غرها . لذا فمن السائغ عقلا ان نجمل القول فى مثل هذه المواضع ، والاجمال فيها ينبئك عن تفصيل ، وان نعلق عليها بما نراه صوابا ، لئلا تشعر الترجمة بأن (المترجم) يستحسن ما ينقله عن المؤلفة فى هذه المواضع بالذات ، وما هو بمستحسنه ، ودفعا لكل لجاجة ، خاوية بغيضة تنشأ عن ذلك .

والكتاب - بعد ذلك كله - يجلو لنا حافظة (المؤلفة) الواعية ، ومعرفتها المستنبطة ، فلقد رسمت لعراقنا ، وأهله ، فى تبويب بيِّن متمايز (صورا قلمية) لما تقع العين عليه فى الغداة والعشي ، كما دونت (خواطر لطيفة) عن رحلات قامت بها ، وما الرحلات الا ضرب من الادب القصصى ، وحاولت ابراز أهم مشكلاتنا المعضلات التى لامست حياتنا العامة ، وسرت فيها أبان زمن تأليف الكتاب ... وما زال قسم منها قائما ، او هو موشك على الزوال .

وختاما ان كل وكدى ان يجيء هذا الكتاب المترجم عن (بلاد الرافدين) صنواً للاصل وندا له ، وأن تكون ترجمته مساهمة متواضعة فى الحركة الفكرية فى جمهوريتنا الخالدة السائرة قدما الى الامام .

والله الموفق الهادى ... وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

بغداد - محلة نجيب باشا

٢٥/٣٩

فؤاد جميل

مقدمة الكتاب

كانت بلاد « ما بين النهرين » او « العراق » على ما سميت به قديما وأعيد اليوم اليها الاسم « المبارك » هذا ـ وما زالت سببا يتخذه نقدة سياسة الحكومة البريطانية ومن يعارض تبديد المال والجهد فيها •

لذا لا معدى من ان ينطوى تأليف كتاب عن هـــذا البلد على فكرة سياسية معينة ، ولهذا يجدر بي ان أبين فى هذه « المقـــدمة » بكل جلاء ووضوح ، اني لم أقصد الى شىء من هذا أبدا ، كما لا أجد فى نفسي القدرة على (نقد) سياسة الحكومة البريطانية ، او سلطاتها المحلية فى العراق ، أو (الدفاع) عن هذه السياسة بالذات •

هـذا وان كتابى يعرض على مواطنيّ طرفا من القضايا المعقـــدة ، «الحكومة العربية الجديدة » فى بحر السياسة المتلاطم • ولقد كتبوا كثيرا عن البلاد هذه ••• ومن كتب عنها لا يعدو ان يكون من المراقبين السطحيين، ولاحظ له من تبصر او كفاية • لذلك ، ليس من وكدى ان اضم الى ما كتب شيئا آخر اعتقد ان أمره يعود الى أهل السياسة ورجال الاقتصاد حصرا •

هـذا وان كتابى يعرض على مواطنيّ طرفا من القضايا المعقـــدة ، والمتباينة تباينا لا حدّ له ولا نهاية • انها قضايا تتصل بحياة شعب فى مقدورنا أن نقرر مصيره • ان ترك البلد لأهله ، بادىء الرأى ، ليس بالامر الهيّن اليسـير •

وفي مؤلفى هذا تناولت الاماكن والحوادث التى عنيت بها على وجه أخص ، او كنت شديدة التوق اليها •

وآمل أن تكون العناية والتوق شركة بينى وبين قراء هذا الكتاب • وقد سبق لى ان كتبت شيئا عن كثير من هذه الموضوعات قبلا ، ولكن هناك زوايا عدة يستطيع الكاتب أن يرى البلد منها • ولعل القصّاص يجدون فيه ،

وفى سكانه ، مادة قيّمة تغذى انتاجهم بوجه لم يسبق اليه أحد من قبل .

لقد شغفت بيتى العراقى حبا ، وشغفت بالعراقيين حبا جما . وعنيت بالاساطير كثيرا ، ولم أعن بالتاريخ الا لماما . وانصرفت بكليتى الى استقصاء عادات العراقيين والخرافات الشائعة فى البلد ، ولم أتناول موضوع السياسة البريطانية او معضلات الحكومة المحلية الا قليلا .

واستميح قرائى عذرا ان رأونى اسير وراء خيالى المنسرح ، فلقد اعتدت على كتابة القصص الخيالية !

ولقد نشر البعض من هذه الفصول ، كليا او جزئيا ، فى الصحف والمجلات ، قبلا ، لذلك اشكر محرريها على تفضلهم بالسماح لى لاعادة طبعها في هذا الكتاب .

كما أشكر من الصميم جميع العراقيين والبريطانيين الذين اسعفونى بما لديهم من معلومات ونقدات ، وأقدر فيهم روح الكرم وحسن الوفادة . ان عونهم السخى هو الذى ساعد على اخراج هذا الكتاب .

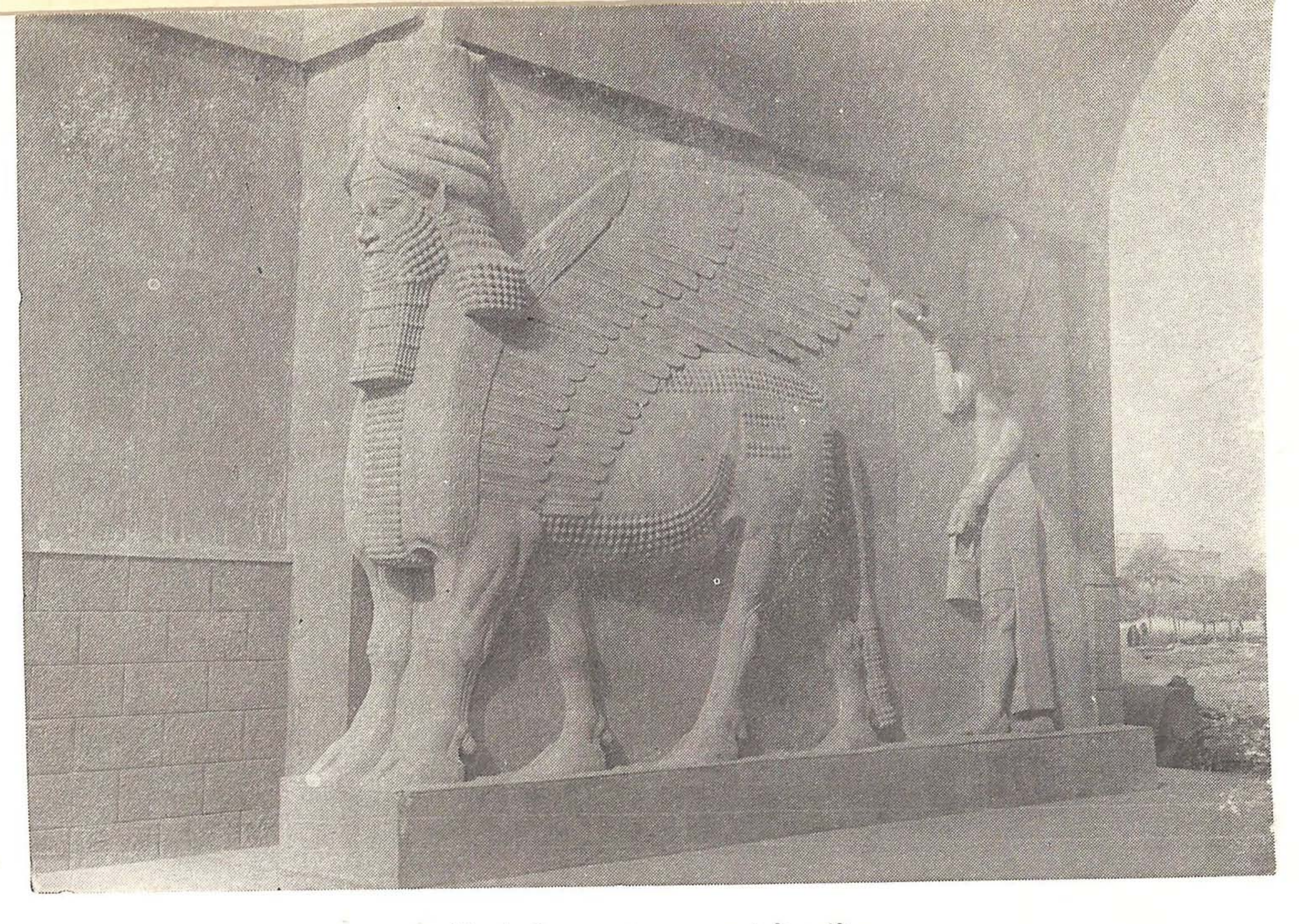
واني لازجى الشكر الى « سر ارنلد ولسن » على اعارة بعض الصور لى ، « وشركة فكتور المحترمة » على مثل ذلك ، و « مستر سى ال . وولى » على ما زودنى من معلومات عن التنقيب فى (اور) .

الباب الاول

مـن

المدن المطمورة في العراق





الثور المجنح ... وصورة الملاك

اكتشفا في العاصمة الآشورية (دور – شروكين) أو (خرساباد) التي شيدها الملك سرجون الثاني في القرن الثامن ق. م. يزينان اليوم البوابة الآشورية لبناية المتحف العراقي الجديد الكائنة في الصالحية (جانب الكرخ) .

أمام الصفحة ٩

الفصل الاول

من

المدن الآشورية[١] المطمورة

« الابتذال مدعاة الاحتقار » ، وعلى ما يقوله المثل[٢] ، فلقــد كانت (نينوى) و (بابل) فيما مضى بعيدتين ، لا سبيل للوصول اليهما ، ولكنهمـــا أصبحتا ، منذ الحرب ، مزارين تشـــد اليهما الرحال الآلاف المؤلفة من البريطانيين . وعلى مياه (بابل) يقضى الناس أوقات نزهاتهم الخلوية ، وعلى أسوار (نينوى) تفرغ كثير من قنانى بيرة (اساهى) ! وفى (نمرود) يعمد كثير من الانكليز الكادين الى تسلية النفس بجعل الثيران ذوات الرؤوس الآدمية هدفا لتصويبهم . وكثير من صبية الاعراب يبتزون المال عن طريق تقليــد الكتابة المسمارية على الآجر وبيعها الى الجنود الذين يعمدون الى ارسالهـا الى صويحباتهم فى الوطن .

وأخيرا ... هذا ملازم فى الجيش ، انه يطيل النظر الى تمثال ملك آشـــورى ، وسرعان ما يهتف : « ان هؤلاء الآشوريين ، لا بد وان يكونوا مرحين كالفقمة العجوز ! » .

---

(١) آشور : اختلف الكتبة فى ضبط هذه اللفظة باختلافهم فى حصر مدلولها ، فقد كتبها بعضهم « أثور » والبعض الآخر « اقور » وجاء المحدثون منهم فكتبوها « أشور » و « آشور » و « آثور » وكل هـــذه الالفاظ تعنى ما اصطلحت عليه الفرنجة فى قولهـــا : (Assyria) أو (Assur) أو (Ashur) وتريد بها المدينة والاقليم المعروفين بهذا الاسم . وأوضــــح (ياقوت) الامر فوصف المدينة بقوله : « ... كانت الموصل قبل تسميتها بهـــذا الاســـم تسمى أثور ، وقيل أقور ، (بالقاف) ـ راجع معجم البلدان ـ مادة أثور .

(٢) انه مثل انكليزى شائع ونصه :

Familiarity breeds contempt.

وليس الخيال بصفة غالبة فى طبع الانكليز ، لذا قد تسمع احدهم يردد بعد جولة نهار كامل فى تلك الخرائب : « يا للخيبة ... ويا لضيعة الوقت ! » .

وهذا هو شأن (نينوى) وسائر المدن الآشورية المطمورة حقا فلو لم تكن لدى المرء معلومات أثرية ، وقليل من لديه مثل هذه المعلومات ـ فلن تستثير اعجابه تلك التلال التى تعلو مدن آشور الميتة الا لماما .

وأول ما يبدد هذا الوهم (نينوى) الواقعة عَبر نهر الموصل . فلقد كانت مدينة عظيمة يقطعها المرء ـ على ما تقول التوراة فى ثلاثة أيام . ومن يسعى حول التلين الباقين اليوم سعيا معتادا يستطيع أن يفرغ منها فى نهار كامل .

ولا بد ان ديودور [٣] الصقلى ـ ولم يعرف فى يوم ما بدقة التحقيق ـ اعتمد على روايات المسافرين عند وصفه ابعاد المدينة الشاسعة .

وجاء ذكر اطلال المدينة العظيمة فى الاناباسيس [٤] (Anabasis) ، وقيل انطول اسوارها المدورة ٦ فراسخ وارتفاعها ١٠٠ قدم ـ لقد سماها زينفون [٥]

---

(٣) ديودور الصقلى (Diodorus Siculus) مؤرخ يونانى ولد فى صقلية وعاش أيام يوليوس قيصر واغسطس ، وتدل كتاباته على انه ساح فى مصر (٦٠ ـ ٥٧ ق . م) وانه قضى سنوات عدة فى روما . ويتألف كتابه التأريخى المسمى (المكتبة التأريخية) من ٤٠ كتابا يعالج فى بعضها الاساطير الآشورية . انه لا يتميز بالعقلية النقادة ، وتتسم كتاباته بالتكرار الكثير وقد يناقض نفسه بنفسه فى بعضها ومن الطريف أنه يحدد اتساع مدينة نينوى بـ ٥٥ ميلا ! بينا لا يزيد اتساعها برأى الثقات المنقبين على ٨ أميال ! (راجع سيرته فى المعلمة البريطانية/الجزء ٧ ص ٣٩٤) (المترجم)

(٤) من مؤلفات المؤرخ اليونانى زينفون (Xenophon) وكان قد أصدره باسم مستعار وفيه وصف دقيق للاماكن التى رحل اليها هذا المؤرخ. (المترجم)

~~(٥) Xenophon زينفون مؤرخ يونانى وكاتب فلسفى ولد فى أثينة فى حوالى~~

(٥) زينفون مؤرخ يونانى وكاتب فلسفى ولد فى أثينة فى حوالى سنة ٤٣٠ ق . م ـ راجع ترجمة حياته وسرد مؤلفاته فى دائرة المعارف البريطانية الجزء ٢٣ (المترجم)

(مسبيلا) ، فلا بد وان تكون هذه (نينوى) بالذات . ان تعبير (مدينة) مرن ، غير محدود ، وان التلين اللذين يقومان شاخصين في السهل الواقع وراء الموصل ، في قوينجق [٦] ونبي يونس لا يمكن ان يضما نينوى [٧] كلها حصرا . انهما يضمان موطن فخرها وقوتها ومقر ملوكها النابهين من امثال سنحاريب ، واسرحدون ، وآشور بانيبال . وحول بناياتها الشامخة ، والمدينة الداخلية التي كانت داخل جدران حصينة وما زالت آثارها باقية حتى اليوم ، خنادق ، وضواحي ، وتحصينات ، وبيوت للفقراء وبساتين ، ودارات ، وقرى ...
وهذه كلها زالت من الوجود منذ أمد بعيد .

وتل قوينجق ، أكبر تلّي نينوى [٨]، اجرد مقفر ، وبه تحققت النبوءة

---

(٦) اسم التل الشمالي من بقايا (نينوى) وهو موضع قصور المدينة ومعابدها واسمه مركب من « كوى ـ انجق » أو « انجيك » ومعناه قرية الانجيك ، وهم قوم من التركمان نزلوا في أطلال نينوى ، فسمي باسمهم . راجع لغة العرب : ٢ : ٥٨
(المترجم)

(٧) عرفت (نينوى) بهذا الاسم لانها كانت موضع عبادة الآلهة نينا آ (Ni-Na-a) منذ أقدم الازمنة . وعرف البابليون هذه الآلهة في جنوبي العراق فكان لها معبد في مدينة الوركاء ، وفي غيرها من المدن . ويكتب اسم هذه المدينة بالعلامة المسمارية الخاصة بكل مدينة ، وداخلها علامة السمكة. فالسمكة كانت تعد من الحيوانات المقربة للآلهة نينا آ ويحتمل ان للفظة نون التي كانت تعني بالآشورية السمكة صلة بهذا الاسم تنحي نحو ما في العربية واللغات السامية الاخرى . وقد اشتق من لفظة نون الاسم العلم بأشكاله : يونان ، ويونس ، وذوالنون ، ولقصة يونان والحوت على ما يظهر، جذور في العقيدة الخاصة بعبادة الآلهة نينا آ التي صارت أيضا لدى الآشوريين الآلهة عشتار وعبدت في نينوى واربيل وغيرها من المدن الآشورية.
راجع : دليل تاريخي على مواطن الآثار في العراق ص ٣٣ ـ ٣٥ .
(المترجم)

(٨) في نينوى تلان كبيران أحدهما يطل على نهر الخوصر ويسمى « تل قوينجق » والثاني وهو أصغر من الاول ويسمى « تل توبة » وعلى سفحه الغربي يقع « جامع النبي يونس » والنبي يونس هو « يونان بن امتاى » أحد أنبياء بني اسرائيل المذكورين في التوراة (انظر سفر يونان ابن امتاى ـ العهد القديم) والمعروف عند المسيحيين « يونس بن متى »

القائلة : ان مصير مدن أشور المنيعة الى ركام وخراب .

والتل الثانى ، نبى يونس ، يقوم على بقايا قصر آشور بانيبال ، وعليه اليوم قرية تركمانية جميلة . ولقد حال دون قيام المنقبين بحفرياتهم فيه ما يعتقده السكان المحليون من أن النبى يونس مقبور تحت المسجد وعلى قمة التل ، وبذلك لم يستطع اى واحد منهم الكشف عما فيه من كنوز ... وعندما احتل جيشنا الموصل ترك التل ولم يمسه بسوء .

وفى الحق ان القبر المنسوب الى النبى يونس ان هو الا قبر رجل دين مسيحى ، ذلك ان كنيسة مسيحية كانت تقوم فوق التل فى يوم من الايام ، وان الجامع يقوم على أنقاض الكنيسة هذه ، ولن يستسيغ القرويون مثل هذا القول ، فالنبى يونس محجة لكثير من الناس ومزاره يدر عليهم المال ، فذهابه فيه القضاء على سبب من اسباب نفوذهم .

ويختلف الامر بالنسبة لتل (قوينجق)[٩] فعندما قام (سر هنرى لايرد) بالتنقيب فيه سنة ١٨٤٥ كان العمل سهلا يسيرا ، واستطاع ان يكشف عما تحته وأخرج السر الدفين ، وظهرت الغرف والابهاء التى بقيت مطمورة

ويعرف أيضا بذى النون واخباره فى القرآن الكريم (سورة يونس والانبياء والصافات والانعام والقلم والنساء) والجامع بني على أنقاض معبد مجوسى بجانب « دير يونان بن امتاى » وتحت الدير عين تعرف بعين يونس أو (دملماجة) وهى ترى بين السورين الداخلى والخارجى لاطلال نينوى من جهة الشرق .
(المترجم)

(٩) أول من باشر فى الحفر فى تل قوينجق هو مسيو بوتا P.E. Botta قنصل فرنسة فى الموصل (١٨٤٢) واستؤنف من قبل سر هنرى لايرد (Sir Austen Henry Layard) وهرمز رسام ، ولوفتوس (W.K. Loftus) وجورج سميث فى أوقات متفاوتة وكنج (١٩٠٤)وطومسن سنة ١٩٢٧ . واكتشفت فيه قصور شلمناصر وسنحاريب واسرحدون وتغلات فلاسر وآشور بانيبال (وهو أعظمها) وهيكل (نبو) أحد الآلهة الآشوريين وخزانة الكتب الملكية التى كانت تتألف من ٣٠ ألف كتاب وقد خزنت فى المتحفة البريطانية ، وهى لا تقدر بمال .
(المترجم)

تحت الثرى امدا طويلا • لقد اخرج منه اثمن كنز استطاع العثور عليه أى عالم بالآشوريات • انه خزانة كتب نينوى التىأسسها الملك المحارب سرجون فى القرن السابع قبل الميلاد والتى زاد فيها خلفاؤه من امثال سنحاريب واسرحدون • والى حفيد سرجون ، آشور بانيبال ، بطل الاساطير ، يرجع الفضل الاكبر فى انماء هذه الخزانة • فلقد كان هذا الملك شغوفا بالعلم والآثار ، وفى عهده تم ايفاد الكتاب الى بابل وآشور لاستنساخ الالواح الطينية الثمينة ، وكتب المعرفة أينما وجدت • ثم جرت ترجمتها الى الآشورية عن الالواح السومرية فلقد اصبحت اللغة السومرية آنئذ لغة ميتة ، لا يستعملها الا رجال الدين حصرا • وكانت خزانة الكتب هذه حسنة التنسيق والترتيب وتضم مؤلفات جمة فى الدين والتاريخ والقواعد ، وعلم النجوم ، والحلول ، والاساطير ، والقانون والالغاز والمزامير والتعليقات وما الى ذلك • وكانت الالواح الطينية التى ينقش عليها الكتاب بالحروف المسمارية (١٠) بعناية بالغة ذات اشكال مختلفة وتتسق مع موضوعاتها ، فكان ظهر البعض منها مدورا ، ومحدودبا ، وجلى ان الاختلاف هذا انما اريد به سهولة التصنيف • وفى الخزانة الواح عجيبة تسرد قصة الطوفان البابلية ، وفيها الواح ملحمة جلجاميش ايضا • وفى مقدور المرء ان يتصور أمين خزانة الكتب هذه ، وهو ملتح وغارق فى العمل فيؤشر هذه اللوحة ، ويصنف تلك ، او يوبخ مساعده على مابدر منه من اهمال فسبب كسر احدى القوائم ، او يقود الزائر الى حيث تتكدس الالواح التى تحتوى على ما يطلبه من معلومات • او قد يراه مصغيا الى عبارات الاطراء والمدح على ما تضمه الخزانة من نفائس ، او لما يتصف به كتابه من علم ودراية • ومن حسن الطالع ان يرعى الخزانة مثل آشور بانيبال نصير العلم وبطل الحرب • ذلك انه اضاف بانماء كتبها فخرا الى فخار شعبه • لقد

---

(١٠) الخط المسمارى : خط تصويرى تشبه علاماته الشكل الجانبى للمسمار ، وقد يسمى (الخط الاسفينى) لان علاماته تشبه أيضا الشكل الجانبى للاسفين •
(المترجم)

خلد اسمه عن طريقها اكثر مما خلده بحروبه الدموية ، او باقامنهامبراطورية عظيمة سرعان ما اخذت تنهار قبيل وفاته •

وعبرنا فى أصيل يوم (دجلة) على جسر من قوارب ثم اتجهنا صوب التلين القائمين فى السهل المترامى ، وتركنا (نبى يونس) ، وهو على اليمين ، وسرنا بمحاذاة (قوينجق) والجدار العظيم الكائن عند اقدام التل ••• الى ان وقفنا فى زاويته الشمالية ـ الشرقية • وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب من وراء الموصل ، وهى ترسل اشعتها اللاهبة على التلال التى تضم الصروح المطمورة • وسار قطيع الغنم فى اثر الراعى وعلى طريق معشب صوب بيته ••• وقد ترى بعض افراد القطيع يتواثب بين الفينة والفينة ، وقديصيب البعض الآخر شيئا من العشب ثم يمضى ••• وسرعان ما هبت الريح من التلال الكردية رخاء نقية • هذا (جبل مقلوب) يقوم شامخا خلفنا ، وهو يلتمع فى نور السماء • ولم نكن لنسمع نأمة انسى فيما خلا نداء الرعاة وثغاء الماشية وهى تتجه صوب الغرب الذهبى • وفى مثل هذا الصمت العميق عسير على المرء ان يصف الحافة المعشوشبة العليا التى كنا نقف عليها بالذات • انها تشبه الجدر التى يخطو عليها الحراس المسلحون وهم يحرسون المدينة العظيمة الزخارة بالحياة والعمل • ولعل الحكام والرؤساء الآشوريين كانوا يدخلون المدينة من ابوابها وهم يرتدون الحلل الفخمة او يمتطون صهوات الخيل المطهمة ••• ولعلهم جميعا من الشبان وقد عادوا محملين بغنائم الحرب ، يسير فى أعقابهم الاسرى فيثيرون النقع • ثم يأتى خلفهم المشاة الملتحون يسيرون بانتظام وهم أشد ما يكونون توقا الى مباهج المدينة العظيمة ، بعدما ابلوا فى الحرب وغابوا عنها امدا طويلا •

ولعل (يونس) لم يكن الا احد الذين ساروا على جدر المدينة العريضة، ولعل الحزن كان يراود نفسه لما يعلمه من مصير المدينة التعسة ، المدينة التى ضمت كثيرا من مواطنيه كأسرى •

وجالت فى خاطرى كلمات نبى آخر .. ولعلها ابلغ وصف لحال المدينة الميتة :

وسيجعل من (نينوى) (١١) قفرا يبابا . (١٢)
وستضطجع القطعان فى قلب المدينة .
وستأوى طيور الغاق والواق الى اسكفاتها (١٣) .

---

(١١) ان نينوى هى العاصمة الثالثة لمملكة آشور أولاها (اشور) (قلعة الشرقاط) وهى أقدمها وتقع أطلالها على الجانب الايمن من نهر دجلة وعلى بعد حوالى ٩ كيلومترات من صوب الشرقاط الحالية ، وثانيتها (كالح) وهى نمرود الحالية وتقع أطلالها على الجانب الايسر من دجلة والى الشمال من (أشور) وعلى بعد حوالى ٣٢ كيلومترا من الموصل وثالثتها أشهر عواصم الامبراطورية (نينوى) وتقع تلولها على مسافة ميل واحد من الموصل على الجانب الايسر من نهر دجلة . أما رابعة العواصم فهى دور شروكين « أى مدينة سركون » وتقع فى قرية خرسباد شمالى شرقى نينوى على بعد حوالى ١٦ كيلومترا منها (راجع الدليل الجغرافى العراقى للدكتور سوسة) . لقد جعل (نينوى) أحد أبناء الملك تيغلات بلاصر ، الوارد ذكره فى التوراة ، عاصمة الامبراطورية (آشور) ١٠٨٠ ق.م وبنى فيها معبد عشتار . وجاء بعده بـ ٤٠٠ سنة الملك سنحاريب الذى شاد فيها مبانى واسعة وحصنها وزرع حولها البساتين وبث فيها من أنواع الحيوان الغريبة وزرع فيها الشجر والورد من مختلف الالوان وعما جاء به من مختلف البلدان التى فتحها . كما انه أدخل فى امبراطوريته زراعة القطن بعد ان جاء به من الهند . وخلف سنحاريب ملوك كثيرون زادوا من عمران المدينة . وسقطت نينوى سنة ٦٠٧ ق. م على يد (الماديين) وساعدهم على ذلك الطوفان (راجع نينوى وخرساباد ـ نشرة مديرية الآثار العامة فى العراق) .
(المترجم)

(١٢) اهتم الاشوريون بالامور الحربية كثيرا لذلك خسروا الايدى العاملة فى الصناعة والزراعة فاضمحلت الدولة ، واهتبلت بابل الفرصة وشقت عليهم عصا الطاعة ثم تبعتها مصر فى هذا المضمار وهكذا لم يمض على موت اشور بانيبال (٦٢٦ ـ قم) مدة طويلة حتى كان الماديون قد اتفقوا وتآزروا معا على خضد شوكة نينوى وكان سقوطها على ايديهم .
(المترجم)

(١٣) الغاق هو (Cormorant) والواق هو (Bittern) فى الانكليزية . والاسكفة (Lintels) وهى عتبة تعلو النافذة أو الباب .
(المترجم)

وستتردد اصواتها فى النوافذ ، وهى تغنى :

ان الدمار والخراب على وصيد الباب !.

وفى نور الغسق الضئيل تجولنا حول قوينجق ، ورأينا فتحات وثقوبا تدل على الاماكن التى اجريت فيها التنقيبات . ولم يخلف (لايرد) وعده الذى قطعه على نفسه للترك فلقد غطى كل ما لم يرَ نقله الى انكلترا بعناية ، وحسنا ما فعل اذ لو لم يفعل ذلك لما بقى شيء منه ابدا . ومن (نينوى) نقل كثير من الطابوق الى الموصل عبر قرون عدة . وما زالت اسوارها تزود ما تتطلبه صيانة جامع النبي يونس الذى تهدم فى الشتاء المنصرم . وزرنا (نبى يونس) فى الصباح . انه يقوم فوق تل مرتفع ، وهو اشبه ما يكون بقرية (تسكانية) ، وفى مقدور المرء ان يشاهد من فوق سقف الجامع (نينوى) وما حولها من سهول وتلال وتتراءى الموصل من هذا المستشرف العالى وكأنها مدينة من المدن التى يرد ذكرها فى قصص الجان .. وانك لتشاهد مرتفعها الشمالى ، وسورها المتهدم ، ومآذنها المائلة ، ونهرها العريض . وفوق سطح الجامع رحب بنا الامام وقدم لنا الشاى فاحتسيناه شاكرين وجلسنا نستمتع بالهواء العذب والمنظر الجميل . ويتكلم سكان القرية بلهجة تركمانية ، وكانت ابصارهم شاخصة الينا وهم لا يستطيعون الى الاسهام فى الحديث سبيلا .

وقادنا مضيفنا بعد فترة الاستجمام هذه الى داخل الجامع . انه بناء منخفض يتضوع فى ارجائه الطيب ، وقد فرش رواقه بالسجاد ... وفى جدرانه كوى قبور وكتابات ملونة . ودخلنا غرفة ثانية مفروشة بالسجاد السميك ، وفى وسطها صندوق خشبى كبير وعليه غطاء مطرز ، وعلى احدى نهايتيه عمامة كبيرة . وخيل لنا ان هذا مرقد النبى ، او بالاحرى القبر الذى يضم جثمان المسيحى الذى حظى بالتقديس خطأ ... ولم يكن هذا بصحيح فالصندوق ، على ما قيل لنا ، يخفى الدرجات المؤدية الى دهليز فيه القبر الحقيقى . ولم يرغبوا فى اطلاعنا عليه ، لذا لم تتح لنا زيارة ما قد يكون اقدم جزء من الجامع ، واكثره أمتاعا .

وفي خارج الجامع آيات قرآنية كتبت بخط لماع جميل ووضعت فى اطارات كمـــا توضع الصور • ففى الشـــرق يُعنى الناس كثيرا بالخط الفنى الجميل • وعلى جدار الغرفة التى تضم المدخل الى القبو علقت قطعـة من سمك الكوسج (١٤) وهم يقسمون غـير حانثين على أنه جزء بقى من الحوت الذى التقم ذا النون •

ومضينا من هذا الحرم المقدس الى المصلّى ، أو الجامع نفسه • وانك لتجد فيه الصخور المنحوتة ملونة ، ومنظرها ساحر ، ولا ســـيما فى الضوء الخافت•والمحراب والمنبر مزينان أيضا• وسجاد الجامع نفيس جدا ، فلقد جرت العادة أن يهدى كل سلطان من سلاطين الاتراك سجادة الى هذا المزار المقدس • وما أن لبسنا الاحذية وهممنا بمغادرة الجامع الا وجاء رجل يسعى وبيده آجرة عليها كتابات مسمارية وهو يروم اطلاعنا عليهـا • انهم يتوقون كثيرا الى اطلاعنا على الكتابات الاثرية (الانتيكة) الموجودة فى المتوظأ ، ويقـع فى باحة صغيرة قريبة • ولقد تبين لنا ان الكتابة سريانية ، وهذا دليل آخر على ان المزار يقوم فى موضع مسيحى الاصل • ولقد أجريت تنقيبات كثيرة فى (نبى يونس) ولكنها لم تجر على عرق من العلم والدراية • وباعة العاديات البغداديون يشترون دورا فى القرية ويقومون بالتنقيب عن الآثار فيها • انهم يبيعون ما يعثرون عليه ؛ ويؤمل ان القوانين الجديدة التى يجرى بحثها الآن وانتى تهدف الى صيانة الآثار القديمة ستحول دون أمثال هـــذا النوع من النهب والسلب •

---

(١٤) فى الاصل (Sword fish) ويسمى ايضا ابو سيف او سياف البحر (معجم الحيوان ـ أمين المعلوف) وهو سمك بحرى له منقار طويل سمى به (معجم شرف) •
(المترجم)

نمـــرود (١)

لو تسنى لشبح (سر هنرى لايرد) أن يجول لغشي (نمرود) قبـل (نينوى) • ذلك ان نمرود ، (كالح) الآشورية القديمة ، هى ميدان أعماله الموفقة • وكانت (كالح) مركزا للحكومة قبل أن تصبح (نينوى) مقر ملوكها• ولدينا كتابات من عهد آشور ناصربال ، ملك آشور فى نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، تفيد ان (كالح) أسست قبل نينوى بـ ٤٠٠ سنة • انها تبعد اليوم عن الموصل بـ ٢٠ ميلا ، وطريقها جيد • ويطيب لى أن أزورها فى الربيع ، ذلك انزهور البرية ، التى تزين الارض فى شهرى نيسان وأيار ، كانت عندما زرتها فى تشرين الاول هشيما[٢] أو ذبلى والمزارع صفراء لما تخلّف عليها من عصف ، أو عشب مصفر •

وكنا نمر بالقرى الواحدة تلو الاخرى وأهلها ناشطون الى دياسـة الحبوب وتذريتها • انها وفيرة هذه السنة ، وقد لا تساوى قيمتها قيمة الجهد

---

(١) تقع أطلالها على الجانب الايسر من نهر دجلة ، والى الشمال من أشور ، وعلى بعد حوالى الـ ٣٢ كيلومترا من الموصـــل • وكانت (نمرود) عاصمة الانبراطورية الآشورية فى خلال القرنين الـ ٨ والـ ٩ قبل الميلاد • وقام (سر هنرى لايرد ١٨٤٠) و(رسام) بالكشف عن قصور ملوكها : آشور بانيبال ، وشلمنصر ، وتيغلات بيلصر فى أواسط القرن التاسع عشر وكشف (لايرد) عن كثير من الآثار التى نقلت الى بريطانيـة حينئـــذ • واستؤنف التنقيب فى المدينة ثانية برئاسة بروفسور مكس ملوان عام ١٩٤٨ فكشف عن معبد الاله نبو ، اله الحكمة والكتابة • كما عثر فيها على مسـلة للملك آشور ناصربال الثانى عليها صورته وهى تدون أعماله العمرانية وفتوحاته العسكرية وتنتهى بوصف الوليمة التى دعا اليها جميع سـكان المدينـة والبالغ عددهم ٠٦٥٠٠٠ وتعتبر الآثار المصنوعة منالعاج والتى اكتشفت فى هذه المدينة من أنفس العاجيات ولا مثيل لها فى متاحف العالم •

وورد ذكر (نمرود) فى التوراة (سـفر التكوين : ١٢) وهى تنسب تأسيسها الى (آشور) بن (سام) ، ولكن ليس لدينا من المعلومات عن المدينـة قبل الملك شلمنصر الذى أراد من وراء بنائهـا أن تـكون نه عاصمة خصبة بدلا من آشور •

(٢) الهشيم : اليابس المتكسر • (المترجم)





مسلة منحوتة تمثل الها (لعله الاله شمش) وأمامه ملك يتعبد · وفى الجزء الاعلى (القرص المشع) ·

أمام الصفحة ١٩

المبذول فى حصادها • وكنا نشاهد قطـارات الابل وهى مثقلة بالحبوب أو بالمحصولات الاخرى ••• انها تمضى صوب الجنوب ويقودها دوما رجـل يركب حمارا • هنا طير الهدهد ، طير سليمان ذو العرف ••• انه يعدو ! وهذا طائر الوروار يتلألأ جسمه فى شعاع الشمس •

وانحرفنا عن الطريق الرئيسى المؤدى الى أربيـل وسرنا بين الحقول حتى بلغنا حافة تل اصطناعى ••• انه آشـــورى ، ما فى ذلك شك • انه يزدهى فى أوائل السنة بزهور البرية ، أما الان فهـو اشبه ما يكون بتـــل محترق اغبر • وهناك ممر يؤدى الى قمته ، وفى اسفله قطع الحجارة مكدسة فى غير نسق ، ولعلها مما كان المتعهدون المحليون يستفيدون منه ، حتى صدر الامر من قبل الادارة البريطانية بمنعهم من ذلك • وما يستطيع المرء ان يشاهده فى نمرود هو اكثر مما فى نينوى• فهناك عدد من الثيران المجنحة ذوات الرؤوس الآدمية ما زالت مطمورة الى النصف فى التراب • وارادت احدى القطعـات العسكرية البريطانية ان تلهو فاخرجت تمثال انسان ، ولـكن التمثال استعيد منها الان • ويمكن استقصاء خطط المدينة ، وهى تدل على ان مساحتها كانت تتراوح بين ٧٠٠٠ ــ ٥٠٠٠ قدم ، ولا شك ان العين المبصرة تســتطيع ان تستشف كثيرا مما تبقى فوق الارض ، أو فوق الكثبان والتلال المتكونة فوقها • ونمرود ، بالنسبة للزائر العابر ، كنينوى لا تعدو ان تكون مدينة ميتة لا حياة فيها !•

آشــــــــور

وتقع آشور على بعد ٤٠ ميلا الى الجنوب وتبعد حوالى ٤ أميـــال عن محطة قلعة الشرقاط • انها ذات مجلى ، ولقد كانت المقر الاول لملوك آشور، مدينة الشباب المحـــارب ، وسميت باســـم الاله الاعظم ، آشـــور ــ اله مواطن الوغى •

ولنتســاءل : من هم الآشـــوريون هؤلاء ؟ انهم أقرب النـــاس الى

الاكاديين[1] فالزعم الشائع اليوم : ان الآشوريين هـــم الاراميون الذين استوطنوا منطقة دجلة الشمالية •

لقد أسروا خلقا عظيما ، وفى الحق انهم كانوا يؤسرون شعوبا برمتها ، وعلى ما ورد فى (التوراة) • وان ساروا الى الفتح استهدفوا النهب ، والسلب ، ولعل هذا هو السبب الذى عجل فى انهيار انبراطوريتهم على الوجه المفجع • ذلك ان ما يملك بحد السيف لا يبقى بقبضة مالكه طويلا • لقد أثبت (كورش) الفارسى ان أقوم سبيل لحكم الشعوب المغلوبة هو تمكينهـــا من الحرية ، واشاعة العدل فيها •

وتقوم بقايا آشور على صخرة شامخة فى سهل ذى زرع ، وخلفهـــا سلسلة جبل حمرين • ولقد بنوا المدينة بالآجر والصخر والمرمر ، وعـــلى غرار مدينة الموصل اليوم • وليس بُدّ من أن تكون المدينة جميلة فى أيامها

---

(١) ان أقدم قوم معروف حل فى ربوع ما بين النهرين وأنشـــأ الدويلات الاولى التى اشتهرت بتنظيماتها الدقيقة فى الاوجه المختلفـــة فى الحياة هم (السومريون) ، لا سيما وانهم تمكنوا من السيطرة على ميـــاه الرافدين مما ساعدهم على عيش مستقر وهيأ لهم الانصراف الى التوسع فى المعارف والعمران • ثم جاء بعدهم (الاكاديون) فساروا على نهجهم ونشـــروا أساليب حضارتهم فى أنحاء العراق والاقطار المجاورة له وذلك بانشـــائهم الامبراطورية الاولى التى عنيت بالتجارة واستتباب الامن والاعمار فى رقعة امتدت الى البحر الاسود وقبرص • ثم حل بعدهم فى الجنوب (ســـلالة أور الثالثة) وما زالت آثارها فى أور والوركاء ونفر • وتبع ذلك ظهور ســـلالة بابل التى اشتهرت بملكها السادس حمورابى صاحب الشريعة ذات الاثر البالغ فى تطور الفكر ونشـــوء الضمير • وفى الوقت الذى كان الجنوب يحارب بعضه بعضا كان الآشوريون قد ظهروا فى الشمال وأخذت مملكتهم تنمو شيئا فشيئا حتى خضع لها الهلال الخصيب وامتد نفوذهـــا فى فترة من الزمن حتى وادى النيل • انها اختفت من مسرح الحياة بسقوط عاصمتهم نينوى عام ٦١٢ على أيدى الماديين الساكنين فى الجبال الشرقية والكلدانيين القاطنين فى بلاد بابل وقد اشتهر من الكلدانيين ملكهم نبوخذنصر الثانى •
راجع : النشـــاط الآثارى فى العراق ــ مديرية الآثار العـــامة فى الجمهورية العراقية •

الغر ... ذلك انها كانت تقوم فوق بحيرة واسعة ترتطم أمواجها بأسوار المدينة نفسها . وكان هناك خزان يملأ البحيرة بالماء ، وما زالت آثاره باقية حتى اليوم . وفي مقدور المرء أن يشاهد الآن المراسى الصخرية التى كان الآشوريون يشدون قواربهم اليها ، وتقوم هذه المراسى فى أسفل تل المعبد .

وليس بد من أن تكون المدينة عامرة بالشجر فى أيامها الزاهرة ، أما وقد انحسر الماء عنها فلا شجر اليوم ، ولكنها ترتدى فى بواكير السنة حلّة خضراء قشيبة ، اى عندما ترتفع سنابل الحبوب فى الارض المعطاء المروية بالديم .

قامت (جمعية الشرق الالمانية) بتنقيبات واسعة فى أطلال المدينة ، ولكن الحرب حالت دون استمرارها بالعمل ، وما زالت الاخاديد ، والانفاق ، وأكوام التراب التى خلفها المنقبون قائمة على جانبى المدينة . هذا وان خطط المدينة من شوارع وأبنية كبرى ومعابد ودور وحصون ظاهرة اليوم بين أكداس الحجارة والطابوق والمرمر .

مدينة تبنى فوق مدينة وعهد يروح وعهد يجيء ... لذا قامت طبقات عديدة يستطيع المرء أن ينفذ منها قبل الوصول الى أول مدينة [illegible] . وكانت (آشور) موجودة أيام الساسانيين ، وفى أيام (الپارثيين) ايضا . وقام الالمان بحفر الاخاديد على مسافة بضعة مئات من الاقدام فاستطاعوا أن يصلوا الى أعمق الطبقات ولم يفلت منهم ، لذلك ، الا القليل . وتمكنوا أن يقتفوا بتنقيباتهم آثار المعابد الآشورية القديمة ، ومنها معبد (آنو وأدداد) كما استطاعوا أن يعرّوا البيوت الواحد تلو الآخر فكشفوا عن فناء كل بيت وما فيه من تنظيم صحى مما يدل على ان الآشوريين شعب نظيف . وبيت كل آشورى هو مقبرته أيضا . وكانوا يضعون الموتى فى توابيت تشبه الجرار ، ويدفنونهم تحت البيوت ، وما زالت هذه العادة متبعة لدى بعض الشعوب الهمجية اليوم .

كثير هذا الذى عثر عليه بين جدارى المدينـــة الداخلى والخارجى ، ومنه شاهد[1] يكشف لنا عن اسطورة سميراميس العاطفية • انها اسطورة ويا للاسف ! فسميراميس شخصية خرافية نصفها الهى ونصفها مما تحفـل به قصص الجان • وفى الحق كانت هناك « سيدة قصر » أو « ســـامورات » هى زوج « شمس عـــداد الخامس » ٨٢٥ – ٨١٠ ق م ، وعندما ترملت وأصبحت وصية على ابنها (عداد نيرارى الرابع) ٨١٠ – ٧٨١ قم تعاظم بأسها فطبعت شخصيتها على الاساطير الذهبية فى العالم كله • ولم يكن ذلك مسببا عن المنجزات الكبرى التى عزاها المؤرخون اليونانيون اليها •

وعلى الشاهد الآشورى المذكور ما يلى :

« نصب تذكار لـ (سامورات) ، سيدة قصر شمشى عداد ، ملك العالم ، وملك آشور ، وأم عداد نيرارى ، ملك العالم ، وملك آشور ، وابنة زوجة شلمنصر ، ملك الجهات الاربع » •

ويتوّج المدينة صرح مدرج شامخ (زقورة) • انه معبد الاله آشور[1] العظيم ويدعى بـ (خارساك – كالكور) أو « البيت الجبلى » •

ولعل هـــذا الصرح المدرج الشـــامخ هو أول ما كان يراه الجنود الآشوريون المتعبون عند عودتهم الى الوطن عبر الســـهول المليئة بمخلفات

---

(١) فى الاصل الانكليزى Stele ، والشـــاهد حجر على قبر أو عمود منصوب عليه نقش او كتابة • (المترجم)

(١) الآله القومى للآشوريين ، ويرجح ان اسمهم مشتق من اسـم هذا الآله • ولم يكن الآله آشور ، مثل الآله مردوخ ، فى بداية الامر بـذى شأن فكان أهل مدينة آشور وحدهم يعبدونه • وبعد ان تدرج الآشوريون فى نموهم السياسى وأسسوا مملكة قوية سيطرت على العـــالم القديم عظم شأن الههم وأصبح على رأس الآلهة البابلية والآشورية • وهو يمثل عادة بانسان يطير بجناحين وبيده القوس والسهم ، والجناحان ينبعثان من قرص الشمس •

راجـــع مقـدمة فى تاريخ الحضـــارة القديمة بقلم طـــه باقر . ص ٢٥٤_٢٥٥ •

المعارك • وبرج المعبد هذا مبنى باللبن ، وهو متراص فيما عدا غرفة تقع فى وسطه ، واليها حفر الالمان النشطون طريقا لهم • وكان ملك الحرب المزهو يتطلع من برجه العالى الى البحيرة والبلد الضاحك • ولو تسلق المرء درجات حفرت على سطحه لرأى المدينة كلها • فهناك عظام بيضـــاء لفحتهـا آلاف السنين ، ومنخفض كان فى يوم من الايام بحيرة ، وهذا نهر دجلة يتلوى ويتـلألأ فى جريه نحو الجنوب ، وعلى مقربة من النهر بنـــاية كانت مقرا للمنقبين الالمان ، انها حسنة البناء وقد استفادوا منها بآخرة فجعلوها مستشفى للجنود البريطانيين المخيمين بجوارها • ويسمى التل الذى بنيت عليه المدينة بـ (جبـــل القمر) ـ وهو اسم على مســـمى ، ذلك ان فوهاته ومنخفضاته وثقوب الحفريات فيـــه تتراءى خلال نصف السنة القاحل ، وكأنهـــا صورة وجه القمر • ان المدينة الميتة أشبه ما تـكون بمقبرة • وعســـير على الانسان ان يتصور ، على الرغم من ذلك ، ما كانت عليه المدينة الأم للشعب الآشورى فى أيامها الغر الزاهرة • ذلك ان برج معبدها ، وحصونها ذوات الابراج كانت تنعكس على صفحة البحيرة ، كما كانت البساتين الفيح تمتـد على حافة الماء ، والريف الخصب يطعمها ابان شهر ايار • انها الموضع الذى كان المحتربون يتشوقون اليه اثر قتال طويل فى البلدان القاصية • أما اليوم : « ان رعاتك ، يا ملك آشور ، نوَّم ، وان سراتك يرقدون تحت التراب » •

الفصل الثانى

من
المدن البابلية المطمورة

بابــــل (١)

شمس ... وسكون ... وخرائب مغبَّرة فيها أكداس مكدسة من كسارة الحجر ، واللبن ، والطابوق ، وكلها تحت صعيد الارض ، تتراءى

(١) تقع خرائب بابل على بعد نحو ٩٠ كيلومترا جنوب بغداد . والاسم السومرى للمدينة هو الصيغة المألوفة (كادنكرا) ، أما الاسم البابلى السامى ، أى « باب ايلو » أو « باب ايلى » فهو ترجمة للصيغة السومرية ، ومعنى الاسم باب الاله أو الآلهة . هناك آثار تدل على وجود مستوطن فى موضع بابل يرجع تاريخه الى عصور ما قبل التاريخ (نحو ٤٠٠٠ ف . م) الا ان اقدم اشارة تاريخية الى المدينة قد جاءتنا من عهد (السلالة الاكدية) فى حدود ٢٣٥٠ ق . م . ولم تصبح بابل ذات شأن سياسى خطير فى تاريخ العراق القديم الا منذ قيام سلالتها الاولى (١٨٨٠-١٥٨٠ ق.م) التى اشتهرت بملكها السادس حمورابى حيث اصبحت عاصمة الانبراطورية التى أسسها . وتتابعت عليها الاحداث الجسام فلقد دك الملك الآشورى سنحاريب ، اثر قيامها بثورة عليه ، حصونها وقصورها (٦٨٩ ق.م) . ثم كانت لها حقبة مجيدة (العهد البابلى الاخير) ٦٢٥٠-٥٣٨ ق . م ، ولا سيما ابان حكم الملك الشهير (نبوخذنصر الثانى ٦٠٤-٥٦٢ ق . م) والذى يصح أن نقول انه أعاد بناءها من جديد ولا سيما قصورها ومعابدها وهى التى حققها المنقبون الالمان فى خلال الـ ١٤ عاما فى بداية هذا القرن . وانك لتجد بقايا الآجر المختوم باسمه منتشرة فى خرائب المدن القديمة . ودخلت بابل ومعها جميع القطر تحت حكم الفرس (الاخمينيين) بعد ان غزاها (كورش) ٥٣٨ ق . م وبقيت بابل على أهميتها ابان هذا العهد ، ثم أخذت تفقد هذه الاهمية منذ العهد السلوقى بتأسيس العاصمة الجديدة (سلوقية) الا انها استمرت كمستوطن الى العهود الاسلامية .

(راجع « بابل وبورسبا » بقلم طه باقر) .

وكأن من بناها حفر أساس المدينة وفر هاربا ... تاركا وراءه ذلك كله .
هــذه هى بابل « تلك المدينة العظيمــة » وانك لتسمع تغريد القنبرة فوق صحرائها المترامية ، او ترى (نمسا)[1] يتشوّف من جحر ، أو ابن آوى يولي هاربا ، أو قد تشاهد ذعرات الماء[2] تنساب رافعة ذيولها بين الاعشاب النابتة فى الحفر القريبة من تلك الارض الشاسـعة والتى يزعم الالمان أن (برج بابل) العظيم كان يقوم فيها شاخصا نحو السماء . لقد أسموه (ايتومين آنكى)[3] ومعناه « البيت الذى هو الحجر الاساسى للارض والسماء ، على حد ســواء » .

سكون شامل ، وعزلة ... وحيوانات صحراوية صغار ... وتراب لفحته أشعة الشمس . ولو جهل الانسان طريق بابل وقصدها بالسيارة من بغداد ، مثلا ، فقد يحسب ان تلك المرتفعات الدالة على مجارى المياه القديمة هى ما تبقى من أسوار المدينة العظيمة ، وذلك قبل أن يصلها بمسافة طويلة . وحدث مثل هذا لى ، وكلما حاولت السؤال من أحد الرعاة عن الطريق

---

(١) فى الاصــل Monsters والنمس حيوان لاحم آكــدر اللون أحمر العينين قصير القوائم طويل الجسم والذنب ولعله سمي بالنمس لانه أنمس أى أكدر . والنمس الفارسى موطنه العراق وايران ، واسمه فى العراق (جريدى النخل) أو (أبو العرس) حسب رواية الكرملى (راجع معجم الحيوان لامين المعلوف) . (المترجم)

(٢) فى الاصل Water Wagtails ومفردها ذعره وهى (الزيطة) بلغة العوام فى العراق . (المترجم)

(٣) (أى ــ تمن ــ آن ــ كى) اسم صرح بابل الشهير اى (الزقورة) ، ويقع الى الشمال من ايساكالا بقليل . وكان عبارة عن حارة ضخمة مقدسة يعلوها الصرح المدرج ويحيط بها سور عظيــم . وكان يرقى الى الصــرح بمجموعة من السلالم عددها ٣ ، سلم وسطى وسلمان جانبيان . وللبنــاية المقدسة هذه مداخل متعددة من الخارج . وقاعدة الزقورة مربعة (٩١ر٥٥ × ٩١ر٥٥) مترا = ٣٠٠ قدما) .

راجع : (بابل وبورسبا بقلم طه باقر ص ٩) . (المترجم)

المؤدى الى بابل ، أو أستفسر كم بقى من الوقت للوصول اليها وجدت المسؤول يجمع أطراف ثوبه ويولّي هاربا ، وكأنه يفر من السيارة فراره من الشيطان • وصادفت أحدهم وهو يمشى الهوينا أمام قطيعه ، وما ان سألته نفس السؤال الا ونظر اليّ باستغراب ، لقد اكتشفت بعد ذلك انه لم يفر كأمثاله ويركض أمام الصوت الذى أحدثه تقربنا منه ، لكونه مصابا بالصمم والخرس !!

فان وصل المرء (بابل) على كل حال ، فلن يضل بين معالمها الباقية • فالتلال فيها متميزة عن السهل ، وسرعان ما يجد نفسه واقفا فى وسط الاحافير • وزرت بابل ، بعد زيارتى الاولى ، مرات عدة ، وكنت فى كل مرة وحيدة ••• واننى لست بناسية الخيال السحرى الذى غمرنى لدى رؤيتى « المدينة المنعزلة » أول مرة ، والغداء الذى تناولناه على قمة احدى رباها وقد تناثرت هنا وهناك قطع الآجر تحمل اسم « نبوخذنصر » العظيم مكتوبا بالخط المسمارى • ولم تكن تلك الرابية الا آساس قصره الحصين ، وفى مقدور المرء ان يشاهد من فوقها المدينة كلها وكأنها خارطة نشرت تحته • كنا نجلس على أرض معشبة فوق قمة الرابية ، وعلى مقربة منا خروف أسود كثيف الشعر عنيد يقتات على ذلك العشب ، ولا يريم ! وكان لنا أن نجلس ههنا ونفتح صفحات كتبنا • ان (كولديوى) و (ماسبيرو) يقومان بتعيين مواقع الربى على الخريطة وبيان تاريخ هذه المدينة العظيمة التى كانت تترامى تحت المكان الذى نجلس عليه •

وبابل ، بالنسبة لمدينة آشور الشمالية مدينة محدثة[1] وهى أشد عصامية من (أور) الجنوبية • لقد نبه شأنها فى حوالى الـ ٢٢٠٠ سنة ق م ، وذلك عندما حررها الملك حمورابى ، وهو من ألمع شخصيات التاريخ العالمى ،

---

(١) فى الاصل Parvenu والمحدث هو العصامى أو حديث النعمة .
(المترجم)

من الغزاة العيلاميين ، وشيّد امبراطوريته على أساس من الرخاء والسلام . وبعد ٥٠٠ سنة من حكمه شهد العالم بلاد الرافدين متحدة يزدهر فيها الفن ، وتنشط فيها الحياة الزراعية ، وأصبحت بابل التى لم ينبه لها شأن الا قبل أربعة أجيال فقط قلب الامبراطورية ، ومعين الوحي فيها . ودأبت المدينة على هذا الحال ، وان غزيت فى فترات وخضعت لحكم الآشوريين ، ثم كان خرابها فى أيام السلوقيين .

وكان معبد مردوخ (بعـل) المركز الرئيسى فى أرض بابل . ففيه (شارع الموكب)[٢] ،وكانت تحمل الآلهة وتمر منه ، وكان الملوك ينفذون منه ليؤدوا الصلاة أمام مذابح المعبدين العظيمين : (مردوخ)[١] ونينماخ[٢] ولعل هذا الشارع ذا الشهرة العالمية أشبه ما يكون بشارع (فيغث افينو) Fifth Avenue أو (بيكادللى) اليوم اذ ان الذى كان يهمس به أهل بابل فى يوم ما سرعان ما يسرى الى أهل العالم كله فيناقل الحديث عنه بعضهم بعضا . ولقد كانت بابل مركز التجارة والفن والادب ، وكرسى الحضارة فى الدنيا كلها .

---

(٢) اسمه القديم « اى ـ يبور ـ شابو » ومعناه « لن يعبر الاعداء » وكانت تمر فيه تماثيل الالهة على هيئة موكب من معبد الاله مردوخ فى أثناء عيد رأس السنة البابلية (بين آذار ـ ونيسان) فتمر أولا فى باب فخم هو باب عشتار ومن ثم تسير فى الشارع شمالا الى موضع خاص هو معبد خصص للاحتفال بهذا العيد ، ويقع على مقربة من النهر (المترجم)

(١) هو معبد ايساكلا ، وهو المعبد الرئيسى بين معابد المدينة ، ومعنى اسمه السومرى (البيت الرفيع) وقد خصص هذا المعبد لعبادة الاله مردوخ كبير الآلهة البابلية والذى عظم شأنه منذ قيام سلالة بابل الاولى .. ولقد وصفه (هيرودتس) فى رحلته وبين ما فيه من تماثيل من ذهب صنعت للالهة . (المترجم)

(٢) معبد خصص لعبادة الآلهة « نن ماخ » واسمه « اى ـ ماخ » وموضعه لصق باب عشتار .

(راجع بابل وبورسبا بقلم طه باقر ص ٥) .

سبق لى القول ان بابل بقيت على نباهة شأنها ابان حكم الآشوريين . وعندما مات آشور بانيبال العظيم فى حوالى سنة ٦٤٠ ق‌م كان الخطر محدقا بالانبراطورية ، ومجدها يوشك أن ينهار . وتم تدمير المدينة كلها . ان هجمات البرابرة الشماليين على مملكتى بابل وآشور أضعفت من شأنهما فأصبحتا فى المرتبة الثانية . وعندما استعادتا شأنهما الاول كانت القيادة ، ابان زمن يمور بالاضطراب والقلق ، للقائد الكلدانى (نبوبولاسر)[1] البابلى . واندلعت نيران العداء بين الدولتين كرة أخرى ، وقام (نبوبولاسر) ، يعاونه ملك مادى اسمه كى اخسار Cyaxeres بمحاصرة مدينة نينوى ، واستولى عليها سنة ٦٠٧ اثر مقاومة دامت سنتين . لقد أصبحت نينوى اثر ذلك أثرا بعد عين . لقد كانت المدينة عاصمة انبراطورية عسكرية عظيمة ومن عواصم التاريخ ، فأصبحت فى حكم العدم . واقتسمت الدولتان المتحالفتان الانبراطورية الآشورية ، فاستولى الماديون على (آشور) واستولى (نبوبولاسر) على (سومر) أو أرض العراق نفسه ، وعلى عاصمتها (بابل) بطبيعة الحال . ان جلّ ما بقى من بابل كخرائب اليوم ان هو الا بقايا الآثار التى تخلفت عن الانبراطورية الجديدة .

وسادت الغوغائية ذلك العصر . فالآشورى جندى ، ومهما بلغ من الطيش ففيه شيء من صفات السيد الماجد المهذب[2] . ولكن الانبراطورية البابلية الجديدة التى بقيت مزدهرة لـ ٧٠ سنة لم تسلم من طغيان الجلبة والصخب . ومن العسير أن ينسى المرء (نبوخذنصر البابلى) عسر نسيانه

---

(١) انه من السلالة الكلدانية (٦١٢ـ٥٣٨ ق‌م) التى حكمت بابل فى عهودها الاخيرة . وهذا الملك ، وابنه « نبوخذ نصر » العظيم (٦٠٤ـ٥٦٢) معروفان فى التاريخ بالعمران وآثارهما تدل عليهما ولا سيما ما بقى منهما فى بابل وبورسبا .
(المترجم)

(٢) فى الاصل Gentleman وكل من (السيد) أو (الماجد) أو (المهذب) و (الظريف) تصح ترجمة لها
(المترجم)

(رعمسيس الثاني المصري) • والثاني عرف بشدة الانانية بينما لم يكلف الاول بالدعاية لنفسه • وفي الحق ان هـذا الملك وأباه وجـدا كثيرا من البنايات المتهدمة فشمرا عن ساعد الجد وبنى كل منهما بنايات جديدة محلها •

وانك لتجد اسم نبوخذنصر مكتوبا بوضوح وبالخط المسماري على ما يعثر عليه المرء اليوم من آجر ، ان تجول بين خرائب المدينة •

وطّن نبوخذنصر النفس على تخليد اسـمه في التاريخ الى الابد ، ونجح في ذلك • ولقد ورث هذا الملك عرش أبيه في حوالي سنة ٦٠٥ ق.م وبلغت بابل أبان حكمه قمة المجد • وكان الحظ دوما حليفا له ، كما كان أبوه سديد الرأي وشجاعا في حومة الوغى • وأقام الاب تحالفه مـع جاره الطموح الثائر كي اخسار Cyaxeres المادى على أساس من المصاهرة ، فزوّج ابنه من الاميرة المادية (اميتس) ، ولكي يحفظ ميزان القوى جعل من نفسه وسيطا بين (ليديا) المملكة الزاهرة وبين (مادى) وذلك عنـدما نشبت الحرب بين المملكتين • ثم حلّ السلم بينهما اثر زواج الاميرة الليدية من ابن كي اخســار Cyaxeres وبذلك تكوّن حلف ثلاثي من (مـادى) و (ليديا) و (بابل) ، وكل طرف فيـه شديد الأيد ، ويسـاوره الشـك في الآخر • ولم يحل السـلم بين الاطراف الا سـياسـيا • ومن حسن حظ (نبوخذنصر) ان ابن كي اخسار Cyaxeres عند تولّيه العرش لم يحذو حذو أبيه في حب الحرب والقتال • ولكن نبوخذنصر لم ينس نصائح أبيه ، على الرغم من قيام التحالف ، فبنى حصونا دفاعية منيعة ما زالت آثارها باقيـة على طريق السكة الحديد بين سامراء وبغداد • ثم انه شـق قنوات الري وجعلها بشكل يمكن أن تغمر البلاد كلها بالماء عند تعرضها للغزو • كما انه حصّن سبار Sippar [1] وهي ثغر في أقصى حدود انبراطوريته البابلية شمالا • انه لم يكلف بالفتح ولم يجعله شغلا شاغلا له • ولقـد جرّد ابان

---

(١) وتعرف أطلالها الآن (أبو حبة) المترجم

حكمه الذى استمر ٤٣ سنة حملات على (مصر) وغيرها وكان القصد الاول منها تدعيم نظام حكمه فى الداخل • وكأنه كان يشعر بمصير بلاده اثر وفاته وحاول أن يجنبها المصير المحتوم ما استطاع الى ذلك سبيلا • وكان شـــديد التصميم على أن يجعل من (بابل) مدينة جميلة منيعة •

« ألم اشيد بما لديّ من حول وقوة بابل العظيمة هـذه لتكون المقر الملكى ومفخرة لي ـ أنا صاحب الجلالة » •

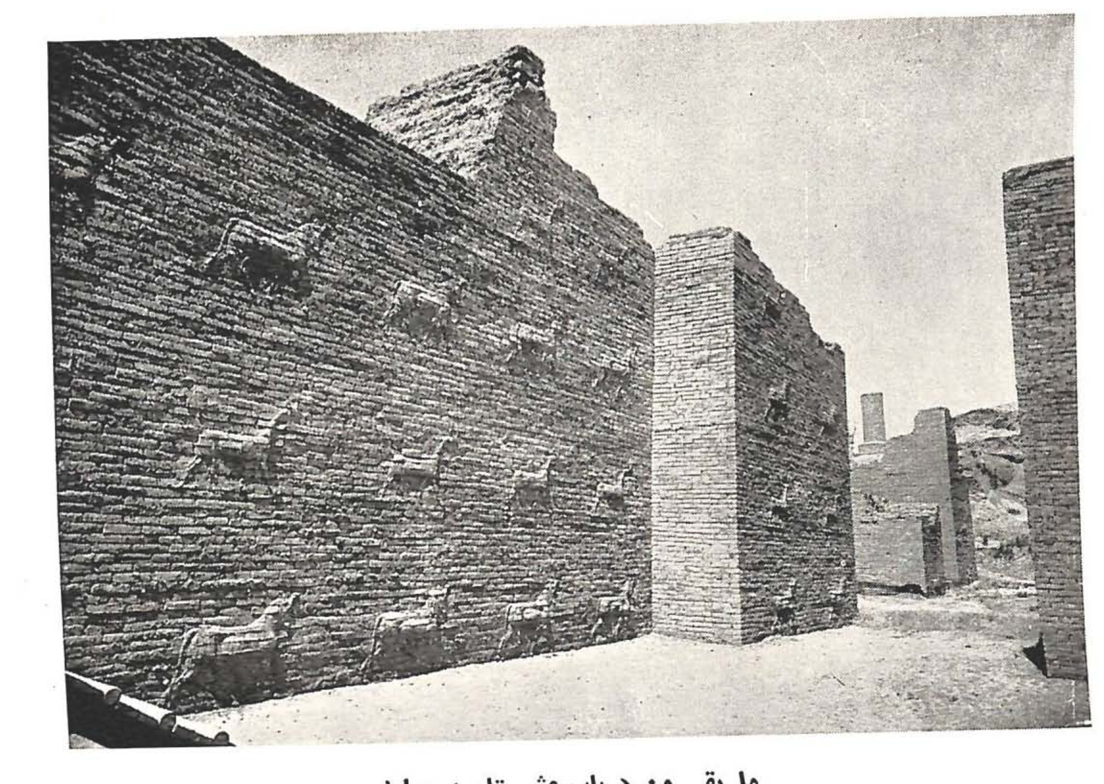
ولكن ، ما الذى بقى للرائى المستطلع اليوم من هذه المدينة الملكية ؟•

للالمان الفضل الاكبر فيما جرى من تنقيب فى خرائبها • ولقد استمرت حفرياتهم برئاسة الدكتور روبرت كولديوى [١] ، وهو رجل عرف بالصبر والعناية منذ سنة ١٨٩٩ حتى الحرب العالمية • وعندما فر الالمـان اصطحبوا معهم من الآثار أكثر ما استطاعوا الى حمله سبيلا • كما انهم خزنوا الباقى فى (المَضَافة rest — house) التى كانوا يحلّون فيهـا ، وهو اليوم مخزون فى غرفة خاصة سـدت بالآجر • ان ذلك كله لم يتم الا مع شـئ كبير من الاضرار ، ذلك ان كثيرا من مجموعة العاديات هذه نهبت من قبل البريطانيين والعرب على حد سواء • ولقد أعلمنى أحد الضباط انه حضر فى الوقت اللازم لينقذ قطعا نفيسة من باب عشتار كانوا على وشك نقلها • لقد هيأوا عربة وكان السراق فى سبيل سحب القطعة من مكانها • وعندما رحل الالمان كان كثير من القرميد المموه ، زينة الاماكن العامة فى يومها ، موجودا ، أما الآن فلم يبق منه شئ • وسيطرت السلطات البريطانية على الوضع بطبيعة الحال ،

---

(١) أشرف(الدكتور كولديوى) على الحفريات فى اطلال بابلوانحصرت فى التل المسمى ب (القصـــر) وهو حصن بناه (نبوبولاصـــر) ووسعه نجله (نبوخذ نصر) والتل المسمى ب (عمران) والواقع جنوبى الاطلال الثلاثة التى تشغل موضع المدينة • لقد تبين أنه انقاض المعبد المشهور (تى راج ايلا) أو البيت السامى المقام المرصود لمردوخ اله البابليين الكبير وسيد الالهة البابلية قاطبة لذلك استخرجت أسس القصر كافة وفحصت مئات من الغرف التى يحتوى عليها ودرست كل مادة وجدت فيها دراسة فنية دقيقة (المترجم)





ما بقي من (باب عشـتار) ببابل
انه من بقايا عهد الملك نبوخذنصر الثانى (القرن السادس قبل الميلاد).
تزين الجدران صفوف من الحيوانات الناتئة :

أمام الصفحة ٣١

ولكن ذلك تم بعد حدوث كثير من الاعمال البربرية • وأهم الربى (رابية النصر) وفيها باب عشتار الشهير الذى كان يزدان بالثيران ، والحيوانات الخرافية كالتنين، والاسود الملونة بالالوان : الزرقاء ، والصفراء ، والبيضاء ، نتاج الصناع البابليين النابهين • لم تبق اليوم منها قرميدة واحدة ![1] أما الآجر فما زال الحفر عليه ظاهرا ، وعليه أوجه وشكول عدة تمثل حيوانات مختلفة وهولات[2] Monsters ، وهى دقيقة الصنعة ، متقنة الصقلة • ويقال ان الباب كانت مزخرفة بمئات من صور المخلوقات هذه ، والمموه منها ما كان يعلو الارض • ذلك ان قسما منها كان تحت صعيد الارض ، وعلى غرار البيوت الحالية فى العراق[3] ، حيث يبنى قسم من البيت تحت الارض اتقاء الحرارة • وهذا القسم هو كل ما تبقى من الباب اليوم • وفى هذا

---

(١) وفقت مديرية الاثار العامة خلال عمليات الصيانة الاثرية فى بابل فى أوائل عام ١٩٥٩ الى العثور على كمية كبيرة من كسارة الاجر المزجج بالالوان وصنعت منها أسدا كاملا من الاسود التى كانت تزين شارع الموكب وهى الآن معروضة فى متحفة بابل • — المترجم —

(٢) ترينا خطط الدور اطرادا فى شكلها وتصاميمها ، فهى تشبه بوجه أساسى البيت الشرقى ببغداد اليوم ، فقوامه ساحة تحيط بها حجرات ومرافق اخرى • كانت الشوارع منظمة ومستقيمة وتقاطعها بزاوية قائمة تقريبا ، وقد وصفها هيرودوتس أدق وصف • — المترجم —

(٣) يتمكن الزائر أن يشاهد اليوم نحو ١٥٢ صورة من الحيوانات البارزة غير الملونة على جدران باب عشتار ، (وكانت جدران شارع الموكب الملاصق لباب عشتار مزينة بالآجر المموه بالميناء وبصور بارزة للاسود ، ويوجد نموذج من ذلك فى كل من متحفه بابل والمتحفة العراقية وهى تأتلف من صف من الثيران فوقها صف من صور الحيوان الخرافى (التنين) وهو حيوان مركب كانوا يعدونه خاصا بالاله مردوخ، ثم صف آخر من الثيران • أما الثور فكان الحيوان المقدس الخاص بالاله (ادد) اله الامطار والرعود والبروق ويشاهد الزائر ان باب عشتار عبارة عن باب مضاعف (بابين) لان جدارى السور الداخلى كانا يمران منه ، وعلى جانبيه أبراج فخمة أعدت للدفاع عن المدينة • (المترجم)

الموضع بالذات « شارع الموكب » وقد فرشت أرضه بالحجارة ، والكلس والمرمر ، وثبتت بالقار . ولو مر المسافر في زمان (هيرودوتس) من باب عشتار الجميل ، وجاوز (معبد نينماخ) حيث تؤدى النسوة صلاتهن الى (السيدة) لشاهد مَهيَع المواكب(١) الذى يؤدى الى معبد (مردوخ) ذى الصرح المدرج الـ (زقورة) الشاخص في السماء ، مارا في طريقه بالجنائن المعلقة، والبنايات العامة .

وكانت الآلهة العظمى تحمل ، وتمر مواكبها من هذا الطريق المقدس، ولم يكن ليسمح لوسائط النقل الاعتيادية أن تمر عليه ، اذ أن المرور منه مقصور على المشاة . وتحمل صورة (بعل) مرة فى السنة ، ويمر حاملوها من هذا الشارع أيضا ، انهم يمضون به ليزور ابنه (نبو)(٢) في مشارف مدينة (بورسبا) وحيث يقوم للابن هذا صرح مدرج آخر (زقورة) وكأنه معلمة في ذلك السهل الواسع . ان الصرح هذا اليوم خرائب وآكام عليها وآثار اشتعال النار . واستمرت (بابل) تابعة للفرس اثر سقوطها ودأبت على ممارسة شعائرها وطقوسها هذه ، فكانت الآلهة تحمل وتنقل على الطريق المقدس كل سنة ، وكان الملك العظيم الذى يؤمن بعقيدة سامية يقدم القرابين الى الالهين (مردوخ) و (نبو) بسخاء ، وبذلك كان ينال شكر الكهان البابليين وولاءهم . وفي مقدور المرء أن يسير اليوم فى (الطريق المقدس) ويقف عند معبد (نينماخ) المتهدم . انه يظهر مخطط المعبد العتيق بجلاء ووضوح ، وما زال قسم من جدرانه قائما اليوم . وهذه المعابد جميعا مبنية باللبن ، ومعنى ذلك ان العصر الذى بنيت فيه لم يتسم بدقة الصنعة ... والدين

---

(١) المهيع – الطريق الواسع الظاهر .

(٢) اله الحكمة والمعرفة عند قدماء العراقيين وسمي معبده فى بورسبا (اى زيدا) أى المكان المكين . و (نبو) جذر فى الاكدية يعنى دعا وأخبر ، وكلمة النبى في العربية، وفي العبرية (نابئي) ، بحسب اشتقاقها اللغوى، تعنى المبلغ وهى من نفس الجذر السامى المذكور .
(المترجم)

محافظ بطبعه ، كما لا يخفى .

و (القصر) يقع على اليمين ، وكان يضم البنايات الحكومية فى عهد (نبوخذنصر) ، وهو اليوم أكداس مكدسة من الجدران ، والآجر والآساس. ويزعم الالمان ان مايشاهد فيه اليوم هو بقايا الآثار المقامة على أروقة ، كانت آساسا للجنائن المعلقة المشهورة[١] : فالظاهر ان الاروقة شيدت لتحمل أحمالا ثقالا ، ولقد وجدت بعض الانابيب التى لا معدى من أن تكون موصولة بآلة لرفع الماء ، وهى منصوبة على الفرات لتسقى ذلك المتنزه الوسيع ، ولم تكن الجنائن المعلقة لتدهش العقل البابلى ، ذلك ان المعبد الذى يتخذ شكل صرح مدرج (زقورة) أو (المقام العالى) الوارد ذكره فى (التوراة) - شيء عرفه سكان (سومر) و(أكد) كما كان علماء هؤلاء القوم يرصدون الاجرام السماوية من فوق هذه التلال الاصطناعية . فالجنينة المعلقة لا تعدو أن تكون تطورا طبيعيا للفكرة الاصلية .

وفى القصر ، وعلى صعيد (طريق المواكب) آثار قاعة واسعة مبلطة . ان مخططها ظاهر اليوم وان لم يبق منها جدار. ويذكر (بروفسور كولديوى) فى كتابه أبعاد القاعة واستعمالاتها المحتملة .

ومن يتوق لاستكناه الاماكن الوارد ذكرها فى (الكتاب المقدس) يجد

---

(١) وجد المنقبون بقايا بناء غريب يتألف من ١٤ حجرة متشابهة فى شكلها وحجمها ، كل سبعة منها على جانب من ممر أو رواق ويحيط بها جدار قوى ثخين .. كما وجدوا فى احدى الحجرات بئرا تختلف عما هو مألوف من أنواع الآبار ، فلها ٣ حفر بعضها بجانب بعض : حفرة مربعة فى الوسط وحفرتان مستطيلتان على الجانبين وقد فسر المنقبون هذه البناية بما فيها من ممرات وحجرات معقودة والبئر بانها موضع الجنائن المعلقة المشهورة التى عدت من عجائب الدنيا السبع ، أما العجائب الست الباقية فهى : اهرام مصر - فنار الاسكندرية - معبد الآلهة ارطميس (ديانا) فى مدينة رمسيس (آسيا الصغرى) - تمثال الآله (زوس) أو (جويتر) للنحات اليونانى الشهير فيدياس - الناووس الفخم فى هليكارناسوس آسيا الصغرى - التمثال الضخم فى جزيرة رودس
(المترجم)

طلبته فى (قاعة المآدب) لـ (بيلشاصر) حيث تجد آثار (اليد)[1] على الجدار وهناك من يتصور الموقع المحتمل للعرين الذى ألقى فيه دانيال، والاسد الذى كان بمقربة منه • انها مجموعة عجيبة من التماثيل[2] أخرجهـا المنقبون من جوف الارض ووضعوها قرب باب عشتار • وبقرب هـذه البقعة تقوم جدران القلعة الداخلية ، ويظهر انهم كانوا يضعون الاسود فى الخندق المائى المحيط بها • انى لست بأثرية لكى أبدى رأيا فى الموضوع ، ومن الممتع أن تداعب النظريات هذه خيال المرء •

وان ذهبت الى (تل عمران) مارا بـ (تل المركز) ، فستجد ان الارض هناك أقوى وأصلب ، وعليها آثار وركام كثير من البيوت الخاصة • ذلك أن (بابل) كانت محاطة بأحياء فقيرة تسكنها العامة، وبيوتها مبنية بالطين فهى تشبه بيوت الاعراب اليوم • ان اللبن الذى بُنيت به تلك البيوت أصبح ، ببقائه مدة طويلة فى جوف الارض ، ترابا ، وعلى غرار أجداث أصحاب تلك البيوت •

كان نبوخذنصر سديد الفكر ، بعيـد النظر ، شـاعرا بخطر الغزو والحصار دوما ؛ لذلك جعل أسـوار المدينة تحيط بأرض زراعيـة ، فلو حوصرت من قبل الغزاة لما حال ذلك دون قيام أهلها بزراعة الارض وسـد

---

(١) تقول التوراة (دانيال ١٠٥ ـ ٩) ان الملك (بيلشاصر) ـ الذى عهد اليه أبوه (نبونهيد) ادارة المملكة لانشغال الاب بالبحوث التاريخيـة وأفول شمس الحضارة البابلية ـ هو الذى رأى (الكتابة على الحائط) ذلك ان هـذا الملك كان فى وليمة خمر فظهرت أصابع يد انسان وكتبت بأزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك ، والملك ينظر الى طرف اليد الكاتبة • فخاف الملك ، ولما لم يستطع أحد من كهنته ومنجميه أن يفسر الكتابة التى نصهـا (منا منا تقبل وفرسين) احضر اليه دانيال الذى فسرها على الوجه الآتى :

(منا : أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، وتقبل : وزنت بالموازين فوجـدت ناقصا ، وفرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس) •

(المترجم)

(٢) أسد يقف على تمثال رجل صريع • (المؤلفة)



أسـد بابل

(يرمز الى انتصار البابليين على أعدائهم)

أمام الصفحة ٣٤



حاجتهم من القوت . وكان سور المدينة عظيما ، انه نطاق (مدينــة المدن) ، مدينة نبوخذنصر ، وفى مقدور عربة تجرها ٤ خيول أن تسـير فوقه بيسر ورخــــاء .

وفى (عمران) - وهى ليست ببعيدة اليوم عن مسجد صغير حديث[١] - كل ما يمكن أن يشاهد من آثار معبد مردوخ . انها لا تعدو أن تكون ركاما ، وبعض الجدران الطينية أيضا . واستطاع الالمان أن يقتفوا آثار مخطط المعبد وأبعاده وأن يعثروا على ممرات سرية تؤدى اليه . وما زال الجانب الاعظم منه مدفونا تحت صعيد الارض بنحو من ٧٠ قدما . وفيــه جلس قوّاد جيش الاسكندر يتشاورون اثر موته ... وفيه ، قبل ذلك بأمد بعيـد ، أقام الملك حمورابى مسلة دوّنت عليها شريعته[٢] ليطلع الناس جميعا على حقوقهم .

---

(١) هو مرقد (عمران بن على) (المترجم)

(٢) وجدت فى العراق منذ أقدم عهوده أعراف وأصول قانونية قبل أن يجمع حمورابى شريعته المشهورة ، وكانت هذه القوانين السابقة مصادر مهمة لتقنين شريعته ، فأخذ منها بعد التعديل والتغيير . ولكن مع ذلك تعد شريعة حمورابى أنظم وأكمل شريعة فى تاريخ الحضارات القديمة . لقد جمع حمورابى نصوص شريعته فى السنوات الاخيرة من حكمه وذلك بعد انقضى على خصومه العيلاميين ووحد مملكته ومد فتوحاته الى خارج العراق ، فرأى من بعد ذلك ضرورة لاصدار شريعة موحدة تسرى على جميع أنحاء المملكة الكبيرة الموحدة . كتب حمورابى شريعته باللغة الاكدية (السامية) ورتبها ترتيبـا متقنا ، وقد نقشها على مســلة من الحجر الاســـود (حجر الديوريت) يبلغ ارتفاعها ٨ أقدام وقطرها قدمين . وقد نقش فى أعلى المسلة صورة بالنحت البارز تمثل الاله - الشمس (شمش) وهو اله العدل جالســا على عرشــه وحمورابى واقفا بحضرته وقفة المتعبد الخاشع ، رمز تفويض الاله وتسلمه الشرائع المقدسة منه (أو انه بتفسير آخر يقـدم شـريعته الى ذلك الاله) . ويرجح كثيرا ان حمورابى قد وضع مسلة الشريعة هذه فى عاصمته بابل فى موضع مقدس منها لعله فى (ايساكلا) معبد الاله مردوخ ليرجع اليها الناس . وقد بقيت المسلة فى بابل بعد حمورابى أزمانا طويلة ، وتوجد دلائل تشير الى ان المشتغلين بشؤون القانون والكتب قد استنسخوا عنها كثيرا من المواد والنصوص ليستعملوها فى اشتغالهم بشؤون القانون . والمسلة المنقوشة

ان نسخة من هذه الشريعة محفوظة اليوم فى (المتحفة البريطانية)[1] . وفى المكان نفسه يقوم الصرح المدرج الـ (زقورة) العظيم المسمى (اى - تيمينانكى)، وقد سبق ان أشرت اليه فى مفتتح هـــذا الفصل . انه اليوم اخدود يمتلىء بالماء شتاءً ، فينبت فيه البردي عاليا .

ولا يبعـد (الملهى الاغريقى)[2] عن هذا الموقع الاثرى بأكثر من ربع

بشريعة حمورابى تتألف من ٤٤ حقلا أو عمودا ، وتنقسم الى ٣ أقســام : مقدمة بالدرجة الاولى دينية ومكتوبة بلغـــة شعرية عن أسباب اصــدار الشريعة . والمواد القانونية وعددها ٢٨٢ (ولعلهـا بالاصـل ٣٠٠ مادة) وفاتحة يذكر فيها حمورابى ان هذه « هى الاحكام العادلة التى أصدرهـا حمورابى العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح ... » .

(راجع مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ـ القسم الاول تأليف طه باقر وفيه نماذج من أحكام شريعة حمورابى) .

(١) الاصل محفوظ فى متحفة اللوفر بباريس ، ونسخة من جبس محفوظة فى المتحفة العراقية . (المترجم)

(٢) يوجد قرب سور بابل الداخلى والى الشرق من القصور ٣ تلول أطلق عليها اسم « الحميرة » بسبب لونها الاحمر . وقد بنى فى التل الجنوبى منها بناء « ملهى يونانى » ووجد المنقبون فى أنقاض هذا البناء كتابة يونانية جاء فيها ان شخصا اسمه « ديوسـكرايدز » قد بنى « الملهى والمسـرح » والمرجح كثيرا ان البناء كان قد شيد فى الاصل فى عهد الاسكندر الكبير وان الكتابة المذكورة تشير الى تعميره فى عهد متأخر ، فى العهـد السـلوقى ، ويتألف مخطط الملهى من جمع بين الملهى وموضع للمصارعة .

(راجع بابل وبورسبا بقلم طه باقر) .

وقد قام الاستاذ هاينرش لنزن رئيس بعثة التنقيب الالمانية فى الوركاء فى تشرين الثانى عام ١٩٥٦ بالتنقيب عشرة أيام فى خرائب الملعب اليونانى فى بابل وذلك للتحرى عن بعض النقاط من المخطط الذى وضعه كولديوى Koldewey قبل الحرب العالمية الاولى عن هذا البناء ، وتأكد الاستاذ لنزن من تنقيباته هذه من ان الملعب المذكور قد شيد بأمر من الاسكندر المقدونى الكبير من أنقـاض برج بابل المدرج ، وانه كان يتألف ، على غرار الملاعب الحالية ، من مدرجات يعلو أحدها الآخر ، وهى على هيئة نصف دائرة وأمامها ساحة الاستوديو والالعاب . ولقد أعيد بناء هذا الملعب مرة أخرى فى العهد السلوقى ثم أعيد بناؤه وتجديده مرتين فى الزمن الفرثى . (راجع النشاط الآثارى فى العراق ـ لمديرية الآثار العامة سنة ١٩٥٩) . (المترجم)

ساعة بالسيارة انه يتداعى سريعا للانهيار ، وأخشى أن لايترك للآتى المستطلع شيء فيه ، الا مدرج الملعب • انه اليوم قريب من موقف السكة الحديد ، وفى مقدور من يأتى بالقطار لزيارة بابل أن ينزل فيه لهذه الغاية • واستفاد كثير من الجنود البريطانيين مما قدمه لهم (المقر العام) من تيسير ، ابان اقامتهم فى بلاد الرافدين فجاسوا خلال أطلال المدينة ، وكانت ضحكاتهم تتعالى وأحاديثهم تتشعب ولها جميعا صدى يتردد بين جدران المدينة الصامتة •

وأطفال الاعراب ممن يتوقون أشد التوق الى بيع (الانتيكة) هم المخلوقات التى يصادفها المرء فى هذه البقعة المنعزلة • انهم يقفلون راجعين الى مساكنهم والشمس تنحدر الى خدرها وتغيب فتصبح البقعة المنعزلة سكنا لبنات آوى والثعالب والجان ••• والجان ، كما يقول الاعراب ، تصول وتجول فى تلك البقعة ، حيث كان الملك نبوخذنصر يجلس للمشاورة ويقيم فيها الاحتفالات •

ثانيا – بورسبا

سبق لى ان ذكرت (بورسبا) ، ضاحية بابل ، وحيث يقوم الصرح المدرج (زقورة) الشهير لـ (نبو) • ونبوخذنصر هو الذى أعاد بناءه أيضا • وفى مقدور المرء أن يصل الى التل ، وقد قام شاخصا فوق السهل ولفحته الشمس بأشعتها فأصبح يبسا أجرد ، بنصف ساعة ان سار اليه بالسيارة من الحلة • والاعراب يسمون هذا التل (برس نمرود)[1] والاساطير

---

(١) برس محرف عن الاسم البابلى القديم « بورسبا » أو « بارسبا » وخرائبها تقع اليوم جنوب الحلة بحوالى ١٠ أميال • وكانت هذه المدينة تسمى فى المصادر القديمة باسم « بابل الثانية » لانها تجاور مدينة بابل الاصلية • واسمها الشائع « بورسبا » أو « بارسبا » فهو اسم سومرى يرجح أن يكون معناه « سيف البحر » اذ المعتقد ان المدينة كانت تقع فى العصور القديمة جدا قرب بحر أو بحيرة شبيهة ببحر النجف • وأقدم ذكر

المحلية تجعل منه (برج بابل) الذى حلت عليه لعنة الله • وتماسك آجر الصرح بفعل الحرارة العالية فأصبح وكأن صاعقة نزلت عليه من السماء • انه مرتفع جدا ويمكن أن يرى من مسافة ٣٠ ميلا عبر السهل • وفى الحق انه ليس بـ (برج بابل) المذكور فى الكتاب المقدس • لقد قدسوه لانه مزار (الاله نبو) بن الاله (بعل) رب الكتابة • وجال المنقبون خلال ركامه وخرائبه مرات عدة فعثروا على أشياء ممتعة ، ولا شك ان فيه آثارا ممتعة أخرى مطمورة • وكنت ممن زاره فى ثلاث أو أربع مناسبات ، واستطعت أن أعثر فيه على بعض قطع الخزف المتكسر والآجر المكتوب وخرزات ونقود قديمة عليها طبقات سميكة من الصدأ « الورد جريس »[١] لو أغطست فى الخل لما تبقى من سطوحها شيء • وعندما تهطل الامطار فى الشتاء تكتسح من سطح الارض طبقة تخرج منها قطع صغيرة هى من مخلفات ذلك الماضى البعيد •

ولكن ، ما علاقة (الملك الصيَّاد نمرود) بهذا التل يا ترى ؟

من الغريب أن يبقى اسم (نمرود) ـ أشيع أسماء رجالات الماضى ـ موصولا بالاساطير ومأثورات الاعراب • جلست فى يوم من الايام على عباءة فرشها لى شيخ عربى مضياف وبدأت أستمع الى بعض الاساطير الدائرة حول اسم ذلك الملك البطل القديم ، قال :

للمدينة ورد فى شريعة حمورابى حيث يذكر تجديد أبنيتها ولا سيما معبد الاهها (نبو) ، وكان أعظم ازدهار لها فى عهد المملكة البابلية المتأخرة (السلالة الاكدية ٦١٢ ـ ٥٣٨ ق٠م) ولا سيما أيام الملك نبوبولاسر ، وابنه الملك نبوخذنصر • واستمرت المدينة فى الوجود والاستيطان فى العهود التالية لذلك العهد : الاخمينى ، والسلوقى ، الفرثى ، والساسانى وذكرت فى أخبار الفتوح الاسلامية للعراق وظلت مأهولة فىالعهد الاسلامى ثم اندرست بسبب تغيير مجرى النهر •

راجع (بابل وبورسبا بقلم طه باقر) •

(المترجم)

(١) فى الاصل Verdigris لفظة مغربة ومن مصطلحات الكيمياء •

(المترجم)

« عندما سحل (ابراهيم) أمام نمرود ملك الحكمة ، اثر خروجه على طاعة الاله ، أمره الملك أن يعبد النار ، فقال ابراهيم له :

« ولكن الماء أشد من النار قوة ، الماء يطفىء النار » .

فقال الملك له : « فأعبد الماء ، اذن » .

فأجاب ابراهيم : « ولكن الماء ينزل من السحاب » .

فقال الملك له : « فأعبد السحاب ، اذن » .

فأجاب ابراهيم : « ولكن الريح تمزق السحاب فيتناثر » .

فقال الملك له : « فاعبد الريح ، اذن » .

فأجاب ابراهيم : « أيها الملك ، ان الانسان يسخّر السحاب لما يعود عليه بالنفع » .

فقال الملك له : « انك حقا لثرثار ، ولن أستمع أكثر مما استمعت لمثل هذا الهراء ، فاعبد النار ، كما عبدتها ، والا فسترمى فيها » .

ورفض ابراهيم أن يعبد النار ، ورموه فى الاتون ، وبعد سبعة أيام وجدوه ولم تمسه النار بسوء فلهيبها استحال الى زهر نضير[١] .

وقال نمرود أريد أن أكتشف اله ابراهيم فبنى لذلك برجا عاليا جدا ولكنه ، على الرغم من ذلك ، وجد السماء بعيدة جدا . وجاء بنسرين وربط بهما عجلة ، وحفّز النسرين ليطيرا عاليا بأن ربط على رأس كل واحد منهما قطعة من اللحم . وحلّق النسران فى السماء وسرعان ما سمع نمرود صوتا

---

(١) اذا رجعنا الى القرآن الكريم نستعرض جميع الآيات التى ورد فيها ذكر لابراهيم (عليه السلام) لا نجد ذكرا لهذا (النمرود) ولكن فى احدى الآيات الكريمات اشارة الى محاورة كهذه : (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ان أتاه الله الملك اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيي ويميت . قال أنا أحيي وأميت . قال ابراهيم : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ــ سورة البقرة آية ٢٦٠) .

(المترجم)

يناديه « أيها الكافر ! الى أين تريد المضي ؟ » فما كان من (نمرود) الا أن يشد قوسه ويرمى المصوِّت بسهم ، ولكن السهم عاد اليه مضرجا بالدم ... ففرح لذلك وظن انه استطاع أن يجرح الرب نفسه !

ثالثا ـ عقرقوف(١)

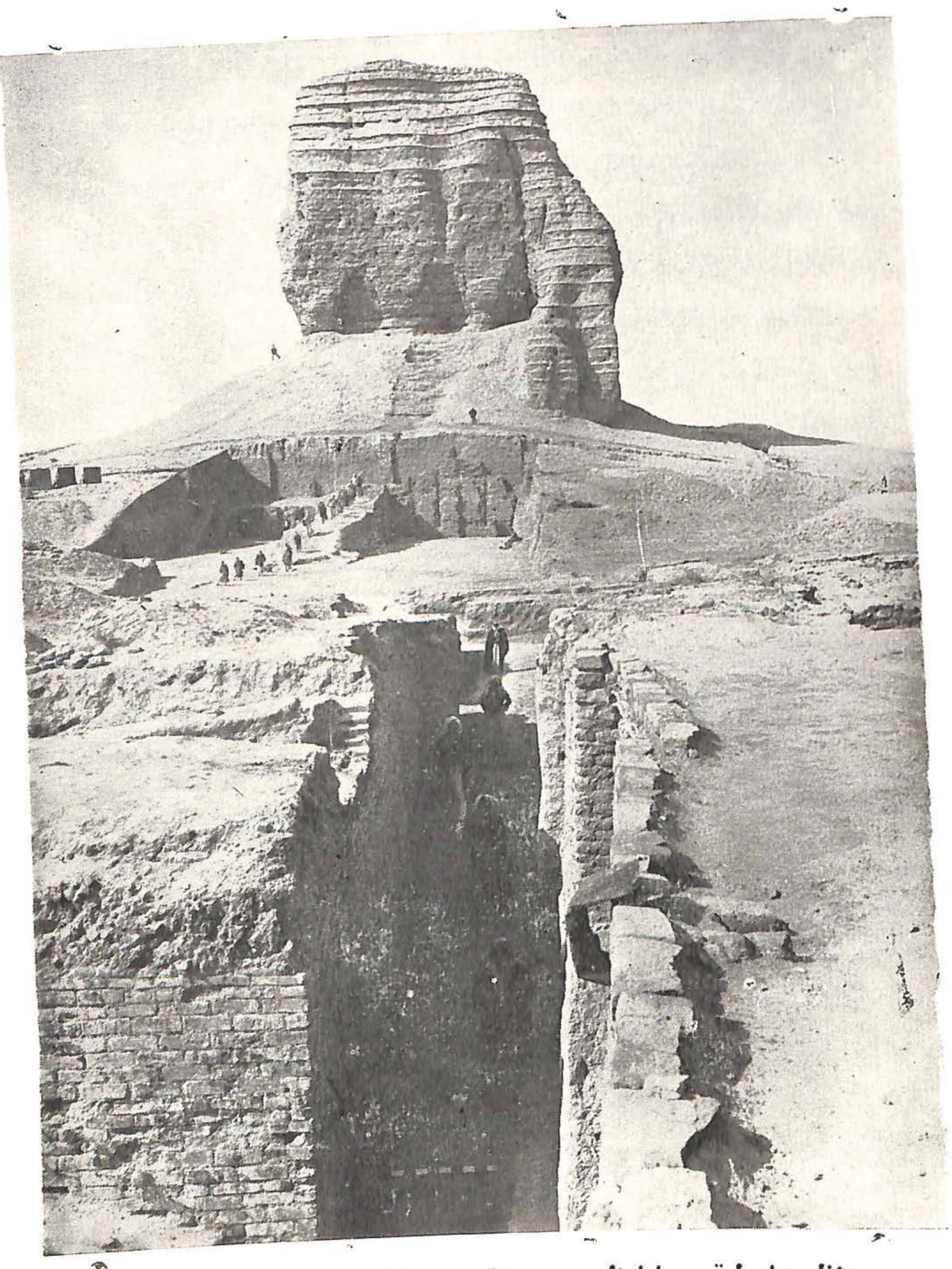
انه لقريب جدا من بغداد : ففى مقدور المرء أن يمضى اليه بالسيارة فيتناول على تلّه فطور الصباح ، ثم يقفل راجعا قبل أن تتكبد الشمس السماء . وهو برج (زقورة) آخر يقوم شاخصا منفردا فى سهل . وانه لكتلة من الاديم المائل الى الاحمرار ، ويتلوى وتنعكس له صورة على صفحة الماء عندما يغمر الارض المحيطة به فى موسم الفيضان ، واثر هطول المطر فى الربيع . وله منظر مؤثر ، ويشبه فى ذلك (برس نمرود) . وأحاديث الاعراب تجعله على صلة بالملك الصياد العظيم ، والذى لم يفلت منه انسان ولا حيوان . انه أثر قديم ، موغل فى القدم ، وكل ما يعرفه الناس عنه لا يعدو الحدس والتخمين .

وقليل من أهل بغداد من يعنى بزيارته ، ومنهم من لم يسمع به أبدا .

---

(١) هو موضع مدينة (دور كوريكالزو) عاصمة العراق خلال حكم الكشيين ، الذين جاءوا العراق من شرقه أو شماله الشرقى ، منذ أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد حتى نهاية السلالة الكشية . وقد أبانت التنقيبات فيه عام ١٩٤٢ و١٩٤٥ عن معابد واسعة تقوم قرب الصرح المدرج الـ (زقورة) المبنية باللبن . وكان يصعد اليها بـ ٣ سلالم . وقد عثر فى هذه المدينة على قصور ملوكها وعلى آثار متحفية فيها ورقم من الطين ذات كتابة مسمارية وعلى احجار الحدود التى كانت تبين حدود الارض او البناية ومساحتها واسم مالكها وكان ينقش عليها رموز الآلهة السومرية والبابلية . ومن الجدير بالذكر انه وجدت فى هذا الموقع آثار تعود الى العهود الساسانية والاخمنية ، والعصرين الايلخانى والاسلامى (عصر سامراء)

راجع [النشاط الآثارى فى العراق لمديرية الآثار العامة فى الجمهورية العراقية] (المترجم) .



منظر عام لبقـــايا الصـــرح المدرج (الزقورة) فى عقرقوف (دور كوريكالزو) ـ عاصمة العراق فى عهد الكشـــيين (القرن الخامس عشـــر قبل الميلاد) .

أمام الصفحة ٤٠



والزعم الشائع انه بُني فى نفس الوقت الذى بنيت فيه (اور) وتخليـــدا لاله أجهل اسمه • ولم يسعدنى الحظ فاستمع الى رأى آثارى مختص فى هذا الباب[١] ، لذا لن أعمد الا الى وصف مظهره الخارجى فقط ••

ويعلو البرج بحوالى الـ ٢٠٠ قدم وهو مبنى باللبن كليّا • وهنـــاك طبقات من القصب موضوعة بينه ، وعلى مسافات غير منظمة ، وما زال القصب هذا ، وقد غبر عليه زمان طويل ، صالحا لاكل الحيوان ، فانك لتجد الحمير تقضم الاطراف الناتئة من البناء • وفى البرج ثقوب مربعـــة لتصريف الماء وتجديد الهواء ، والطير تتخذها اليوم وكنات ••• وهكذا استحال « القصر العـــالى » المخصص لعبادة اله عفى عليـــه النســـيان وكرا لطيور البرية والشهرمان[٢] والغربان ، ســـودها وبيضهـــا ، والطائر المســـمى بأبى زريق[٣] • وما الى ذلك • وانك لترى هذه الطيور حائمـــة ثم سرعان ما

---

(١) حكم الملوك الكشيون فى بادىء أمرهم فى عاصمة البلاد القديمة (بابل) ولكنهم اسسوا فى منتصف عهد حكمهم مدينة ضخمة لتكون عاصمة لهم سميت باسم مشيدها الملك (كوريكالزو) فصارت تدعى (دور كوريكالزو) اى مدينة او حصن (كوريكالزو)ـ وآثار عقرقوف من آثارها الباقية الشاخصةـ وقد كشفت التنقيبات التى اجرتها مديرية الآثار العراقية فى هذه المدينة عن آثار مهمة عن قصور ملوكها ومعابدها الواسعة الضخمة وكذلك اظهرت نماذج من الآثار الفنية والسجلات التاريخية فأظهرت نتائج هذه التنقيبات جانبـــا مهما من تاريخ العراق الحديث فى العهد الكشى الذى كان يعد مظلما بسبب قلة المصادر والمآخذ التاريخية التى جاءتنا منه •

راجع [« مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة » بقلم طه باقر ففيه بحث عن الكشيين] •

(المترجم)

(٢) فى الاصل Sheldrake وهو نوع من البط ، أســود الرأس والعنق ، فى أسفل عنقه وأعلى صـــدره طوق أبيض ثم طوق أحمر ؛ أبيض البطن وفى وسط بطنه خط أسود الى أصل ذنبه •

راجع معجم الحيوان لامين المعلوف •

(٣) فى الاصل blue jay وهو طائر كالغراب أسود الذنب مخطط الجناحين بزرقة (راجع معجم الحيوان لامين المعلوف) •

تحط ، وزعيقها يملأ الفضاء ، على مرتفع من ذلك البرج المتعالى .

وقد يعمد أحد شيوخ القبائل الرحالة الى نصب خيمة له على التل ، ولكنه لا يمكث فى المكان طويلا ، اذ سرعان ما يرحل ، فذلك حال الصحراء على كل حال .

وفى مقدور المرء ان يشاهد البرج هذا وعلى غرار (برس نمرود) من مسافة أميال عدة . لكن شكله مشعب يشبه المنشار شكلا يعطيه منظرا مختلفا عن الكتلة المتراصة التى يراها الانسان فى (بورسبا) .

ولو تسلّق المرء التل لوجده عبارة عن رمل وتراب رخو ، ولو نظر من كوة فى بناء البرج المتهدم لرأى خط الافق فى جوانبه كافة ولشهد الافق يمتد ، ويمتد ، الى مرمى البصر .

هذه قناة من قنوات الرى ، وتلك بقعة مزروعة من الارض ، وهناك مجموعة من الخيام ، وهى على الرغم من تفاهة شأنها تذهب الوحشة ، وبالعزلة الابدية ، ميسم هاتيك الارجاء المقفرة . وليس بدّ من ان يكون (الكلدان) الذين جاءوا بأخرة ، أى بعد تشييد الصرح المدرّج (زقورة) ، أطالوا النظر الى النجوم من فوق قمته . كما كان فى مقدورهم أن يروا منها زحف جموع العدو من جهة الشمال . ولا توجد فى قلب الاكمة هذه غرفة ما ، انها متراصة من آجر ، وحولها آثار مدينة عفى عليها النسيان ... زعموا ، بادىء الرأى انها (أكد)[1] ثم جاء المنقبون فنفوا ذلك . ويسرى

---

(١) هى منطقة اليوسفية والمحمودية ، وهى أشهر مدن بلاد أكد ومن مدنها الاخرى (سبار) أبو حبة الآن ، و « اوبس » و « كوثى » أو « تل ابراهيم » وكيش (الاحيمر) و « دلبات » و « بورسبا » و (برس نمرود) وغيرها . والى الجنوب من بلاد أكد تقع بلاد سومر بوجه عام . ومن أشهر مدنها (أور) و(اريدو) و(لجش) و(نفر) و(لارسه) و(الوركاء) — وقد يطلق على القسمين ، ولا سيما فى العصور المتأخرة ، اسم بلاد بابل Babylonia كما يطلق على القسم الشمالى أى موطن الآشوريين (بلاد آشور) Assyria (المترجم)

الاعراب فى ضوء القمر ، وأشعته تغمر الصحراء فتتلألأ ، وتستطيل فيهـا الظلال وتتخذ شكولا ما أنزل الله بها من سلطان • انهم يتحدثون عن الجان التى تساكن الوطاويط وبنات آوى فى شقوق المكان وجحوره • وفى مكنة المرء أن يلتقط فى اعقاب هطول الامطار ، قطعا من الخزف ، ونقودا تحمل كتابة بارثية تارة ، ولاتينية تارة أخرى • وهـذه الاخيرة تقطـع بأن الناس سكنوا الموقع هذا ابان العصر المسيحى أيضا • ولقد عثرت على القليل منهـا فى هاتيك الربى ، وقد كادت أن تتآكل بفعل الورد جريس ، وكان الاب أنستاس الكرملى البغدادى يصحبنى فى جولتى فى ذلك اليوم ، فما كان منه يرسـل لى بأخرة بعض النقود المماثلة ، وقد جمعهـا من ذلك الموقـع وصانها جيدا •

رابعا ـ اور الكلدان

(يجدر بى أن أنوه هنا بفضل هيئة التنقيب ، وأمناء المتحفة البريطانية وجامعة بنسلفانيا فاليهم جميعا فضل تزويدى بالمعلومات التى سأدونها فيما يلى وهو فضل لو تعلمون عظيم ...) •

عمدت سلطات السكة الحديد فى الايام الخوالى الى اجراء ترتيب يلزم القطار فى ذهابه وايابه بالتوقف لمدة ٢٠ دقيقة فى مفرق اور لتناول الغداء • وفى مقدور المرء أن يرى من المحطة هذه بجلاء رابيـة من الآجر المائل الى الاحمرار ؛ انها كل ما تبقى من زقورة المدينة • وعلى الرغم من ان الرابية تتراءى وكأنها على مقربة من الرائى ، فان الوقت المقرر لوقوف القطـار لم يكن ليسمح للمسافر ، وان عمد الى التضحية فلم يتناول غداءه ، بالوصول الى الزقورة والرجوع منها ليدرك القطار قبل تحركه • على المسافر أن يسير لمسافة ٢٠ دقيقة قبل أن يصل خرائب المدينة • ولم يكن ليجـدى المرء ،

حتى عهد قريب ، النظر اليها عن كثب ، اذ أن ما يستطيع أن يراه فى مثل هذه الحال جد قليل ، فيما خلا الصرح المدرّج ، بطبيعة الحال .

لقد أعجبنى كل ما قام به مستر تايلور من تنقيب سنة ١٨٥٤ ، ولم يخلّف لنا مدوّنات تجلو معانى ذلك . وفى سنة ١٩١٩ شرع دكتور هل Hall – وهو أحد منتسبى المتحفة البريطانية – بالكشف عن معبد الاله – القمر [١] ولكن الوقت كان ضيقا ، وكان على (الدكتور هل) أن يُعنى باجراء التنقيب فى محلات اخرى ، لذا لم يستطع ان يقرر اكثر من ان هناك اثارا كثيرة تستأهل التنقيب فى هذا الموقع الاثرى الذى يضم اقدم المدن المطمورة فى العراق .

وفى شتاء ١٩٢٢ أرسلت بعثة مشتركة من (المتحفة البريطانية) و (جامعة بنسلفانيا) وكانت البعثة مؤلفة من ٤ خبراء فعينت لنفسها سكنا ، واستطاعت فى أقل من ٤ شهور أن تكشف عن عدد من البنايات ، وعن مخطط المدينة الداخلية ، وأن تضيف قدرا كبيرا الى معلوماتنا التاريخية . وفى بواكير أيام عمل البعثة استطاعت أن تصل الى الجدار العظيم (السور) ، وهو يأتلف من طبقتين ، ويحيط بالمدينة الداخلية المقدسة من جميع جهاتها . واسم السور هذا بالسومرية (أى – تمين – نى – ايل) أو (البيت المنيع الذى رفعه – هو) . لقد أسفر اقتفاء آثار خط الجدار المتواصل ، وأبوابه الرئيسة ،

---

(١) خص الاله – القمر بمدينة (أور) منذ أقدم الازمان ، وشيد له فيها معبد شهير ، وما تزال بقايا الصرح المدرج فيها باقية ، ويمثل الاله – القمر بهلال وحده أو بهلال مع صورة على هيئة البشر . واشتهر الاله القمر بالحكمة ويشترك مع الاله الشمس (شمش) فى شؤون العدالة . وكان خسوف القمر من الحوادث المهمة التى يتطير منها البابليون ، فيصلون له ويذبحون القرابين حتى يظهر مضيئا ، بعد أن يقهر الشياطين والظلام أى الموت . وخصصوا له زوجة هى (ننجال) وعبدت معه فى معبده فى أور . وكان كثير من الملوك يعينون أبناءهم وبناتهم ليكونوا كهنة له . (راجع مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة لطه باقر صحيفة ٢٥) .
المترجم

الى تمكين المنقبين من التنبؤ بوجود أبنية عديدة ، داخل السور .

وباني هـذا السور المنيع هو الملك (اور ـ ان ـ كور) أول شخصية عظيمة ظهرت على مسرح تاريخ المدينة . وجاءت قبل سلالة هـذا الملك سلالتان من الملوك ، عفى على ذكرهم النسيان بمجرد ان ووروا التراب . ولو قيست المسافة بين سمكي السورين الجوّاني والبرّاني لتجلّت لنا عظمته ، ذلك ان عرضه حوالى الـ ١١ ياردة . وعلو السور حوالى الـ ١٠ ياردات ومحيطه حوالى الـ ٢٢٠٠ ياردة . انه محيط بخزينة (اور) الرئيسة ، ومعابدها القديمة المخصصة لعبادة الاله القمر ، وزوجه . وأهل شنعار جميعا يدينون لهما بالولاء . وكان السور يحيط بالصرح المدرّج العظيم أو (المقام العالى) ـ والذى كان يقوم شاخصا كالطود فى ذلك السهل ـ ويحتمل انه كان محيطا بقصر الملك (أور ـ ان ـ كور) أيضا ، ذلك ان الرابية التى لم تتناولها بعد معاول المنقبين ـ تضم ، على ما يعتقد ، موطن الملوك .

وجاءت قصة ابراهيم فى تاريخ اور بأخرة : فعندما رحل (ابراهيم) و (تارح) بقطيعهما وخيامهما سارت قافلتهما عبر سهول ما بين النهرين الى المراعى الخصبة فى الشمال ولم تكن (اور) آنئذ مدينة مرموقة . وكان السور الذى يحيط بأماكنها المقدسة يقوم شاخصا كالطود ، كما كانت عبادة القمر الاله ، وزوجه ، عريقة متأصلة فى البلاد . وكان سكان اور يرفلون فى حلل حضارة مترفة ويعنون بالفنون .. وذلك على الرغم من ان جموع (العيلاميين)[١] الشماليين كانت تغزو وتنهب بلادهم باستمرار . لقد حمل ذلك بعض الشيوخ الموسرين من أمثال (ابراهيم) على انتجاع المناطق الخصبة

---

(١) هجم العيلاميون على العراق من الشرق وكانت نهاية اور الثالثة (٢١١٥ـ١٩٩٨ قم) على أيديهم ، اذ نهبوا المدينة وانتهكوا حرمة قبور ملوكها ، وخلف شعراء هذا العهد رثاء محزنا لذلك كله . (المترجم)

الغنية القاصية • لقد تمتع السومريون ، سكان سهل شنعار[٢] ، كما تمتعت مدينتهم الرئيسة (اور) بحياة سلم ورخاء ردحا طويلا من الزمن ، وجاءت أفواج الحجاج الى بلادهم من أقاصي البلدان لتقدم العطايا الى كهّان معابدها المشهورة ، وازدهرت بلادهم بالزراعة والتجـارة على ما تدل عليـــه الرقم الطينية التي كانوا يدونون عليها معاملات بيـع الاراضي ، والجلود والتمور والحبوب وسندات تجارية اخرى • ومجمل القول ان سراة اور الكلدانيين نعموا بالحياة على غرار ما ينعم به سـكان العراق اليوم • وكانت النســـوة يمشطن شعورهن بأمشاط تشبه الامشاط التي تباع اليوم في سوق أية مدينة عصرية في العراق • وكنَّ يتزيَّن بخرز العقيق المذهب ، وعلى غرار ما تتزيَّن به نسوة اليوم ، أيضا • كما كنَّ يلبسن الاقراط و « الخزَامات » وهي تشبه مثيلاتها في يومنا هذا • وكنَّ يحسن غزل القطن ، والحرير ، والصوف ، والنسيج • ولا تختلف حصران تلك الايام عما هي عليه يومنـا هذا وهي على أغلب الاحتمالات ، من صنع سكان البطائح القريبة • وكانت أدواتهم ، كالفؤوس وغيرها على غرار أدوات القرن العشرين • لقد كانت الحضارة في أيام ابراهيم عريقة ، قديمة •• والمعابد الشـهيرة التي ازدرى (ابراهيم) ما يجري فيها من عبادة ومعبود ، أقدم • لقد حافظ معبد نينماخ ، الهة القمر ، او جناح الحريم في معبد الاله ـ القمر ، على مخططه لاطول مدة عرفها بناء في الدنيا ، أي منذ تأسيسه فيما قبل التاريخ الى تاريخ هدمه قبل مئين قليلة من السنين من ميلاد المسيح • ان فحوى المعبد ومحتواه هو جداره الخارجي ، والطبقات السفلى منه ، وهي مبنية بالآجر جزئيا ، وما زال

---

(١) كان العراق الجنوبي يسـمى سـهل شنعار ، وعلى ما ورد في الكتاب المقدس بأخرة ، وكان السهل يمتد من خليج فارس شمالا حتى خط يمر بقصبة (بلد) الحالية •

راجع : Seton Lloyd Twin Rivers P. 24

(المترجم)

أهل العراق دائبين على استعماله فى ابنيتهم ويسمونه « الطابوق الاخضر » انهاجميعا تعودالىعصرماقبل التاريخ،العصرالمظلم الطويلالذىلن تجدفيهشيئا معينا مكتوبا أو اسما يمكن تعريفه به . ان التفريق بين (الطابوق الاخضر) هذا وبين ما يحيط به من تراب وطين أمر عسير على غير العارف الخبير . ويليه اللبن الذى عرفه (اور ـ ان ـ كور) وابنه (دنكى) ، وهـذا الاخير أنهى ما قام به أبوه من تعمير فى حوالى القرن ٢٣ قبل المسيح . وانك لتجد اسم (دنكى) هذا على الرقم الطينية التجارية العديدة . ولقد عاش الابن مدة اطول من ابيه ، واصبحت (اور) فى عهده المدينة الرئيسة بين مدن سهول سومر [١] وفى مقدور المرء ان يتابع طبقات البنايات المقدسة التىشيدها هذا الملك ، طبقة اثر طبقة ، وبينها وضع الملك العظيم (نبوخذنصر) الثانى البابلى آجره المفخور جيدا ودوّن عليه اسمه الخالد . ثم جاء كورش الفارسى ، ملك الملوك ، بأخرة ، وبنى جداره القائم فوق الجدران التى بناها أسلافه .

---

(١) انالاكديين ، وغيرهم من الاقوام السامية التى نزحت الى العراق منذ أقدم الازمنة جنبا الى جنب مع السومريين سموا جنوبى العراق ، وهو القسم الذى قطنه السومريونوأنشأوا فيه مدينتهم، باسم « مات شوميريم » أى بلاد السومريين . ولقد سمى هذا القسم الجنوبى باسـم (شـومر) أو (سومر) ، وورد بمجموعة من العلامات المسمارية وتلفظ شومر ، واللغـة السومرية غريبة فى مفرداتها وتراكيبها ولم يتمكن العلماء بعد من تصنيفها وارجاعها الى صنف من أصناف اللغـات البشـرية المعروفة ، وهى أقرب الى الاسرة اللغوية المعروفة بـ (اورال ـ التاى) التى تنتمى اليها اللغة التركية، والمجرية ، والمغولية . فهى ليست من مجموعة اللغات السامية أو من أسرة اللغات الهندية ـ الاوروبية . واستعمل السومريون الكتابة المسمارية فى كتابة لغتهم الى آخر عهود العراق القديم . هذا ولو أردنا أن نضـع العهود التى شهدها العراق فى تأريخه العريق الطويل لـكان عهـد السـومريين والاكاديين فى المقدمة ثم يليهما العهد البـابلى ، فالآشـورى ، فالـكلدانى ، فالاخمينى فعهد الاسكندر الاكبر فى العراق ثم الساسانى والعربى .

ولقد ثبت بنتيجة التنقيبات فى (اريدو) أن السومريين هم من سكان العراق الاصليين وان حضارتهم لها جذور تمتد الى الحضارات السـابقة فى العراق . (المترجم)

وفي مقدورنا أن نقتفى آثار نشوء وتطور ، واضحى المعالم ، فى العقيدة الالهية ، ففى الايام الاولى، وحتى فىأيام الملك (اور ـ ان ـ كور) وخلفائه، كان معبد القمر ـ الاله قائما منذ ٢٠٠ سنة ، لكنه لم يكن مكانا يؤمه الناس جميعا للعبادة • لقد أقيم رمزا للاعتقاد بالدين والآلهة ، وانه سكن للآلهة ، والكهّان والخدم • والمعبد لا يعدو أن يكون « حريمـا » لـ (ننا) ـ الاله ـ القمر • وكانت زوجه تحافظ على قدسية « الحريم » وانعزاله • أما منازل الكهّان فكانت قريبة متناثرة حول المعبد • كما كان المذبح ، وصورة الآلهة داخل الحرم المقدس ، محاطة بالاسرار ولا يمكن الوصول اليها أبدا • ولم يكن ليسمح لاحد برؤية الآلهة الا مرة واحدة فى السنة ، وحين تحمـل خارج المعبد لتصل حجرة الهيكل المقدس • وهناك عتبة واسعة مفروشـة بصفيحة من معدن مثبت فى القار ، ومنها يصل الانسان الى منضدة النذور ، وخلفها يقوم المذبح • انه مفروش بصفيحة من معدن أيضا ، ولعله الذهب • وكان الـكاهن الاعظم يقف خلف (المذبح) ، أو يركع ، وخلفـه الهيكل المقدس ، وقد بنوه بابعاد قليلة وعلى الطراز البدائى الذى يرجع الى عهـد مضى • وفيه صورة (الالهة ـ القمر) وقد أضيئت بمصـابيح عديدة توقد بالزنك فتجلو وجهها فى الظلام الدامس المحيط بها • ولست بقادرة على تبيان الطراز الذى تحاكيه الصورة هذه • ذلك انهم عثروا عليها بين أنقاض المدينة انها تمثل أنثى واقفة ، وعلى مفرقها تاج ، لقد وضعت يديها على معين الحياة فى جسمها : ثدييها • وهناك صورة بدائية أخرى تمثل وليدا وأمه ، والام ترضع الوليد وقد أجلسته على ركبتيهـا • واستطاع المنقبون ان يكشـفوا عن الجدران ، والمعبد ، والمذابح والمماشى المبلطة ، وجرى ذلك بعناية ودقة• لقد جروا في تنقيبهم على عرق من المعرفة والاتقان ، فجاء الكشف عن ذلك وكأن البناء حديث ، أو هو فى طريق الانشاء • انهـم لم يزحزحوا طابوقة واحدة عن مكانها بدون ضرورة • أما العظام فلقد تناولها مستر وولى بيـد العناية وبدراية مما حمل الاعراب العاملين تحت اشرافه على الاعتقـاد بأن

الرجـل ذو صلة بالشـيطان ! لقـد أقبل بعضهم على بعض يتسـاءلون : كيف يستطيع الرجل هذا أن يعرف ان فى هذه البقعة بالذات جدثا ، وان فى تلك الزاوية اسطوانة ، أو حجرا عليه كتابة !؟

ووقفنا على قمة الصرح المدرج (الزقورة) فشاهدنا ذلك الركام المكدس الذى يراه المرء من المحطة ، كما راقبنا الحفريات الجارية فى أسفله • ولقد تراءى لنا المعبد كما كان يراه بناته الاصلاء ، أى عندمـا كان رجال (اور) يحملون أثقالهم من اللبن ، ويشيدون بيتا لـ (سيدتهم) بجعل الطابوق صفا على صف حتى ينتهوا عند سقف البيت • والمعتقد ان السقف عندهم يشبـه سقوف بيوت الاعراب فى يومنا هذا ، أى انها عبارة عن جذوع النخـل ، أو أى خشب آخر ، تمد عبر الجدران ، ثم توضع جذوع أو أخشاب أخرى عليها بوجه معاكس ، وتفرش على الكل الحصر ، ثم طبقة سميكة من الطين اتقاء المطر والحرارة •

أما الحرم الجوّانى [١] ، فلقد التزمت بمخططه جميع السـلالات ، على تعاقبها ، وبضمنها السلالة الفارسية • ان فيه غرفا صغيرة تفضى الى خارج المعبد الذى تقوم فيه صورة الآلهة ، وعلى الرغم من ان هذه الغرف الصغيرة سبق أن أعيد بناؤها على مستوى أعلى ، فانهم التزموا بمخطط الطراز الاصلى بكل دقة ، كما تم بناء المذابح ، والمناضد لتقبل النذور داخله ، وجرى بناؤها فى نفس الموقع الذى كانت تشغله دوما •

وجد ان احدى الغرف الجانبية مبلطة بفسيفساء من صـدف البحر ، كما وجدت أصداف كبيرة فى المعبد أيضا • ولعلها من جملة النذور المقدمة للآلهة ، ولعل الناس فى تلك العهود السحيقة كانوا يعتقدون بوجود صـلة روحية بين البحر والقمر ، تلك الصلة التى تمكن القمر من التأثير فى البحر

---

(١) (الجوانى) و (البرانى) من العامية الفصحى فى العراق ، وبعض بلاد العرب الاخرى • (المترجم)

واحداث المد ، لذلك كانوا يأتون الى الاله بالكنوز من أعماق البحر ، عساه يتقبلها قبولا حسنا .

سبق لي أن قلت ان (كورش) وقيل انه كان يدين بالوحدانية ، أعاد بناء معبد القمر ـ الاله ، فلقد عثر على طابوق فيه يحمل اسمه ، فوق طابوق أنقاض أبنية (نبوخذنصر) . والى (كورش) ينسب مجرى فى الفناء الخارجى ، حيَّر هذا المجرى المنقبين ، بادىء ذى بدء ، فهو قصير يبدأ من الارضية المغروسة ويفضى الى ما تحته من الثرى . لقد استبعد المنقبون أن يكون أحد المجارى المعدة لتصريف ماء المطر ، أو المياه القذرة ، ثم عثروا فى تاريخ هيرودوتس على وصف لمعبد بابلى رآه بأم عينه ، فحملهم الوصف هذا على استكناه هذا الذى حيرهم فتوصلوا الى انه المجرى الذى يحمل دم القرابين ، وان من المحتمل أن يقوم مذبح القرابين العامة على مقربة من أول المجرى . ان الدم المراق تمتصه الارض فتصبح بنظرهم مقدسة .

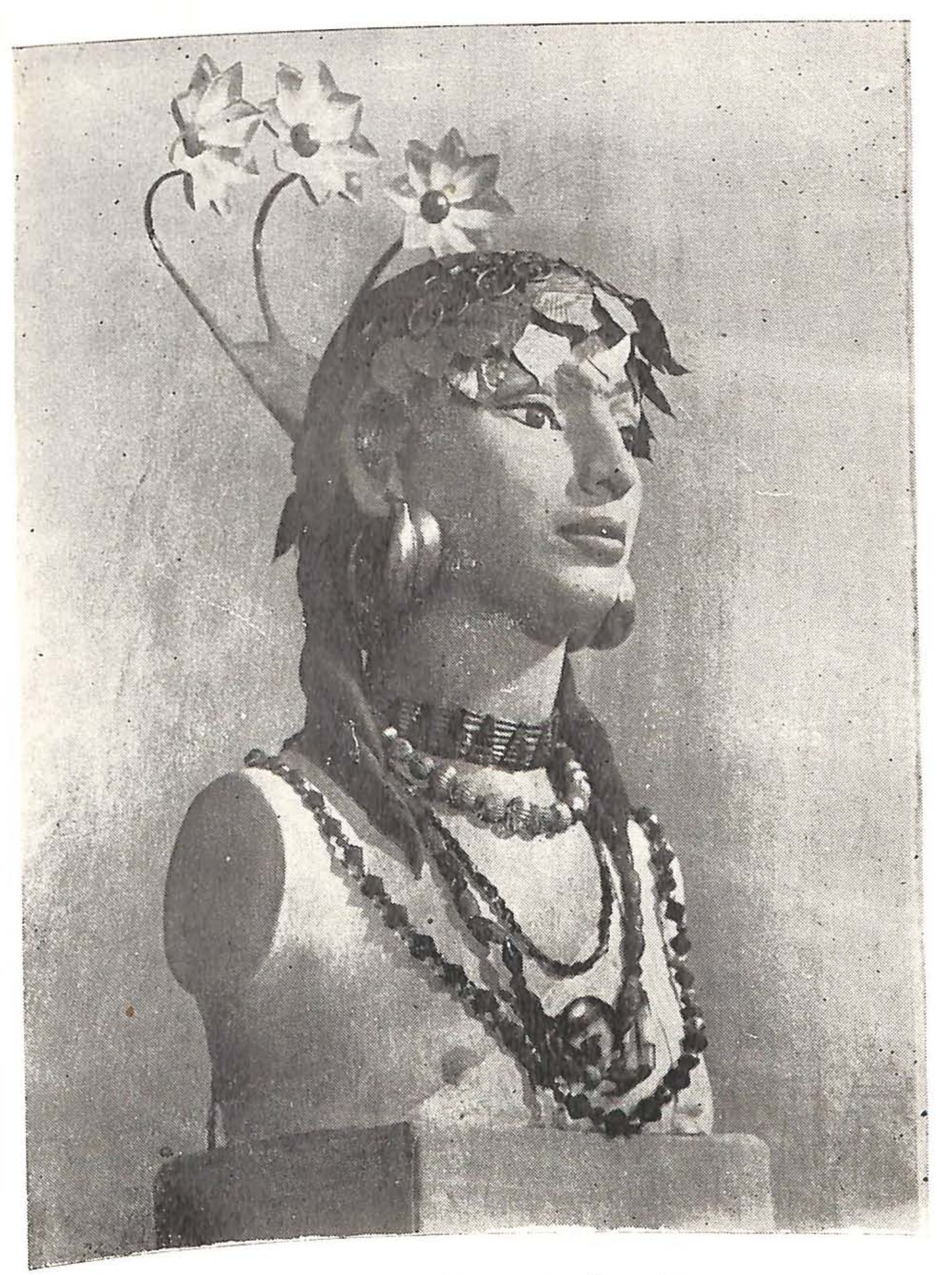
وليس من المؤمل أن تكون المعابد السومرية على شىء كبير من جمال العمارة ، ان زخرفتها بُدائية الطابع ، والمعادن الثمينة مطروقة فيها بشكل بدائى ، والستائر من مواد غالية الثمن ، وفيها تزيينات طعمت بمعادن نفيسة . وهناك صورة للالهة تزدان بالذهب والحلى . انها لا تبارى الاعمدة الاغريقية الفخمة ، وتماثيل الاغريق الرائعة ، تلك التى تعود الى عصر متأخر نسبيا . ان العراقى لم يكن فى يوم من الايام فنانا(١) . لقد عثرت

---

(١) تزين الآثار النفيسة التى وجدها المنقبون فى مدن العراق القديمة ولا سيما آثار المقبرة الملوكية فى اور ٣ متاحف من متاحف العالم الشهيرة ، وهى : المتحف العراقى والمتحف البريطانى ومتحف جامعة بنسلفانية . فلقد زودتنا التنقيبات فى اور بنماذج غنية نفيسة لحضارة السومريين فى آخر أدوارها ... وكثير منها من الذهب الخالص المسبوك والمصنوع صنعا دقيقا يشير الى فن رائع جميل .

راجع مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة بقلم طه باقر (المترجم)





نموذج من الجبس لفتاة سومرية بحليها الاصلية المكتشفة فى المقبرة الملوكية فى أور (٢٨٠٠ ق٠ م)

أمام الصفحة ٥١

البعثة على حلى ذهبية ومجوهرات يفتقد جلها نفاسة الصنعة والذوق المصفّى ، وقليل منها ما يعكس مهارة فنية • ومن هذا القليل قلادة نفيسة مصنوعة من خرز حجرية ، وأوراق مفردة من ذهب مطروق ، وفي وسطها ما يشبه عنقود العنب المعلق • ووجدت بعض الحلى النسائية في أحد أركان الغرفة المقدسة من معبد (نينماخ) ، ولعلها وضعت هناك لتسلم في الازمان العصيبة القلقة • ومما عثر عليه أيضا دبوس من ذهب ، يمشط به الشعر ، وله مقبض عليه صورة احدى الالهات ، كما عثر على حلقة من ذهب للشعر وخرزات ذهبية كثيرة وقطع من الاحجار الكريمة كالعقيق (الحجر اليماني) ، والسبج[٢] والعقيق الابيض Chalcedony وأقراط وخواتم • ولقد عثروا على عدد كبير من الخرز ابان اجراء التنقيب ، ومنها ما هو ثمين ، ومنها ما هو شبه ثمين ، ومنها ما هو زجاجي صرف • ومن خرز الزجاج هذه ما هو بلون الكهرمان ، وانك لتقسم ، غير حانث ، ان قد جيء بها من السوق ، وقدرها بالفلسين معدود ! انها تتراءى جديدة ، وحقيرة ومما يدعو الى الغرابة انها اكتشفت ضمن آثار عهد أقدم من عهودها • وهناك خرز من زجاج مختلف ألوانه ، وما أن أزيلت عنها الاكدار الا وأصبح لها لمعان ، فكأنها خرجت لساعتها من صقال • ومما كان يكلف به الناس من أنواع الحلى رأس عفريت صغير مخيف يسمونه (بوزوزو) • وهم يحملون الحلية كرقية تقيهم شر المرض •

والمعبد الثاني هو معبد (ننّا) ، زوج (نينماخ) ويقوم على مقربة منه وفي الجهة الجنوبية الغربية • بدأ التنقيب فيه سنة ١٩١٩ من قبل الدكتور هل ، وهو على غرار معبد الآلهة فيه من الدلائل الواضحة ان قد جدد بناؤه في

---

(٢) في الاصل Obsidian وهو نوع من الزجاج البركاني (المترجم)

فترات مختلفة . وفى المعبد بئر عجيبة مفروشة بالطين النضيج [٣] واخرى يبلغ عمقها ٣٦ قدما وفيها مخاريط عليها كتابات . وقرب البئر هذه مجرى بناه الملك دنكي .

وفى الزاوية الجنوبية الغربية من الحائط تقع (رابيـة القصر) ، ولم يجر فيها تنقيب حتى الآن ، وستبقى أسرارها مكتومة حتى يبـدأ المنقبون عملهم فى الموسم القادم . لقد اختتم المنقبون عملهم فى الموسم الحالى فى غير ابانه بسبب نفاد المخصصات ، وكان ذلك فى الوقت الذى شرعوا فيه باجراء عمليات تنقيبية ممتعة فى الصرح المدرج نفسه . وفى الجهة الشمالية الغربية من الصرح اكتشف باب يرجع عهده الى زمن آخر ملك من ملوك البابليين ، وهو (نبونائيد) . كما كان المنقبون يظنون ان البـاب لابد وان يفضي الى فناء تغطيه اليوم أكداس الحجارة المتساقطة من الصرح . وفى هـذا المحل بالذات عثر المنقبون على أشد الآثار امتاعا وأكثرها قيمـة ، انه تمثال من حجر ، مقطوع الرأس ، وعليه رداء لعله يمثل جلد خروف . ان طريقـة نحته بدائية ، وان الذراعين فيـه عاريتان وكذلك الرجلين . أما اليـدان فمتشابكتان فى الامام . والتمثال يعود الى أيام (لَكَش) الاولى ، وهو غنيمة النصر جيء به الى (اور) ، أو لعل لوجوده فيها من الاسباب ما نجهلـه . و (نبونائيد) شخصية غريبة ذات طابع عصرى . انه يشغف بالآثار ويميل الى مبدأ التوحيد ، ومن عادته جمع صور الآلهة القديمة . وأعلن فى يوم ما عن رغبته فى اعادة اعتبار الآلهة المهملة ، ولا يعوزنا الدليل على ان رغبته هذه ليست دينية صرفة ، ان رجال الاديان الشـائعة ، على الرغم من ذلك ارتابوا به وظنوه يسـعى الى الحط من قيمـة عبادة معاصريه . لقـد كان (نبونائيد) ذوّاقة ، عالما بكل ما يتصل بالآثار ، مافى ذلك شك . وعلى سبيل

---

(٣) فى الاصـل Terra cotta أى مصنوع منه أو بلونه .

(المترجم)

المثال أعاد بناء معبدى (شمس) - والاله القمر - فى (سبار)، كما عُنى بتدوين عمليات البناء على اسطوانة مفخورة، ومما دوّن عليها : انه عثر على حجر أساس قديم عليه إسمه (نرام سن) بن (سرجون الاول)، والحجر هذا لم ير النور لمدة ٣٢٠٠ سنة • ولعل الرجل نفســه هو الذى عثر على الصورة القديمة فى (كَلكَش) ووضعها على الصرح المدرج فى (اور) • فلو صح ذلك لما استبعد أن يكون له الفضل فى وضع البقية الباقيــة من الكنوز الآثارية • ويأمل مستر وولى، رئيس بعثة التنقيب، فى ان يحقق ذلك،شريطة أن تحصل (البعثة) على قليل من المال، وبذلك تستطيع البعثة أن تقرر نظرية ساحرة، سلبا أم ايجابا • ما أعظم ذلك الكنز المدفون تحت الآجر المتكدس المتساقط من الصرح المدرج القديم !

والظاهر ألاّ وجود لغرفة ما داخله • ان القراميد الزرقاء اللمــاعة مرصوفة فى الصفوف السفلى ؛ ولعل (التمثال) كان موضوعا قبالة الصرح، ولعله كان يتراءى رفيعا جليل المنظر فى التماعه فوق التل الذى بنيت عليــه (اور) • ولا تمثل البنايات المحيطة بالاسوار الا قسما من المدينة، فليس بُد من أن تكون هذه ممتدة لمسافات من الاميال • ذلك ان المدن كانت آخــذة بالاتساع فى تلك الايام، كما ان القرى المجاورة كانت تعتبر جزءا منهــا • وفى الحق أن تلكم القرى كانت ترنو الى المدينة لتحميها، وقد تسـهم فى انتصارات المدينة نفسها • ويدفع لكل اعرابى من الذين يعملون مع البعثـة (روبية) واحدة يوميا، وهم يحصلون على منحة لقـاء كل أثر يلتقطونه • ولقد جاء احد الاعراب، ابان زيارتنا البعثة، بعدد من (الانتيكات) التى عثر عليها فى تل قريب • وما عثر عليه يأتلف من قطع متكســرة من الخزف وبعض الحيوانات المصنوعة من الفخار، ومنها ما كان تافها من حيث القيمة فأعيد الى الشخص نفسه • وقامت البعثة باختيار شىء منها وبضمن ذلك رأس حصان وقد رسمت عليه خطوط بلون أسود • ولقد منح لذلك روبية تقبلها بدون تذمّر، كما لم يحاول أحد أن يساوم حولها أبدا • وما تعثر عليــه

البعثة تتقاسمه مع الحكومة العراقية ، والمؤمل أن يصبح لدى الحكومة متحفة[1] خاصة بها . ان الاشياء الممتعة التى يعثر عليها ترسل الى أوربا للدراسة أولاً . ولا تستطيع الحكومة العراقية اليوم أن تصرف المال اللازم لبناء متحفة ، فوارداتها قليلة ، وسيمضى زمن طويل قبل أن تستطيع تهيئة ما يسد نفقات أمناء المتاحف الذين يجب أن يحصلوا على رواتب طيبة .

وتأملنا فى الكنوز التى عثرت عليها البعثة وعرضتها على رفوف غرفة صغيرة ؛ ان الزمن ، وتعريضها للهواء والشمس ، جعلا هذه الكنوز سريعة التلف . انها على غرار الآثار التى عثر عليها فى مقبرة (توت عنخ آمون) حيث تعالج اولا كيماويا ، ثم تحفظ . وعندما يعثر على لوحة (رقيم من الطين) عليها كتابة تتراءى للناظر غير المتفحص وكأنها قطعة من فخار ، ولا يمكن تمييزه عن غيره من قطع التربة العراقية الاخرى الا لماما .

انهم يبدأون أولا بوضعها فى النار فتشوى ثم انهم يجرون عليها الفرشاة بعناية وبذلك يزيلون عنها تراب الارض الذى يغطى كتابتها . ثم انهم يعالجونها بالحوامض ويحفظونها بمحلول من السلّوليد . واخيرا تسلم

---

(١) ذلك ما كان عليه الحال ابان تأليف الكتاب (١٩٢٣) أما اليوم ففى بغداد متحفة كبيرة تضم الآثار العراقية القديمة من عصور انسان الكهف الى أواخر الازمنة الساسانية ، فهى تحوى آثار العصور الحجرية القديمة مما يرتقى زمنه الى ما قبل ١٠٠ الف سنة وآثار عصور ما قبل التاريخ كآثار حسونة وسامراء وحلف والعبيد والوركاء وجمدة نصر وفجر السلالات وآثار العصور التاريخية : الاكدى ، والكوتى وسلالة اور الثالثة ، وايسن - لارسا، وسلالة بابل الاولى ولكش والآشورى والكلدانى والاخمينى والسلوقى والفرثى والساسانى الذى انتهى بالفتح العربى الاسلامى للعراق . ويجرى الآن تشييد بناية جديدة خاصة بالمتحفة العراقية على أحدث طراز وفى أحسن بقعة بجانب الكرخ . وهناك عدا هذه المتحفة (متحفة الموصل) و(دار الآثار العربية - القصر العباسى) و(متحفة الاسلحة) ، و(متحفة الفن العراقى الحديث) و (دار الاثار العربية فى خان مرجان) .

(راجع النشاط الآثارى فى العراق لمديرية الآثار العامة فى الجمهورية العراقية) .

(المترجم)

اللوحة الى العضو المختص فى البعثة ، ويكون من واجبه حل رموز الكتابة التى على اللوحة ثم ترزم وتوضع جانبا • ويخضع الى نفس الفحص والمعالجة كل ما يعثر عليه من الاوانى وآثار العاج والخزف وسائر اللقط الاخرى • وتتراءى الخرز والاحجار الكريمة وكأنها جديدة بعد أن يفرغ أعضاء البعثة من معالجتها بالطريقة الآنفة الذكر • وهم يجعلونها فى سُمُوط[٢] ويحفظونها بين قطع الصوف والقطن • وانهم لا يكتفون بحفظ اللقى فحسب ، لكنهم يعمدون الى تصويرها ، وفنّان البعثة مكلف بذلك • انه يعيد تنظيم الاجزاء الجميلة فيجعلها كالاصل ، وبذلك يستطيع المرء أن يستعمل الجزء الواحد فى كثير من عمليات الحدس والتخمين • فالقدم ، وقسم من السلم المرسومان على قطعة من الخزف يمثلان جزءا من بيت • وان رأسا وأذنين ، وأربع أرجل فى الاسفل تمثلان الها أو عفريتا له ٤ رؤوس وهكذا • ولقد عثروا فى المكان نفسه على عيارات للوزن كهيئة البط ، وقد وضعت رؤوسها على ظهورها ، كما عثروا على مثلها فى المدن المطمورة فى جنوب العراق ، ان هذه وسائر مخلفات الانسان على اختلاف أنواعها تمكن المرء من أن يتصور الحياة البيتية واليومية لاولئك الناس القدامى • ومن يستطيع أن يقرر مقدار ما ستكشف عنه حفريات السنة القادمة ، مما يجلو حياتهم ودينهم وتاريخهم • ان هذه الارض القديمة لم تكشف عن أسرارها المكتومة الا قليلا • وان مهد الحضارة سيعلّم أبناء اليوم شيئا كثيرا عن حضارة العالم • ان كل ذلك مدفون فى أرض العراق الخصبة •

---

(٢) الواحد : سمط أى الخيط ، ما دام الخرز أو اللؤلؤ منتظما فيه (المترجم)

البـاب الثـانى

العتبات المقدسة في العراق

الفصل الاول

النجف

مشهد علي ، المدينة المقدسة الاولى

« ان الدروب جميعا تفضى الى روما[١] » وهناك دروب عدة يسلكهـا الزائر الشيعى التقي فيصل الى مدينته المقدسة الاولى • ذلك ان (النجف) أهم مزارات العراق ، سواء من الوجهة السياسية ، أم من الوجهة الروحانية• ففيها يقيم (المجتهد الاعظم) عادة ••• وفيها كنوز ونفائس ضخمة ، تجمعت عبر القرون فخبئت عن عيون الشر • وفى مقدور الزائر ان يسافر بالقطار الى الحلة اولا ، فأن كان على حظ من اليسار استأجر سيارة خاصة تقله الـــى (كربلاء) فالنجف ، عبر الطريق الصحراوى • وان كان عائلا اتخذ مقعده الخشبى فى سيارة ركاب ، واهية الوصلات ، تقطع الطريق من بغداد ببطء على اساس المبيت كل ليلة فى احد الخانات الكائنة عليه [٢] وفى « الخانات » هذه يجد الزوار اجنحة يحلون فيها بدون اجرة ، وعليهم ان يعدوا طعامهم وفراشهم فيها • ومن الزوار من يقطع الطريق هذه على ظهور الخيل او الابل • ورقيقو الحال منهم يقطعونها مشيا على الاقدام ، ومنهم من يقضى نحبه فيها بسبب الاعياء أو المرض وما الى ذلك • وهناك سيل لاينقطع من جثث

---

(١) على ما ورد فى المثل الانكليزى المشهور
All roads lead to Rome"
(المترجم)

(٢) بدهى ان (المؤلفة) تتحدث عما كان عليه الحال عنــــد تأليف الكتاب : فالطرق هذه اليوم مبلطة تسير عليها السيارات المريحة ، العامةمنها والخاصة ، وهناك خطوط لمصالح نقل الركاب تسير عليها سيارات عصرية بين النجف ، والكوفة والحلة وبين كربلاء والمسيب •

(المترجم)

الموتى تحمل على هذا الطريق الى العتبات المقدسة . فاقصى ما يطمح اليه الشيعي ان يدفن في ارضها المقدسة ... وانك لتشاهد القوافل من كل الذى وصفناه تمر ، وما لها من فَوَاق[٣] . ومن الناس من يعيش على الموتى ، ونقل جثثهم حصرا .

واتخذت لزيارة (النجف) طريق الحلة سبيلا . فاتبعنا اولا طريق الزوار عبر الصحراء حتى بلغنا الكوفة . كان ذلك في يوم من ايام شباط ، والسماء شاحبة اللون ، وعلى غرار ما يشاهده المرء في ربيع انكلترا . ومررنا في طريقنا ب (الحلة) تحيط بها المزارع وتكتنفها النخيل . وشاهدنا (برس نمرود[١]) يتعالى على يمين الطريق ويرتسم على صفحة السماء الزرقاء ، واتبعنا آثار السير على طريق الصحراء ، وكنا نعبر تارة قناة ري ، او نمر بواحة من النبت تارة اخرى . وعند الظهيرة وصلنا (الكفل) ، وهي بلدة تقع على يمين الطريق وقائمة حول مرقد (حزقيال النبي) الذي يجلّه المسلمون واليهود على حد سواء . وللمرقد هذا قبة مخروطية الشكل ، بيضاء تتعالى بين النخيل . ولم يكن لدينا من الوقت متسع لنعرج على زيارة المرقد . وسارت السيارة بنا في سرع سريع وهي تمر بواحة اثر واحة حتى وصلنا (جسر العباسيات) ، وهو جسر عائم على قوارب ، فعبرنا عليه نهر الفرات . وتناولنا الغدآء في مقهى عربية مغطاة بالحصر والبردي . وهناك طريق اخرى تمر ب (التاجية) ، وهي منطقة يتكاثف فيها النخل . وكان علينا ان نعبر الفرات كرة اخرى لنصل الكوفة . ولم نتوقف في هذا المكان ، ونبذنا طريق الزوار المعتاد وسرنا على الطريق المؤدية الى (ابي صخير) واقمنا في (مضافة) فيها اياما معدودات . شيد العثمانيون (ابا صخير) واتخذوها مقرا للحكومة ،

---

(٣) تنظر أو تمكث اذا بدأت ، كما في التنزيل العزيز . (المترجم)

(١) تقع (برس نمرود) أو (بورسبا) على بعد ٢٥ كيلومترا من جنوب الحلة وهي بقايا زقورة الهيكل (نبو) اله العلوم والآداب عند قدماء البابليين . (المترجم)

ذلك ان (الجعارة [٢]) - وهى على مسافة ساعة منها - موبوءة بالملاريا ، وكثيرا ماكان موظفوها يمرضون بهذا الوباء . وابو صخير على مفترق قناة تتفرع من الفرات . ان بساتين النخل تتواصل على حافتها حتى الجعارة .

وفى (ابى صخير) سوق صغيرة ، اما الجعارة فهى بلدة نظيفة ،يزدحم فى اسواقها البدو ، وهى لطيفة فى الربيع ، ولها جسران مشيدان عبر قناتها، وفيها شوارع ضيقة متلوية وبساتين فيح غن . واستضافنا بها (السيد عباس زوين) وهو رجل ذو نسب شريف عريق . وكان السيد عباس قد اتم فى زمن زيارتنا له (المضيف) وبناه ، كبيته ، بالحجارة التى جيء بها من (الحيرة[١]) المدينة القديمة التى مازالت آثارها قائمة حتى اليوم .

ولقد تهدمت كثير من بيوت الجعارة فى اثناء ثورة ١٩٢٠ ، وتجمع السكان حولنا قرب الجسر عند زيارتنا البلدة رسميا للسلام والترحيب .وتقطع السيارة المسافة بين (الحيرة) و (ابى صخير) فى حوالى نصف ساعة . وكانت الحيرة فى الاصل مبنية على شرف من الارض وعلى حافة منحدر يفضى الى السهول الخضراء والمياه المتلألئة فى بحر النجف [٢] . وتلى النطاق

---

(٢) هى اليوم مركز ناحية الحيرة فى لواء الديوانية وعدد نفوسها ٢٦٨٩ نسمة .

(المترجم)

(١) **الحيرة :** عاصمة التنوخيين واللخميين والمناذرة وهى قريبة من النجف وكان أهلها نصارى نسطورية وهم من العرب الاقحاح ولم تزل بعض أديرتهم موجودة ، ولقد بقيت حتى بعد انتشار الاسلام وعلو شوكته . وفيها (دير مارت مريم) و(ديارات الاساقف) و (دير الاسكول) . ولقد تم فتح الحيرة سنة ١٢ هـ ونزلها خالد بن الوليد ، وكانت معسكرا له .

راجع الطبرى : ج٤ ص١٢ .

(المترجم)

(٢) وجاء فى كتاب البلدان لليعقوبى (طبع ليدن) سنة ٣٠٩ بعد ذكر الكوفة (... والحيرة منها على ثلاثة أميال ، والحيرة على النجف ، والنجف كان ساحل بحر الملح ، وكان فى قديم الدهر يبلغ الحيرة ...)

وذكر موقع (الحيرة) ياقوت فى معجمه فقال (مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف) .

وذكر المسعودى ان أكثر ماء الفرات « كان ينتهى الى بلاد الحيرة ثم

الاخضر فى المنطقة التى اشرت اليها صحراء واسعة ممتدة مد البصر • هذا وان التل الذى يضم اليوم بقايا آثار (الحيرة) ـ موطن الفروسية العربية فى اسمى معانيها ، والمكان الذى تحدى فيه العرب الفرس ، لايعدو ان يكون كسارات حجارة وآثار آساس ليس غير • ! نموضع قصر ملك الحيرة (او شيخها) لابد وان يكون هنا ، قباله هذا السهل المترامى تحته • وملك الحيرة الذى حارب كسرى ، على مايقول مؤرخو العرب ، هو (النعمان) • وفى هذا المكان نبه شأن البطل (عنترة) ـ وهـــو من اب عربى امير وام سوداء • ولقد شاع حبه لبنت عمه (الاميرة الجميلة عبلة) • وتمر نسمات الهواء الصحراوى الطلق النقى على نشز الحيرة ، وتتلألأ الارض حـــوله بالحصى • وتصقل الرمال المنحدرة هذا الحصى حتى يكاد ان يصبح شفافا• ومررنا فى طريقنا من (ابى صخير) الى (النجف) بمضارب البدو : هـذه قطعانهم ترعى عشب الربيع ، وهنالك خيام الغجر (الكاولية) السود • انهم طائفة من الناس تحترف الموسيقى ، وبناتهم يرقصن على عزف رجالهم ••• وعلى نغمات (الربابة [1]) والطبل والمزمار • انهم على غرار الغجر فى بلادنا،

يجتازها ويصب فى البحر الفارسى وكان البحر يومذاك فى الموضع المعروف فى النجف فى هذا الوقت وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه • وفى سنة ١٨٨٩ وصف المستر بارلو فى كتابه

« ان أكثر الزائرين الذين يقدمون من الهند لزيارة الاماكن المقدسة فى كربلاء والنجف يسلكون طريق الفرات فالعطشان فالشنافية ، وان سفنا كثيرةذات حمولة ٥٠ طنا تمر من هذا الطريق النهرى الذى ينتهى بالنجف وهذا يدل على أن بحر النجف كان على اتصـــال بخليـــج فارس فى زمن المؤرخـــين المذكورين •

(المترجم)

(١) آلة موسيقية ذات وتر واحد ، وهو جزء من شعر الخيل لهـا اطار من خشب يشد عليه من الجانبين جلد مبشـــور يترك فراغا يضاعف ذبذبات الصوت ويضخمها حتى اذا ما سحب القوس فوق الوتر ترك النوحة المعروفة لصوت الربابة • ولقد قال عنها النابلسى فى رسالته (الدلالات فى سماع الآلات) « انها آلة موسيقية عربية قديمة نشأت فى الجزائر وتونس ومراكش وانتشرت فىسائر البلاد العربية•• وخاصة بين سواد العراق •• »

وهم يحترفون تصليح الاوانى والصحون ، وقد يتبارون على ظهور الخيل.. ولهم لغة خاصة ، وليس لهم حظ من سمعة طيبة . وقد تشهد الصحـــراء فضيحة ، اذ قد يهوى شاب من اسرة الشيخ الطيبة فتاة غجرية ويتزوجها.. ان نساءهم على حظ من جمال .

وعلى مسافة اميال من النجف صادفتنا دورية صحراوية . وكان رجالها حوالى الـ ٦ ، وعليهم امارات التوحش . ثمّ اندفعوا نحونا مسرعين وهـم يصرخون صرخات مرعبة ، وبنادقهم مرفوعة فى الهواء . والرجل منهم ينظم شعره على الطريقة البدوية ، ويجعله فى غديرتين متدليتين على كل مـــن الكتفين . وتهاوت بعض الكفافى والعقل وخيول هؤلاء الرجال منطلقة .ان لباس الرأس هذا (الكفية والعقال) ليس عمليا ، اذ سرعان ما يختل نظامه لاقل حادث . وعلى لابسه آنئذ ان يعيد اليه النظام بحركة ميكانيكية وعـلى غرار وضع العباءة على الكتفين . وقد ينسى الانكليزى العناية بهندامه ولكن العربى لا ينسى ذلك ابدا .

وتراءت النجف الان ، وهى تطفو فى سراب الصحراء الممتدة وتغرق. تلك قبتها الذهبية المستديرة (٢) ، ومنائرها النحيفة ، وهى ترتفع فوق اسوارها

وورد ذكرها ايضـــا فى (تاج العروس) : « ان الـــربابة آلة لهــــا اوتار يضرب عليها وأشهر العازفين عليها ممدوح بن عبدالله الواسـطى الربابى » وهى أصل الكمان الغربى المعروف الآن ولعلهـــا انتقلت الى أوربا عبر البحر من شمال افريقيا فاسبانيا فايطاليا فبلدان أوروبا الاخرى . (المترجم)

(٢) وللشاعر عبدالبـاقى العمرى البغدادى المتوفى ســنة ١٢٧٨ هجرية أبيات فى وصفها ، منها :

قبـــة المرتضى علي تعالى	شأنها من موازن وعــديل
من نضار صيغت بغير نظير	فى مثال منزه عن مثيـل
فوقها كالاكليل لاح هلال	رمقته السها بطرف كليل

الى أن يقول :

هى باء مقـلوبة فوق تلك	النقطة المستحيلة التأويل

الرمادية وكأنها صورة من الصور التى تحفل بها قصص الجان • ان المسافر المكدود التعب يرى فيها ـ بعد قطع الاميال الكثيرة ـ واحة جميلة فيها الروح والريحان ، فهى تضم شعائره ومقدساته ومأثوراته الدينية كلها• وفى مقدور المرء ان يرى القبة المتلألئة من مسافة اميال عدة ، قيل انها تبلغ ٤٠ ميلا ان كان الجو صحوا رائعا • ان المرقد يتعالى علوا كبيرا فى سهل يمتد امتدادا واسعا • وتحت القبة هذه مرقد (على الشهيد) رأس أسرة لم تفارقها المصائب الكبر ابدا • والشيعة على الرغم من وداعة علي وتردده في الامور تضعه فى المرتبة الثانية بعد (محمد) • وهناك طائفة تعتقد ان الاله حل فى جسمه • وكثير من الناس يعتبرونه الامام الحق ، وخليفة الله الفذ فى ارضه • وروى لى السيد عباس الكليدار ـ وهو ليس بالسيد عباس الذى ذكرته آنفا ـ قصة تأسيس النجف ونحن جلوس نتناول طعام الغداء ، اذ قال :

ما ان استشهد سيدنا علي فى الكوفة الا وحملوا جدثه على بعير ،وتركوه طليقا ، وقالوا : لندفن الجدث الطاهر حيث يبرك البعير • وجال البعير مسافة اميال عدة ثم برك عند حافة شرف من الارض قائم فوق بحر النجف ، وعلى مبعدة ساعة من الكوفة • وفى هذا الموضع بالذات دفن الجدث الطاهر • ولم يتركوا على المرقد اية علامة لكى يستغلق امره على اعدائه فلا يعمدون الى نبشه • ومضت على ذلك سنون عدة ، وفى يوم من الايام كان الخليفة هرون الرشيد [1] يصطاد الغزلان فى مكان مجاور له • واسرع الخليفة فى اثر طريدة منها وكاد ان يظفر بها لولا انها اتجهت صوب هذا الشرف ووقفت عنده مذعورة بلا حراك • وترجل الخليفة وصوب نحوها سهمه ، ولكنه لم يقدر على شد قوسه فشعر بالربكة واخذ منه العجب كل مأخذ • ورأى

(١) توجد فى مرقد الامام علي بن أبى طالب (كرم الله وجهه) وتحت الطاق صورة رجل وبيده قوس وأمامه غزال قد وجه نحوه قوسه وهذه الصورة رمز الى قصة الرشيد هذه •
(المترجم)

الخليفة شيخا جليلا فى محل قريب ، فسأله ، وهو يرتجف : «ما هذا المكان؟» فأجاب الشيخ : « ان اخبرتك عنه يا أمير المؤمنين قد يصيبنى شر من وراءذلك» واقسم الخليفة قسما غموسا بالنبى انه لن يضر الشيخ بشيىء وامره بأن يفصح عن الحقيقة . وهنا قال الشيخ : «ان هذامرقد على ، ولما كانوا يشفقون من اقلاق رميم عظامه ، فلقد اخفوا سره . هذا وان الغزالة هذه تعرف انها مادامت تقف على مثل هذا الموضع الشريف ، وفوق رميم عظام الامام ، فليس فى مقدور انسان ان يصيبها بضرر . احفر لتتحقق من صدق قولى . »

« واخذ الخليفة يحفر الارض وما ان وصل الى عمق ١٢ قدما الا ورأى قطعة من رخام وتحتها عظام علي ، فأقسم غير حانث ان بقعة كهذه لابد وان تنال ماتستحقه من تقديس واجلال ، فبنى الجامع اولا ، وقامت بعد ذلك مدينة النجف » .

وفى شمال المدينة وشمالها الشرقى مقابر غير مسوَّرة ، وفيها أنواع من القبور ، منها ما تعلوه القبب التى صرفت على تشييدها مبالغ طائلة ، وقدغشيت بالقاشانى الملون البهيج ، واللون الغالب فيه الازرق الشذرى ، ومنها ما لايعدو ان يكون كومات من تراب . ويؤتى كل سنة بعــدد كبير من جثث الموتى من ايران لتدفن فى كربلاء والنجف . ولعل مما يبعث الدهش ان لاتكون المقابر هذه الا بمثل سعتها الحالية ، فمقبرة كل من المدينتين لاتكاد تكفى موتى اهلها . وقيل لى ان هناك ١٠ آلاف قبر فى النجف ، لا اكثر ولا اقل ، وانف تقرير دفن الجثث السنوى راغم . فكيف تفسـر اذن ظاهـرة غريبـة كهذه ؟ ولكل قبر ثمن ، وتحدد الثمن هذا درجة قدسية موضعه . وتحتفظ وزارة الاوقاف فى بغداد بحسابات المبالغ المدفوعة هـذه ، وهى تعنى بأن يـكون صرفها فى سبيل « صيانة العتبات المقدسة » .

ودفن الموتى فى المقبرة العامة (وادى السلام) عملية زهيدة الكلفة ،

اذ انها لاتكلف اكثر من ٦ روبيات و ٤ آنات (٨ شلنات تقريبا) • والدفن في مقبرة خاصة يكلف ٥٢ روبية ويكلف الدفن في المسجد او حواشيه مبلغا كبيرا من المال ، وقد يبلغ الـ ٧٥٠ روبية ، في (الرواق) ، وقد يقل عن ذلك تبعا لواقع الحال • وفي سنتي ١٩٢١ و ٩٢٢ بلغت واردات بيع القبور اكثر من (٥٧ الف) روبية • واكثر شهور السنة ايرادا شهر نيسان ، واقلها شهر تموز • وبلغت رسوم الدفن في كربلاء وحدها قرابة الـ ٢٢ الف روبية • ويكثر الدفن فيها في شهري تشرين الاول وتشرين الثاني من كل عام • ويضاف الى ذلك كله ان المدينة تحصل على موارد رابحة أخرى من تشييع الجنائز ، وبناء القبور ، وحفرها وما الى ذلك • ويؤتى بالجنائز من ايران في توابيت لا غطاء لها ، وقد تنقل على ظهور الخيل والبغال ، او بعربات مفتوحة • فان حملت على دابة ، عُلِّق تابوت على كل من جانبيها • وما ان تصل الجنازة المدينة الا ويأخذون في غسلها وتكفينها (وتلك حرفة مربحة اخرى) ثم يطاف بها حول المسجد وتدفن ، في خاتمة المطاف ، ووراءها الروحانيون والمشيعون (وتدفع لهم الاجور لقاء ذلك) وبين التراتيل وتصاعد روائح البخور •

••• ووقفت بنا السيارة اول مرة عند (خانة الشرطة) حيث قتل الرئيس مارشال Capt. Marshall سنة ١٩١٨ • وممن رافقنا من الاعراب رجل كان مع مارشال هذا عند مصرعه • ووصف لنا كيف ان قاتليه طلبوا بادىء ذي بدء مقابلته وما ان سمح لهم بذلك الا واجهزوا عليه فورا • ولو تحرينا اسباب مقتل هذا الضابط لوجب علينا ان نتعمق السياسة المحلية في المدينة ؛ ففي النجف طائفتان من الناس : (الزقرت) و (الشمرت)ولكل طائفة قادتها ، وكثيرا ما يتعالى الُخلف وينشب العراك بين الطائفتين بسبب الشنآن التقليدي بينهما وعلى غرار ما كان يحدث بين طائفتي الكلف Guelph والغبلين Ghibelline في (فلورنسة) خلال القرون الوسطى •

والطائفتان تجندان كل من خلع العذار واهل البطالة فى المدينـــة ، وليس فى مقدور (المجتهدين) فيها ان يضعوا حدا لشجارهما ، وما تثيران من قلق او اضطراب • والطائفتان تستخدمان المقاتلين باجرة Bravoes ، كمـا ان خطرهما لاينحصر بالمدينة نفسها ، فلكل من الطائفتين انصار واعداء خارجها • لذا قد يتطور عراك محلى داخل النجف الى حرب قبلية [1] واسعة • وقد

---

(١) كانت اذا سعرت نار الحرب بين الفريقين تعطل الاسواق وتسد أبواب البلد فلا داخل يدخل ولا خارج يخرج فتكون البلدة فى حصار وتغلق أبواب الحرم العلوى ··· وهذا الانقسام بين (الزقرت) و (الشمرت) موجود اليوم فمحـلات : (العمـارة) و(الحويش) وأكثر (البراق) فى النجف زقرت و(المشراق) وبعض من أهل محلة البراق شمرت ··· والزقرت هو الصقر ولعلهم كانوا يتصيدون بالصقور أو يصطادونها وفى اللغة العامية الدارجة اذا قال الرجل أنا زقرتى يعنى انه خفيف المؤنة لا عدة له ولا عيال ويحتمل ان هؤلاء كانوا بدء أمرهم كذلك لا سلاح لهم ولا عدة · أما الشمرت فلعلها من (الشمردل) ومعناه اللغوى : الفتى السريع فيحتمل انهم أرادوا هـــذا المعنى وفيه دلالة على قوتهم وشدة عددهم · (راجع ماضى النجف وحاضرها لجعفر آل محبوبة) ·
(المترجم)

(١) قيل ان سبب الخلاف بين (الشمرت) و (الزقرت) ناجم عن نزاع عشائرى دار حول امرأة · فلقد زعموا ان سيدا عاش فى (القصر) — أو فى (الركبة) فى رواية أخرى — والقصر قرية صحراوية صغيرة قريبة من النجف، وان عروسه ، أو امرأة من عشيرته خطفت ، فخلق الامر هذا ثأرا ، وان معنى زقرت (المنعزل عن أسرته)· ولقد أكد لى أحد الآباء الدومنكيين ان هـــذه الرواية من التفه والسخف بمكان عظيم ، وأضاف الى ذلك : « ان السلطان مراد الرابع فتح بغداد وانتزعها من يد الفرس · وكانت شيعة النجف تكره حكم الاتراك · واستطاع الاتراك أن يكيدوا لها فخلقوا فيها طائفتين متخاصمتين متعاديتين ، ودأبوا على تحريض كل طائفة ضد الاخرى · وسبب الصـراع بينهما اضعاف الطائفتين معا ، وتقوية سطوة الاتراك فى المدينـــة · وتم للاتراك ذلك عن طريق اثارة الشعور الطبقى العدائى · ذلك انهم استدعوا الفقراء المحرومين ووعدوهم بأن يساندوهم ضد الموسـرين والذين حصلوا على أملاك فى العهد السابق، ومن هؤلاء تألفت طائفة (الزقرت) · ثم استدعى الحاكم التركى بعد ذلك الموسرين الذين ذعروا من تكوين طائفـــة الزقرت (والشمرت تركية وتعنى الغنى الموسـر المرفه ، والزقرت تعنى عكس ذلك)

تتحد الطائفتان فى بعض الاحيان كما حدث عند مقتل الرئيس مارشال .
ان زعيم (الشمرت) ... الحاج سعدون بن الحاج راضى هو الذى حبك مؤامرة قتل «الانكليزى» بالدرجةالاولىوقيل انه كان علىصلة بسيد الزقرت (كاظم الصبى) .ولم يكن للسيد محمد كاظم اليزدى (المجتهد الاعظم) فى ذلك الوقت ضلع بالمؤامرة لذلك عصفت الحيرة به عند ارتكاب الجريمة واخذ يضرب اخماسا لاسداس . وكانت سيطرة الانكليز على البلد آنئذ قوية وقطع الماء عن النجف ، وبقيت الابار فى داخلها المورد الوحيد الذى يستقى منه اهلوها. وطوقتالتلال العالية (التى ساعود لذكرها بعد حين) واسقط فى يد اهل النجف . ولم تطلق اية اطلاقة ، وعرفت المدينة انها لا تقوى علينا . وتم تسليم القاتلين الى العدالة (كذا !) ، وحكم على ١٣ منهم بالاعدام، ونفى ٥ اخرون وارسل بعض المشتبه بهم الى الهند . وساد الهدوء المدينة اثر هذا الدرس الذى تلقته النجف ولم تنسه فى يوم من الايام . واشتدت حملة الصحف فى بريطانيا تطالب بانسحاب البريطانيين ، واعتقد اهل المدينة ان قوتنا ضعيفة ، وكل ذلك هيأ السبيل للمكائد والدسائس من جديد . وشد ازر اهل المدينة دعاة الوحدة العربية فى سوريا . لذلك فان شرارة ثورة

ووعدهم بأن يحميهم من الطائفة الجديدة ، وقال ان الحكومة التركية وجدت فيهم العون والمساعدة فى اقامة دولتها . ولم يفسح الاتراك المجال لاية طائفة من الطائفتين لتصبح ذات شأن وخطورة ، وكان هواهم يتأرجح بين هذه الطائفة والطائفة الاخرى ... وكثيرا ما كانت حكومتهم تعمد الى تسليح هذه الطائفة اولا ثم تسلح بعد ذلك الاخرى لتبقى لها الكلمة العليا واليد العليا فوق كل من يعارضها من الطائفتين . وافادت من هذه السياسة بيقين.

والشائع ان (الزقرت) اشجع من (الشمرت) . ولعل المتواتر من امر الطائفتين ، ورواية صديقى الاب الدومنيكى صحيحة ايضا . اذ قد ينهجم فى المدينة ثأر عشائرى ، فيستفيد منه الاتراك . او لعل احدى الطائفتين سلبت الاخرى ثروتها وسطوتها . ومهما كان الامر فان روحانيى الشيعة ، استطاعوا على ما يقال ، ان يوحدوا الطائفتين بازاء البريطانيين . وهناك طائفة معتدلة ثالثة تدعى (الشقرت) ولم استطع ان اقف على كثير من أمر هذه الطائفة المتزنة الحصيفة .

(المؤلفة)

١٩٢٠ لم تندلع الا َ فى النجف ، بالدرجة الاولى[١] • ان النجف موطن الثورات ، وهكذا كانت فى أيام الحكم التركى تناهض حكومته ••• وهى ، وكربلاء ، اليوم موطن السياسيين المتطرفين (كذا !) الذى لا يقرون الاوضاع الراهنة • وخير مثال على ذلك اجتماع كربلاء الذى عقد فى ربيع سنــة ١٩٢٢ • قيل ان السبب فى عقده اتخاذ ما يلزم لصد غارات الاخوان او «الوهابيين» على ما زعموا والحفاظ على العتبات المقدسة لئلا يصيبها منهم مكروه • ولكن القصد الحقيقى من الاجتماع لم يكن الا َ دعوة الشيوخ لتوقيع بيان ضد الانتداب واتخاذ اجراءات حازمة لادراك الهدف المقصود ، ان لم يكتب لبيانهم النجح • وكان المجتهد مهدى الخالصى (الكاظمى) ، على رأس الحركة ، ويناصره فريق من المتطرفين ببغداد • حضر رجال من الحاشية الملكية لادارة دفة النقاش وتوجيهه الوجهة السليمة ، اما « الوجهة السليمة » هذه فلم تكن جلية واضحــة • وتظافرت الجهود على حمل كبار المجتهدين على مؤازرة الحركة هذه ، لكن قليلا منهم اثرت فيه الدعاية فآزرها فعلا • ولم يسهم فيها شيوخ العشائر ، اصحاب التفكير المنطقى الصحراوى البسيط ، فلقد ادركوا بادىء الرأى ان لـ (أفندية بغداد) (كذا !) يدا فيها[٢] وألقى المعتدلون السمع الى ما دار فى

---

(١) فى الحق ان الشعب العراقى بأســره شــعر بأن المحتلين البريطانيين الذين جاءوا باسم « محررين » يريدن الاستعمار الدائم لبلادهم لذلك أحسوا بخطر ذلك ومعرته فقاموا بسلسلة من الثورات منذ سنة ١٩٢٠، أهلية كانت أم عسكرية للتخلص من ربقته •
(المترجم)

(٢) فى الحق ان الشعب العراقى كله أحس بالاستعمار الذى يوشك أن يخيم على صــدره وأدرك بادىء ذى بدء المعرة التى تلحقــه فى حاضره ومستقبله فقام قومة رجل واحد ، وكالليث عاديا ، وما هذا الاجتماع وأمثاله فى بغداد وغيرها وما الثورات المسلحة فى شــمال العراق وجنوبه الا أدلة قاطعة على نزوع الشعب الى الاستقلال والتحرر ومشاعره المرهفة وعقلــه المتألق • وتعبير « أفندية بغداد » من التعابير التى شــاعت على ألســنة المستعمرين ، ومن سار فى ركابهم ، ولم يقصدوا منه ومن أمثاله الا التفرقة وتشويه فحوى الثورة ومحتواها •
(المترجم)

الاجتماع ... وكان نصيبه الفشل فى خاتمة المطاف ، وتضاءل ما كـان للخالصى من سطوة ونفوذ .

ويلى (الكليدار) المجتهدين فى المقام . ومنصبه وراثى ، وهو القيّم على كنوز العتبات المقدسة ونفائسها . ولا تطلب الحكومة منه ان يقدم حسابا عن الامانة التى بعهدته . ان كنوز العتبات المقدسة لكبيرة جدا ، وهى على غرار ما تحفل به الاساطير من نفائس وكنوز . وكل شيعى ملزم بان يدفع مبلغا سنويا من المال لادامة العتبات المقدسة وصيانتها . وعليه ايضا ان يؤدى فريضة الزكاة . ويجود الزوّار على العتبات المقدسة بالمنح والهدايا ، وعليهم ان يفوا بنذورهم فيها . وسنحت لى فرصة رؤية احدى هذه الهدايا وهى تمر محمولة من بغداد . ذلك ان احدى السيدات الفارسيات خافت على وليدها المريض فنذرت ان تقدم درعا ثمينا للامام عند شفائه . وتمّ ذلك ، والظاهر انها ندمت على النذر فسألت (الملالى) ان كان التحلل من مثله ميسـورا ، فاجابوها ان ذلك ميسور ، وعلى وجه التحقيق ، شـريطة ان تدفع لهـم ما يساوى ثمن الجوهر فيه ليصرفوه على اعمال البر . ودفعت السيدة اليهـم النقود ، ولكنها رأت بعد ذلك ، فيما يراه النائم من حلم ، ان عليا مثل امامها ووبخهـا على ماصنعت ... واستيقظت المرأة من نومها مذعورة وسارعت الى ارسال الجوهر الى النجف ، وقام الابن نفسه بحمله ومعه سيف مرصـع ايضا . ان الدرع المعلق بسلسلة ذهبية حول العنق عبارة عن منظـومة من الماسات الضخمة ، والزمردات والصفّيرات[1] انه بدائى الطراز والصقلة ، وان كان على جانب كبير من القيمة .

وتقوم سلطات الاوقاف بتسجيل مثل هذه الهدايا وتصويرها ان مرت ببغداد . واستطعت ان اشاهد بعضها ابان امرارها من العاصمة وتسجيلها .

---

(١) فى الاصل Sapphires وهو ضرب من الياقوت الازرق .
(المترجم)

وتنهال على العتبات المقدسة الطنافس الثمينة ، والاحجار الكريمة ، وسبائك الذهب والمجوهرات ، والتراث[1] على اختلاف انواعه ، ذلك بالاضافة الى المال القليل والعطايا المتواضعة التى يقدمها لها فقراء القوم • فهناك شق يعلو مرقد على ومنه يرمى الزوار النقود والجوهر • ومفتاح المرقد عند (الكليدار) ، وهو الذى يجمع النذور والعطايا حصرا • قيل ان كنوز كربلاء والنجف عرضت على (ناصر الدين شاه) عند زيارته لهما فبلغ وزن الذهب والفضة فيها ٧ اطنان ! ومن بين هذه النفائس سراج مصنوع من زمردة واحدة ، وثريات من ذهب خالص ، ومرصعة بالياقوت ، وسجادة مطرزة باللؤلؤ • وقبة النجف ومنائرها الاربع مغشاة بالذهب الخالص ، وهى من مآثر ناصر الدين شاه •

وليس بمستغرب ان تحاط المدينة باسوار عالية ، وبخندق ، على غرار المدن فى القرون الوسطى • ذلك ان ما تضمه من ثروة عظيمة تغرى العشائر الجائعة خارجها ، ما فى ذلك شك • ولا يرجع تاريخ اسوار المدينة لاكثر من ١٠٠ سنة ، وفيها بَسْطونات[2] على مسافة كل ١٠٠ ياردة • ولو دخلت المدينة من بابها الشرقية لوجدت نفسك على حين غرّة[3] فى السوق المسقفة ؛ والسوق هذه عبارة عن طرق مسقفة ، وازقة فرعية مغطاة اتقاء الأوار[4] ويجلس فى صف منه باعة الفواكه والمخضرات ، واهل الصنعة الواحدة اميل الاجتماع فى مكان واحد • وفى صف آخر يجلس صانعو الاحذية ، الحمراء منها والصفراء • وهناك طريق آخر تجد فيها دكاكين تباع فيها

---

(١) فى الاصل Heirlooms وهو الاموال والتحف الموروثة يتوارثها الخلف عن السلف أجيالا عدة • (المترجم)

(٢) فى الاصل Bastions وهو البرج البارز من بناء • (المترجم)

(٣) غرة = غفلة • (المترجم)

(٤) الاوار = شدة حر الشمس • (المترجم)

(العبى) ، والنجف تشتهر بصنع الحريرية منها ، وعلى اختلاف الوانها (٥).
وتميز العباءة النجفية بخيط ازرق يخاط على جنبة منها ومعـه الذهب او
الفضة . والخيط هذا ، بزعمهم ، يقى من العين الشريرة .

وهذا سوق النحاسين ، وفيه ضجيج وعجيج واصوات المطارق تنزل
على ما يحاولون صنعه من آنية الطبخ او الصحون والادوات الاخـرى .
وذلك سوق الفخاريات وفى مقدورك أن تشترى فيه اناء مفخورا من كل حجم
او شكل ، والفخاريات هذه بيضاء اللون وذات مسامات ، وقد تكون مغشاة
بطبقة من الزلاج الازرق . وفى السوق القديمة (القيصرية) أركان غريبة
وجملونات (٦) ناتئة ، انها سوق جذابة تسترعى انظار الاوروبى ، وفيها
دكاكين تبيع (الناركيلات) الخزفية الفارسية الصنعة . وهناك سوق تباع فيها
الاحجار الكريمة ، وفيها صفوف من صناديق تحوى فصوص الشذروالعقيق
والياقوت ، وبلّورات النجف قبل كل شيء . وفى مقدر المرء ان يشاهد رجلا
هما هرما يصقل هذه البلورات بادارة عجلة خاصة . ولو عثرت على واحدة
منها فى الصحراء لوجدتها خشنة الملمس تافهة ولكن الرجل قادر على قطعها
وصقلها وتهذيبها وجعلها جوهرة صافية نقية متلألئة . وسرعان ما ينفـذ
السوق على باب المسجد الكبرى المغشاة بالقاشانى ، وانك لترى عليها سلسلة
مثلثة من نحاس .

ان الزخرفة هذه نتاج الخيال الوردى المبدع والاحساس الجمالى ، وهو
ما تعكسه الالوان التى تلازم القاشانى الفارسى . وفى مقدور المرء ان يتملى من
خلال هذا الطاق ... هذا صحن الجامع الخارجي ، وهذه بناياته ، انـه

---

(٥) تصدر النجف العباءآت الثقيلة (الخاجية) الى كثير من البلدان العربية والعباءآت الخفيفة الى ايران وكذلك النوع المعروف (بالعباء النايلى) السنامى . (المترجم)

(٦) فى الاصل Gables والجملون كلمةشائعةفى العراق وتعنى السقف المترجم

لمنظر جميل ساحر مبعثه الصور القاشانية الملونة بالالـــوان : الذهبيـــة ، والشذرية ، الزرقاء ••• وكل ذلك يجعل المرء أشد كلفا بها وتـوقا للمرور بقربها • وعلى المرء أن لا يطيل الوقوف قرب الطـــاق ، ذلك ان الشنزوات تلاحق الغريب فى حلّه وترحاله • ان الوجوه الشـــاحبة المتزمتة تتراءى فى الضوء الشاحب ، وداخل الحوانيت الظليلة ، ولن تجد بائعا متجولا يتقدم اليك مبتسما ويغريك على شراء شىء مما يبيع • فان اردت ان تشترى شيئا فلن تجد الا التأدب ، ولكن فى غير اهتمام • ان التزمت وشـعور الـكره يؤثران فى النفس البشرية تلقائيا ، وعلى الرغم من جمال المكان ••• فينتاب المرء لذلك خواء الروح وبرودة القلب •

والنجف جميلة جدا • لكن شوارعها ليست على شىء من الاســتقامة والتنظيم • وتعلو الازقة فيها طوق البيوت ، ولهذه نوافذ ناتئة • والازقة فى النجف ضيقة متعرجة ، ولا تنفذ اشعة الشمس اليها الا لماما • وقد يصادفك على حين غرة باب من أبواب الحرم الكبيرة ، وهى مزينة بالزهور المختلفة الالوان • ان الطابع المميز لكل ذلك الجد الصارم ، وكأن البلد لقى مصيره المحتوم • هذا وان نصف (المدينة) كائن تحت الارض ، والنصف الارضى هذا عميق ، جد عميق • انه شبكة من السراديب المتصلة ؛ وبينها ممرات ؛ وقد يفضى بعضها الى الصحراء خارج المدينة • ولكل بيت سردابه ، والسرداب غرفة ارضية سوداء تقع تحت الارض على عمق ٧ اقدام ، واليه يأوى سكان البيت في وديقة (١) الصيف ، ويحتمل ان يكون تحت السرداب سرداب ثان وثالث ورابع ••• وفى السراديب آبار عميقة جدا •

وبيوت هذه المدينة المسوّرة مبنية بالحجارة أو محفورة ، وفى خارجها تلول غريبة عالية • واحد هذه التلول يشـــرف على باب النجف الجنوبى واسوارها • ويقال ان هذه التلول نتاج تلك الاكداس المكدسة من التراب المستخرج

---

(١) الوديقة = شدة الحر •

من حفر السراديب وممراتها. وفي مقدور المرء أن يرى من أعالي التلول منظرا رائعا لمدينة النجف و(بحر النجف) الممتد حتى حافة التل المنحدر. انه واد ضاحك ضيق يتلألأ فيه الماء وتزينه الخضرة. وانك لتشاهد كل يوم الحمر الصغار تغدو وتروح و(الماء فوق ظهورها محمول). وقد تسمع نقرات طوس الماء، وهي مصنوعة من نحاس، واصوات باعته وهم ينادون عليه داخل شوارع المدينة. وتمتد الصحراء الواسعة حتى مد البصر، وخارج نطاق الخضرة الذي يحيط بالنجف.

ورحب بنا في زيارتنا الاولى للنجف الكليدار السيد عباس ... ومن معه نقيب الاشراف السيد هادي، ومحسن شلاش، وهو تاجر ثري، وقليل غيرهما من الوجهاء. وجلس هؤلاء الرجال معنا للطعام في غير تحرج او تزمت. وكان مضيفنا رجلا سمحا كريما، وسرني ان احظى بزيارة زوجته اللطيفة، وان اتحدث الى ابن اخيه، وارى طفله الرضيع (السيد حسين).

والسيد عباس كهل، وهو وسيم المظهر ذو لحية مهندمة ويرتدي (سيدية) خضراء دلالة على نسبه الشريف. وغرفة الضيوف في بيته طويلة ضيقة، وفي جانب منها نوافذ تطل على فناء البيت، وصفت (الدواوين) في جوانبها الاربعة، وعلى (الدواوين) وارض الغرفة فرشت طنافس فاخرة. ان جدرانها مزخرفة بالمرايا الفسيفسائية. ودعونا ان ندخل غرفة الضيوف لنرتاح فيها ان شئنا. انها تشبه غرف النوم في العراق، واثاثها يأتلف من سرير مزدوج كبير، تعلوه ستائر وردية من حرير، وغطاؤه من (الساتان) المطرز بالفضة، وقد وضعت عليه نمارق من (الساتان) مطرزة بالذهب. ومساند السرير منجدة بالقطيفة، وهي ذات الوان بدائية ...

الفصل الثانى

الكوفة[1]

أسست الكوفة ايام نهضة الاسلام ، ولكن اهلها قديما دأبوا على التقلّب فكانوا مذبذبين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلئك ... فسرعان ما كانوا يمالئون هذا ، وسرعان ما ينقضون عليه ! ومن يقدم كربلاء او النجف لزيارة عتباتها المقدسة لابدّ وان يعرج على الكوفة ويزور المسجد الكبير الذى استشهد فيه الامام على ...

ان أهل الكوفة هم الذين أغروا (الحسين بن علي) على التوجه مع أفراد اسرته عبر الصحراء والى مدينتهم ، لكنهم سرعان ما اشفقوا على ارواحهم فخذلوه ولم يلبّوا طلبه فى الوقوف موقف المؤيد لقضيته . وذكّرهم الحسين بالبيعة التى اخذوها على انفسهم واليمين التى اقسموها على نصرته . وكان ان حزّ رأس الحسين واهل الكوفة ينظرون !

وفى الكوفة خذل (زيد) حفيد الحسين أيضا؛ أغراه أهلها سرّا على الثورة فى وجه الخليفة الاموى ، وأخذوا على أنفسهم عهدا بأن يكفروا عن سيئات آبائهم الاقدمين ويزيلوا الوصمة التى الحقوها بمدينتهم بخذلان جدّه .واراد (زيد) ان يختبرهم ، ورفعت راياته فى الكوفة قبل هجوم جيوش الخليفة عليها ... ولم يقف فى صفّه من اهلها سوى ٢٠٠ وسرعان ما تفرّق هؤلاء ايضا فرقا واشفاقا . وغلق باب المسجد على زيد اشدّ الناس تظاهرا فى

---

(١) أنشأها العرب فى سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م) بعد فتحهم العراق ، وصارت عاصمته ودار امارته حتى ابتنى الحجاج (واسط) وكانت مقر خلافة الامام علي (رض) وبها بويع أبو العباس بالخلافة عام ١٣٢ هـ . وجاء فى تاج العروس : سميت الكوفة بالكوفة لاستدارتها . وقيل بسبب اجتماع الناس بها ، وقيل لكونها رملية حمراء ، ولاختلاط ترابها بالحصى . والكوفان : الدغل من القصب والخشب : التاج ٦ : ٣٤٠ (مادة ك وف) .

(المترجم)

نصرته . وخاطبهم زيد عساهم يتذكروا عهدهم ويخجلوا من نقضه ... وذهبت الصيحة بلا صدى ، وقتل زيد مع من بقى على نصرته منهم ، وهم جدّ قليل . اما الكثرة الكاثرة منهم فبقوا متخفيّن ، يخشون اسداء المعونة له او نجدته .

والكوفة ، اليوم ، وعلى الرغم من نباهة شأنها فى تاريخ الاسلام ، قصبة صغيرة . وهى ترتبط بالنجف بخط تراموای طوله ٧ أميال وتجرّه الخيول[٢] عبر الصحراء . وتتراءى القصبة على شىء من التفه بسبب قربها من مدينة النجف العظمى .

زرت الكوفة مرتين ، مرة من الحلة ، ومرة اخرى من النجف ، ولم تراودنى نفسى على زيارتها مرة ثالثة . ويخترق طريق النجف ـ الكوفة صحراء مسطحة نظيفة تزينها احيانا احداق زهيرات بريّة زرقاء . وتتراءى من بعيد قبة النجف الذهبية وهى تتلألأ وتتألق فتسرّ الناظرين . وقد يعبر المسافر بين الفنية والفنية جدولا من تلك الجداول المندرسة . وتروى بصدد احدى هذه الجداول اسطورة عربية قديمة : قالوا ان فتاة وضيئة كانت تسكن عمان ، وخطبها الكثيرون ولكنها فضّلت من بينهم رجلا بصريا ، ولكنها غالت فى صداقها ولم ترض به بعلا الاّ بشرط : هو ان يقوم بحفر جدول تستطيع ان تنقل بواسطته فى قارب يحملها من عمان الى البصرة . وشمّر خطيبها عن ساعد الجد ، واستغرق حفر الجدول ٨٠ سنة وعندما جاء الخطيب بخطيبته اثر ذلك الى بيت الزوجية كانت الفتاة الوضيئة قد بلغت من الكبر عتيا ، وخلّفت « زهرة العمر » ظهريا : والظاهر ان مغزى الاسطورة هذه يخالف مغازى اساطير الجان وما فيها من شرط تشترطه الاميرة على خطيبها !

---

(٢) لا أثر لهذا الخط اليوم وترتبط الكوفة بالنجف الاشرف بخط مواصلات من سيارات الركاب الكبيرة ، كما أخذ الاهلون يبنون البيوت العصرية على جانبى الطريق .
(المترجم)





أطلال (دار الامارة) التى شيدها القائد الاسلامى الكبير : سعد بن أبى وقاص
(القرن الاول الهجرى = القرن السابع الميلادى)

أمام الصفحة ٧٧

وجامع الكوفة الكبير [1] على بعد اكثر من ميل من القصبة الحالية . انه قائم فى صحراء ، يحيط به جدار يجعله اشبه ما يكون بحصن . وفى الجدار اعمدة شبه دائرية ، وهى فيه على مسافات . وفى داخل الجدار ساحة كبيرة وفى وسطها المزار المشبك حيث استشهد على . وقيّم المزار شيخ وديع ، يضع فى اصبعه خاتما بابليا ويزهو به كثيرا . ولم يكن ليغلب على هذا القيّم التعصب شأن غيره . فلقد سمح لى بأن اقف على الباب الرئيس لاصور منها ما اشاء !

وسألته : أهو قديم ؟ فأجاب ، وعليه سيماء الجد :ـ

اجل ، انه قديم قدم آدم !

وفى الحق ان ما هو قديم فيه لا يعدو منارة الجامع ، اما الجدران التى

---

(١) أجرت مديرية الآثار العامة التنقيبات المتعاقبة خلال السنوات ١٩٣٨ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٥٧ فى الأطلال المجاورة لمسجد الكوفة والمعروفة باسم (قصر الامارة) وأظهرت فيها معالم السور الخارجى ، وبعض الغرف فى قسمه الشمالى المتصل بالجامع ، كما انها توصلت الى معلومات قيمة عن مخطط القصر وطبقاته وحصلت على مجموعات من اللقى الآثارية المهمة والنقود . وفى سنة ١٩٥٥ عثرت على جزء من التصاميم التى كان عليها قصر الامارة فى الكوفة فى زمن الفتح الاسلامى للعراق وفى العصر العباسى فلقد كشف عن ٤ دور للامارة شيدت كل واحدة منها على أنقاض الاخرى . ان دار الامارة التى يرتقى زمنها الى أيام الخليفة المأمون تحتوى على قبة تتصدر بناء واسعا له أربعة أبواب ، وعلى محورين متعامدين ... وأمام هذه القبة بهو يقوم على أعمدة .

وفى سنة ١٩٥٧ كشفت المديرية عن القسم الجنوبى من دار الامارة حيث المرافق الموجودة ضمن سورها الداخلى . ان المعالم المعمارية الاولى المكتشفة تعود الى زمن القائد العربى الكبير سعد بن أبى وقاص . ويرجع حوالى الـ ٧٠٪ من بقايا الابنية القائمة وسوريها الداخلى والخارجى الى ذلك الزمن . هذا وان الاحداث ، والتغييرات التى طرأت على الدار فى الدورين الاموى والعباسى قليلة وأحدث أهمها فى جنوبى غربى الدار فى العصر الاموى .

راجع : (النشاط الآثارى فى العراق – نشرة لمديرية الآثار العامة فى العراق) .

(المترجم)

تحيط به وتتراءى وكأنها من مخلفات القرون الوسطى فلم تُبْنَ الآنَ حديثا .

وهنا عين ، وحولها اسطورة : قيل ان مياه الطوفان التى غمرت الدنيا كلها فى عهد نوح تدفقت من هذا العين بالذات وبأمر من الله وليهلك الناس جميعا ..

وعلى مقربة من الجامع الكبير ، وفى الصحراء ايضا ، يقوم بيت ينسب الى الخليفة القتيل وقبران ينسبان الى مسلم بن عقيل وهينهن امواه[1] وهما ممن يجلّهم الشيعة . والظاهر ان الجامع كان على النهر ، ولكن النهر بدّل مجراه فأخذ اهل الكوفة يبنون بيوتهم امام الجامع وتقدمت القصبة .

والكوفة ميناء نهرى تقع على نهر الفرات السلسال وتكتنفها خمائل النخل العامرة والبساتين المتضوعة ، ولها جسر جيد البناء . وتجــرى أمام المدينة سفائن كسفن الفايكنغ[2] والقوارب النهرية ، والمراكب وهى تحمل البضائع من كل نوع . والمدينة مفتوحة وتلعب الرياح فى جوانبها . وكان لها سوق جميل قبل ثورة ١٩٢٠ وقصف فبنوا سوقا جديدا محله ... انه سوق بارد يتخلله الهواء ويأتلف من دكاكين متينة البناء . وبين الحلة والكوفة أجهز الثوار على وحدة الـ (مانجسترز)[3] وأفنوا أفرادها عن بكرة أبيهم، وما

---

(١) كذا فى الاصل الانكليزى والراجح انه قبر هانئ بن عروة .
(المترجم)

(٢) الـ The Viking هم قراصنة الشمال .
(المترجم)

(٣) The Manchesters وحــدة عســـــكرية بريطانية أرادوا بواسطتها وبمثيلاتها قمع ثورة العراق سنة ١٩٢٠ . ففى ٢٠ تموز تجمعت الحاميات البريطانية فى (النجف) و(أبو صخير) و(الشامية) وحاصرت الكوفة زهاء ٣ أشهر ، وفى ٢٣ تموز وقعت معركة (الرارنجية) الشهيرة وتعرضت ٣ سرايا بريطانية من وحدة المانجسترز هذه للهزيمة حيث أسر الثوار ١٦٠ بريطانيا وقتلوا ١٨٠ وجرحوا ٦٠ وغنموا ٥٩ مدفعا رشاشا ومدفعـــــا من عيار (١٨ عقدة) استعملوه فى اغراق الباخرة فاير فلاى فى شط الكوفة.
(المترجم)

زالت جثث القتلى ورمم الخيول ومخلفات المعركة باقية شاهدة على ذلك • وشربت الشاى مع (المدير) فى منظرته المُطِلّة على النهر • ولعله حاذر من ان يضيفنى، وانا امرأة وحيدة ، داخل الدار لئلا يثير القيل والقال، ولعلى مخطئة فى هذا الظن ايضا • وتبدو على وجه (المدير) الشاب امارات الحزن ،وهو لا يعرف عن العالم الخارجى الا لماما • انه قريب للقائمقام وهو رجل عرف بنزعته العدائية للانكليز ، سبق ان انزل العلم البريطانى ابان الثورة وداس عليه بقدميه • لقد نحّوه اخيرا عن منصبه لا بسبب هذه النزعة ولكن لعدم كفاءته بوجه عام !

الفصل الثالث

كربلاء[1]

وتلى (كربلاء) - عند الشيعة - (النجف) من حيث الاهمية ، وفى مقدور المرء ان يزورها من النجف او الحلة . ولا يسلك الطريق الصحراوى الذى يربطها بالنجف الآن لماما ، لكن الزوّار ، على الرغم من ذلك ، يسلكون الطريقين دوما . ولو ترك المرء (النجف) وسلك هذا السبيل فانه يشاهد اولا الكثير من القبور ، ومنها ما تعلوه القباب المغشاة بالقاشانى المموّه ، ومنها ما تبنى على غرار المزارات الشائعة،او بالآجر ،والبقية الباقية لا تعدو ان تكون اكداسا من طين . وقد يشاهد المرء بين الفينة والفينة موكبا جنائزيا ... او كلاب البرية وهى حائمة بين القبور .

وبين (النجف) و (كربلاء) قاع صفصف رملى [2] وآثار الطريق المتَيهة [3] التى تربط المدينتين سريعة المحو ، ولا سيما عند هبوب العجاج [4] لذلك ، كثيرا ما يضلّ السالكون الطريق . ان طولها ٤٠ ميلا ، وليس فيها

---

(١) تقع كربلاء على الضفة اليسرى لجدول (الحسينية) وعلى مسافة ١٠٤ كيلو مترات من بغداد . ومدينة كربلاء عريقة فى القدم وقد وسعها السلطان سليمان القانونى (٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م) ثم خططت من جديد فى ولاية مدحت باشا (١٢٨٦ هـ - ١٨٦٩ م) . وفيها مرقد الحسين (ع) الذى استشهد فى اليوم العاشر من المحرم عام ٦٠ هـ . والى جانبه مرقد ابنه (على الذى قتل معه . وعلى مسافة قليلة من غربى الصحن الحسينى مرقد اخيه (العباس) . وعلى بعد ٧ كيلومترات من كربلاء غربا يقع قبر (الحر بن يزيد الرياحى) وكان قد استشهد مع الحسين ودفن حيث قتل . والى الشرق من المدينة على بعد ١٢ كيلومترا منها يقع مرقد (عون بن عبدالله بن جعفر) وامه زينب بنت على (ع) وكان عون قد قتل فى هذا الموقع فدفن فيه - راجع الدليل الجغرافى العراقى - للدكتور احمد سوسه (لواء كربلاء) .

(٢) اذا اتسعت الارض واستوت ولم يتخللها شجر او خمر . المترجم

(٣) الطريق التى تضل سالكها . المترجم

من المعالم شيء ، وقد تغور عجلات السيارة فى كثيب ...

وكان يوما فاختيَ اللون من ايام شباط عندما سلكت هذا الطريق ... وقنابر الصحراء ، وهى ليست بذات عرف ، دائبة الشدو والغناء . ولا تعدم الصحراء هذه ، على الرغم من الملوحة الظاهرة عليها ، شيئا من النبت ،وفيها زهرات لا عهد لى بها من قبل . وقطفت منها زهيرة خشاش ارجوانية اللون وعذقا من زهيرات برية غريبة اخرى . ان ارضها مسطحة محصـاة [٥] ، ومهما بلغ تسـكابُ المطر عليها من شدة فهى باقية كبلقع مهجور . وما ان يقترب المسافر منها الا وتتلاشى الخضرة التى تتراءى فى الافق (كسراب بقيعة يحسبه الضمآن ماء) . وتنبت فيها الاعشاب متباعدة ، لذلك تظهر الارض وكأنها جرداء رمادية .

ومررنا فى طريقنا بـ (خان المصلّى)[٦] وهو على بعـد ١٢ ميلا من (النجف) . وتوجد من مثل هذا الخان ثلاثة ، انها على الطريق بين كربلاء والنجف ، وهى محصنة جميعا . وفى مقدور الزوّار ان يجدوا فيها المأكل والمشرب والمأوى . ووقفت بنا السيارة عند (خان حماد) وهو فى منتصف الطريق تماما . انه قرية ذات اسوار عالية ، وفيهـا بيـوت ، ودكاكين ، واسطبلات واجنحة خاصة بالزوّار . وهؤلاء يخشون ابناء العشائر كثيرا ، ولعل هذه الملاجىء المحصنة خير دريئة تقيهم أخطار مكان منعزل كهذا الطريق . وقادنا المدعو (منديل) مختار (خان المصلّى) الى بيته ، وقد فرشت على ارضه

---

(٤) الغبار الذى تثيره الريح . المترجم

(٥) كثيرة الحصى المترجم

(٦) فى سنة ١٢٥٨ هـ سار الى النجف والى بغداد آنئذ (نجيب باشا) وبعد أن اوقع باهل كربلاء بلغه تمرد اهل النجف ايضا فسار اليهم فلما كان على فراسخ منها حط رحله وصلى ، وفى هذا الموضع بنى خان وعرف بـ (خان المصلى) حتى اليوم، وتمت بعد ذلك المصالحة بينه وبين أهل النجف (المترجم) .

الحصر وتناثرت عليها الوسائد • وقدّم لنا المخيض (شنينة) فى آنية كبيرة ، كما قدمت لنا الارغفة المسطحة ، والدجاج المشوى والبرتقال وعجّة البيض Omellete • وفى سرع سريع انطلقت السيارة بنا نحو كربلاء ، ولم نزر فى طريقنا اليها (خان النخيلة) • وتلتقى الصحراء بالمدينة على حين غرّة، وعلى مسافة تقرب من ميل ، خارج كربلاء نفسها ، ومن بعيد تتراءى قباب كربلاء ومنائرها بين النخل • ان شذى زهور الباقلاء هو اول ما تستروحه فى مسرى نسماتها الحلوة العليلة ••• وانت مقبل على المدينة • ويتكاثف الشجر ، ويطالعك بعده منظر ساحر فتّان • هذا نَوْر كثير من انوار اللوز والتفاح ، انه يتلألأ بين النخيل ، وتتدلى اغصان شجره القائم على حفافى (الحسينية)(٧) فوق صفحة مائها الصافى الرقراق• وهذا طريق آخر بين الجنائن ويفضى الى المدينة نفسها •

وبعد (النجف) – وخططها جامدة على ما رأيت – تطالعك (كربلاء) فتنة للناظرين • فشوارع الجزء الحديث من المدينة مفتوحة مستقيمة ، وكأنها هندمت بالقدّة والفادن والبركار ••• وانك لترى الحمير تمر فيها وهى محملة خضرا • لقد خلفنا الصحراء المقفرة المالحة ظهريا ، فنحن الان فى ارض رسوبية خصبة • وبيوت القسم القديم من المدينة تحيط بمساجدها • ان

---

(٧) الحسينية من الجداول التى تعتمد على سدة الهندية فى الحصول على كمية المياه التى تصل اليها • وكان القصد الاساسى من حفر هذا الجدول هو ايصال مياه الشرب الى كربلاء ، ولقد كتب (لونكريك) : « ان السلطان سليمان القانونى – الذى زار العراق سنة ١٥٣٤ – وجد مدينة كربلاء المقدسة حائرة فى حائرها بين العطش والطغيان ، اذ كان الفرات الفائض فى الربيع يغمر الوهاد التى حول البلدة بأجمعها من دون أن تسلم منه العتبات نفسها • وعند هبوط النهر كان عشرات الالوف من الزوار يعتمدون على الرى من آبار قذرة سمجة ••• فوسع الترعة المعروفة بالحسينية وزاد فى عمقها لكى تأتى بالماء بصورة مستمرة •• وصارت هذه الترعة تنساب فى أرض كان الجميع يظنونها أعلى من النهر الاصلى فاستبشر الجميع للمعجزة ».
المترجم

شوارع هذا القسم متلوية ، ولا حظ لها من انتظام • ولكربلاء مقبرة فى (وادى الامان) واليها تنقل اجداث الموتى من كل بلد ناء سحيق • ان كانت النجف هى الرأس المفكر عند الشيعة فالقلب كربلاء • انها اشد قدسية من النجف ، فمجرد ذكر اسم (الحسين) الذى تضم تربتها رفاته يثير فى نفوس الشيعة أقوى أحاسيس الولاء له • وتبكى نسوة العراق اليوم الحسين كما بكت بابل (تموز)[8] فى الماضى القديم • وسرد قصة ما عاناه (الشهيد) يثير فيهن الاسى فتقطع منهنّ نياط القلوب • وعلى مقربة من موقع كربلاء اليوم حاصر هراطقة الخليفة[9] وجنده (الحسين بن علي)[10] ومنعوا عنه الماء ، ثم أجهزوا عليه • انها أفجع مآسى تاريخ الاسلام طراً • والقصّاص فى شهر محرم ، يروونها وتمثل وقائعها كمأساة : فهناك رجال يرتدون ملابس خاصة ليمثلوا شخصياتها الرئيسة • انهم يسيرون فى موكب يطوف بالمدينة ، وبينهم (الفرنجى) – وقد البسوه قبعة شمسية وملابس اوربية – وتروى الاساطير انه اسدى ﻟ (الحسين) معروفا •

ولا يمرّ شهر محرم الا ويموت فيه بعض ابناء الشيعة نتيجة ضرب

---

(٨) دموز أو (الراعى) اله الخضرة ، وقد ورد اسمه فى الكتاب المقدس (تموز) و (ادونيس) فى الازمنة الكلاسيكية – راجع (الرافدان) ﻟ (سيتون لويد) ص ١٧

(٩) تريد المؤلفة (يزيد بن معاوية) والرواة ، وعلى الاخص الطبرى ، مجمعون على ان الحسين (عليه السلام) لو قدم على يزيد لوجده مبجلا له عارفا بقدره ، ويقال انه لما وصله خبر فاجعة كربلاء لعن (ابن سمية) وترحم على الحسين وكان قصره من البكاء عليه كأنه فى مناحة .

المترجم

(١٠) يقول المؤرخ الانكليزى النابه (جيبون) : « ان مأساة الحسين المروعة على الرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها تثير العطف وتهز النفس من اضعف الناس احساسا واقساهم قلبا » .

ولكن لسان حال شهيد كربلاء ، كما قال البارودى :

ومن تكن العلياء همة نفسه ··· فكل الذى يلقاه فيها محبب

المترجم

« القامات » على الهامات ، او السلاسل على الظهور . انهم يحتفلون بذكرى الفاجعة فى جميع الامكنة التى يحلّون فيها ، وكربلاء دوما فى المقدمة منها . ذلك ان جثمان (الشهيد) مقبور فيها تحت قبة (الحضرة الكبيرة) - وهى أشد العتبات المقدسة حرمة واكثرها ثروة . وان شهر محرم هو الشهر المفضل فى اداء الزيارات اليها . وفى (كربلاء) مسجد آخر تعلوه قبة مغشاة بالقاشانى ومنائر ذهبية ويضم رفات الامام العباس ، وهو أخ للحسين من أبيه. ولو اقسم الشيعى حانثا بالحسين لما ناله عقاب ، فالامام وديع يصفح ، لكن العباس عصبي المزاج وعسكري صارم، يؤمن بالضبط والربط ، لذلك لن يجسر احد على ان يقسم به حانثا . الم تر فى سقف مسجد الامام العباس رأس رجل معلق به ؟! قيل انه اقسم باسم الامام زورا ، فما كان من الرأس الا ان يطير عن الجسد ويلتصق بالسقف . فان اقسم امرؤ بالعباس زورا فلا معدى من ان يصيبه مثل هذا .

وكربلاء غنية بالاركان الملونة الجميلة ، وجمالها ليس كجمال النجف، لكن الشارع العظيم المستقيم المؤدى الى المسجد الكبير لا حظ له من الخلابة أو الجدة . وتنتهى أسواقها المتعرجة دوما بأبواب تعلوها طوق مغشاة بالقاشانى . ومن هذه الابواب يصار الى مرقد (الحسين) البهيج . وغالبية سكان المدينة من الفرس ووجوههم سمراء شاحبة بيضوية الشكل ، واجسامهم متهدمة . انهم لا يرمقون المار بنظرة الرضى ، وهم لا يغرون احدا على ان يشترى منهم شيئا . ولا اظن ان فى مقدور المسيحى ان يجد دكانا واحدا فى المدينة يبيعه حجرا نقشت عليه سورة من القرآن ، مهما اجزل له فى العطاء والثمن ، بَله شراء نسخة من القرآن كله .

والدكاكين فى اسواق كربلاء مغرية ، وفيها كثير من العطارين . ولو سألتهم ان يسمحوا لك بشم احدى قنانى الروائح العطرية الصفراء ، او اختبار ما تريد شراءه منها لما وقفوا دون ذلك . وفيها باعة الاحجار الكريمة والمجوهرات يعرضون عليك الحلى الذهبية والصناديق التى تحفظ فيها التعاويذ،

او جزءا من القرآن الكريم ، والحجول ، ذهبية وفضية ، وما هو مخصص منها للاطفال ذو اجراس ، كذلك الاقراط الفارسية وهى جميلة الصنع ومموهة • وفى مقدورك ان تشترى السبح من كل نوع ايضا ، ومنها ما صنع من خشب الزيتون ، او من الكهرمان او غيره ••• ومنها ما هو مصنوع من الزجاج الرخيص ايضا •

وتختص كربلاء بنوعين من الحرف : اعداد الاكفان للموتى ، وانك لتجد على هذه الاكفان سورا من القرآن ، وصنع (الترب) من طين المدينة وتزيينها بالزخرف • وفى مقدور الزائر ، لذلك ، ان يرجع الى بلده ، ومعه الكفن الذى يدخره ليوم موته ، وتربة يسجد عليها كل يوم عند صلاته •

هذا والفواكه والخضر فى كربلاء موفورة ، ومنهـــا التمـــور ، على انواعها ، والبرتقال والليمون ، والباذنجان ، والخس ، والباقلاء ، وما الى ذلك • • وشاهدت فيها السلال مليئة باللوز والجوز • وفى دكاكين الحلواتية كثير من الحلوى الايرانية ، وفطائر وولائق [١١] ذوات ألوان فاتحة ، وفيها (اللقم التركى) •

ويرتدى أهل المدينة الكفافى أو يعتمون بالعمائم • ولعل شوارعها اليوم هى نفس الشوارع التى شهدتها أيام الاسلام الاولى • وللتعصب فوائد، ولا سيما من الوجهة الجمالية •

وهناك صناعة أخرى تجعل السوق فتنة للناظرين ـ تلك هى صناعـة السلال الملوّنة ؛ تحاك فى المدينة ، ويشتريها كثير من زوّارها •

وتعنى بزوّار كربلاء ، شأن باقى زوّار العتبات المقدسـة ، طائفـة محترفة خاصة من الناس • ولدى كل فرد منها منهج مرسوم لزيارة المساجد، واقامة الصلاة ، وارسال الدعاء ، وهم يحصلون لقـــاء ذلك على شىء من الاجور والعطايا • وفى داخل المسجد لوحات دونت عليها أدعية خاصـــة

---

(١١) جمع (وليقة) وهو طعام يتخذ من دقيق ولبن وسمن • (المترجم)

يرددها الزائر التقي ، كما ان فيه طائفة من الناس تعيش على نفحاته . وفي مقدمة ما يلتزم الزائر به الطواف حول المرقد .

ويكلف الدفن في الرواق ، أو في المزار الداخلي (١٦٠ روبية) وفي الابنية الخارجية ٤٠ روبية .

ويقال ان مرقد الحسين على شيء كبير من النفاسة والجمال . وعلى الرغم من ان الهبات والعطايا التي تنثال عليه لا تضاهي ما ينثال منها على مرقد النجف ، فهي كثيرة نسبيا . ونفائس المرقد مخبأة ويعنى بها قيّمه (الكليدار) .

وعدد المقاهي في كربلاء أكبر من عددها في النجف . انها تكسب شوارع المدينة مسحة محببة . ولا تستنكر الشيعة ، على غرار ما يفعله السنيون والوهابيون (المتطهرون) رسم الصور البشرية ، لذلك فانك تجد جدران المقاهي مزدانة بالصور . ولقد لحظت منها سلسلة تمثل قصة (رستم وسوهراب) ووقائع حربية ، ومناظر في « الحريم » وما الى ذلك . كما اني رأيت صورة طير كبير له رأس امرأة ، ولعله (سمرك) المذكور في الاساطير الفارسية . وهناك صور أخرى مستوحاة من الاساطير والتاريخ أيضا .

وعلى مقربة من باب الحلة مقهى يختلف اليه كثير من « السادة » . انهم يجلسون فيه بعمائمهم الخضراء الزاهية ويحتسون القهوة ... وفوق رؤوسهم بلبل يشدو في قفص ... انه منظر يمتع الناظرين . واستظافتنا في (كربلاء) امرأتان مسلمتان ، احداهن زوج تاجر ، والاخرى أمه . أما الزوجة ففتاة جميلة في عفرة العمر ، وهي تشد حول رأسها « عصّابة » سوداء تلامس حاجبيها ، وتتدلى من رأسها جديلتان سوداوان مخضبتان بالحناء ، وتقع كل جديلة على جنبة من جانبي وجهها . أما الام فامرأة ذكية لطيفة تُعنى بتتبع سير الرجال وأخبار السياسة ؛ وعلى الرغم من انها لم تغادر وصيد الباب . والمرأتان ليستا متبرمتين بسجنهما البيتي ... انهن يرددن

قائلات : « انها التقاليد ، ونحن بها راضيات واليها مطمئنات » .

وسلكنا لدى مغادرتنا كربلاء الى الحلة[١٢] طريقا وعرا ، وكتب عليَّ أن اسلكه فى زيارتى الاخرى . انه جد مختلف عن الطريق الصحراوى بين النجف وكربلاء . ولا ينقطع النبت الاخضر القائم على جانبى طريق الحلة ـ كربلاء بتاتا . وانك لتشاهد بينه النخل باسقات وهى تطيف ببيوت القرويين ، والماشية وهى ترعى ، وقنوات الرى بمائها الراكض . وانك لتلحظ عليه الرعيان والزراع وبايديهم « المساحى » ، او الزوّار وهم يركبون العربات أو يمتطون صهوات الخيل ، أو يمشون على الاقدام . ويكثر على جانب منه الحمام البرى والغراب .

وقد تمر بك بين الفينة والفينة طائفة من الزوّار ... وقد تعجب ان رأيت المرأة تمشى والرجل يزهو راكبا !

---

(١٢) تقع الحلة على مسافة ١٠٤ كيلومترات من جنوبى بغداد ، والطريق اليوم بينهما معبد . وينقسم عمران الحلة الى قسمين القديم وهو مبنى بحجارة بابل القديمة وطرقه ملتوية وشوارعه ضيقة، ، والحديث وهو يشتمل على العمارات والابنية العصرية . وفى نهاية البلدة فى الجهة اليمنى من النهر ساحة كبيرة للالعاب والمتنزهات وهى مرتفعة ، قلدت فيها (جنائن بابل المعلقة) . ويرجع تأريخ تأسيس الحلة الى أواخر القرن الخامس الهجرى فاختطها (سيف الدولة صدقة) ، أحد أمراء (الاسرة المزيدية) فى سنة ٤٩٥ هـ وذلك عندما هجر مركز امارته فى بلدة (النيل) القديمة ، فأقيمت فى المحل الجديد (وهو المحل الذى يسمى اليوم « الجامعين ») مدينة سميت (الحلة) لان بنى مزيد حلوا فيها فصارت حلتهم . وتسمى الحلة (الفيحاء) أيضا . راجع الدليل الجغرافى فى العراق للدكتور سوسه (المترجم)

الفصل الرابع

الكاظمين[1]

... وانك لترى فيها القباب المغشاة بالذهب المطروق ، والمنائر المستقيمة النحيفة وكأنها زهور السوسن[2] ، والابواب المزينة بالقاشاني البديع ، وصحون الجامع الجميلة . ولكنك ، من الجهة الاخرى ، ترى الاسواق القذرة والبنيات[3] والمقاهى التى لاحظ لها من حسن المظهر أو

---

(١) كان مشهد الكاظمين معدودا فى خطط بغداد القديمة من (مقابر قريش) ، وكان يسمى مشهد موسى بن جعفر ، ومشهد باب التبن نسبة الى (باب التبن) الذى كان فى شرقه مما يقرب من دجلة . والى الامام الكاظم أبى اسماعيل موسى بن جعفر العلوي المتوفى (١٨٣ هـ ـ ٧٩٩ م) نسبت البلدة التى فيها المشهد اليوم فقيل لها (الكاظمية) وهى فى شمال غربى بغداد ، وفيها مرقد حفيده الامام أبى جعفر محمد بن علي الجواد المتوفى (٢١٩ هـ ـ ٨٣٤ م) ، ومنهم من يسميها (الجوادين) وهو الاقوم فى لغة العرب لانها تغلب اسم المفضول على الفاضل . وفى مقابر قريش دفنت أم جعفر أمة العزيز بنت جعفر ابى جعفر المنصور المشهورة بزبيدة ، وهى أم الامين . وحدث فى سنة مئتين وستين وألف للهجرة اذ كان الفعلة يحفرون حفرا متصلا بفناء الروضة الكاظمية أن ظهر قبر عليه صخرة مكتوب فيها اسم أبى يوسف القاضى فبنوا عليه بناء واشتهر أمره . راجع (مشهد الكاظمين للدكتور مصطفى جواد. وهو مخطوط فى خزانة كتب مديرية الآثار ببغداد) .

ومرقد أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الكوفى (القاضى) ، صاحب كتاب (الخراج) اليوم ملاصق لسور المشهد الكاظمى من جهة الشرق . وكان أبو يوسف من أصحاب الامام أبى حنيفة . وقد تولى القضاء فى بغداد سنة ١٦٦ فكان أول من دعى قاضى القضاة فى الاسلام وتوفى سنة ١٨٢ هـ (٧٨٧) راجع (أطلس بغداد للدكتور سوسه) . (المترجم)

(٢) فى الاصل Lilies واسمه العلمى (Lilium) والرازقى المعروف فى العراق وغيره هو (White Lily) واسمه العلمى (Lilium Conditum) (راجع معجم أسماء النبات لأحمد عيسى بك صفحة ١٠٩) (المترجم)

(٣) البنيات Alleys ـ الطرق الصغار ، وفى الحديث الشريف : (عليكم بالجادة ودعوا البنيات) ، والجادة ـ وسط الطريق والعطفة خاصة Blind alley (وهى بنية لا تنفذ) . (المترجم)

رفعة الشأن . وتتلألأ القباب والمنائر وهى تلامس أشعة الشمس ، فتراها من بعيد متعالية بين باسقات النخل . ان جمالها ليسحر أهل الدنيا جميعا .. ولو دخلت المدينة نفسها وجلت فى طرقاتها الضيقة الملتوية ، وجوانبها المتعرجة ووصلت باب المسجد الاكبر لما تسنى لك أكثر من أن تتشوف الى داخله ، ومن رواقه المكشوف، بالذات. ذلك ان نظرات الاستنكار تلاحق كل مستطلع غريب ان تلبث طويلا ، أو كان من ذلك الباب قريبا .

وتكثر البيوت والاسواق قرب المسجد . وفى البيوت هذه نوافذ ناتئة مثلثة الزوايا وهى مطلة على طرق المدينة الضيقة دوما . ومثل هذا الطِرْز [٤] فى بناء النوافذ ذو فائدة للسيدة الشيعية ، قعيدة الدار وحبيسته. اذ فى مقدورها أن ترى من النافذة هذه كل ما يجرى فى الشارع وهى مختبئة وراء مشبكها . فلو سمعت غناء هرعت اليها مستطلعة ، وقد تتشوف منها الى جموع الزوّار وقد غلبهم الحماس ومنهم من يلبس المهلهل من الثياب ، ومنهم من يحمل هراوة أو يمشى حافي القدمين والعرق يتصبب من وجهه الطافح سرورا ما دام من (المرقد الشريف) قريبا . وقد تهرع السيدة الى النافذة عند سماعها ليلا قرعات الطبول وأصوات المزامير لتشاهد عريسا يحف به أصدقاؤه والموكب فى طريقه الى المسجد لاداء الصلاة . هذا وزغاريد النسوة تملأ الفضاء بهجة وحبورا ، وأيديهن لا تفارق شفاههن أبدا . وفى مناظر الشارع الاعتيادية الاخرى تسلية ، تذهب عنها سأم البطالة أيضا . فهذا المار مثلا روحانى شيعى يلبس عمامة بيضاء نظيفة ، أو سوداء ، ووجهه شاحب أمرد متأنث [٥] وعليه امارات التزمت والصرامة . وهؤلاء جماعة من السادة بعمائمهم الخضراء ، وذلك بائع متجول على رأسه

---

(٤) الطرز على وزن شبر ويجمع على طروز وأطراز وهو الهيئة والطريقة والنسق .

(المترجم)

(٥) فى الاصل Niminy-Pininy وهو النازع الى الانوثة .

(المترجم)

سلة مليئة بالبرتقال أو الخس ، وقد جنى لساعته من الحقل . وذلك قارىء البخت يكدس الرمل فى احدى الزوايا ويستعد لاخبار كل مستطلع عن طالعه .

وفى المسجد الكبير[٦] مرقد الامامين السابع والتاسع . أنه كالجوهرة المكنونة ، وللمسجد هذا ٧ أبواب ، أحبها الى قلبى الباب الشرقى الذى يصح أن نسميه (باب الزهور) . فالزهور التى ترسم بزلاجه جد كبيرة . وتزدهى الباب باللونين الوردى والازرق ، وهو مطعم بالصدف Mother-of-Pearl فى كثير من الجوانب . وقد تشاهد أيضا قطع المرايا وقد جعلت جزءا من بنائه . ان طابعه العام يبعث البهجة فى النفس ، كفعل الورد . وتشبه أحجار الاساس آنية الزهر أيضا. وهناك ٤ قطع من القرميد، طول كل واحدة منها قدم ونصف قدم ، وقد وضعت على كل جنبة من جوانب الباب ، ولعلها أشبه ما تكون بطاقات الزهور وضعت فى آنية .

وفى مقدور المرء أن يلحظ من خلال الطاق الوسيع منظر الجامع الجميل بمنائره وقبابه الذهبية وصحنه . ان القاشانى على اختلاف ألوانه يزين غرف

---

(٦) (... والعناية بقبر الامام موسى بن جعفر ـ ع ـ تحققت ، واحترامه ازداد فى عهد بنى بويه مؤسسى الدولة الشيعية فى وسط الدولة العباسية ... ثم فى أيام الشاه اسماعيل الصفوى ففى سنة (٩٢٦ هـ ـ ١٥١٩ م) جدد عمارة المشهد الكاظمى على طرز العمارة الفارسية البديع ـ كما هو ثابت حتى يومنا . وجعل له صحونا واسعة جدا وأروقة وحجرا لطلاب العلم والمجاورين ، وجعله آية من آيات الفن البنائى الخالد الباهر ... وفضض الابواب والقباب ، وزين مناطق القبتين من داخل بالآيات من القرآن الكريم ، والقرنصات البارعة ، وزين الصندوقين بأحسن زينة ، وأتحف الروضة بالتحف الصناعية ، وشيد منارات شوامخ وكتب على الرواق المقابل للداخل الى الحضرة من باب القبلة على الأجر الكاشانى كتابة تخلد عمله هذا ... وفى سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م أمر شاه العجم ولعله صفي الدين الثانى بتقوية قواعد المنارات الاربع وبناء أربع صغار وهى باقية حتى يومنا هذا (راجع مشهد الكاظمين للدكتور مصطفى جواد) .
(المترجم)

الجامع كلها ، وعلى جدرانها خشب محفور ، وفسيفساء متلألئة ومرايا • وأمام « باب الزهور » نافورة مغشاة بالقاشانى ولا ماء فيها • انها جميلة جدا ، لكن ألوانها أكل الدهر عليها وشرب ، وهى مسدسة الاضلاع ومزخرفة •

وفى مقدورك أن ترى منظرا جميلا آخر من الباب الشمالى • انه صحن المسجد وفيه المرقد(١) • والباب جميل أيضا ، وعلقت عليها سلسلة ثقيلة من نحاس ، ولا أعلم سببا لذلك • ويضاهى الباب الغربى الكبير الباب الشرقى روعة • ان جماله يطالعك على حين غرة لو نظرت اليه من جانب السوق القذرة • وفى مقدورك أن ترى المسجد بطابقيه من هذا الباب وان تستمتع أيضا برؤية القاشانى اللطيف والزخرف والنقوش والقبة الذهبية ، وهى تتوهج على صفحة السماء الزرقاء •

وقد يتطوع أحد المارة فيقودك الى سطح قريب تستطيع أن تشاهد منه منظر الجامع من حالق ، وعليك أن تهتبل الفرصة فى مناسبة خاصة كيوم عاشوراء لتشاهد صحنه وقد ازدحم بالزوّار والانصار وكل منهم يتابع « المأساة العاطفية » التى وصفتها فى محل آخر من هذا الكتاب • انه منظر حرّي بالرؤية شريطة أن لا يكون الرائى سريع الانفعال : هؤلاء رجال سعرت فيهم نار الحماسة والعصبية ودماؤهم تجرى مدرارا ، وأولئك رجال شبه عرايا وهم يلطمون على الصدور ببالغ التأثر ، والجموع الغفيرة تتأسى بالبكاء والنشيج عن الحزن العميق • لقد وصفوا المشهد لى على ما رويت

---

(١) دخل ابن بطوطة بغداد فوصف مشهد الكاظمين قائلا :
(وفى الجانب الغربى قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة) • وأراد بالدكانة (الملبن) ــ على وزن المنبر ــ وهو كالصندوق من الخشب ، واتخذ فى العصور الاخيرة من الذهب والفضة ، وشاع استعماله فى مشاهد أهل البيت ــع ــ وغيرها فى العراق • وفى صحن الحضرة الكاظمية صحن يعرف حتى اليوم بصحن قريش اشارة الى مقابر قريش » •
(المترجم)

ورأيته مصغرا ببغداد • وسمعت سيدة من الشيعة لخادم الجيران المسيحية أن تشاهد المأساة وهى ممثلة وترقب طغيان الاسى على الجموع • وسرعان ما أخذت دموع الخادم ، وهى لهيفة الصدر ، تنسكب غزارا • وما ان رأت ذلك السيدة المضيِّفة الاّ وهتفت قائلة : (حمدا لله لقد اهتدت الى الحق فأصبحت شيعية !) وغلبت العاطفة على سيدة أخرى من لُمَّة[٢] النساء نفسها فمزقت ثيابها وانهالت على جسمها وكزا ولدما •

ويجود الزوّار على مشهد الكاظمين ، شأنه شأن مشاهد كربلاء والنجف ، بكثير من الهبات والمنح • وتنذر النسوة نذورهن له ، ثم يفدن على المشهد للوفاء بنذورهن هذه ، وترمى النقود والجواهر داخل (الملبن) المحيط بقبر موسى الكاظم ، والمعروف محليا بـ (شباك الكاظم) وتجمع هذه الهبات من قبل سدنة المرقد ثم تُسلَّم الى قيِّمه (الكليدار) • ويعتبر القبر عندهم مقدسا للغاية وهم ينسبون اليه كثيرا من الخوارق وابراء المرضى • ولقد أعلمتنى سيدة شيعية : « كنت فى يوم من الايام فى الروضة الكاظمية وجاءت امرأة تتضاحك ، ولا ترعى للحضرة حرمة • وسرعان ما طارت عباءتها ، وسقطت على الارض • ولم تستطع بعد ذلك أن تخرج من الروضة الا مشيا على اليدين والقدمين • لقد رأيت ذلك بأم عيني !! » •

وشبيه بهذا ، فاللصوص يحملون على الاعتراف بسرقاتهم عندما يؤتى بهم الى (الروضة) من قبل من يتهمونهم بذلك ، والا فانهم « يسمرون فى الحائط فلا يستطيعون بعد ذلك حراكا » ان ايمان الشيعة بحرمة العتبات المقدسة بالغ قصاراه •

وفى الكاظمية طائفة من الناس تعيش على الزوّار ، أو تحصل على ما يقوم أودها بسبب من تقواها وقدسيتها • وفيها كثير من « السادة » ومنهم

---

(٢) لمة : الجماعة من النساء ، و(الحاصب) الجماعة من الرجال ، و (الحزقة) الجماعة من الصبيان •
(المترجم)

صديق حميم لي ، ولقد ضيفنا مرات عديدة. انه أنيس هاش باش ، وكريم ، سواء في بيته أو في بستانه الاغن حيث يتكاثر النخل وشجر البرتقال . واذا أقبل الربيع تعطرت أرجاؤها بشذى « القِدّاح » وملأ جوها نوح الحمام وشدو البلبل الصدّاح . وان له وجها كريما عليه سمة الاتزان ، وانه ليكلف بالاضاحيك والمفاكهة . وهذا السيد ، ومشهد الكاظمين ، بالنسبة اليّ شيئان متلازمان . وهو جليس حلو العشرة وطابعه المميز انه أَثْلَه[1]، له لحية مخضوبة بالسواد ، ويرتدي جبة زرقاء زرقة البَرونق[2] وهو يعتم بعمامة خضراء ، ولعينه بريق . ويقيم السيد لضيوفه مآدب تحفل بالاطعمة الشهية ويختار لها الاماكن الشجيرة الظليلة من بستانه العامر . وما ان تنتهي المآدب الا ويأخذ بالتنادر مع ضيوفه أو يجمع لهم طاقات الزهر وهو يتبختر بين المماشي التي تظللها عساليج[3] الشجر الحانية .

وزرت بعض النسوة في مشهد الكاظمين أيضا ، كما سعدت بزيارة عروس لم يمض على زواجها أكثر من ١٠ شهور . انها تشبه البدر جمالا ، وهي بدينة ولبقة ، ولم يكن عمرها ليتجاوز الثامنة عشرة . لقد خضبت أطرافها بالحناء ، وجلست على الارض عارية القدمين ، بينما جلست النسوة اللواتي هن أكبر منها سنا على (الديوان) . لقد شوه جمال هذه الفتاة اللطيفة بما حليت به من سلاسل عسجدية ثقال ، وحجول من ذهب ، ولون ردائها الوردي . لكنها ، في الحق ، أكثر مضيفاتنا أدبا . وكانت تشعل السكائر وهي في فمها ثم تقدمها لنا . وكان سريرها موضوعا في نفس الغرفة التي استقبلنا بها . انه لسرير رائع وعليه ستائر وردية اللون وفضية .

---

(١) في الاصل Perennial Youth ومن (الكنايات) هو آثلة بمعنى دائم الشباب (راجع « المعجم » لعبدالله العلايلي) . (المترجم)

(٢) في الاصل Perewinkle والبرونق من الحلازين البحرية . ولونه أزرق أدكن . (المترجم)

(٣) العساليج مفردها العسلوج ما لان من قضبان الشجر . (المترجم)

وعلى السرير غطاء من الساتان وقد طرز بالفضة • ان الفتاة هــذه أشبه ما تكون بالاميرة التى يرد ذكرها فى قصص الجان • ولدى العروس عدد من البسط الناعمة الحسان ، والوسائد المغلفــة بالحرير المطرز بشــرائط مقصبة • وقد تكون الوسائد هذه خشنة الملمس ، ولكنها مريحة عند النوم • وغطوا الارائك بقماش من الســاتان الوردى المفضض • وتزين الطنافس أرض الغرفة وجدرانها • وليس فى وصفى هذا لخدر غانية كاظمية ، على ما أعتقد ، ما يجانب التبصر والحكمة •

والكاظمية تبعد أميالا قلائل عن بغداد ، وترتبط المدينتـان بخط ترام تجره الخيول (١) • وقد مدّت هـذا الخط شركة أهلية وتحت اشـراف مدحت باشا والي بغداد الشهير • وحالف النجح هذا المشروع منذ البداية ، وبخلاف مشاريع الوالي الاخرى (٢) وعربات هذا الترام واهية الوصـلات

---

(١) لا أثر لهذا الخط اليوم ، وقد كان فى زمن تأليف الكتاب ورفع بعد ذلك بأمد •

(المترجم)

(٢) عين مدحت باشا واليا على بغداد فى ٢٠ نيسان ١٨٦٩ م وقد نقل من أوربا ليصلح ويجدد • ومن مشاريعه التى لم يحالفها الحظ : وضـع خطة حكيمة لتوزيع الاراضى على أبناء المدن والعشائر وتشجيعهم على الاستيطان فيها واصلاح الانهر ، (ولم تنجح لانها لم تستند الى دراســة عميقة شاملة) واستخدام البواخر فى النقل النهرى (ولقد حقق هذا المشروع أقل مما كان يؤمل منه) ، واستخدام « الكراكات » فى شط العرب (ولم تبدأ العمل أبدا) ولقد هدم سور بغداد وترك أنقاضه أكواما مكدسة فى غير نســق • ومن مشاريعه الناجحة : تأسيس المعامل العسكرية ، واصدار جريدة ببغـداد ، وبناء مستشفى ودار للعجزة وميتم ومدارس عـديدة ومد خط الترام بين بغداد والكاظمية ، وفرض الخدمة العسكرية ، وتأسيس البلديات والمجالس الادارية وتمصير الرمادى والناصرية •

(راجع

Longrigg: Four Centuries of Modern Iraq (Midhat Pasha)

(المترجم)

وهم يحمّلونها أكثر مما تستطيع ، فى أيام محرم و « الزيارة » Ramshackle على وجه أخص .

وأجرة الراكب فيه ، على ما أظن ، قرابة الـ (٤) آنات . ويمر طريقه بين البساتين الفيح القائمة على ضفة دجلة . والطريق يبدأ بالمقاهى وينتهى بها . ولا تنس ان كل شىء فى الشرق يبدأ بـ (المُقْهى) وينتهى به ... ان كانت للاشياء فى البلدان الواقعة شرقى السويس بداية معينة ونهاية !.

الفصل الخامس

سامراء[١]

...وفى يوم من أيام أيار تركنا بغداد بقطار الليل ، وقد ازدحم فيه الاعراب والهنود . وكان ضجيجهم يرتفع عند كل محطة ، وكأن ثورة نشبت فيه . وبلغنا (سامراء) قبيل الفجر ، وكان الجو باردا . وسرعان ما استطعنا أن نتبين مخطط المدينة المسوّرة ، وان كنا على مبعدة ٣ أميال منها : وهذه قبتها الذهبية تلامس أشعة الشمس البازغة !

وتناولنا فطور الصباح فى الساعة السادسة ثم اتخذنا سبيلنا الى حيث تنتظرنا سيارة من طراز (فورد) أكل الدهر عليها وشرب ؛ فبها نروم قطع أرض موات يباب تقوم بيننا وبين النهر ، ودجلة يجرى بين المدينة ومحطتها. وحيثما أرسلت البصر رأيت قطعا زرعت بحب الحصيد ... ومنها ما هو فى ابان حصاده ، ومنها ما تم حصده وكدس على الارض . وسرنا على الطريق الصحراوى[٢] لمسافة قصيرة ثم انتهينا الى مجمع من بيوت الطين ، وبقربها تقف العربات وجماعة من الاعراب والاطفال ، وهم ... شبه عرايا ، يحوم حولهم الذباب، وهم يحومون حول الزوار والمسافرين. وأعلمنا (سيّد)

---

(١) تعتبر أطلال سامراء مهمة جدا من الوجهة الاثرية – لانها – بالرغم من اتساعها الهائل – تعود الى دور معين محدود لم يسبقه دور بناء أقدم منه كما لم يتبعه دور بناء أحدث منه لان المدينة هجرت بغتة واندرست بسرعة هائلة فلم تعش الا مدة قصيرة تقل عن نصف قرن . وعليه فان كل ما فيها من آثار يعود الى در محدود ومعين وهو دور ينحصر فى نحو نصف قرن (خلال القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد) ومثل هذا نادر فى تاريخ الآثار ...

(راجع النشاط الآثارى فى العراق – مديرية الآثار العامة ١٩٥٩) .
(المترجم)

(٢) الطريق يذكر ويؤنث والسبيل مؤنثة وتذكر على كل حال . (المترجم)

يلبس عمامة خضراء ، سمة النسب الشريف • ان « العبّارة » ferry عاطلة عن العمل • فعلينا أن نعبر النهر بـ (القفّة) المربوطة على مبعدة ميـــل شمالى النهر • لقد جعل فيضان دجلة عبوره بالقوارب محفوفا بالمخاطر • ان (السيّد) الذى أشرت اليه أحد الادلاّء المحترفين ، وفى كل مدينة مقدسة عدد كبير من أمثاله • انهم يعتاشون على الزوّار ، ولعل كل فرد من أبناء المدن المقدسة يحذو حذوه بشكل من الاشكال • واستطرد السيد يقول : « ان قسما من الطريق مغمور بالماء ، وسيارتكم لن تستطيع الخوض فيه » لذا فلا معدى من استخدام احدى العربات • ووسائط النقل هذه متهرئة ، ليس فيها وسائد مريحة ، وتجرها أربعة من الخيول • ان عجلاتها عالية ، وهى تدور حول محاورها بعسر شديد ، وكل عجلة منها توشك أن تخرج من المحور فى أى حين • وسارت (العربة) بنا على طريق وعرة ، ورشاش الماء يتطاير من تحتها ـ حتى وصلنا المكان الذى شدّت فيه (القفّة) الى ضفة النهر • والقفّة هذه تشبه سلة كبيرة ، ولا ينفذ الماء اليها بسبب القير الذى كسيت به من الخارج• ومنها ما هو كبير الحجم ؛ والقفة التى عبرنا بها النهر تتسع لـ ٣٠ شخصا بيسر واسماح • وما ان دخلناها الا ولفّ صاحبها حبلا حول جسمه وخاض النهر مصعدا ساحبا قفته • وكان يسير بجانب (القفـة) صبيان صغـيران ، والثلاثة يجنبونها كل مكان فيه ماء ضحضاح ليس بذى غور • ان الاعشاب نابتة بكثرة على سيف النهر ، ويسير على أهل المنطقة أن يستبدلوا العشب الصحراوى بالحبوب فى مثل منطقتهم الخصبة الرسوبية •

وبعد ان خاض صاحب (القفة) فى النهر لمدة عشرين دقيقة وملابسه مثبتة الاطراف عند خصره اتجه بها صوب النهر ، فلم يكن الماء الذى سارت فيه حتى الآن الاّ من مياه الفيضان • وما ان وصل بها مجرى النهر الاصلى الا ووثب الى داخلها ومعه مساعداه ، وأخذ يجذب باتجاه سامراء القائمة على الضفة الاخرى من النهر ، والى الجنوب منّا تماما • وكان التيار قويا وسريعا فوصلنا مرسى المدينة بدقائق معدودات • انه فى آخر المدينة ، ثم ارتقينا تلاّ

ينتهي بها • وسامراء هي النجف مصغرة على ما تبدو من الخارج ، اما من حيث الداخل فالمدينتان تختلفان تماما • وتتراءى (سامراء) من الخارج وكأنها حصن منيع من حصون القرون الوسطى • وهي تشبه النجف في وجود قبتها الذهبية وفي المنائر التي تعلو أسوارها الآجرية ، وبما يأمله كل امرىء من وجود جمـــال خفي في داخلهـا • وان دخلت المدينة الـكبرى (النجف) لوجدتها مليئة بأهلها الحضر ، وعسير على المرء أن يتخيـــل ان صحراء الله الواسعة تنتهي عند أسوارها تماما • ان فيها شوارع ضيقـــة محجوبة عن الشمس ، ويسكنها أناس ذوو وجوه شاحبة متزمتون • أما سامراء فلها طابع يختلف عن النجف : انها مدينة مفتوحة صحراوية ، نظيفة تفوح من أرجائها روائح طيبة • وقد تجد فيها بعض المتزمتين ، وعلى غرار ما تجده في العتبات المقدســـة الاخرى ، لـكن مثل هؤلاء لن يثوروا ما لم يتلبـــد الجو كله بالـكره والحقد •

وكان في استقبالنا أناس كرام ذوو مظهر جليل • وسمح لنا بالتشوّف الى الجامع من فوق سقف بيت مجاور، وفسح المجال لي فصوّرت بابه الكبرى، وفناءه ومنائره وحرمه • انه على غرار العتبات المقدسة الاخرى ، جميـــل المنظر ، تعلوه قبة غشيت بزلاج مذهب لمّاع وهي متلألئة دوما في أشـــعة الشمس • ومنائر الجامع أشبه ما تكون بالزهر، فهي مغطاة بزلاج [1] ملوّن بالالوان الزاهية • وما في داخله انفس مما في خارجه • وتحت المنارة الذهبية سرداب قيل ان الامام الثاني عشر (محمد المهدي) اختفى [2] فيه ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، ومن السرداب هذا سيظهر من ينصر الاسلام نصرا

---

(١) الزلاج كلمة عربية ، كانت تستعمـــل في الاندلس وما زالت مستعملة في المغرب للدلالة على القيشاني أو (الكاشي) •
(المترجم)

(٢) تذهب الاسطورة المحلية الى أن الجنود الذين كانوا في اثره رموا السرداب الذي اختفى فيه الصبي بطلقات نارية ثم غمروه بالماء • ولما لم يجدوا له أثرا أذاعت الشيعة انه اختفى في داخل الارض •
(المؤلفة)

مؤزرا بأخرة [٣] . ان الامام العاشر والامام الحادى عشر (أى على الهادى وابنه الحسن العسكرى) مدفونان فى سامراء أيضا .

وزرنا اولا بناية المحاكم ، فاستقبلنا فيها كل من الحاكم المدنى والقاضى الشرعى ، وكل منهما يعتّم بعمامه بيضاء . وشكا لنا الرجلان من صعوبة الحصول على الخضر ، فاهل المنطقة يأنفون من زرع اى شيء فيما عدا الحنطة والشعير .

وتقع سامراء قرب النهر ، وبمبلغ زهيد يجود به كل زائر يمكن جمع مال يكفى لشراء مضخة مياه [١] . انهم يشترون الماء من السقائين الذين يأتون به من النهر ويبيعونه على اساس ان (الجود) بآنة ، ويكوّن هذا مبلغا

---

(٣) ان سرداب الغيبة من سراديب سامراء العميقة المحفورة فى الطبقة الصخرية الموجودة تحت الطبقة الترابية فيها . ان الطبقة الصخرية هذه تعرف عند علماء الارضيات باسم Conglomerate وهى مكونة من حصاة مختلفة الابعاد ، وملتحمة بمادة لاصقة . انه يتألف من ٣ أقسام أساسية : غرفة مسدسة الاضلاع ، وغرفة مستطيلة صغيرة ، وغرفة مستطيلة كبيرة . وكل قسم يأخذ النور والهواء من نافذة صغيرة وطويلة تبدأ من أعلى الجدار وتمتد حتى القسم الاسفل من جدار الجامع الخارجى . والدرج الذى ينزل بواسطته الى السرداب ويخرج منه متصل مع الغرفة المسدسة ويتألف من عشرين قدمة .

وباب الغيبة يقع فى منتهى الغرفة المستطيلة الكبيرة ، وأمامها حاجز مشبك . وبئر الغيبة يقع فى زاوية الحجرة الصغيرة التى تقع خلف هذا الباب ، (راجع باب الغيبة فى سامراء ـ مديرية الآثار القديمة فى العراق) .
(المترجم)

(١) لقد بنيت على ضفة النهر بناية تحتوى على مضخات الماء ومكائن الكهرباء ، كما بنيت دائرة الحكومة والبلدية والمستشفى ومذبحة ومسلخ وما الى ذلك وقام بناء كل هذه البنايات على أساس هدم أسوار المدينة التاريخية الاربعة وأبوابها وهى : باب القاطول فى الغرب ، وباب الناصرية فى الشمال ، وباب بغداد فى الشرق ، وباب الملطوش فى الجنوب . ولقد احتفظ بـ (باب بغداد) وحول الى متحفة محلية تعرض فيها نماذج من الآثار المستخرجة من الحفريات التى تقوم بها مديرية الآثار العامة فى أطلال سامراء .
(المترجم)

جسيما فى مصروفات البيت ، ما فى ذلك شك .

واستحالت اليوم مدينة سامراء التاريخية العظمى الى احدى العتبات المقدّسة ، ليس غير . لقد تضاءل شأنها فاصبحت بليدة ، وعلى الرغم من ذلك التاريخ المديد . وعندما صمم المعتصم على نقل العاصمة من بغداد اختار لها موقعا يقع خارج سامراء الحالية ، وكانت فيه آثار معبد قديم (٢) . وبنى الخليفة المعتصم مسجد الجمعة ، واختار لمنارته طرازا يشبه طراز المعابد الكلدانية المسماة بالزقورات (٣) والمنارة هذه عبارة عن برج يحيط به من الخارج ممشى حلزونى ينتهى عند قمتها . انها على غرار (المكان العالى) الكلدانى ، ذى الممشى الحلزونى الوسيع والذى كانت الماشية تصعده فتذبح على قمته قربانا للآلهة . ولم يقصد المعتصم من بناء مثل هذا البرج الى مثل

---

(٢) ان أطلال سامراء الحالية مبنية على أطلال مدينة (سر من رأى) القديمة . ولقد وصف القزوينى فى كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٥٨) المدينة القديمة فقال : (انها أعظم بلاد الله بناء وأهلا ... ولم يكن فى الارض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكا منها) ولقد أسسها المعتصم سنة ٢٢١ هـ الموافقة لسنة ٨٣٦ م ووسعها من بعده ابنه الواثق (٢٢٧هـ ـ ٨٤١ م ـ ٢٣٢ هـ ، ٨٤٦ م) وأوصلها الى أوج عظمتها وأقصى اتساعها المتوكل)٢٣٢ هـ ٨٤٦ م ـ ٢٤٧ هـ ٨٦١ م(. واختلت أسوارها اختلالا كليا بعد قتل المتوكل ، وتتابع على كرسى الخلافة فيها ـ بعد المتوكل ـ المنتصر فالمستعين فالمعتز فالمهدى وفى الاخير تولى الخلافة المعتمد (٢٥٦ هـ ٨٦٩ م) وبعد ان أقام فيها بضع سنوات ، وبنى فيها قصرا جديدا تركها نهائيا فأعاد مقر الخلافة الى بغداد .

وفى (كتاب البلدان) لليعقوبى شرح مفصل لكيفية تأسيس هذه المدينة ، وهو كتاب ألف بعد تأسيسها بـ ٥٥ سنة فقط .

راجع : (سامراء ـ مديرية الآثار القديمة العراقية ١٩٤٠) .

(المترجم)

(٣) الزقورة : البرج المدرج السومرى نشأت بشكل معبد على مصطبة واحدة ثم مصطبتين فثلاث ، وشمخ بناؤها وضخم حتى صارت كالزقورة التى نشاهدها اليوم فى (أور) وجرى هذا التطور فى بنائها خلال ألف عام وأكثر .

(المترجم)



الملوية

وما بقي من المسجد الجامع فى سامراء

(القرن الثالث الهجرى = القرن التاسع الميلادى)

أمام الصفحة ١٠١

ذلك القصد الوثنى ، بطبيعة الحال • وكان صوت المؤذن يدوى داعيا الى الصلاة من قمة الملوية * فيتردد فى ارجاء المدينة كلها • وبرج الملوية اليوم متهدم ، ولكن بناءه ما زال صلبا متماسكا • انه فى خارج اخربة جامع المعتصم ، وعلى بعد حوالى نصف ميل من سور المدينة الحالية • واذا ما تسلق المرء درجات سلمها الحلزونى لشاهد منظرا رائعا لسامراء القديمة والجديدة فى آن واحد • ان اخربة الجامع تقع تحت ناظرية مباشرة وتكتنفها الصحراء من كل الجهات • ولم تبق من عمارة ذلك الجامع الا الجدران ، وتعرضت الجدران ، ابان الحرب ، لتخريبات اخرى حيث احدثت فيها ثقوب لغايات عسكرية • وتقع مدينة سامراء الحالية خلف الجامع وهى محاطة باسوار ، وقبتها متوهجة باشعة الشمس دوما •

وفى الجهة اليمنى من الطريق الشمالى المؤدى الى تكْرِيت تقع اطلال سامراء القديمة او (اسكى بغداد) ـ سرَّ من رأى العباسية والتى شهدت حكم ٧ خلفاء ، ممن حكموا البلاد بعز ، ورفعة • ولكن مجد هؤلاء لم يكن كمجد آبائهم الاولين ، ذلك انهم اصبحوا حبساء سادتهم الاتراك الذين لم يتركوا لهم الاّ مظهر القوة ، والسلطة الروحية ، ليس غير •

وكان هناك حرس تركى يرقب مكائد العرب للتخلص من قيود هؤلاء السادة الحقيقيين فى العراق • ولعلَّ المعتصم كان يُذْهب نفسَه حسرات ،

---

(١) مئذنة مخروطية الشكل تمتد الى قاعدة مربعة يصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حولها ـ من خارجها ـ دوران الحلزون • طول ضلع القاعدة ٢٢ مترا ، وقطر القمة ٦ أمتار ومجموع ارتفاع المئذنة عن سطح الارض ٥٢ مترا • وتقع المئذنة خارج الجامع على بعد ٢٥ مترا من ضلعه الشمالى •

راجع : (سامراء ـ مديرية الاثار القديمة العراقية ١٩٤٠) (المترجم)

(*) تراهن ضابط تركى شاب على الصعود بجواده الى قمة الملوية فأصاب قلبه الوجل فى منتصف الطريق • والتاريخ لا يخبرنا كيف استطاع ان يقفل راجعا بجواده من هناك (المؤلفة)

وهو يطيل النظر الى مدينته الجميلة ، ذات الخطط الحسنة المنسقة ويتـذكر عهد المنصور ومدينة بغداد عندما بنيت فى اوج عهد الخليفة قوة ومجدا .

ومن الافضل ان يرقى المرء الى مكان مشرف عال ان اراد الوقوف على مقدار احكام المعتصم لخطط المدينة . وفى مقدور المرء ان يرى من حالق الطائرة معالم الطرق وآثار المبانى العامة والقصور بجلاء ووضوح ، بل وكأنه يشهد خريطة المدينة الاصلية وقد نشرت امامه . وفى مقدور المرء ان يشاهد من حالق أيضا مخطط المدينة تجلوه الآساس المندثرة ، وان يشهد المدينة الوسيعة كلها بضواحيها ، وقد امتدت لمسافة **٢٥** ميلا .

وصفت مس بيل ** اخربة المدينة وصفا مسهبا مفصلا ، والمعت الى قطع الزخرف الجميلة الباقية على مبانيها القائمة اليوم . ونشر بروفسر هرتسفيلد الآثارى الالمانى وصفا لتنقيباته الثمينة فى منطقة المدينة .

ومن فوق الملوية لا يرى الرائى اليوم الا آثار ابنية غير واضحة المعالم(١) . وهنا اخربة بيت الخليفة ، او قصر المنصور ، وطاقه الرخامى ما زال قائما .

(**) راجع : Miss Gertrude Bell: "Amurath to Amurath"

(١) منها الجامع اذ لم يبق منه اليوم شىء قائم غير جدرانه الخارجية التى تحيط بساحة طولها ٢٤٠م وعرضها ١٦٠ مترا . ان ثخن الجـدران لا يقل عن مترين وارتفاعها يناهز ١٠ أمتار وهى مدعومة من خارجها بابراج نصف اسطوانية يبلغ عددها ٤٠ برجا . وكان فى وسط الجـامع صحن مكشوف تتوسطه نافورة كبيرة مدورة . وكان يشبه بوجه عام الجوامع التى شيدت فى العصور الاولى للهجرة ، فى الكوفة وواسط والقاهرة والقيروان. والفرق بين جامع سامراء وتلك الجوامع انه يمتـاز عن جميعها بفسحتـه وفخامته اولا ، وبمئذنته ثانيا . وتاريخ بناء هذا الجـامع الكبير يعود الى عهد الخليفة المتوكل ، فاليعقوبى يصرح بأن الجامع الذى بنـاه المعتصم ضاق بالناس فى عهد المتوكل فهدمه الخليفة المشار اليه وبنى عوضا عنـه مسجدا جامعا كبيرا . ويذكر ياقوت فى معجمه بأن كلفة البناء بلغت ١٥ الف الف درهم .

راجع : (سامراء) ـ مديرية الآثار القديمة العراقية (١٩٤٠) (المترجم)

وعلى مبعدة آثار لما يسميه الاعراب المحليون (بيت العاشق) وسألت عنه فلم اعدم من يقص علي قصة شائقة محلية لطيفة : ذلك ان الحظ السعيد كتب لاحد الشبان فرأى وجه بنت السلطان ابان تطوافها فى حديقة ابيها على دجلة . وكانت الفتاة مرتدية ثوبا وردى اللون ، او بلون اللهب ، رقيق النسيج للغاية ولا يخفى تقاطيع جسمها الرشيق . وهكذا شغف قلب الفتى حبا بالفتاة فتقدم الى ابيها خاطبا . ورفض الخليفة ذلك فاصبح الفتى عاشقا مولها دنفا . ودأب الشاب على السباحة فى النهر ليلا علّه يشهد وجه فتاته وهى تطوف بالحديقة ، ومن يدرى ؟ لعله يستطيع أن يختلس نظرة منها . ولكن الخليفة الاب قبل ، على ما يقولون ، تزويج بنته من ذلك الشاب ، ولم يقل احد كيف تم ذلك . وبنى العريس لعروسه قصرا سمى بـ (بيت العاشق) او (قصر العاشق) . وتمضى الاسطورة فتروى ان الجسر ، وما زالت آثاره باقية على مجرى النهر المندرس ، بني للسيدة المذكورة ايضا ، ولكى تستطيع ان تعبره فتزور اباها الخليفة فى قصره . ان التاريخ وهذه السطور على طرفى نقيض . ذلك ان باني قصر المعشوق هو (المعتمد بن المتوكل) آخر خليفة عاش فى سامراء . ولم يقض المعتمد آخر ايامه فى (العاشق) هذا ، اذ انه نقل البلاط قبيل وفاته (سنة ٨٢٠) الى بغداد ، وبذلك زال مجد سامراء وتهاوت اثر ذلك القصور والبيوت الواحدة تلو الاخرى واصبحت الشوارع والمحلات الاخرى اخربة ، واثرا بعد عين . واضيفت مدينة دارسة الى اخواتها الدوارس فى العراق . انه شأن البلد واهله جميعا .

ومن معالم المنطقة التى يمكن رؤيتها من فوق « البرج العتيق » تل يسمى

---

(٢) قصر العاشق : قصر مرتفع مبني على ضفة نهر الاسحاقى فى الجانب الغربى من نهر دجلة ، وهو القصر المذكور فى التواريخ باسم المعشوق بناه المعتمد فى اواخر ايام حكمه فى سامراء قبل ان يتركها نهائيا ويعيد مقر الخلافة الى بغداد . وطول بناية القصر ١٣١ وعرضها ٩٦ مترا .
راجع : (سامراء) ـ مديرية الآثار القديمة العراقية . (المترجم)

محليـــا ب (قبر يوليان) • ويؤسفني انني لم استمع الى شرح آثارى مختص عنه • وهناك كثير من الاساطير الدائرة حوله ، ومنها ما يروى ان فرسان (يوليان) بنوا هذا التل فوق جدث قائدهم الحبيب ، اذ حمل كل واحد منهم غرارة[1] مليئة بتراب الارض ورماها فوقه • ورواية اخرى تقول ان (يوليان) كان احد الشياطين فأجمع فرسانه امرهم على ان يقبروه لذلك رموا عليه اكوام التراب هذه • ورواية ثالثة لا تذكر (يوليان) بالمرة ، لكنها تتحدث عن (الباشا الشرير) الذى جمع الحبوب فكدسها فى كومة عالية ، وكساها بالطين حفظا لها ، وعلى غرار ما يفعله الاعراب اليوم ، وباء هذا الجشع بغضب من الله فاستحالت حبوبه الى تراب • وعندما رفع (الباشا) الطين عن خزينته رأى ذلك وأسقط فى يديه جزاء ما جمعه من مال حرام • غريب أن يقرن اليوم اسم (يوليان) بسامراء ، انها تهلكة له • لقد مات هذا القائد فى مكان قريب منها وحمل افراد جيشه جثمان قائدهم الشاب وعبروا به دجلة على ظهر احد (الاكلاك) العائمة فوق جلود منفوخة ، وعندما حاول بعضهم السباحة مستعينين بهذه الجلود (على ما يكلف به اليوم اهل العراق) فشلوا ، وكانوا من المغرقين •

وسامراء — بعد — مدينة فاشلة من وجهات عدة • ان حرمة آل البيت هى التى ابقت للمدينة الحـــاليـة اهمية وذكرا • ولا يزيد عمر اسوارها على ١٠٠ سنة ، وقد بنتها ، على ماقيل لي ، سيدة فارسية زارت المدينة المقدسة ففكرت فى ان تحميها بالاسوار من الغزاة الطامعين • والمدينة ، موفورة الصحة يرجع الفضل فى ذلك الى سلطاتها المسؤولة • وهواء الصحراء يتخلل شوارعها دوما • وزرت فى يوم من الايام (مركز شرطة الخيالة) فاذهلني نشاط رجاله وحيويتهم ونظافة اصطبلات خيولهم ، وهم على ما يبدو يعنون بتربيتها عنـاية فائقة • ودعانا الضابط المسؤول فى (المركز) ، وهو شاب عراقى وسيم نشيط لتناول الشاى فاحتسيناه ب (الاستكانات) التقليدية • لم ينس (اللقلق) ان يبنى

(١) الغرارة — الكيس •

عشه فوق دار الضابط ، وعلى بيوت سامراء الاخرى ، لكنه اختار لذلك نافذة التهوية العليا المتصلة بسردابه • والسرداب مأوى الناس عند اشتداد الحر • وسراديب سامراء ، كسراديب النجف عميقة جدا ، وهى تأتلف من طبقات ارضية عدة •

ولم يبق ، بطبيعة الحال ، اى اثر للحدائق والبساتين[١] التى اشتهرت بها سامراء والتى كان يتبختر بها خلفاؤها زهوا • لقد محيت من الوجود منذ الف سنة[٢] • ـ ولعل من اقوى الدلائل على خصوبة ارضها ان فيها اليوم قطعا مزروعة فى الصحراء وهى تسقى ديما وتحرث بالفدان اليدوى • وما سوى هذه القطع المزروعة حنطة وشعيرا ، فالارض قفر يباب ، أما العشب فيمتد فيها حتى مد البصر • واذا ما مضى المرء مصعدا لمسافة قصيرة لرأى ان الارض الرسوبية الخصبة فى العراق تنتهى حيث تبدأ الهضاب وتلال العراق الشمالية •

---

(١) جاء فى كتاب البلدان لليعقوبى عن بساتين سامراء وجنانها :
« ••• وحمل النخل من بغداد والبصرة ••• وحملت الغروس من الجزيرة والشمال والجبل والرى وخراسان وسائر البلدان ••• وصلح النخل ونبتت الاشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه والرياحين والبقول والرطاب وكانت الارض مستريحة الوف سنين حتى بلغت غلة الاجنة والبساتين وخراج الزرع ٤٠٠ الف دينار فى السنة • »

(٢) وبعد ان كان الناس يسمونها « سر من رأى » اضحوا يسمونها « ساء من رأى » وبعد ان كان الشعراء يتسابقون فى مدح قصورها اخذوا يسترسلون فى رثاء اطلالها • وفى الواقع ماتت سامراء ميتة فجائية بعد عمر قصير لم يبلغ نصف قرن وامست رموسا واطلالا لا يقل امتدادها عن ال ٣٥ من الكيلومترات • ومن الغريب أن اثار دورها المبنية من اللبن ، المزخرفة بالجبس قاومت حدثان الدهر اكثر من قصورها المبنية بالأجر المزخرفة بالرخام ••• والسبب فى ذلك هو ان القصور تعرضت الى تخريبات الناس الذين اعتبروها بمثابة مقالع غنية بالمواد الانشائية الصالحة للاستعمال فى حين ان الدور سلمت من تخريبات الناس ولم تتعرض الى تخريبات ايد ، غير ايدى الطبيعة والزمان ••• ويظهر ان ايدى الانسان قادرة على التخريب ـ بوجه عام ـ اكثر من ايدى الزمان •
راجع (الرسالة العدد ٣٤٤)

المترجم

الباب الثالث

مدن العراق الكبرى

الفصل الاول

عاصمة العراق (١) ...

وأهلهـــا ...

اسس الخليفة المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من (دجلة) على غرار حصن ، وأقام فى وسطها القصر العباسى (٢) . وتتابع على المدينة الحكام منذ ذلك الحين وتغيرت معالمها وجاوزت ، قبيل وفاة مؤسسها ، ما رسم لها من حدود ابتداء ، فاتسعت وشملت ضفتى النهر وضاحيتى الاعظمية ، والكاظمية (كذا) ، واصبحت بقصورها ، ومساجدها ، ومبانيها العامة تضاهى اية عاصمة

---

(١) بغداد «مدينة السلام» ـ هو الاسم الاصلى ، وقد ذكر (ياقوت الحموى) فى معجم البلدان انها سميت (دار السلام) أيضا تشبيها بالجنة لانها دار السلام عاصمة العراق وفى المعلمة البريطانية Encyclopaedia Britannica فى مادة (بغداد) ما يلى ، (وفيه خطأ ظاهر فان بغداد عرفت عنـد مؤرخى العرب فى العصر الاموى وقبل انتقال العباسيين اليها كما فى تاريخ الطبرى وغيره : تعليق : الدكتور مصطفى جواد) .

« بين حدود المدينة نفسها وعلى عدوة دجلة الغربية بقايا متراس لاحظها سر هنرى رولنصون لاول مرة سنة ١٨٤٠ ، عنـد هبوط النهر ، وكانت مشيدة بالأجر وملاطها من القار ، وفيها كتابة من عهد (نبوكوراصر) ، ملك بابل . وكانت بغداد مدينة بابلية قديمة يرتقى تاريخها الى ٢٠٠٠ سنة ق.م على ما يحتمل . وجاء اسمها فى القوائم المكتشفة فى خزانة آشور بانيبل ، وورد أيضا ذكرها فى صخرة ميشو التى وجدت على دجلة قرب موضع المدينة الحالية ، ويرجع تاريخها الى عهـد (تغلات فلاستر الاول) ١١٠٠ ق. م . لقد أوضح متراس نبوكوراصر المذكور امرا وهو ان مدينة بغداد القديمـة كان موضعها فى موقع بغداد الغربية ، أى بغداد العتيقة . ان مآخذ (التلمود) اليهودى تبين ان المدينة كانت باقية فى بدء التاريخ الميلادى وبعده . امـا اذا اعتمدنا على كلام مؤرخى العرب فالظاهر منه انه لم يبق فى ذلك الموضع الا دير قديم حينما أسس الخليفة المنصور المدينة الغربية ، على ان الانسان قد يشك فى صحة هذه الرواية الخرافية اذ أن من الواضح ان اسم الموضع كان ثابتا فورثته المدينة الجديدة) اهـ . أما ما ورد عنها فى المؤلفات الاخرى

فى الدنيا ، فى المشرق أو المغرب • وعانت المدينة كثيرا من التغيير ، والتخريب
وانطمست بعض معالمها الاصلية ، ولكنها لم تدمر كليا الا على يد (هولاكو
التترى) عند استيلائه على المدينة فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى[٣] • لقد
احرقت قصورها ، ونهبت مبانيها العامة ودمرت خزائن الكتب فيها ورميت
مخطوطاتها النفيسة فى عباب دجلة • وفى الحق أن الضربة القاصمة لم تنزل
بالمدينة الا عندما خربت سدود البلاد وقنواتها المشيدة منذ آلاف السنين (كذا)
وبذلك استحالت تلك الاراضى الخضراء المنتجة ، وحقولها وبساتينها ، الى
صحراء يباب جرداء ، ومستنقعات هى موطن حُبيبات (ميكروبات) البرداء

ونهضت المدينة بعد تلك الضربة القاسية من كبوتها فكانت بغداد اخرى ،
واقل شأنا من الاولى • وفى اواخر القرن الرابع عشر منيت بلاد الرافدين
بضربة مغولية على يد (تيمورلنك) [٤] واستحالت بغداد ، كرة اخرى ، الى
خرائب وانقاض • وتتابعت الضربات عليها : انزلها سنة ١٥٢٤ الشاه اسماعيل
الفارسى فالشـــاه عباس فى مفتتح القرن السابع عشر • واستولى السلطـان

فمجمله أن محلا أو سوقا أو قرية وجدت قبل الاسلام بهذا الاسم فى موضع
يكاد يكون موضع بغداد نفسه أو فى جواره ، وقد المع الى ذلك الكتاب العرب
وقيل ان سوقها كانت عظيمة تقام كل شهر مرة • ورآى المحققون هرتسفيلد ،
وبدج ، ودليج أن (بغداد) اسم فارسى ، لكن الواقع انها عرفت بهذا الاسم
قبل الفرس بمئات السنين ، ويرى آخرون ان اسم بغداد مكون من (بيت)
الارامية و (كدادا) بمعنى غنم أى (بيت الغنم) •

(المترجم)

(٢) كان قصر باب الذهب يقوم فى وسط المدينة المدورة وفيه القبة
الخضراء وبجواره المسجد وحوله قصور اولاد المنصور فدواوين الحكومـة
وكانت للمدينة ٤ ابواب : باب الكوفة فخراسان فالشام فالبصرة وكانت
القبة الخضراء عالية ينظر الجالس فيها من يخرج منها ومن يدخل اليها •

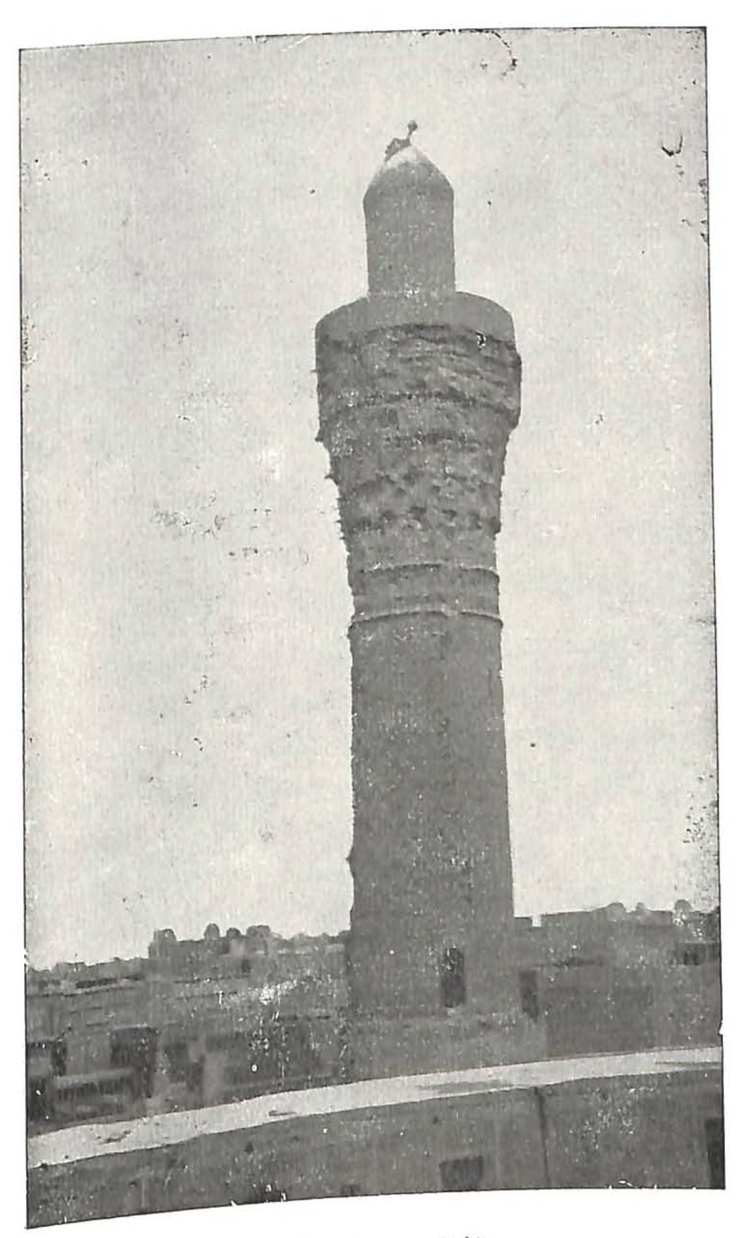
(المترجم)

(٣) ٦٥٦ هـ (= ١٠ شباط ١٢٥٨ م) وبه ينتهى الحكم العباسى ويبدأ
الحكم المغولى الايلخانى •

(المترجم)

(٤) ٧٩٦ هجرية (= ١٣٩٣ ميلادية) •

(المترجم)



منارة ســوق الغزل

مئذنة جامع الخلفاء ببغداد (القرن السابع الهجرى = الرابع عشر الميلادى)

أمام الصفحة ١١١

مراد العثماني على المدينة اثر انتزاعها من يد الفرس سنة ١٦٣٨ ، وصحبت الاستيلاء هذا حروب ودم مسفوك وهدم وتخريب ...

واعيد بناء بغداد من جديد . ولا تنس ان الجيوش الغازية لم تكن السبب الوحيد فيما احاق بالمدينة من دمار وتخريب ، فلقد كان للفيضانات شأن كبير لا يقل عن شأن الجيوش . لذا فليس بغريب ان يبقى ، بعد ذلك كله ، من المدينة الاصلية الا القليل الاقل ، وانما الغريب ان يبقى منها شيء .

اشرت فى فصل آخر من هذا الكتاب الى المئذنة القديمة القائمة اليوم فى سوق الغزل (٥) . لقد بقيت هذه على شموخها وعلى الرغم من ضربات التدمير المتتابعة . كما اشرت الى بعض المدارس والجوامع التى يرجع عهد بنائها الى القرون الوسطى . ويصف لسترانج فى كتابه (بغداد فى عهد الخلافة العباسية) المدينة فى أيامها الاولى وصفا رائعا ، ويرجع فى ذلك الى جغرافى العرب القدامى والاسانيد المعاصرة . كما قام (ماسينيون) بدراسة عملية لمعالم بغداد الباقية حتى اليوم .

هدم مدحت باشا المشهور بـ (ابي الدستور العثمانى) ووالى بغداد سنة ١٨٦٠ جانبا من سوري المدينة القائمين فى جنوبها وشرقها وهما يرجعان فى تاريخهما الى العصور الوسطى . ان مدحت باشا فى عداد العظماء ، ما فى ذلك شك ، ولكنه ، مع ذلك ، لم يجد بأسا فى هدم السورين ، وبيع حجارتهما سدا لعجز طارىء فى خزينة الولاية . لكنه لم يمس ابواب السورين بسوء ، وهكذا بقى (الباب الوسطانى) (٦) و (باب الطلسم) (٧) حتى ايام الحرب الاولى .

---

(٥) لم تعلم مؤلفة الكتاب ان هذه المنارة أنشئت فى عهد الملك آباقا ابن هولاكو الطاغية سنة ٦٧٨ وفى ولاية علاءالدين عطا ملك الجوينى على بغداد ونواحيها كما جاء فى كتاب « الحوادث » الذى نشر سهوا باسم « الحوادث الجامعة » وليس هو اياه ــ تعليق .. الدكتور مصطفى جواد .

(٦) هو متحفة الاسلحة اليوم وبابه احدى الابواب الاربع التى أنشئت فى سور بغداد ولم يبق منها غير هذه الباب . (المترجم)

(٧) أنجز بناء هذه الباب سنة ٦١٨ هجرية (= ١٢٢١ ميلادية) فى

رمم الباب الوسطانى [٨] عند دخول السلطان مراد منتصرا الى بغداد . وكانت هناك اسطورة تتردد فى اوساط المدينة ان فاتحا منقذا سيمر من طاق المدينة عاجلا او آجلا . ولم يقدر للجيوش البريطانية التى دخلت بغداد ان تمر من هذا الطاق بالذات فالاتراك اتخذوا من الباب دار صناعة ، وسرعان ما نسفوها عند جلائهم من المدينة ، ولقد سبب النسف تصديع كثير من دور المدينة وتخريبها ايضا .

والباب اليوم اكوام من الركام والتراب، وما زالت آثار السور ، وخندقه العميق باقية فى الصحراء . وتقوم قبالة الباب الجنوبى [٩] بناية اصبحت فيما بعد كنيسة الحامية الانكليزية ، وقرية اللاجئين الآشوريين .

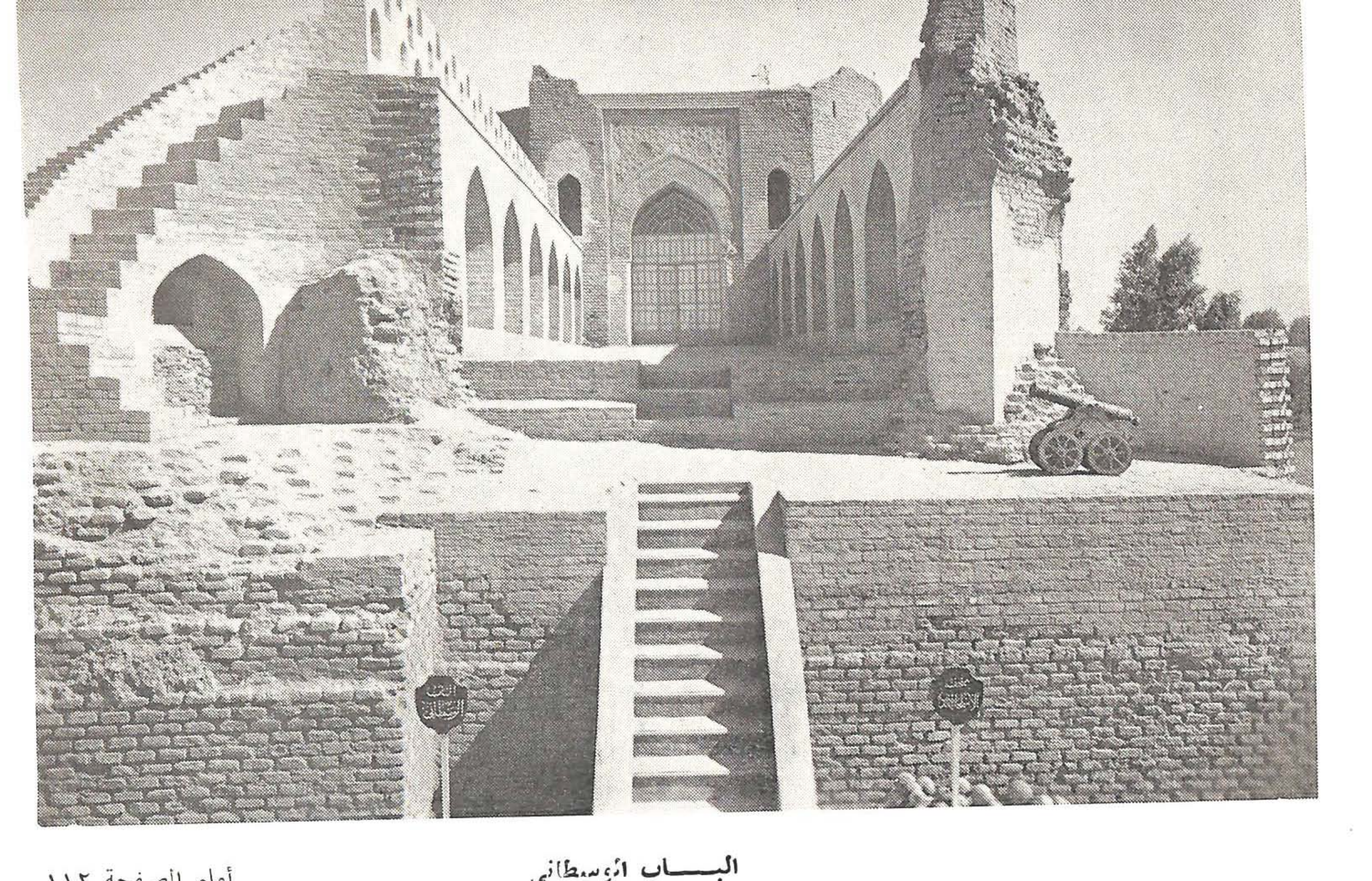
ان ما تبقى من المبانى الدينية ببغداد العباسية جد قليل . ومنهـا (خان أورتمه) وهو يقوم اليوم فى مدخل السوق وقد كان فندقا [١٠] ينزل به المسافرون وتنفق موارده على خان مرجان . وفوق بابه اليوم كتابة تقرر ذلك . انه بناء

سور بغداد الشرقية وكانت تسمى (باب الحلبة) وخربها الفيضـان سنة ١٠٦٧ هجرية (= ١٦٥٦ ميلادية) ورمم بناؤها فى عهد محمد باشا الخاصكى ونسفها الاتراك سنة ١٩١٧ قبيل الاحتلال البريطانى .

(٨) خلطت المؤلفة فى التعيين بين باب الحلبة الذى هو باب الطلسم وباب الظفرية الذى هو الباب الوسطانى لانها جعلت الباب المنسوف « الباب الوسطانى » مع انه لا يزال قائما فالمنسوف هو باب الطلسـم . تعليق الدكتور مصطفى جواد .

(٩) هو آخر أبواب السور لبغداد الشرقيـة فى أواخر أيام الدولة العباسية ، وكان يسمى باب البصلية نسبة الى البصلية التى هى شعبة من محلات باب الازج ، وتسمى أحيانا « باب كلواذى » نسبة الى القرية التى كان يسلك منه اليها على مقربة من بغداد فى الجنوب فهـو باب لا بناية بالمعنى المفهوم ، وقد هدمه أرشد العمرى فى أيام أمانتـه للعاصمـة . تعليق .. الدكتور مصطفى جواد .

(١٠) بل كان خانا للتجار ويعرف باللغة الفارسية باسم « تيم » على وزن تين ، ولذلك جاء فى أول الكتابة المنقوشة على بابه (أنشأ هـذا التيم والدكاكين) . تعليق .. الدكتور مصطفى جواد .



أمام الصفحة ١١٢

الباب الوسطانى

وهو باب (الظفرية) ، واليوم متحفة للاسلحة ببغداد (القرن السادس الهجرى = الثانى عشر الميلادى)

جميل ، واقترح على الحكومة أن تستفيد منه، فأصبح مخزنا للقطن والاقمشة، تتكدس به في غير نسق البالات والجلود ، وبانتظار شرائها من قبـــل باعة المفرد . ان قاعته الجميلة متينة البنـاء ، وهي من طراز القرن الثاني عشـر وتصلح لان تشغل من قبل أحد المجالس ، أو الدوائر البلدية ... ولعلهم يستفيدون منها عندما تشرف خزينة الدولة ، في يوم ما على الافلاس !

وتقوم (القلعة) في الطرف الشمالي من المدينة ، وأمامها مدفع قديم تعزى اليه القوى الخارقة ! وفيها بقايا قصر الخليفة المأمون بن هرون الرشيد(١١) . واتخذ الاتراك من هذه البناية دار صناعة ، ثم ضمت ابان الاحتلال البريطاني الدوائر الرسمية . والجيش العراقي يحتل اليوم القلعة ، وغرف القصر(١٢) العباسي وطوقه خالية . ان الغرف هذه عالية وفيه ممرات تقوم فوقها الطوق ، وسراديب ... وكلها مبنيـة بالآجر العبـاسي ، وهو حسن الصنع ، ناعم الملمس.. ان طرازه العام شبيه بالآجر المتبقي في بناء المستنصرية (١٣). وانك

---

(١١) أخذت المؤلفة بقول بعض من لا علم له بخطط بغداد العتيقة فطرازه وريازته من طراز وريازة المدرسة المسـتنصرية ويرى بعض الباحثـين انه (دار المسناة) التي أنشـأها الناصر لدين الله العباسي (٥٧٥ - ٦٢٢) في أوائل عهده وجعلها دار علم وجعل فيها خزانة كتب فائقة ، وانها القصـر الذي ذكر ابن جبير الرحالة ان الخليفة المذكور صعد اليه في زورق ، وكان ذلك سنة ٥٨٠ هجرية ويرى البعض انه المدرسة الشرابية التي أنشأها اقبال الشرابي بالجانب الغربي من بغداد على أن أحدا من المؤرخين لم يقل أن المدرسة الشرابية كانت على شط دجلة . تعليق .. الدكتور مصطفى جواد .

(١٢) هو اليوم متحفة للآثار الاسلامية عرضت في غرفه آثار ريازية من مختلف المدن الاسلامية ، وفيه مجموعة من المحاريب تبين تطور شـكلها منذ أول ظهورها حتى العهد الحاضر . (المترجم)

(١٣) جامعة دينية كانت تشغلها حتى عهد غير بعيد دوائر الكمرك ، ثم أولتها مديرية الآثار العامة في العراق عنايتها فصانتها ورممتها وهي من أهم آثار العباسيين ببغداد. أنشأها أبو جعفر المستنصر بالله الخليفة العباسي وكان ابتداء عمارتها في سنة ٦٢٥ هجرية وتمت في سنة ٦٣٠ هجرية ودل على ذلك ما كتب على جدرانها الباقية الى اليوم . (المترجم)

لتشاهد الزخرف على الطوق والسقوف والابواب ، كما جادت به قريحة البنائين فى ذلك العصر . لقد شغفوا بالحفر والنقش على الآجر ، فأصبح ذلك دليلا على روعة العمارة فى العصر الزاهى العباسى (١٤) بغداد .

ومن المؤسف حقا أن تمنى هذه الآثار بالاهمال فالخراب ، ولا يتخذ ما يلزم للحيلولة دون اندثار هذه الآثار وذهاب معالمها . لكن الحكومة العراقية لا تملك اليوم المال الكافى لاصلاح ما يفسده الدهر .

وعلى الرغم من ان أبنية المدينة الحديثة ما زالت تزخر بحكايات ، ولشهرزاد أن تستمد منها مادة لقصصها التى تقصها على سيدها الذى يبقى الليل مسهدا ... حكايات يرددها (الافندية) وقد ارتدوا الملابس الاوروبية فى المقاهى وتدور فى الغالب عن مقارنة الحكم التركى بالحكم الانكليزى من حيث الفوائدوالمساوىء . كما تتلألأ فى المدينة الاضواء على واجهات السينمات ليلا ... وتعم فيها بعض المخترعات العصرية كالمصباح الكهربائى ، والتلفونات ، والسيارات من طراز (فورد) وتصبح جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية . ومن عالم قصص الجان هناك شخصيات سوقية أيضا ؛ كالشحاذ المغنى الاعمى ، والعبد الاسود فارع الطول ، وهو ذو قامة تناهز الـ ٦ أقدام وسواد بشرته كالفحم ، انه لا يرتدى من الملابس الا كيسا (كونية) ويلف حول رأسه كيسا قديما أيضا يشبه العمامة ، وفى يده (صولجان) من قصب ! وانك لتجد الصبية الحمالين يهزأون منه ويسخرون ولكنهم لا يقسون عليه ... ذلك ان للمخبولين عندهم شبه قدسية !

وهنا يجلس النعالون فى ضوء خافت ، انهم يعلقون النعال الزاهية الالوان فى دكاكينهم ، وفى جانب آخر تجد السراجين ، وهم يستخدمون فى صناعة الجلود الملونة المطرزة ويتخذون لها طرزا دقيقة ، وعلى مقربة

---

(١٤) لم تعين المؤلفة تاريخ العصر الزاهى بعد أن اعترفت بأن الريازة مستنصرية العصر . تعليق .. الدكتور مصطفى جواد .

منهم يعمل صانعو الاعنة والالجمة . ومما تزين به الفرس العزيزة مفارش صوفية ذوات ألوان فاتحة تخاط فيها الودع والخرز وما الى ذلك .

وتجلس النسوة المسلمات وقد ارتدين العباءات السود على درجات دكاكين البزازين يساومن على الاقمشة المستوردة من مانجستر ، وقد يعمدن الى اختيار الحرائر من دكان مجاور ... وانك لتشاهد البائع وهو يفتح (الطول) أمامهن وهو يتلألأ فيخلب منهن اللب . ان الحرير المباع فى الاسواق العراقية أرخص من نظيره المباع فى الاسواق الانكليزية ، وعلى ما اكتشفته كل انكليزية فى بغداد . وفى السوق تجد باعة العباءات والمآزر ودكاكينهم مليئة بالاردية الحريرية من كل نوع . انها مزينة بخيوط من ذهب وفضة .

وهذا طريق ثانوى يؤدى الى باعة الاحزمة . انهم يثقبون الاحزمة الجلدية بآلة خاصة ، والرجال يلفونها على ملابسهم عند الخصور . انها سميكة قوية ، ولقد أثارت مهارة هؤلاء الصنّاع ودقتهم اعجابى دوما . وسوق صاغة الفضة ضيق متعرِّج وفيه تصنع الاساور والحجول وسائر ما تتزين به النساء . ويعمل فى هذا السوق صاغة الذهب أيضا ، وجُلُّهم من اليهود . وانك لتجد الصبية الصغار يعاونون الصاغة فيديرون لهم المنفاخ الذى يحمى به (الكور) ، وقد طرح على الارض . ان الحجول الثقيلة المصنوعة من ذهب أو فضة مما تزين به النساء . وهناك الخلاخيل الصغيرة التى تزين بها أقدام الاطفال الصغيرة أيضا . وفى الخلاخيل أجراس لها رنين موسيقى تستطيع الام بواسطته ان تعلم الى أين يدرج صغيرها الحبيب .

« بالك ! بالك ! » ... وهذا ما يسمعه كل من يتوغل فى السوق الرئيس ، وما عليه بعد سماعه ذلك الا ان يجنّب رأسه الاصطدام ببالة كبيرة يحملها حمال فارسى (كذا) وهو ينوء تحت وطأة حملها الثقيل . ولهذا الحمال شعر أشعث أسود ، وعلى ظهره لبّاد يضع الاحمال فوقه ، ورداؤه

لا يكاد يجاوز ركبتيه • ان الحمالين ، فرسا وأكرادا، يشبهون ، فى سحنتهم ، أسلافهم فى أيام (دارا) • وانك لتشاهد ٢٠ أو ٣٠ منهم فى نهاية شارع البنوك عند النهر وهم يجلسون على الارض ويتناقلون الحديث الودّى ويحتسون الشاى فى أقداح صغار ، وهم يجعلونها عادة بين اصبعين : الوسطى والابهام ، وهم يضربون ظهورهم بالسلاسل ويلطمون على صدورهم ابان محرم •

جِنْك ••• جنك ••• جنك ••• انه الصوت الرئيس الذى تسمعه من الصرافين ، وكلهم من اليهود • انهم يجلسون على الارض لاعبين بحفنة من الروبيات ، والمارة تمر بهم مر الكرام !•

ويجلس فى مدخل السوق (العرضحالجية) • وهناك عدد منهم فى شارع المستشفى ، خارج المحاكم • انهم يجلسون على مقاعد خشبية هى كل عدتهم لمهنتهم الخاصة • وانك لتشاهد دوما احدى النسوة المسلمات وهى تجلس قرب الكاتب هذا وتملى عليه رسالة الى زوجها او ابنها الغائب ، ذلك ان المسلمات الفقيرات قل من يعرف الكتابة منهن • وقد تشاهد بقربه عشائريا، او شيخا مسنّا يشكو من مرض عينيه ، لنفس الغاية • فان اخذت سمتك فى شارع (البنك) المنحدر صوب النهر لرأيت منظرا قديما ، قدم بابل ؛ انها بقعة مفضلة يجلس فيها فتاحو الفأل وقرّاء البخت ، وانك لتشاهد بعد ظهر كل يوم لمّة من النساء وقد تحلّقن حول شيخ يتمتم ببعض التعاويذ ، ويلقى بالبيض او غيره فى النهر •

هلو ••• يا اختاه ! انظرى الى هذه السجادة الفارسية ••• انه صوت البائع ، تسمعه وانت تمر على باب دكانه • وقد تستفزك هذه الالفة فى النداء ••• ولكن هذا النوع من الخطاب اصبح شائعا ببغداد عندما لم يكن فيها من النسوة الانكليزيات غير الاخوات الممرضات ! لقد التقط اغلب الباعة بعض الكلمات الانكليزية ، كما التقطها صغار الصبية من الحمالين •

وهناك شارع غريب الاسم انه « سوق اللصوص » فالشرطة تعثر فيه دوما على كثير مما يسرقه النشالون بخفة . انه مكان قذر ولكنك تستطيع ان تساوم فيه على اشياء عجيبة غريبة .

وانك لتجد فى هذه السوق صحونا كبيرة صنعتها (شيفيلد) وهى ذات شكول مضحكة ، واكوابا من زجاج ايضا . وقد يرجع المرء من السوق بمثل هذه فخورا منتصرا ، ولكنها على كل حال ، سوق مريبة ! انها المكان الذى يبيع فيه السراق ما يسرقون . انه ببغداد لزقاق بيتيكوت Petticoat Lane اللندنى نظير . ولكل شىء فيه ثمن : من جلود الانعام الى الدُسُر القديمة ، واغطية علب السكائر لا تنساها !

اما الجادة ، او الشارع الجديد ، فطريق طويلة فتحها الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى . ويبلغ سوم الايجار فيها مبلغا فادحا ، ذلك ان ايجار الدكان الصغير حوالى الـ ٦٠٠ روبية سنويا . وقرب (ساحة الصيارفة) صفوف متراصة من النجارين الذين يعنون بصنع المناضد ، والتوابيت والمهود ... ثلاثة اشياء لامعدى منها لكل مخلوق ! والمقابر جميعا تقع حوالى المدن : وبذلك تحيط مدينة الموتى بمدينة الاحياء !

خرجت فى اول من امس اسير فى شمس الربيع على السدة الشرقية فى المدينة فتناهى الى مسمعى عويل ونواح . انه الخميس ، وهو اليوم المفضل لدى النسوة لزيارة القبور ، ويبلغ عدد النائحات فيه المئات . هنا نسوة يعولن ، وهناك اخريات يندبن ، والدموع تختلج فى عيونهن ، ومنهن من ينحن او يصحن بصوت اجشّ فيه برجمة وغلظ . وتقف كل امرأة ، او لمّة من النساء ، قرب قبر فقيدها . والنائحات فى الغالب من النساء ، وقد تشاهد هنا ، او هناك رجلا يجلس على مرتفع من الارض وحيدا . والنواح فى هذه البلاد اشبه ما يكون بصراخ الاطفال الصغار . واهلها لا يكتمون

الحزن ، ولا يلوذون بالصبر الجميل • وتتجمع النسوة فى (محرم الحرام) وغيره من المناسبات فينحن ويعولن كثيرا •

وانك لترى ببغداد النقيضين يجتمعان (★) : الجمال من جهة والادران، والزواق بلا ذوق أو تنسيق من جهة أخرى • فان استهوت الانســان مرة مجموعة من الالوان والطرز التى يحفل الشرق بها حصرا ••• فقد تتقزز منه النفس ويشفق مرة أخرى• ان المنظر الكريه والرائحة الكريهة والذوق النابى مما لا يطيقه كل انسان • وقد يشاهد المرء فى الندرة العارضة طفــلا يتألق صحة ومرحا ، ولم يغض بعد معين الفرح من نفسه • او يسمع دهشا فرحا قهقهة طفل يدرج فى الشارع ، ولكن ذلك فى النادر القليل • فاغلب الاطفال مرضى تظهر على وجوههم معالم علو السن ، كما ان عيونهم حمراء فيهــا قذى يساقط ، وقد تشــوه وجه الطفل القروح والندبات • وذوق البغدادى ، بقدر تعلق الامر بالملبس والصنعة ، حسن • والصناعات اليدوية التى يرثها الخلف عن السلف حسنة أيضا • ولــكن البغدادى أميــل الى الغوغائية ، والعنف ، والالوان الصارخة والتــافه وما يثير الرعب والهلع • وفى الحق انه محب لكل جميل جذاب ••• ولقد دأب أسلافه على السير فى الطريق المؤدى الى المنفعة الصرفة ، ومن الدلائل على ذلك انهم أنتجوا آنيــة جميلة وبسيطة من نحاس وفخار تقر بها العيون • أما عراقى اليوم فيفضل ، على وجه العموم ، صفيحة البترول ، لنفس الغرض ، وكل آنية زهر المانية ، زهيدة الثمن ، تبعث فى نفسه الرضى وتطمئن ذوقه الجمالى أيضا • وليست التربية بدواء لمثل هذا الحال ، وقد يصعب بواسطتها معالجة الداء ؛ اذ قــد

---

(١) لا شك ان الفرق بين حال أهل البلاد على ما كانوا عليــه وعلى ما تصفه المؤلفة عند كتابة كتابها وبين ما هم عليه الآن لا يستهان به تغــيرا وتقدما •

(المترجم)

يجعل العراقى التقدم صنوا لكل شىء أوروبى ، ولا سبيل بعد ذلك الى أن يفترق الصنوان !

وكانت لدى صديقة لى قطعة قماش من حرير من مطرزات حلب ، وحسبت ان بالامكان محاكاة ذلك فى أسواق بغداد ، فالطراز هين بسيط . واستطاعت احدى الصديقات البغداديات ان تجد لها مطرزا قيل انه ماهر في صنعته . وتركت الصديقة القطعة لديه ووعدته بان تعود اليه بعد اسبوعين . ومضى اسبوعان ولم ينته تطريز القطعة ، وبعد ٣ اشهر اكتشفت صديقتى ان المطرز لم يمر بابرته عليها ابدا ، وما زال يتطلع الى الطرزة دهشا متحيرا ، مما اضطرها الى استعادة القطعة لتريحه وتستريح ايضا . ان المطرز لم يجرِّب غير ما هو مألوف ببغداد ، لذا لم يعمد الى محاكاة الطرزة التى جاءت بها اليه . ان اليابانى ، والهندى ، والفارسى وحتى السورى لابد وان يحاول جهده فى مثل هذه الحال فذلك المطرز البغدادى لم ير فى عميلته الا امرأة سخيفة لانها تريد ان تخرج على المألوف المتعارف . انه لا يشعر بنقص او تخلّف فى مثل هذا الوضع ، فهو مطمئن وراض بذلك تماما . انه يعرف كل حاجاته وكل ما يميل اليه الناس ، فلا يريد ، بعد ذلك ، ان يتعلم من أى شخص آخر . فليس من السائغ عقلا ، وهو على مثل هذه الحال ، أن يقبل نقدا . ومثل هذا كائن فى الميادين العقلية أيضا .

ومن المؤسف ان تكون تصرفات بعض البريطانيين فى بلاد ما بين النهرين خلال الحرب والهدنة لا تبعث الرضى ، فلقد كثر بينهم من أفسد الامور ، وقام بصفقات مريبة ... وكل هذا جعل الناس يعتقدون ان فى العراق أما الآن فأهل البلاد ينظرون الينا كما ينظرون الى الغير ..

ان بغداد والعراق كله بامس الحاجة الى مدارس ثانوية ، ذلك ان

فى مقدور هذه المدارس أن تعد طرازا أفضل من أبناء الطبقة الوسطى . ان الكلية الجديدة التى تم انشاؤها على طريق المعظم ستكون عونا لادراك هذه الغاية بالذات ، شأنها شأن (كلية الحقوق) ، و (مدرسة الرى) والمدارس الصناعية التى سيتم تأسيسها فى الوقت الملائم . ان (الافندية) اليوم من يستطيع قراءة الجرائد ، ويرتدى السروال والمعطف الاوروبيين ، والطربوش ... ومن يجلس فى المقاهى ويبحث فى الشؤون العامة دونما هدى أو قدرة بينة . وأغلب الكتّاب لاحظ لهم من الكفاية الا القراءة والكتابة ، وعددهم جد كبير . ويجب أن تهدف وزارة المعارف الى أسمى من اعداد الموظفين ، فعليها أن تهدف ، ان كنت أنفذ الى حقيقة نواياها ، الى ابتعاث شخصية العراقى وخلق التواضع الذي هو من صفات المعرفة والرغبة فى التعليم . ولا تحتاج البلاد الا الى شيء من المال ، أى أكثر بقليل مما هو ميسور لديها الآن ...

ان كل واحد ، حتى القاربى الفقير ، يشعر بما ينتاب النظام القائم من قلق واضطراب ، ويتساءل متفلسفا : « وما الذى بعد هذا ، يا ترى ؟ » لقد شهد الاتراك يرحلون ، ولكنه يسمع الناس يناقشون بهدوء أمر عودتهم . لقد شهد الانكليز يدخلون بغداد ويسمع الناس يتحدثون عن قرب رحيلهم . لقد سمع البعض سنة ١٩٢٠ يهيب بشعب العراق أن يطرد الانكليز من بلاده ، وشهد هؤلاء الانكليز أنفسهم ، بعد ثورة ١٩٢٠ ، يأتون بأعدائه السابقين فيولونهم المناصب ذوات السلطة . لقد رأى بأم عينه « أجنبيا » ، عربيا وليس بعراقى ، يتبوأ عرش بلاده[1] . لقد سمع ان فيصلا يميل الى الانكليز ، وسمع انه عدو الانكليز . لقد قيل له ان الانكليز مصممون على البقاء فى البلاد ، كما قيل له ان الانكليز جد راغبين فى الرحيل . وتحدثوا اليه ان الانكليز يبغون استثمار موارد بلده ، كما تحدث اليه آخرون مدعين ان فى ذلك تبديدا للمال المجبى من دافع الضريبة الانكليزى .

---

(١) جلى ان المؤلفة تقصد الملك السابق فيصل الاول .

النظريات ... الاشاعات ... الارهاب ... الكلام ... والكلام ..
ذلك ما تحفل به المقاهى ، والاسواق كل يوم . أن السواد الاعظم من الشعب لا يهتم لذلك كله ويقول « من الله ! » ثم يمضون لكد يومهم !. وسواء أحكم البلد الانكليزى ، أو فيصل ، أو الاتراك فان حياة سائق السيارة ، والقاربى، والحمال ومن فى حكمهم من سواد الشعب هى هى . المفلس فى القافلة أمين ... لذلك فلا فرق لديهم بين هذا وذاك ...

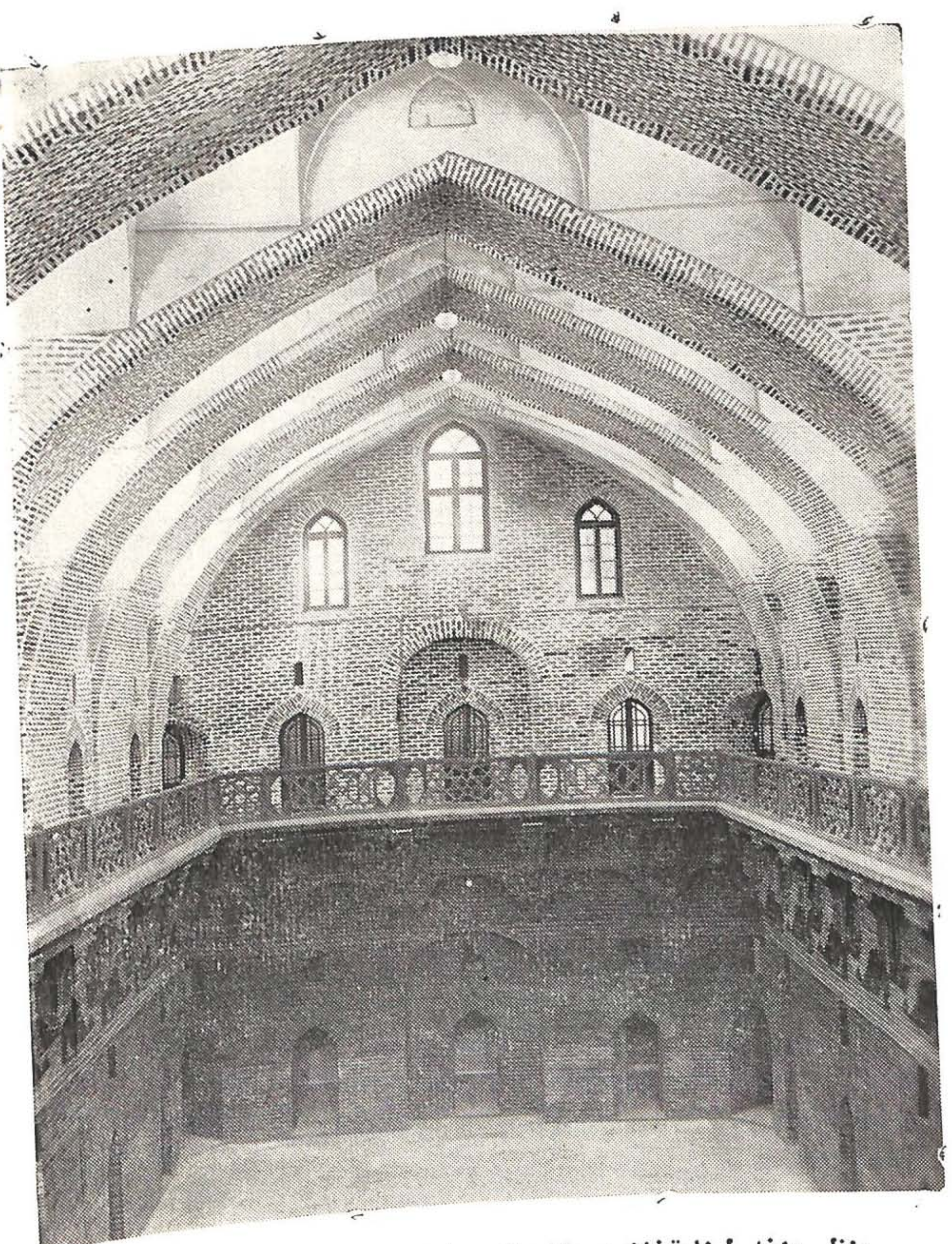
الفصل الثانى

جوامع بغداد ومزاراتها

سبق ان وصفنا فيما مضى الاسوار والابواب العتيقة الواقعة شرقى المدينة، وليس ببغداد الا بقايا آثار ومخلفات قليلة من تاريخها الدابر • والدور فيها لا تبقى على حالها أكثر من جيل أو جيلين ثم تنهار • لذلك يزعم البغداديون انهم يستعملون الخشب فى جدرانها وسقوفها ليحذر ساكنيها أن تداعت وأوشكت على الانهيار • ان لتكسر الاخشاب هذه صوت ينذر السكان فيحملهم على اخلاء البيوت • ورفع أحدهم شكوى الى انكليزى يقوم بتشييد بعض الدور ، ومفادها ان قصر البناء على الطابوق يحول دون التحذير الآنف الذكر • ومر الملك فيصل يوما ما فى احدى الطرق فمال بيت وانهار • واتصلت الواقعة بعلم الانكليزى فكتب الى الموظف المختص ليحقق فى الامر، ولكنه لم يستطع العثور على المسؤول • ومن الدلائل التى جمعها هذا الموظف خيل له ان المعمار لابد وأن يكون شخصا باسم (هيث بن روبن) ! فطلب اليه اجراء التعقيبات بحقه ، ولا أعتقد ان (سر هيث روبنسن) استدعى أو أجاب عن التهمة المسندة اليه !

قاوم الطابوق العباسى المتقن الصنع صروف الزمان على كل حال • ومنه اليوم بقية ترى فى عدد من جوانب بغداد ، ولا سيما فى بعض المساجد والمزارات • ففى ساحة الصيارفة ، وعلى الجهة اليمنى ، ان سار المرء شمالا ، طاق قديم يقع قرب مدخل (سوق الشورجة) • وأخال ان هذا الباب والمئذنة فوقه صوّرا ورُسما مرات عديدة منذ مجيء البريطانيين الى بغداد ، فهما ، فى الحق ، على درجة كبيرة من الجمال والروعة ••• فسواء نظرت اليهما وأشعة الشمس تلامس الآجر العتيق فتنشر عليه ورسا مزعزعا ، أو





منظر داخلي لبناية خان مرجان (الاوروتمة) ـ الذي شيده أمين الدين مرجان الاولجايتي ، حاكم بغداد على عهد السلطان أويس الجلائري .
(٧٦٠ هـ = ١٣٥٨ م) .

أمام الصفحة ١٢٣

عندما ينساب اليهما نور القمر الألاّق والسوق الكائن بمقربة مظلمة خالية من الناس • انهما جزء من (جامع مرجان) و(المدرسة) وقد تم بناؤهما فى القرن الـ ١٤ من قبل شخص يدعى (مرجان بن عبدالله الاولجاتى)[١] ومن (مرجان) نستدر الشيء الكثير • فالاسم من مادة النبات المرجانى المعروف ، وهو اسم يطلق على العبيد • ان (مرجان) هذا مملوك كردى[٢] فكَّ رقبته السلطان أولجياتى أو اسرته (والاولجياتى دليل على ذلك) • والمعروف انه وضيع المولد ، ولكنه أصبح حاكما على بغـداد وموسـرا • انه مدفون فى المسـجد الذى شيده ، وقد خلف وراءه ذكرى عاطرة ، وتراثا من التقوى والعمل الصالح •

وان مررت من الباب لرأيت البناء الداخلى مكونا من طبقتين : سـفلى وعليا ، ويحيط بفناء • أما الطبقة العليا فخصت فى الاغلب للذين يشدون فى طلب العلم • انه مبنى بالحجارة المهندسة المتينة التى امتاز بها عصره ، وعليها كتابات وزخارف فى الداخل والخارج • والـكتابات هـذه تمتاز بالدقة والجمال ؛ ذلك ان الخط العربى من أشـد ما عُنى به العرب وخلفوه فى البلاد التى فتحوها • ان النبى (صلعم) يمنع تصوير الاحيـاء لذلك انصبت جهودهم الفنية على : الطرز الهندسية ، وزخرف الكتابة •

---

(١) ان المكتوب على ظاهر جدار المصلى فى المدرسـة : مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن السلطانى الاولجابتى ـ ويحتمل هـذه الاوجه : (الاولجتائى) و(الاولجيناتى) و(الاولخياتى) • (المترجم)

(٢) لم تذكر المؤلفة السند الذى استندت اليه فى زعمها أن مرجانا كان كرديا ، ، وليس ذلك بصحيح ، حتى ليصعب فى التاريخ الاسلامى أن تجد كرديا مملوكا فى العصور الاولى فما ظنك بهذا العصر ، وأكثر ما يكون المماليك فى ذلك العصر من الروم ، والروم عند العرب يشملون عدة أمم غربية ويمتد الى الروس أحيانا ، أما اسم أبيه « عبدالله » واسم جده « عبدالرحمن » فهى من الاسماء الرمزية لا الحقيقية باعتبار ان كل مؤمن بالله تعالى يكون أبوه « عبدالله » وجده « عبدالرحمن » • تعليق : الدكتور مصطفى جواد •

صوّر المستشرق الفرنسى اثنابه (ماسينيون) ما على الجامع من كتابات بعناية بالغة وثبّتها فى رسالة نفيسة نشرها عن (مساجد بغداد) .

وعلى الجهة اليمنى من مدخل الجامع هذا (مدرسة القرآن) ، وفيها يحنو الدُرّاس النابتون على (كتاب الله) ، ويليها مسجد المصلّى . والجامع جميل فى بساطته ، وكل ما يزينه محراب ، والكتابات التى أشرت اليها آنفا ذات كلمات لها مزايا خاصة لا أستطيع نقلها ، فلا معدى لى من أن أنقل ترجمة (ماسينيون) لها :

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى وفق المطيعين لعمارة أبنية بيوت العبادات والهم المخلصين اشادة أعمدة دور الصناعات (كذا : الصواب : الطاعات تعليق ـ الدكتور مصطفى جواد) ، ورفع ذكر الولاة بتأسيس معالم المكرمات ، ودل أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات ، ومنح المحسنين بتشريف « ان الحسنات يذهبن السيئات » وحباهم بمال : « ان المتصدقين والمتصدقات » والصلاة والسلام على نبى الرحمة محمد المصطفى خير الانام ، وأصحابه مصابيح الدجى وبدور الظلام . أما بعد فيقول المفتقر الى عفو الملك المنّان ، مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن بدّل الله سيئاته : انى هاجرت فى الارض مدة سنين وجاهدت فى الطول والعرض ذات شمال ويمين ، متورطا فى مخاوف البر والبحر ، متوردا فى متالف البرد والحر ، فعلمت ان الدنيا دار الفرار وان الآخرة هى دار القرار ، وأيقنت ان أولى ما أنفقت فيه الاموال ، وأحرى ما توجهت اليه همم الرجال ، كان وسيلة الى أبواب رحمته محط الرحال ، وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال . قال النبى عليه الصلاة والسلام : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا عن ثلاث صدقة جارية ، وعلم ينفع به ، وولد صالح يدعو » والصدقة الجارية هى الوقف فى عمارة هذه المدرسة المسماة المرجانية وتوابعها المتصلات ببعضها فى زمن المخدوم الاعظم الدارج الى جوار ربه وجناته المستريح على أعلى غرفات جنانه الشيخ حسن

نويان[٣] أنار الله برهانه . » .

ثم تمضى الكتابة فتعدد الدكاكين والخانات والاراضى والبيوت والبساتين وما الى ذلك مما حبس من عين ليدر المال على الجامع والمدرسة « موطن العلماء ومنزل الخلفاء » وجاء فيها «ومن غيّر شروط هذه الاوقاف أو تصرّف فيها خلاف ما شرطت فى الوقفية فهو ظالم عند الله ، ألا لعنة الله على الظالمين[٤] .

ان هذه الكتابة فى محتواها وفحواها تمثل التقوى الصادقة والنفس المطمئنة ، ومخافة الله فى الدنيا والآخرة . انها صورة صادقة لنفس أحد الارقاء ، كان عبدا مملوكا فأصبح سيدا موسرا[٥] انه عصامى سعى الى اتلاد المال فى الدنيا الفانية ، ثم وجد ان التقوى والاحسان خير سبيلين يؤديان به الى تبوء المكان المرموق المعد للصفوة المختارة من الناس .

---

(٣) يقول مؤلف (تاريخ مساجد بغداد وآثارها) « المرحوم محمود شكرى الآلوسى : (النويان فى لغة ترك المغول ، والجغتاى يطلقونه على الملوك والسلاطين وأمثالهم) .

(٤) أن كثيرا مما ذكر فى (الوقفية) من الاوقاف قد اندرس ولم يبق له ذكر ، ومنه ما امتدت اليه يد الغصب . فدار الشفاء اتخذها يهودى حانة، وهى الشهيرة بقهوة المصبغة ، وباب الغربه هى شرعة المصبغة ، وكثير من الحوانيت المكتوب عليها وقف مدرسة مرجان تملكه الناس ، ومنه ما صار وقفا على كنيسة ، وما بقى منه أقل بالنسبة لما اندرس (تاريخ مساجد بغداد وآثارها للمرحوم الآلوسى صحيفة ٧١) .

(٥) وهكذا نجد ان الاسلام ، الشريعة السمحة ، لا يسعى الى تحرير الارقاء فحسب وانما يبوء منهم المجد الساعى التقى أرفع مكان (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) . لقد أوجب الاسلام أن يصرف جز من موارد الدولة (الزكاة) على تحرير العبيد ، ونهى رسوله (صلعم) عن قول عبدى وأمتى ، وأوصى بأن يقال (فتاى) و(فتاتى) . وورد فى الآية الكريمة (وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو اطعام فى يوم ذى مسغبة) ما يمثل هدف الاسلام الروحى (تحرير العبيد) والمادى (التحرر من الجوع) مجتمعين . (المترجم)

ان قبره فى غرفة خارج الجامع ، فيها قبر العلامة الكبير نعمان الآلوسى ، وهو الذى قام فى حياته بترميم الجامع . ولم يتعرض الاتراك بسوء لآثار هذا الجامع أو المدرسة عندما شقوا (الشارع الجديد) وأبقوا لهما ركنا بارزا فيه(٦) .

وفى جانب من الفناء ، وقبالة الجامع محل للوضوء معد للطلاب وغيرهم من المصلين . على مقربة منه سلم يؤدى الى (المكتبة) ، وفيها كتب قيمة . والجامع مدين الى حد كبير لفضل الاسرة الآلوسية . وفى المكتبة (اسطرلاب) نحاسى فارسى الصنعة ، وفيه أسماء كثير من المدن ومميلات من خشب(٧) معلقة بسلك . كما ان فيه شمعدانا نحاسيا دقيق الصنع يرجع تاريخه الى القرن الـ ١٤ وعليه كتابة تشير الى ان مهديه هو مؤسس الجامع (مرجان) نفسه . وفى أعلى الجامع نافذة جميلة لغرفة من غرف الطلاب .

وهناك زقاق صغير يتلوى فى جوف المدينة مؤديا الى جامع أثرى آخر هو (جامع العاقولى) ، ومؤسسه رجل يختلف من حيث الجبلة عن (مرجان) مؤسس الجامع السابق ذكره . انه (عبدالله العاقولى المولود سنة ١٢٤٠

---

(٦) ولكن أرشد العمرى المنتسب الى الخليفة العظيم عمر بن الخطاب – رض – هدم القسم الغربى من هذا الجامع أيام أمانته للعاصمة ، وقد ذكرنا هدمه الباب الشرقى لسور بغداد فى أواخر أيام العباسيين وهو باب كلواذى ، قال ياقوت الحموى الرومى فى مادة « سياث ، من معجم البلدان : « بليدة بظاهر معرة النعمان ... اجتاز بها القاضى أبو على عبدالباقى بن أبى حصن المعرى والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعا آخر فقال :

مررت برسم فى سياث فراعنى ... به زجل الاحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمنك انها ... لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم أر أحلى من حديث المنازل

تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

(٧) آثرناها ترجمة لـ Clinometers والمميل (أو المزواة) أداة لقياس الميل أو الزاوية . (المترجم)





المدرسة المستنصرية (بعد الصيانة)

شيدها الخليفة العباسى المستنصر بالله . (٦٣١ هـ/١٢٣٢ م)

أمام الصفحة ١٢٧

والمتوفى سنة ١٣٢٧[٨] كان قاضيا ومدرسا فى المستنصرية ولقراراته التى يتخذها فى دقائق قضايا الشـــريعة نفوذ وقوة ، فهى مقبولة ملزمة عند كل الناس . ولقد دفن « عند المغرب بحضور القضاة » فى بيته الذى أوقفه على شيخ يعلّم عشرة أيتام صغار (القرآن) . ولقد أعيد بناء الجامع مرات عديدة، أما الغرفة التى تضم القبر الخشبى المزخرف الذى يضم رفات مؤسسه والتى يوصل اليها من فناء تقوم فيه شجرة سدر ، فلم تتغـــير الا قليلا على أغلب الاحتمالات . وعلى القبر كتابة كوفية مزخرفة جميلة جدا ، ولم يســـتطع أحد قراءتها لمدة طويلة . انها مثال ممتع على استعمال الحروف العربية فى الزخرفة . والظاهر ان أحد ألواحه أقدم من الآخر ، ولعله منقول من قبر أقدم من قبر العاقولى . ونقشت على القبر الآيتان الكريمتان : « بســـم الله الرحمن الرحيم : يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا » « بسم الله الرحمن الرحيم : ان الذين قالوا ربنـــا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنـــة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون »[٩] .

وبالامكان رؤية « مدرسة المستنصرية » التى درس فيها هـذا القاضى

(٨) « هذا المسجد كان منزلا يسكنه الشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن على العاقولى مدرس المستنصرية ببغداد درس فيها نحو ٤٠ ســنة وباشر نظر الاوقاف وعين لقضاء القضاة فلم يقبـل ... وكان قوى النفس له وجاهة فى الدولة كم انكشفت به كربة عند الناس بمساعيه الجميـلة ، وانتهت اليه رئاسة الشافعية ببغداد . قال عبدالحى فى تاريخه (شـذرات الذهب) مولده فى رجب سنة ٦٣٨ هـ ووفاته فى شوال ببغداد وله تسعون سنة وثلاثة أشهر ودفن بداره وكان وقفها على شيخ و١٠ صبيـان يقرأون القرآن ووقف عليها أملاكه كلها ... وبيته الذى دفن فيه هو المسجد ، وقبره الى اليوم ظاهر وعليه قبة وعلى القبة صندوق من خشب . راجع تاريخ جوامع بغداد وآثارها صحيفة ٤٧ـ٤٨ » . (المترجم)

(٩) سورة الاحقاف ٤٦ × ١٣ .

الصالح من النهر جيدا ، وعليها كتابة بارزة تمتد على طول البناء المتخذ اليوم دائرة للكمرك . والباقى من البناء ، على كل حال ، جزء من البناء الاصلى الذى كان يضم مدرسة زاهرة ، يدرس الطلاب فيها العلوم ، وعلوم الدين المعروفة فى عهدهم ، ويناقشون المتألهين (Mystics) وينفذون الى دقائق الشريعة . ودخل جزء من البناء الاصلى فى الاسواق اليوم ، وانك لترى جدارا مزخرفا خلف دكان خباز ، وآجره جميل جيد . واليك ما على الجدُر من كتابة ، وقد جرى ترميمها :

(هذا ما أمر بعمله أمير المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، الذى طبق البلاد احسانه وعدله ، وغمر العباد برُه وفضله ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله ....) ويلى ذلك كثير من المدح والثناء ، وفى الختام : (... وذلك فى سنة ثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وعترته وسلّم تسليما) .

والى الخليفة المستنصر بالله يرجع فضل بناء جامع عتيق آخر لم يبق من معالمه اليوم الا مئذنة عدت عليها عوادى الدهر ، وأعمل فيها الحمام يد التخريب . والمئذنة هذه تقوم اليوم فى « سوق الغزل »(١٠) وهو من أحياء بغداد الفقيرة جدا ، وعليها كتابات لا سبيل لقراءتها اليوم . واقترح المهندسون البريطانيون عند مجيئهم الى بغداد هدم المنارة القديمة اذا تراءى لهم انها لن تقاوم أى اعصار ورفض هذا الاقتراح ، وسمح للمهندسين أن يقوموا بما يدعم أساس المئذنة ، وقيل ان البرج القديم لن يصمد الا لسنين قلائل .

---

(١٠) ذكرنا فى تعليق سابق أن المنارة أنشئت فى عهد الملك أباقا ابن هولاكو وولاية علاءالدين عطا ملك الجوينى سنة ٦٧٨ والجامع هذا كان يسمى جامع القصر ثم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء ثم جامع سوق الغزل ثم أزيل فى الايام الاخيرة من أجل الشارع الجديد . تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

ويعتقد ماسينيون ويشاركه في معتقده لسترانج ، ان الجامع الذى كانت المئذنة هذه جزءا منه هو القصر العباسى الرحيب أصلا[11] . أما اليوم فتقوم في موضعه بيوت عديدة للفقراء وسوق وجامع حديث وكانت هناك كتابة على احدى الابواب المجاورة ، واختفت الآن ، وهى تثبت ان تاريخه هو ٦٣٣ هـ (أو ١٢٣٥ م) - وهو تاريخ المستنصرية بالذات . ولكن هذا لا يدل على ان المئذنة لم تشيد قبل ذلك ، فلنا من الكتابة الكوفية عليها دليل آخر .

وهناك عدد من المزارات الممتعة تقع عبر النهر وتحمل أسماء بعض النابهين في تاريخ صلحاء بغداد . فان عبرت (جسر مود) وتيامنت قرب محطة القطار متجها نحو الصحراء ثم سرت على طريق الكاظمين لوصلت بعد مسيرة ميل الى مقبرة ، كانت (مدينة الموتى) في أيام بغداد الاولى أيضا . ان القبور فيها تقوم على نشز من الارض ، وبين النخيل الظليلة ، ممشوقة الشطاط . وقد تشاهد هنا قبة ، وهناك مزارا لاحد الاولياء الصالحين ، أو الرجال النابهين . هذه قبة عجيبة ، مخروطية الشكل تسمى (قبة الست زبيدة) ، ذلك على الرغم من أن زوجة هرون الرشيد الشهيرة ، والتى سببت بمكرها سقوط البرامكة ، مدفونة في محل آخر[12] ، على كل حال . وعلى مقربة من القبة جامع تناثرت حوله قبور ، وتسامقت فيه أشجار النخيل . وتم

---

(١١) لا ريب في ان اعتقادهما لم يكن على أساس حقيقى ولا قام عليه دليل؛ فهو جامع القصر الذى أنشأه الخليفة المكتفى بالله في أواخر القرن الثالث للهجرة ، ثم ان القصر لا تبنى له منارة !! أما الكتابة الكوفية فلا دليل فيها على العصر لانها كوفية مشجرة كانت تتخذ زينة للعمارات في العصر المغولى . تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

(١٢) ان قبرها في جوار قبر الامام موسى بن جعفر ، وان المشهور اليوم « وهو الذى في مقبرة باب الدير قرب تربة معروف الكرخى » لعله تربة امرأة من بنات الامراء أو زوجاتهم أو تربة ملك من الملوك . وقد جدده ورممه في عصرنا بعض أمراء الاتراك ظنا منه انه قبر زبيدة أم جعفر .. أما

ترميم القبر والجامع فى نهاية القرن التاسع عشر من قبل زوج بنت السلطان عبدالحميد ، بعد ان انهدم الجامع كليا . وبعد مسـيرة نحو ربع ميل وفى اتجاه عقرقوف تصادفك مزارات ثلاثة تختلف اليهن النسـوة كثيرا ، ويتضرعن الى المدفونين فيها ويقدمن لهم النذور . والمزار الاول هو للشيخ جنيد الشهير . انه من المتألهة وقد عاش ببغداد فى مفتتح القرن العاشـر ، وكان يرتدى الصوف ، لباس المتصوفة ، ويدرس طلابه العديدين خوارق البارى عز وجل ومعجزاته . واتهمه البعض انه على مذهب الأحدية(١٣) ، ولكنه مات وهو على الصراط المستقيم ، بخلاف تلميذه منصور الحلاّج(١٤) . لقد سبق لى ان وصفت (بئر الاعاجيب) فى فصل آخر من هذا الكتاب والقبر الذى يضمه هـذا المزار . وعلى مبعدة أقدام لـ (بهلول) مزار يحيط به فناء يتسامق فيه الشجر الظليل . وفى ظني ان البناء الحالى جديد كله . وشاهد نيبوهر Niebuhr صرحا من طراز القرن الـ ١٤ يقوم فى هذا الموضع بالذات وعلى بابه ما مفاده : هذا قبر سلطان

مسجد زبيدة أم جعفر .. فلقد اندرس سنة ١١٩٥ وكان واسعا رصين البناء قوى الاركان ولما بنى سليمان باشا الكبير والى بغداد سور الجانب الغربى استعملت أنقاضه فى بناء السور » انظر (جوامع بغداد وآثارها للآلوسى) . الصحيح انه قبر السيدة زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضىء بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله وقد دفنت معها حظية الخليفة السيدة بنفشه وابن الناصر أبو الحسن على الملقب بالملك المعظم ثم دفنت تحت القبة عائشه خاتون زوجة أحد الولاة . أما المسجد فهو اما مدرسة زمرد خاتون المعروفة بمدرسة الاصحاب واما رباطها وكانا مجاورين للتربة ذات القبة هـذه . (تعليق : الدكتور مصطفى جواد) .

(١٣) « الاحدية » مذهب يقول ان الله ، والعالم أحد واحد ، مذهب وحدة الوجود .

(المترجم)

(١٤) الصواب « الحسين بن منصور الحلاج » . تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

الوجديين المتسامين وقد حلت (أنا) فى ذات الله • فبهلول ، أو المجنون ، اسم مستعار لاحد المتصوفة ، وهو (وهب بن عامر الكوفى) • وتختلف الى القبر النسوة كثيرا ويبنين فى فناء مزاره بيوتا صغيرة من الآجر والحصى ، رموزا الى ما يطلبن ، ويصلين عسى أن يشفع الراقد لهن • وأبواب المزارات هذه مخضبة جميعا بالحناء ، هدية لها من الزائرات الشاكرات •

وبعد قبر بهلول يأتى قبر يوشع ، وهو ليس بـ (يوشع العظيم) بطبيعة الحال ، ولكنه أحد أحبار اليهود المشهورين ، واسمه يوشع أيضا ، وقد دفن فى هذا الموضع • والاسم يحمل المسلمين واليهود ، على حد سواء ، على احترام المزار • وهناك خلاف لا ينتهى يدور حول من يملك هذا المزار ، وان أوشك اليوم على الانهيار • ولقد عمد اليهود فى حين من الزمن الى دفن موتاهم فيه ، وجعلوا من البناء كنيسا لهم ، ونازعهم فى ذلك المسلمون ، وقدموا فى سنة **١٨٨٥** عريضة الى السلطان التركى ، وصدرت على أثرها ارادة لصالح المسلمين • وهكذا خذل اليهود ونبشت قبورهم وألقى ما فيها من الرمم فى الصحراء (وقام بعض صلحائهم بنقلها الى مقبرة اليهود) وأصبح الكنيس مسجدا • وعندما جاء الانكليز أعاد اليهود الكرة ، وادعوا بحق لهم فيه الا ان السلطات الانكليزية لم تسند طلبهم على ما أعلم ، والموضع يكاد اليوم يكون صحراء خالية ، وسيصبح البناء ركاما خاليا ، وذلك على الرغم من ان الزائرين ما زالوا يختلفون اليه •

وان سار المرء على الطريق التى يسلكها الريفيون الى بغداد من هذه النقطة بالذات لوصل محلا تكثر فيه القبور وفيه قبة زرقاء تضم مزار متأله آخر من متألهي القرون الوسطى ، انه مزار الشيخ معروف الكرخى [١٥] •

---

(١٥) الشيخ معروف الكرخى من مشاهير الزهاد • كان أبواه نصرانيين فأسلماه الى المؤدب فقال له : ان الله ثالث ثلاثة ! فقال بل هو الله أحد ، فضربه فهرب وأسلم على يد علي بن موسى الرضا (رض) ورجع الى أبويه فأسلما » والذى أصلح المسجد وبنى على قبر الشيخ معروف قبة هو

وباسقات النخيل تحيط به . ويمكن الوصول اليه من بين صفوف من قبور ، وبابه مخضبة بالحناء كثيرا . وفي المزار أشياء ممتعة ، على ما يقال . ذلك انه مبنى ، كمسجد العاقولى ، حول بيت ولي من أولياء الله الصلحاء[١٦] . ولكنى لم أتشوف اليه الا من خارجه فقط ، ولم يحالفنى الحظ فأشاهد ما فى الداخل ، وبالنسبة لمزار منصور الحلاج أيضا . وللاخير قبة ، وشاهد قبر Cenotaph فقط اذ لم يبق من جسده الا القليل اثر اسشهاده . وليس قبر الحلاج ببعيد عن مرقد الشيخ معروف ، انه ملاصق لمستشفى العزل .

وشخصية الحلاج ، من بين شخصيات المتألهين الاسلاميين ، أشدها جاذبية وعاطفية . والناس فى أقاصى البلدان ، كالهند وفارس والافغان ، تكنُّ له احتراما كبيرا ، ومنها تأتى وفودهم تحج مزاره . ويقال ان أتباعه المخلصين جمعوا رماد جدثه من النهر ، حيث ألقوه فيـه اثر استشهاده ، وجاءوا به الى هذه التربة بالذات ... وغدا يفعل الخوارق والاعاجيب فى ميدان الشفاء والبركة . و(منصور الحلاج) حـلاّج فارسى ، وكان أبوه يحلج القطن أيضا . وفى بواكير عمره سلك مسلك رجال الدين وتزهد ولبس الصوف الذى كان يرتديه الصوفيون المتألهون فى زمانه (ولذلك دُعي بالصوفي) ، وتتلمذ أخيرا ، على الشيخ جنيد المشهور ببغداد .

وأحس الشيخ ، بادىء ذى بدء ، بما تمتاز به ذهنية تلميذه من مزايا

والي بغداد سنة ١٣١٠ هـ (حسن باشا) . وهناك بئر تزعم النساء الجاهلات ان من اغتسلت بمائها حملت ولهن مواسم للاغتســال بهذا الماء ! (تاريخ جوامع بغداد للآلوسى) .

(١٦) وهذا من الاقوال الواهية أيضا فالمقبرة هى مقبرة باب الدير ولم يكن هناك بيت ولا دار ، وقد أنشىء قرب تربة معروف مسجد سـمي مسجد الجنائز ولعل الموتى كانوا يغسلون ويصلى عليهـم فيه ، ولا تزال منارته قائمة حتى اليوم مؤرخة بسنة ٦١٢ هـ وهى من المتانة والفخـامة والمقرنصات بحيث تعد آية من أيات العمارة الاسلامية . تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

خطرة ، ونقل الينا أكثر من من توبيخ وجهه الاستاذ الى تلميذه . وكانت روح الشيخ جنيد سمحة متواضعة بينا كانت للحلاج روح طلعة متعالية . وحب الله ، فى معتقده يتجسد فى محبة ، انه الترابط الذى يؤمن به المتألهون ، والذى يقوم بين الروح والخالق . ويروى عن الحلاج انه قال : « ما فى الجبة الا الله » . وسرعان ما بعثت أقوال هذا المتأله ، المليئة بالوجد ، الريب لدى سامعيه . فقال الذين هم على السنن المستقيم : « ان الرجل ينتهك بأقواله الحرمات والمقدسات . انه يدعي الربوبية » .

وقال عنه خصومه انه يأتى بالخوارق فيؤثر فى الجهلة . وسارت بذكره الركبان وبَعُدَ صيته . واتهم بالهرطقة ، وألقي عليه القبض وسجن ، وعانى من السجن طويلا . وحوكم ، واستمرت محاكمته سنوات عدة ، وحكم عليه بنتيجتها بالموت : وجريمته الكفر والهرطقة . ونفذ فيه حكم الاعدام قرب جسر القوارب على دجلة . ضربوه أولا ضربا مبرحا (وقيل انهم صلبوه) ومزقوا جسده ثم قطعوا رأسه ، وأحرقوا جذثه ورموا رماده فى النهر . والاساطير تقول ان مياه دجلة طغت اثر ذلك ، وان الرماد الطافى سُمع له تمتمة كتمتمة المتألهين : « أنا الحق ! » وان تلميذ الحلاج ، وتابعه ، ألقيا بردائه الصوفى فى تيار النهر عسى أن يغيض ماؤه كما عمد مريدو الحلاج الى جمع رماد الجدث خشوعا واحتراما[١٧] .

وللحلاج عند اليزيدية مقام مرموق ، وتشيع بينهم اسطورة تقول : ان رأس الحلاج عند قطعه ورميه فى النهر طارت روحه فوقه ... وكانت أخته تملأ جرتها من مائه ، على سبيل الصدفة ، فدخلت الروح الجرة ، واختبأت فيها ، والاخت لا تعلم عن ذلك شيئا . وما ان عادت من النهر وشربت من ماء الجرة ، وهى عطشى ، الا وحملت ثم ولدت بعد ٩ أشهر غلاما كان شديد الشبه بخاله ، ولم يكن ، فى الحق ، الا روح الخال حلت

---

(١٧) راجع رسالة ماسينيون عن الحلاج .

(المؤلفة)

فى جسد ابن اخته . لذلك لا يستعمل اليزيدية الجرة ، أو أى وعاء ذى عنق ضيقة فالماء وهو يسكب منها له قرقرة تشبه بمعتقدهم قرقرة رأس الحلاج وهو يغرق فى الماء .

ويرى البعض : « ان لمفسرى حب الله اتصالا خارقا بالروح لذلك تجدهم يحترمون المتألهين جميعا ، أى انداد وليهم الاكبر : الشيخ عدى .

وهناك مزاران سنيان كبيران ببغداد أيضا يقوم أولهما : فى ضاحية المعظم ، على مبعدة ٣ أميال من باب المدينة الشمالى . والآخر فى منتصف الطريق، قرب النادى الرياضى، وهو قبر صغير لمتأله آخر، واسمه (بشر الحافى) المتوفى سنة ٨٤٠ ميلادية . انه بين المسلمين يشبه الآباء الفرنسسكان الذين يكلفون بالفقراء ، ويعيشون عيشة الكفاف .

وفى الاعظمية مرقد شخصية كبيرة فى الاسلام : انه أبو حنيفة ، الفقيه وصاحب المذهب الحنفى وكان قبره ، فى أيام بغداد الزاهرة ، يقوم فى (مقبرة الخيزران) - مقبرة قريش القديمة[١٨] . أما المرقد الحالى ، والجامع ، فلقد تم بناؤهما فى أيام الوزير السلجوقى : شرف الدين أبو سعد الخوارزمى سنة ١٠٦٦ ميلادية[١٩] ولم يبق ، مع الاسف ، شىء من

---

(١٨) تقدم ان مقبرة قريش أو مقابر قريش قامت فى مكانها بلدة الكاظمية فهذه التسمية خاطئة . تعليق : الدكتور مصطفى جواد .

(١٩) كانت المحلة التى فيها هذا القبر احدى محلات بغداد فى العصر العباسى ... وقد دفن فيها كثير من أكابر أهل العلم والصالحين كمحمد بن اسحق وغيره . ولما توفى الامام أبو حنيفة سنة ١٥٠ هـ دفن فى هذه المقبرة ، وفى سنة ٤٥٩ هـ بنى شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمى مستوفى مملكة السلطنة ملكشاه السلجوقى مشهدا وقبة على قبره ، وبنى عنده مدرسة كبيرة للحنفية . ولما فرغ من عمارتها ركب اليها فى جماعة من الاعيان ليشاهدوها فبينما هم هناك اذ دخل عليهم الشريف أبو جعفر مسعود المعروف بالبياض الشاعر فأنشد :

ألم تر ان العلم كان مشتتا ... فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الارض ميتة ... فأنشرها فعل العميد أبى سعد

وقيل ان أبا سعد هذا بذل ١٠٠ ألف دينار حتى ترك الاستيفاء وانه

العمارة القديمة سوى برج صغير فى المدرســـة • ويتبرك الناس بزيارة الضريح ويزوره كثيرون • انهم يعتقـدون بخوارق صــاحب الضريح ، وصاحب المذهب الحنفى الاسلامى ، وانه لا يزال معنيا بأتباع مذهبه عناية الاب بأبنائه • والاعظمية بقعة لطيفة جميلة ، وللموسرين فيها بيوت صيفية تكتنفها البساتين • ودعينا فى احداها لشرب الشاى مرات عدة • وصاحبهـا تاجر مضياف • وبستانه فى الربيع جنة تزدهى بالورود على اختلافهـا من قرنفل وياسمين • والبساتين تسقى من ماء النهر مباشـرة ويعبق جوهـا دوما بشذى الزهر ، وزهر البرتقال على وجه أخص ، وللحمام هديل بين الشجر الظليل لا ينقطع • ويقوم مرقد أبى حنيفة بقبتـه الزرقاء ومنارته القاشانية شاخصا فى الضاحية • ورأينا أحد الشبان من طلبـة العلم وهو يعنى بتجليد كتابه قرب المدرسة • ان أمثاله لا يملكون الا النزر اليسير من المال ، وتسود حياتهم البساطة والضبط وشظف العيش • وقادنا أحدهـم الى الطابق الأعلى وأرانا قاعات نوم الطلاب فوجدناها نظيفة مرتبة • وزرنا مختلف الصفوف • ولمحنا حاجا شيخا معمما يحبه الطلاب على ما قيل لسرعة خاطره وحضور بديهته • ولا يختلف أحد الى الصف الاعلى فى الغالب • أما الصف الثانى فيمثل حدا قياسيا ما أن يبلغه الطلاب الا ويصبحون معلمين أو فى عداد رجال الدين أو ما الى ذلك • وتدرس فى المدرسة : الرياضيات، والفيزياء ، والمنطق ، والفلسفة ، والشـريعة ، وعلوم الدين بالدرجـة الاولى[٢٠] •

هو الذى بنى مدرسة بباب الطاق ومدرسة بمرو جميعها للحنفيين راجــع (تاريخ جوامع بغداد وآثارها للآلوسى صحيفة ٢٠-٢١) والمدرسة التى بناها بباب الطاق هى مدرسة الامام أبى حنيفة وذهل عن تعيينها المؤرخ المرحوم • تعليق : الدكتور مصطفى جواد •

(٢٠) ستنضم مدرسة أبى حنيفة قريبا الى الكلية العربية الجديدة والتى يجرى بناؤها قرب طريق المعظم • وستكون هذه الـكلية ، بالدرجـة

ومن المدرسة اتخذنا سبيلنا الى الجامع • وخلعنا الاحذية ، بطبيعة الحال ، فى فنائه قبل الدخول • صحبنا الكليدار ، وهو قيّم الجامع ، وكان كهلا وقورا ومن رجال الدين الاسلامى • ولون الاعمدة التى تسند قوام الجامع هو الازرق ، وفيه كثير من الكاشى الجميل ، كذلك السجاد ، انه يعود الى ٢٠٠ سنة فى الاقل ، ولكنه تمزق ، وقد أكلت منه العثة ، ولكن ألوانه ما زالت جذابة • أما طرازه وصنعه ، فجميل متقن •

و مُكنّا من زيارة الضريح ، انه تكريم خاص بنا ؛ والضريح فى غرفة خاصة به ، بابها من الفضة الخالصة المطروقة ، والقبر فى الداخل محاط بشباك من فضة أيضا وخشبه مزخرف محفور • وفتح الكليدار مُصحَفا ثمينا مجلدا ، وغلافه من الذهب الخالص وتزينه ماسات • انه هدية من أنور باشا المعروف • وهناك شمعدانان كبيران جميلان من فضة ، هدية من والدة أحد السلاطين الاتراك •

أما المرقد السنى الآخر الشهير ببغداد فهو للشيخ الكبير عبدالقادر الكيلانى • انه شيخ ذائع الصيت ، جليل القدر ، يحترم فى كل مكان يدعو فيه مؤذن الى الصلاة ••• ومن الهند الى الصين المسلمة • ولد هذا المتأله الشهير فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، وتوفى سنة ١١٦٦ ، وكان مولده بقرب بحر قزوين ، وقدم بغداد وهو حدث صغير جدا ، وفيها لبس الصوف الذى كان يلبسه المتألهون ، وسرعان ما فاق أساتذته فى التمسك بالفضل والزهد والمبدأ • ونسبت اليه الخوارق ، وهرع اليه المريدون فأسس (الطريقة القادرية) وما زالت قائمة الى يومنا هذا ، والطريقة تشبه طريقة (العيساوى) فى تونس ، وطرق الدراويش فى تركية •

الاولى ، كلية دينية ، ولكنها ستدرس قريبا الطب والفنون الصناعية والعلوم وكذلك يختلط الطلاب بشكل ودى للغاية • وستكون قاعات المحاضرات والمختبرات والصفوف جيدة •

(المؤلفة)

واخوان هذه الطرق كلها يدخلون فى غيبوبة ، نتيجة لبعض التمرينات الرياضية ، والخلوات ، والاحتفالات الممتعة للغاية . وأرجو أن أوفق الى وصفها فى كتاب آخر يصدر فى قابل الايام .

وتسكن الاسرة الكيلانية ببغداد . والعطايا التى انهالت عليهـــا عبر القرون وتكدست جعلتها موسرة جدا . وشغل رأس الاسرة ، نقيب بغداد ، رئاسة الوزارة فى الحكومة العربية . ان صفاته الشخصية الممتازة ، وشرف مولده أضفت على الحكومة هيبة واحتراما . وعلى الرغم من علو سنه فان ما أسداه للحكومة ذو قيمة ونفع . والاسرة الكيلانية معروفة بطـــابع عقلى خاص ، ان أفرادها يكلفون بالنظافة الى حد الهوس . قيل ان احدى قريبات النقيب تغسل أثاثها كل اسبوع ، وتتردد فى بغداد اشاعة مفادها ان النقيب نفسه يبادر الى الاغتسال وتبديل ملابسه اثر الاتصال بأى غريب ، تخلصا من اللمسة المدنسة !

ومرقد الشيخ عبدالقادر الكيلانى وجامعه يقعان قرب باب الشيخ(٢١) ببغداد (والشيخ هو عبدالقادر نفسه) . وعلى الباب أبيات من الشعر قيـــل انها للشيخ الكبير نفسه :

أفلت شـــموس الآفلين وشمسنا ... أبدا على فلك العـــلى لا تغرب
أنا بلبل الافراح أملأ دوحهـــا ... طربا وفى العليـــاء باز أشـــهب

وعُرِف الشيخ عبدالقادر بـ (الاشهب) أو الباز الفضى لان الخيال العربى شبَّه روحه وهى تلامس شمس الشموس بالباز المتلألىء فى أشـعة

---

(٢١) انها المعروفة فى التاريخ بمحلة باب الازج . وكان هذا الجامع أولا مدرسة للشيخ أبى سعد المخرمى ، وبعد وفاته جلس فيها تلميذه الشيخ عبدالقادر الجيلى ... وممن عنى بهذا الجامع من ملوك بنى عثمان السلطان مراد الرابع فانه لما جاء الى بغداد لطرد الفرس ... وجد هذا الجامع وجامع أبى حنيفة قد هدموهما وخربوهما فأمر بتشييدهما وأجرى عليهما الجرايات الوافرة .
(المترجم)

القمر . ولن يدخل الاوروبيون (الجامع) عادة ما لم تتستر المرأة منهم بالعباءة والبرقع وتصحبها صديقة مسلمة . واتخذت سبيلي في أحد الايام الى داخله . ان فناء الجامع الخارجي واسع جدا ، وهو يحتوي ، بالاضافة الى محل الوضوء المعتاد ، على مصلى طلق مرتفع عن أرض المسجد ، ومحاط بسياج . وفي أحد أركانه برج ساعة تدق مؤذنة بانقضاء كل ربع ساعة . وتحيط بالفناء غرف ينزل فيها الغرباء الزوار مجانا . لذا كان للفناء طابع بيتي لطيف . وجلسنا على مربع من السجاد ننتظر الخادم عساه يفتح القبر لنا . ورأينا رجلا يوقد شمعة في الفناء ويذبح دجاجة للطعام ، كما رأينا امرأة تنشر الغسيل ، وخمسة من القطط الجائعات يلتمسن شيئا من كعك البائع المتجول . وعلى مقربة جلس في الشمس المحرقة شيخ يقرأ القرآن ويرتله ترتيلا ، ولا يرفع العين عن سطوره أبدا . وجلس عبر الساحة صبية صغار في مدرسة القرآن ، والعين لا تجد لمعلمهم أثرا . لم يكن بيد أحدهم كتاب ، وسمعناهم يرتلون القرآن ، وعيونهم تحوم في الجهات كلها الواحدة تلو الاخرى . ويجلس الفقراء يتكففون من يدخل (الجامع) من الناس . هذا أحد الدراويش وله شعر طويل أشعث يرتدي الخلق من الثياب وبيده صحن يستجدي به وهو يجلس في استغراقة تأملية . وتتعالى القبة فوق الجامع كالجوهرة ، وخلفها السماء الزرقاء تحوم حولها الفاختات ... وقد ينزلن بين الفينة والفينة الى ساحة الجامع .

ونفد صبرنا من طول الانتظار فابتعنا شيئا من المخلَّلات والفطائر من أولئك الصبية الباعة المتنقلين الذين ينادون على بضائعهم بلا انقطاع ويوزعونها على لداتهم من صبية مدرسة القرآن . وسرعان ما أخذ الصبية بتلابيب بعضهم بعضا حول تلك اللقيمات اللذيذات ... ولكن ها قد ظهر المعلم ، انه يزجرهم ويطلب اليهم المحافظة على الهدوء والنظام .

ودخلنا أخيرا طارمة الجامع ، وهي مصبوغة باللونين الابيض والازرق ،

ومفروشة بالبسط وتركنا أحذيتنا بعهدة صبى ، وتبعنا قيِّم الضريح ، وفتح هذا بابا وأذن لنا بالدخول منه • انه مصنوع من الخشب وعليـــه نقوش نفيسة ، وعلمت فيما بعد انه هدية من الهند الى الضريح ، شأنه شأن الابواب الثلاثة الاخرى الموازية والتى يدخل منها المصلون الى أماكن الصلاة الثلاثة• ذلك ان الجامع مقسم الى ٣ مصليات : للحنفيــة ، وللشــافعية والحنــابلة ، ولاصحاب كل مذهب أن يقوموا بشعائرهم الخاصة فيه • ان المصليات الثلاثة مفروشة بالسجاد الثمين • وفى داخل الحرم طارمة تؤدى الى الغرفة التى فيها القبر ، داخل قفص متين من فضة خالصة • وعلى القبر أغطية ، وعلى جانب منه عمامة كبيرة خضراء ، وفوقه ستارة حريرية معلقة • وحول القفص كتابات من آى الذكر الحكيم • وهناك نجفتان من زجاج تدلَّى منهما ما يشبه بيض النعام • ان هذه كل زينات الجامع بالاضافة الى سجاده الفاخر وقفص القبر • وجلس رفيقى على ركبتيه وقرأ الفاتحة وحذوت حذوه • ثم مررنا بصف من المتكففين وفى مقدمتهم القيمون ، ومن الضرورى أن يكون المرء سخيا لدى زيارة مثل هذا الضريح العظيم • والصلاة فى الجامع هــذا أمر شخصى ، فيما خلا الساعات التىيصلـِّي فيها الناس جماعة • ورأيت شيخا هرما أعمى يتمتم طويلا وكله تضرع وخشوع ، ثم جاء أعمى آخر وألقى نفسه بقربه وسرعان ما رأيت الاثنين منهمكين فى مفاكهة وأضاحيك •

والجامع هذا ليس بعتيق جدا ، انه فى حالة جيدة ، ويرجع بناؤه الحالى الى القرن الـ ١٣ الميلادى ، وعندما أعاد بناءه الســلطان مراد وأجريت فى قبته مؤخرا ترميمات واصلاحات ، وجد حولها تاريخ يؤيد ان قســما من جامع السلطان سليمان القانونى الذى بناه فى القرن الـ ١٦ ما زال باقيــا • وقليل من المسلمين من يجلُّ الماضى ما لم يكــن لذلك ســبب من التقوى ، والمرء يذهب نفسه حسرات على الروح البربرى الذى لم يبق من بغداد فى القرون الوسطى شيئا •

ولم أتطرق بعد لجوامع بغداد الحديثة كالآصفية(٢٢) ، والحيدرخانة والاعظمية ، زينة شمالى المدينة ، وجامع السراى . ان العاصمة لتزدهى بقببها الزرق ومآذنها الفنية . انها من الوجهة الفنية ، تتسم بالطابع التقليدى .. ففيها خطوط بسيطة من البناء بالآجر ، وهى باردة رحيبة ، ذات زخرفة فيها اتزان ورواء .

لقد ثبت ان الدين فى العراق هو الحامى الامين لكل جميل ، ولا مجال فيه لزخرفة بلا ذوق أو تنسيق أو البهرجة . و(الاوقاف) بحاجة الى معمارى ، والبنّاء العربى يجرى فى عمله على ما سار عليه آباؤه الاولون . انه ينتج ما ينطبق على خصائص البلد ، وبذلك يتفوق على الاوروبى بشرط أن يقوم بعمله على الوجه الأتم . ان فى هذا البنّاء العربى لغناء وكفاية .

---

(٢٢) هو من المساجد القديمة فى الجانب الشرقى من بغداد مطل على دجلة ... « وعلى كر الليالى ومر السنين تضعضعت بنايته ... حتى تداركته همة الوزير داود باشا أيام ولايته على بغداد فرفع قواعده وبنى فيه مصلى واسعا عليه قبتان وبنى عند جانبيهما مئذنتين بالحجر الملون الكاشانى وجعل فيه مدرستين » . وبعد الاحتلال شـادت وزارة الاوقاف فوق بقايا احدى مئذنتى جامع الآصفية مئذنة شامخة .

راجع : (جوامع بغداد وآثارها للآلوسى) .

وهذا الجامع كان بعضه من دار القرآن فى المستنصرية التى لا يزال ايوانها قائما وكان متخذا دكانا ، وهى والمدرسة المستنصرية كانا من دار أمير الامراء مؤنس المظفر مقدم الجيوش العباسية أيام المقتدر بالله . تعليق ... الدكتور مصطفى جواد . (المترجم)

الفصل الثالث

الموصـــــل[١]

كثر الحديث عن مصير (الموصل) وطال • واستقر مصيرها فى وقت كتابة هذه السطور[٢] اذ أعلنت الدول المتحالفة ان لا سبيل قط الى فصلها

---

(١) لعل الموصل بنيت أول مرة على بقايا حصن آشورى • والاسم الارامى القديم الذى كان يطلق على الموضـع الذى بنيت فيـه هو : (حصنا عبرايا) ومعناه (الحصن القائم على الضفة الاخرى من النهر) • ولا تنس ان الارامية سامية ، وليست بالعربية ، وكان يتكلم بها السيد المسيح (عليـه السلام) • وكانت الموصل تسمى فى عهد الساسانيين باسم (نواردشـير) ومعناه (المدينة الجديدة) • وقد فتحها عتبة بن فرقد فى أيام عمر بن الخطاب وقام العرب المسلمون بعد ذلك بانمائها وسميت (الموصل) لوقوعها بين محل يتوسط بين بلدان آسية العربية • وبقيت المدينة من أهم المحطات للقوافل التى تنقل التجـارة من الهنـد الى أوروبة وبالعكس الى أن تم حفر قناة السـويس • وزار المدينـة كثير من الجوابين الاوربيين القدامى ومنهـم ماركوبولو البندقى الشهير (١٢٦٠ م) ، ووصلت المدينة قمة مجدها خـلال القرنين الـ ١٢ والـ ١٣ وايام الاتابكة الذين حكموها • واشهر هـؤلاء الحكام (بدر الدين لؤلؤ) الذى استطاع ان يتفاهم مع المغول الغزاة فجنب المدينـة شرهم • وحاول ابنه (ملك شاه) ، على النقيض من ذلك ، ان يقاوم قائـد المغول (هولاكو) فما كان من هذا الا ان ينقض على الموصل (١٢٦٢) ويسحق حاميتها ويقتل (ملك شاه) نفسه • وجاء (تيمورلنك) بعد ذلك ليضربها فى نهاية القرن الـ ١٤ ضربة قاصمة اخرى ويحيلها خرابا قفرا • وفى القرن الـ ١٥ اصبحت المـوصل تحت حكم العثمانيين ، ثم اصبحت فى القرن الـ ١٦ تحت حكم اسماعيل شاه الفارسى • وفى سنة ١٥١٦ استعـادها السلطان سليم الاول العثمانى وبقيت تحت حكم العثمانيين حتى سنة ١٩١٨ ثـم اصبحت من اهم مدن العراق الحديث •

ويطلق على الموصل (الحدباء) لاحتداب فى دجلتها و (ام الربيعين) لان الاعشاب تنبت فى ارضها مرتين فى السنة (المترجم)

(٢) كان ذلك قبل نحو من اربعين سنة • فان الكتاب طبع سـنة ١٩٢٣ • (المترجم)

عن بلاد الرافدين • وأثار ادعاء الاتراك بملكية الموصل كثيرا من القلق فى مؤتمر أنقرة • فالقضية قضية موت أو حياة ، لا قضية من يمتلك المدينة ، هذه الدولة أو تلك • فلو أعيدت الموصل الى الاتراك لأجهز ذلك على جميع بوادر الحياة ، وقد أخذت تدب فيها الآن ، ولقضى على كل أمل لها فى التقدم والازدهار ، ولرجعت القهقرى الى أساليب الحكم القديمة : التعصب والاضطهاد • والموصليون يحلمون اليوم بالطمأنينة والرخاء ويتطلعون الى مستقبل كله ، بالنسبة الى عقيدة المرء - يسر واسماح • اذ سيكون الاعتبار الاول للكفاية والمقدرة ••• ان الموصليين يتطلعون الى مستقبل تستعيد فيه (مدينتهم) أهميتها القديمة وثروتها • وها قد بدأت حركة الابتعاث اليوم • فلو فتحت كتابا عن الموصل فيما قبل الحرب لوجدته يصفها بالقذارة ، ما فى ذلك شك • أما اليوم فقد أزيلت الوصمة هذه الى غير رجعة ، وأصبحت المدينة من أنظف مدن العراق ، ونظيفة حتى بالنسبة لمدن جنوبى أوروبة ، لا الشرق فحسب • وفى الموصل شوارع واسعة مهندمة ، وأبنيتها من صخر ورخام ، ولو وقفت فى شارع نينوى لرأيت بيوتا متينة حسنة البناء ، وشبابيكها مدرأة(٣) وواجهاتها وطوقها من رخام حتى ليخيل للمرء انه فى احدى مدن ايطالية • لا أثر فى الموصل للقذارة التى يوصم بها الشرق عادة ، وشوارعها نظيفة مضاءة بالكهرباء ، ويجرى تأسيس مشروع لاسالة الماء فيها(٤) ، كما ان هناك مشاريع عدة لتحسين حال المدينة • وبايجاز ، ستصبح الموصل مدينة عصرية تتوافر فيها أسباب الراحة كلها • ولعل من مظاهر ازدهارها نشاط أسواقها وازدحامها بخلق عظيم • ففيها تشاهد الاكراد وهم مدججون بالسلاح والسكاكين وفى لباسهم طيّات عدة ، وانك لتشاهد ايضا اليزيدية

---

(٣) فى الاصل Grilles والمدرأة من دريئة وبمعنى مشبكة .
(المترجم)

(٤) تم مشروع اسالة الماء فى الموصل منذ عشرات السنين (المترجم)

بملابسهم الخاصة وقمصانهم ذات الفتحة المدوّرة والآشوريين الاشداء من سكان الجبال ، والكلدانيين الذين قدموا المدينة من القرى المسيحية وهم يلبسون السراويل الفضفاضة وفوقها صدريات بهيجة الالوان . وانك لترى البدو وقد لفحت الشمس وجوههم السمر ، وغيرهم اناسا مختلفى العقائد واللغى ... وكلاً يروم بيعا او شراء قبل ان يقفل راجعا الى بلده القاصى البعيد . وهناك كثرة كاثرة من كل شيء ، وفى كل مكان . فاللحم فى الموصل رخيص ، بل وأرخص منه فى أية مدينة أخرى فى العراق . والفواكه والمخضرات معروضة فى الاسواق ، وهى بمنظرها تسر الناظرين . وعندما وصلت الموصل كان يخيل لى ان كل واحد من اهلها لابد وان يحمل القثاء الضخم ، وتملكنى العجب من ذلك ، ولعل السبب فيه انه موفور ، وهو كسائر المخضرات والفواكه فى المنطقة ينمو فيصبح كبير الحجم . ولم أر عنب الثعلب Gooseberry الضخم هناك ، وليس بدّ من ان يظهر فى الاسواق ابان موسم نضجه ، ان نما هذا فعلا فى العراق .

وحظ الموصل دون حظ بغداد والبصرة فى أمر واحد : انها معزولة عن العالم بسبب فقدان السكة الحديد[٥] . وهذا جد غريب بالنسبة الى بلد التجار والتجارة - الموصل . انها تقوم فى وسط منطقة زراعية - صناعية كبرى ، كما انها فى منتصف الطريق بين بغداد وسوريا ، وتقع ايضا على طريق القوافل القديم ، كما كانت فى ماضيها احدى الاسواق العالمية فى القرون الوسطى . ولم تكن يوم ذاك (قناة السويس) ليتيسر نقل البضائع عن طريق البحر الاحمر ، كما كان الطريق البرى المعتاد يمر من حلب فالموصل وبغداد فبلدان الشرق الاخرى . واشتهر اهل الموصل فى ايام العباسيين بانتاج نسيج

---

(٥) المؤلفة تسرد الوضع على ما كان عليه ابان تأليفها الكتاب . ولقد تم بعد ذلك مد السكة الحديد فاتصلت الموصل ببغداد وبالعالم الخارجى .
(المترجم)

قطني لطيف يسمى بـ (الموصلي) وكانت له سوق رائجة في انحاء الدنيا كلها •
وعلى الرغم من ان التجارة نأت عن الموصل منذ امد طويل فالاسم (موزلين Muslin) اصبح علما على النسيج الرقيق الذى كان الموصليون ينتجونه في الماضى •

والموصل قلب منطقة خصيبة عجيبة من الارض • فالحبوب موفورة ابان الحصاد في مزارعها ، والارض المعطاء تأخذ زخرفها وتزيّن بالزهور ، ومنها ما يخرج من شقوق الصخر • وليست الموصل اليوم بمركز منطقة بترولية ، على ان الامل قوى بآبار (الكيّارة) [٦] وغيرها فليس بد من ان تضم ثروة لم يكشف عنها بعد •

ولعل في التلال ثروة اخرى مصدرها المعادن ، وهو ما ستكشف عنه المشاريع في قابل الايام • ان منطقة الموصل تنتج اليوم العفص والصوف والفرو والزيت والشراب ، وما الى ذلك مما يبهج قلب الانسان ••• فلِمَ تحرم الموصل اذن ولا توصل بالسكة الحديد؟ لقد وضعوا التصاميم الكثيرة لمشاريع السكة ، ولكن لم يسفر عنها شيء • وتحدث الالمان عن ايصال خط برلين ـ بغداد اليها ، ولكن لم يتحقق من مشروعهم هذا شيء • ولعل الموصل من هذه الجهة اشبه ما تكون بـ (الانسانية) التى اشار اليها الشاعر بوب Pope في بيته المشهور :

---

(٦) منحت الحكومة العراقية شركة نفط الموصل بموجب الاتفاق المعقود في ٣٠ نيسان ١٩٣٢ امتيازا لاستثمار المناطق النفطية الواقعة في غرب دجلة والبالغة مساحتها ٤٢٩٦٨ ميلا مربعا • وقد اختارت الشركة منطقتى عين زالة والقيارة لاستثمار نفطها فمدت خطا من الانابيب من قطر ١٢ عقدة يمتد من حقول عين زالة حتى يتصل بخط انابيب كركوك الذى ينتهى الى البحر المتوسط • اما طول هذا الخط فيبلغ ١٣٤ ميلا وقد انتهت الشركة من مده في سنة ١٩٥٣ وبلغ مجموع ما انتجته هذه الشركة من حقول عين زالة والقيارة حوالى ٨ر٥ ملايين طن وان الانتاج سنة ١٩٥٩ (١٫١٧٠٫٤٠٠) طن •
(المترجم)

« فهو شيء لم يوجد في يوم من الايام

وهو المبـــارك السـعيد دومـا »

واقرب نقطة لسكة الحديد اليوم هي (شرقاط) على بعد ٦٥ ميلا جنوب الموصل • والخط هذا هو امتداد السكة الحديد التي انشأها الالمان وربطوا بها بغداد بسامراء قبيل الحرب العالمية • انهم انشأوها لمقاصد حربية وعلى ماتؤيده جميع الدلائل ، ومنها المحطات التي هي اشبه ما تكون بالقلاع • ولقد قمنا بمد الخط هذا لمسافة ١٠٠ ميل ، وهو شيء مؤقت ، وليس في هذا المشروع اية لازمة من لوازم السكة الحديد كالجسور ، والغاية منه تموين القـوات البريطانية المحاربة التي احتلت الموصل اثر الهدنة • وشرقاط هي منتهى الخط ولا سبيل بعدها صوب الشمال • ولو سـار المرء على طريق خـط بغداد ــ القسطنطينية متجها نحو الموصل لوجد ان من الضروري الرجـوع ١٠ اميال الى وراء لكي يتسنى مد الخط عبر صحراء يباب لا ماء فيها ، ولأدرك ما يكلفه مد الخط من مال كثير ، وبدون جدوى ، ما لم يؤخذ بمقترح الالمان القاضي بايصال الخط الى سوريا •

وهناك خط آخر يقترحـه البعض ، وهو طريق يقتفي آثار سـبيل التجارة القديم والذي سلكه المتحاربون والتجار في انتقالهم من الشـرق الادنى الى الشرق الاقصى ومن سـوريا والشـمال الى فارس والهند وما خلفهما • ويعبر الطريق هذا دجلة عند الموصل مارا باربيل وآلتون كوبرى وكركوك وكفرى ومحاذيا التلال الكردية الكائنة على الجانب الشرقي من دجلة • وتلتقي بهذا الطريق طرق (كردستان) التجارية• ولو تسنى مد سكة الحديد لمكّن ذلك تجار الجبال من أن ينحدروا اليه ومعهم التبوغ والزبيب والفرو وما الى ذلك ، وعلى ما كان يحدث في الايام الخوالي ، وعندما كانت تسير القوافل بمثابة وجلال وهي تتجه صوب الجنوب • لقد تم ايصال السـكة

الحديد من بغداد الى كفرى (٧) ، والظاهر ان الاستمرار على عملية مد السكة
الحديد لا تعدو أن تكون قصة وقت ليس غير . ان الخط يمتد فى منطقة
تزرع الحبوب ، وبذلك يمكن ايصال هذه المنطقة بمنطقة مماثلة أخرى ونعنى
بها المنطقة الكائنة شمال شرقى الموصل وغربها . بذلك كله ستستعيد المناطق
هذه ماضيها الزاهر وستسودها الطمأنينة والسلام وستتصل الموصل ببقية
مناطق العراق بواسطة السكة الحديد فيلتقى الشمال الغنى بأسواق الحبوب
مرة أخرى .

انها صورة ماثلة أمام أعين الموصليين ، ولو أعيدت مدينتهم الى الاتراك
لذهبت آمالهم هباء وبددا . ومن المحقق ان حكومة العراق وأهله لن يقدما
على الصرف على مشاريع كهذه ما لم يتقرر مستقبل البلد فعلا . وتبرم
الناس كثيرا من تأخير اليوم الذى تتم فيه التسوية النهائية مع الاتراك فذلك
معناه تأخير مشاريع الابتعاث واستثمار موارد البلد وثروته . وخير فصل
تزور فيه الموصل هو فصل الربيع ففيه تزدان السهول والتلال الكائنة شرقيها
بالورود والرياحين والازهار البرية من مختلف الشكول والالوان . ثم
يأتى موسم الحصاد فى اعقاب الربيع ، والربيع قصير الامد ، ويحل الصيف
فيستمر لـ ١٢ اسبوعا وترتفع درجة الحرارة كثيرا ، وتهب خلاله الرياح
اللافحة ويكون لون الارض فى الريف رماديا وهى قفر جرداء حتى يحييها
ماء المطر فى الشتاء فتصبح جنة الله فى أرضه كرة أخرى . وطريق شرقاط،
باستثناء الـ ١٢ ميلا الاخيرة منه ، وعرة ، فان هطلت عليه الامطار انقطع .
واذا ما سار عليه المرء أصابه من سفره نصب ثم تتراءى له بعد لأى الموصل
من فوق احدى التلال ، فاذا هى على حافة الافق وتحتها واد يجرى فيه
نهر دجلة العريض ، وعلى ضفتيه المزارع الخضر ؛ هذه مآذن وقباب

---

(٧) هذا الخط استمر بعد ذلك الى كركوك ، ومنها الى أربيل .
(المترجم)

جوامعها تتراءى فتضفى على المدينة مسحة من المهابة والقدسية . وسارت بنا السيارة وهى تنحدر على الطريق المؤدية الى المدينة ، وهى طريق شقتها حكومة الاحتلال فى محاذاة النهر ، حتى أصبحنا على مقربة من جامع (النبى شيت) بمنارته ذات الاحواض الثلاثة[٨] . ثم اتخذنا سبيلا يؤدى الى المدينة مباشرة ومارا من مقبرتها . والمقابر هنا كالاسوار تحيط بالمدن .

وأسوار الموصل تضفى عليها مسحة مدينة من مدن القرون الوسطى ، وذلك على الرغم مما طرأ عليها من تجديد عصرى . وهى ليست ضاربة فى القِدَم ، فقد أعيد بناؤها سنة ١٧٣٦ وللاسوار هذه تاريخ مشرف ذلك انها مكنت المدينة من الصمود بوجه نادرشاه حينما زحف عليها فى منتصف القرن الثامن عشر . عسكر جند الغازى الفارسى على تلال نينوى واحتل القرى المتصلة بها . وحاصر المدينة ستة أشهر ولكنه بعد ذلك رفع الحصار عنها . ان كل ما أرجوه ممن يتصدى الى تجديد المدينة وتحسين معالمها ألاّ يمس هذه الاسوار بسوء[٩] ... انها متعة الناظرين وأخص بالذكر منها الحصن المتهدم الكائن فى بابها الشمالى ، وعلى مقربة منه بنايات وقبور تبعث الاهتمام .

وفى مطلع القرن الثالث عشر عاش فى الموصل السلطان بدرالدين لؤلؤ ، (وهو ينتسب الى أسرة عطار بك)[١٠] وكان رجلا على جانب من التقوى وحب العمارة . وكان قصره قائما على ضفة النهر وضمن سور

---

(٨) يقع فى الجنوب الشرقى من المدينة ويقال انه فيه قبر (شيت) الابن الثالث لآدم قيل ان بناءه تم بارغام من قبل مسيحى أراد أن يثأر لامته فجعل المنارة ذات ٣ أحواض رمزا للتثليث وهناك ـ بالمناسبة ـ مذهب مسيحى ينكر أتباعه التثليث ويؤمنون بالتوحيد "Unitarianism"

(المترجم)

(٩) أزيلت هذه الاسوار ، ولم يبق منها اليوم الا شىء يسير على ضفة دجلة ، وأطلال القلعة المعروفة بـ « باش طابية » .

(المترجم)

(١٠) هكذا وردت اللفظة فى الاصل مصحفة وصوابها « الاتابكة» . تعليق : الاستاذ كوركيس عواد .

المدينة الشمالى وكجزء منه ، وما زالت زخرفة الظهارة[١١] باقية على العقد ، وخير شاهد على ما كان عليه البناء آنئذ من جودة ومتانـة[١٢] . ويقوم قبر السلطان على مقربة من القصر وبجانبـه قبر الست فاطمـــة (وهى مقبرة السادة) . رحمه الله لقد أغنى المدينة كثـيرا . وبنى بدرالدين لؤلؤ قبر (الامام يحى) على مقربة من النهر ، ومزاره جميل وصغير وتعلوه منـارة هرمية مثمنة الاضلاع والزوايا ، وهى ليست على غرار القبب المعتـادة . وعلى واجهة المزار كتابات عربية بالخط الكوفى . وتفيـــد احدى هـــذه الكتابات[١٣] : ان العبد الفقير لؤلؤ بن عبدالله ، ملك الموصل ، بنى الجامع ليفيد منه المؤمنون وينعم هو برضاء الله . وعلى جانب من القبر تاريخ بنـائه وهو ٦١٩ هجرية . ولكى يبلغ المرء الضريح عليه أن ينزل درجات تفضى الى غرفة مساحتها ٢٤ × ٢٧ قدما يتوسطها القبر وتعلوه قبة . وعلى القبر غطاء طرزت فيه كتابة . وتحت الغطاء صندوق خشبى ، ولكنهم لم يكشفوا لنـا عنه . وكاشى السقف مموه ، وفيه اللونان الازرق والاحمر ... ولكن لم يبق منه اليوم الا القليل . وكان البنـاءون فى ذلك العصر يـكلفون بنقر الطابوق الصلد على غرار الحفر فى الخشب .. وانك لتجد فيه اليوم كوى مزخرفة ، هنا وهناك ... وكلها على الطراز التقليدى المعروف .

وعلى البناء من الداخل كتابات ترتفع عن الارض بـ ٤ أقدام ، وتحتها حاجز من رخام فيه زخارف عميقـــة النقش . وهنـــاك محراب محفور ومصنوع من رخام أسود وعلى المحراب كتابات وأمامه صنـــدوق خشبى

---

(١١) فى الاصل Stucco Ornament والظهارة آخر طبقات البياض فى جدار . (المترجم)

(١٢) تعرف أطلال قصر بدرالدين لؤلؤ ، فى هذا العصر ، باسـم « قره سراى » . تعليق : الاستاذ كوركيس عواد .

(١٣) راجع نص هذه الكتابة الاثرية ، فى كتاب « مجموع الكتابات المحررة فى أبنية مدينة الموصل » جمع نقولا سيوفى ، وتحقيق سـعيد الديوه‌جى (مطبعة شفيق – بغداد ص ١٤٢) . (المترجم)

محفور أيضا وبداخله نسخة قديمة من القرآن وهى تأتلف من ٤٠ مجلدا . وفى الحق انهم صانوا هذه النسخة اذ ان الجانب الاكبر من الرق الاصلى باق ... وكل صفحة منه تحتوى على كتابة كبيرة مزخرفة ، وهى واضحة جليـــــة .

أما فى الخارج فللضريح دعامة قوية بنيت على ضفة النهر لتقيه خطر الانهدام والسقوط فى دجلة . والدعامة هذه حديثة ، والجدار القائم على النهر يحتوى على كتابة محفورة وزخرف . وانك لتقرأ عليـه (الحمد لله) وكأنها صادرة من أعمـاق النفس البشـــرية ... انهـــا الرمز التقليدى الذى يعبر عن فرحة البنّاء اثر فراغه من تشييد بناء .

اذا سرنا على آثار تحصينات المدينة الشمالية مارين بقبر - الشيخ محمد أبى الوفاء - أحد أولياء الله الصالحين وممن عاشوا فى القرون الوسطى - وقيل ان زهده وتقواه كانا سببين فى احباط أحابيل زوجة أحد أصدقائه ، على ما يقصّه أهل الموصل - لوصلنـــا مزارا آخر ، وقد تهدم بالاهمـــال ويا للأسف .

ان هــــذا المزار ويعرف بـ (پنجـــه) - أى الاصـــابع الخمسة فى اليـــد - قائم فى منطقــــة عجيبــــة . لقـــــد أنشىء بين القرنين الـ ٦ والـ ٧ للهجرة ، وما زال الجدار الغربى قويا من الداخل ، وعليــه كتابات ونقوش . ولم يصب المحراب بسوء أيضا ، على الرغم من أن الريح تلعب فيه من الجوانب كافة . وما زالت من الطاق بقية وعليه زخارف غريبة هى من مخلفات عصره المتميزة .

وهناك (پنجه علي) أخرى ببغداد ، بل وفى غيرها من بلدان العراق . واذا ما واصلنا السير على آثار سور المدينة وصلنا الى قبر متواضع يجل صاحبه رجال الدين ، ففيه يرقد ، على ما هو متواتر ، المؤرخ العربى الكبير : ابن

الاثير (١٤) • وعلى مبعـــدة من قبره مقبرة لجنود الاتراك الذين هلـكوا بالتيفوس ابان الحرب العالمية •

لم تكن السكنى فى الموصل بمستحبة خلال الفترة الاخيرة من الحرب فلقد فشى فيها التيفوس وداهمتها المجاعة • ومن القصص الشائعة ما يدور حول أكل اللحم البشرى ابان ذلك العهد المفجـــع • وقبـل أن يحتـــل البريطانيون المدينة سنة ١٩١٨ حوكم بعض أهاليهـا بجريمة القتل وأكل اللحم البشرى ، كما شنق أحد الجزارين وقد كان يبيع هذا اللحم علنـــا فى المدينة •

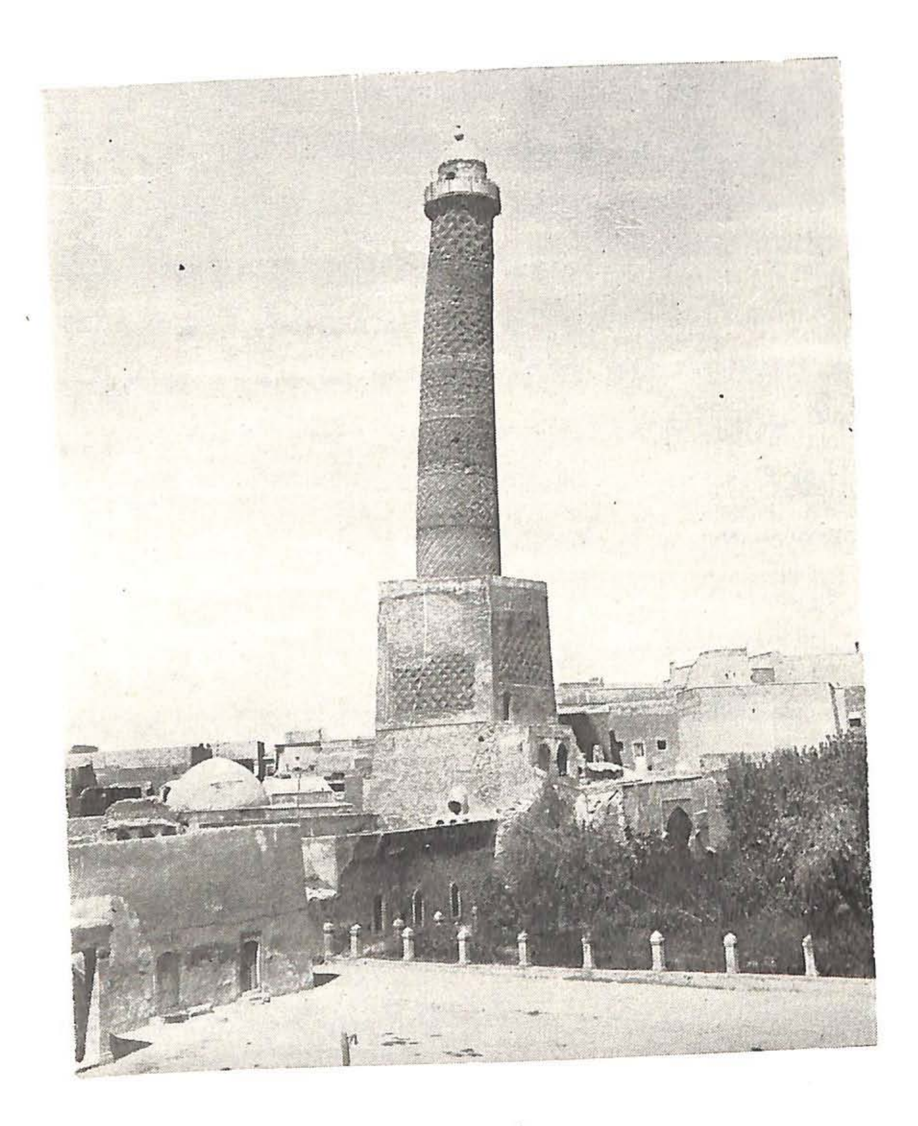
ولعل أقدم جوامع الموصل (١٥) وألطفها طرا هو (الجامع الكبير) القائم فى وسط المدينة • فمئذنته مبنية بأجود أنواع الآجر، وفيها نقوش محفورة• انها مائلة بشكل مخيف ، وبذلك تشبه برج (بيزا) المائل • لقد حاولوا أن يعيدوا توازن قمة المئذنة فى يوم من الايام • وبين الجامع والمئــذنة صحن كبير وفيه محراب منقوش بالحفر ، كما ان فيه محلا للوضوء وفيه زخارف مماثلة وبئر لطيفة •

ومما لا شــك فيه ان الجـــامع لا يعود الى عصر النبى ، على ما تقول احدى الاساطير ، فهو لم يـبْـنَ الا فى القرن الـ ١٢ للميلاد وقد بناه الشهيد نورالدين ، وكان صلاح الدين (الايوبى) ضابطا فى جيشــــه فى يوم من الايام • وعندما مر المؤرخ العربى (ابن بطوطة) بالموصل فى القرن الـ ١٤

---

(١٤) هو قبر عزالدين ابن الاثير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ، مؤلف كتـاب « الــكامل فى التاريخ » • وقد جدد قبره فى السنوات الاخيرة ، فى بناية تقرب من موضعه القديم الذى أشارت اليه المؤلفة .
(المترجم)

(١٥) فى الموصل جوامع ومساجد كثيرة ، أهمهـــا الجامـــــع الكبير (النورى) ويزيد ارتفاع مئذنته القديمة على ٥٠ مترا ويرجـع تاريخ انشائها الى القرن السادس للهجرة • انها من أقدم المآذن فى العراق كما انها أطول مئذنة فيه ، وهى منحنية وطرازها غريب •
(المترجم)



الحـــدباء

مئذنة الجامع الكبير (النورى) فى الموصل شيده نورالدن عمادالدين زنكى الاتابكى (٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) ٠

أمام الصفحة ١٥٠

زار الجامع الكبير هذا وشاهد فيه حوضا من رخام مثمن الاضلاع وكانت فيه نافورة ينبعث منها الماء فيرتفع الى علو كبير • وتدعم سقف المصلّى أعمدة حجرية ، وبعض رؤوسه محفور ومنقوش على الطراز الموصلى المعتاد • وعلى المحراب كتابة كوفية ، ومثلها على احدى النوافذ المربعة الموجودة فى كوة عميقة قريبة من المنبر • وتمثل هذه النافورة بزخرفها الدقيق الفن الموصلى فى ذلك العهد • ويرجع المنبر الى ما قبل ٢٤٠ سنة فقط • وليس فى هذا الجامع من السجاد القديم ذى الالوان اللطيفة شىء ، وأرضه مغطاة بالبسط القطنية • وبنى السلطان بدرالدين لؤلؤ ، وهو بنّاء لا يعرف الكلل ولا الملل ، جامعا آخر ، هو جامع الامام عونالدين بن حسن بن على • وفوق بابه رخام منقوش وملون ، والباب نفسه موشّى وعليه كتابة صغيرة تدل على ان بانيه هو المدعو عمر بن حضر والى سيد محمود المالكى البدرى رحمة الله عليه • والظاهر ان قد أعيد بناء الباب ، واسكفتها مخضبة بالحناء مما تجود به النسوة الشاكرات اثر استجابة دعائهن وصلاتهن فى المزار • وليست قبة الجامع وما عليها من زخرف بجميلة كقبة الامام يحى وان كان هناك شبه بين القبتين ، وهناك افريز من رخام منحوت يحيط بما فى داخل الجامع ، ومحرابه مصنوع من رخام أسود وأمامه اطار توقد فيه شموع النذور • وقبر الامام مغطى بصندوق خشبى منحوت وعليه كتابات دينية •

وعانت كنائس الموصل ، ومنها ما هو موغل فى القدم ، كثيرا من الاغراق فى الصيانة والترميم • فالحجر والرخام فى الموصل موفوران ، فلا فرق بين الصيانة واعادة البناء من حيث الكلفة • ولهذا السبب بالذات فقد الكثير مما يعنى به الخلف • وتطوع قس كلدانى كريم أن يرينا جانبا من هذه الكنائس • والقس هذا يعنى بادارة معهد لاهوتى يتخرج فيه القساوسة والرهبان ، وطاب له أن يرينا صفوف المعهد المرتبة ، وقاعات النوم فيه ومطاعمه • كما قدّم لنا الاخوات الراهبات الباسمات وهنّ يرتدين المآزر

الحريرية ، وكان الطلاب ينظرون الينا بعيونهم السود وهم يرتدون الاردية السود ويمضون الى الكنيسة لاداء الصلاة .

وأفلتت كنيسة مر شمعون[١٦] ، وهى كنيســـة شمعون الصفا التي ترجع الى القرن الـ ١٤ ، من يد الصائن المرمم ، أو كادت . انهـا حرية بالريازة ، وهى دون صعيد الشارع ، ويمكن الوصول اليهـــا بالنزول من سلّم . انها ساذجة الطراز للغاية ، ولا تختلف فى طرازهـــا عن كنائس المنطقة : فالمذبح منعزل عن بقية هيكل الكنيسة بستارة ضيقة فيها فتحات ، وعلى كل فتحة طاق ، ومنها ينفذ الى المذبح . والستارة فى هذه الكنيسة ، كما فى سائر الكنائس الاخرى ملونة ومنقوشة . وهناك سلّم آخر يؤدى الى صعيد الارض مرة أخرى ، واحدى درجـاته مصنوعة من حجر نحت بشكل غريب ، ولعله منقول من محل آخر . والبلاطة مزخرفة بالزخرف العربى ومنقوشة نقشا بارزا وفى وسطها رأس أسد . وأعلمنا دليلنا ، ولست أعلم مدى الحقيقة فى قوله ـ ان الحجر هذا كان فيمـا مضى جزءا من قبر شخص يدعى عبدالجليل ، وهو من أسرة ما زالت تقيم ببغـــداد . وكان عبدالجليل هذا فى الاصل مسيحيا ثم أسلم فغدت أسرته محمدية موسرة .

أما كنيسة القديسة مسكنتة فقد بنيت ، على ما يقال ، فى القرن الثانى عشر ، وأعيد بناؤها مرة أخرى فلم يبق شيء من بنائها الاصلى . ومســكنتة قديسة كلدانية شهيرة . وفى يوم زيارتنا لكنيستها كانوا يحتفلون بعيـــد القديسة ؛ فالنســـاء وهن يلبسن المآزر الحريرية مزدحمات فى القســـم المخصص لهنّ في الكنيسة ، وكانت الشموع تتلألأ فى ممراتها . والقديسة مسكنتة موصلية وكانت أرملة لها طفلان رأى كل منهما بأم عينيه فواجـــع الاستشهاد فى الايام الخوالى ، أى فى أيام التبشير المسيحى الاولى . ويقال

---

(١٦) (مر) وتكتب مار لفظة سريانية معناها السيد وهى لقب يطلق على القديسين والاساقفة .
(المترجم)

انها ما زالت تفعل الاعاجيب على من تصيبه الارواح الشريرة بشرّها .

وقريب من هذه الكنيسة مسكن غبطة بطريرك بابل على الكلدان . والبطريرك هذا رجل محترم جذّاب ، وهو يشغل منصبه منذ سنوات عدة ، ويحبه أتباعه حبّا جمّا .. انه مهيب المنظر يرتدى طيلسانا عجيبا فيه اللونان : القرمزى ، والاحمر الداكن ، ويضع على رأسه طاقية مقرمزة وهو يمتلك صليبا ضخما ويرسل لحيته البيضاء . وبيته لطيف وفيه فناء بارد ، وأرضه مفروشة بالرخام الرمادى . واحتسينا القهوة فى بيته لدى زيارتنا له أول مرة ، وتفضل فأرانا شقق البيت فى طابقه الاعلى ، وخزانة كتبه ، وغرفة استقبال الضيوف وفيها كرسى هو أشبه ما يكون بعرش صغير . وتزين جدران الغرفة صور البطاركة السابقين وفى وسطها صورة كبيرة للبطريرك الحالى نفسه . والمونسينور توما[17] مولود فى (ألقوش) حيث ولد النبى ناحوم . ولقد سافر الى أوروبة مرات عدة وزار فيها كلاّ من المسيو بوانكاره والمستر لويد جورج . ويكلف الرجل بالتحدث عن رحلاته وعمن أصبح فى عداد أصدقائه خلالها . واطلعنا على سجادة حاكتها بنات الموصل وقدمنها له فى مناسبة يوبيله . والسجادة معلقة على جدار خزانة كتبه ، وموضوعها : عيد الميلاد Nativity .

والموصل مركز دينى كبير بالنسبة للمسيحيين ، فلا يقيم فيها بطريرك الكلدان فحسب وانما يقيم فيها رئيس أساقفة السريان والمونسينور بيرى ، رئيس أساقفة بغداد ، والقاصد الرسولى الى بلاد ما بين النهرين وكردستان وأرمينية الصغرى ، ورئيس أساقفة السريان القدماء (اليعاقبة) وبطريرك النساطرة الآثوريين ـ الكلدان .

وفى الموصل ، كما فى بغداد ، أخوات التقدمة من طائفة الدومنيكان

---

(١٧) هو البطريرك الكلدانى الاسبق يوسف عمانوئيل توما الثانى ، المولود فى ألقوش سنة ١٨٥٢ ، المتوفى فى الموصل سنة ١٩٤٧ وقد لبث بطريركا منذ سنة ١٩٠٠ حتى وفاته . تعليق : الاستاذ كوركيس عواد .

وهنّ فرنسيات مخلصات عُنين بواجبهن فى ميداني التعليم ونشر الثقافة بين
بنات المدينة • وأصيبت البناية التى كانت الاخوات يشغلنهـــا ابان الحرب
بضرر بالغ كما نهبت ابان احتلال المدينة عسكريا ، ويجرى الآن اعادة بنائها
تدريجيا • واضطرت الاخوات الى الهروب من الموصل فى نهـــاية الحرب
والالتجاء الى فرنسة ، ثم عدن بأســـرع ما يمكن بأخرة • انهن متوردات
الخدود ، تغمر قلوبهن الرحمة ، وهن وضيئات الوجوه ويرتدين ملابس
من الصّرّج (١٨) وقبعات واسعة منشّاة • انهن يعنين بالايتام طوال نهارهن ،
فهن يلبسنهم الملابس ويصلحنها عند اللزوم • وهن يطعمن الايتام ويقمن
على تنشأتهم النشأة الصحيحة • والايتام هؤلاء من ضحايا المذابح وقد جاء
بعضهم اما كجريح أو مصاب بحروق وقد أفزعه ما رآه من فواجع وأهوال•
فلقد تركت احدى الفتيات الصغيرات النحيلات بين جثث القتلى ، وبضمنهم
أبويها وجيرانهم ، لمدة يومين الى أن عثر عليها أحد المسلمين فجاء بهـا الى
بيته ثم سلّمها الى الاخوات الراهبات • وما زالت احدى الفتيات وقد قتلوا
أمها على مرأى منها ، مذعورة مخبولة منذ ذلك الحين وليس بد من أن يمضى
وقت طويل قبـــل أن تمحى الصـــورة المخيفة من مخيلتها وتســتعيد
حالها السوي •

وتدار المدرسة والميتم على أساس الاكتفاء الذاتى ، فالبنـــات يصنعن
المطرزات ، ولا سيما المطرزات الحرير الموشاة بالذهب مما يرتدى كثيرا فى
الاعراس ، ويبعنهـا • ونهب أثاث الاخوات الراهبـــات ابان أيام الحرب
السود ، ولم يسترجع منه الا كرسى واحد عثر عليه أحد المسلمين الاصدقاء
فأرسله لهن • وحتى طبق الكنيسة اختفى عند بعض أهل المدينة ولكنه عاد
اليوم الى محله فى مصلّى الدير المهندم اللطيف !•

---

(١٨) فى الاصل Serge وهو ضرب من القماش يكون من صوف أو حرير • (المترجم)

الفصل الرابع

الديارات القديمة ...

والقديســون الأولون .

حقَّ للمسيحية فى العراق أن تزهو بمعاصرتها لشقيقتها كنيسة رومة. لقد كانت دوما بمنجاة عن الاتصال بسفسطة الغرب ، لذلك احتفظت بمـــا ساد الدين المسيحى فى عصوره الاولى من بساطة وحماسة . وتاريخ المسيحية هذه تاريخ من الاضطاد المتواصل . فما ان تحررت من معارضة كهـّان (بعل) و(عشتار) لها الا وأحنت الرأس للمسلمين اثر فتحهم العراق وكردستان . واستحالت بعض كنائسها الى جوامع اسلامية . ولكن بعض المواقع القديمة بقيت ، على الرغم من ذلك ، معابد مسيحية لاكثر من ١٠٠٠ سنة . ومنهـا ما بقيت ديارات تضم رجالا انصرفوا بكليتهم الى حيـاة التأمل والاستغراق منذ ان زحف (يوليان الجاحد) تداعب خياله أحلام جريئة ، وهو يسعى الى ارجاع الوثنية الى أرض الرافدين . ذلك ان هنـــاك كثيرا من الرجال الذين ينحون منحى المرتدين ممن عرفهـــم تاريخ المســـيحية الطويل . والمتواتر ان الرسل : (بطرس) و(توما) و(برثولماوس) و(متّي) و(يهوذا بن يعقوب) و(تدّاوس) وعظوا الناس بالكتاب المقدس فى نفس الارض التى قام فيها الصرح المدرّج (الزقورة) شاخصا بين السهول المترامية . ولقـــد أقلق انتشار الدين الجديد بال الحكومة الفارسية فى القرن الميلادى الاول .

وهناك كثير من طوائف المسيحيين فى بلاد الرافدين اليوم ، ومنهـــا (اليعاقبة) و(النساطرة)[١] و(السريان) و(الارمن) و(الروم) وغيرهم . وكل

(١) النساطرة فرقة من النصارى عرفت باسم مؤسسها (نسطور) الذى أصبح بطريركا على القسطنطينية سنة ٤٢٨ م ثم زاغ فى آرائه الدينية

طائفة منها لا تعامل الاخرى بيسر واسماح كما ان لكل طائفة هرمها الكهنوتي فيه (البطاركة) تعلوهم المهابة والجلال ، وتسر الناظرين ألوان ملابسهم من أحيمر أدكن الى زنجفرى Vermillion ؛ انهم يحلّون بالمجوهرات الكنسية ، ويرتدون الاردية الخاصة بالطقوس الدينية • ومنهم (رؤساء الاساقفة) و(الاساقفة)[٢] ، وسائر « أصحاب القداسة » الآخرين ، والقسّان[٣] من مختلف الرتب والدرجات • انهم رجال دين ، سود اللحى ، سود المدارع ، ومن يتأمل فيهم يخالهم من الآثوريين القدامى بشعورهم الطويلة وقبعاتهم العالية • وهناك الآباء الكنسيون الكاثوليك بطيالستهم الدالة على مختلف رتبهم • كما ان هناك طبقة المتلمذين ، لابسى المدارع السود ، والساعين الى الانتماء الى السلك الكهنوتى •

ليس من وكدى أن أبحث فى مثل هذا المقام فى المسيحية المعاصرة فى العراق ، وسأقصر البحث على ديرين قديمين فيه ما زالا يتسمان بطابع القرون الاولى ، وهما بعيدان كل البعد عن مظهر حياة المدنية ، وعن مياسم الحضارة العصرية •

تركت الموصل صباح يوم من أيام تشرين الاول قاصدة زيارة أحد

عما هو ثابت لدى رجال الكنيسة وفى سنة ٤٣١ م عقد مجمع دينى فى افسس حرم نسطور وتعليمه وأنزله عن كرسيه البطريركى • وقد انتشرت بدعته بين كثير من نصارى المشرق من بعده وما زالت بقاياها الى الآن بين الكلدان النساطرة • مات نسطور فى صحراء لبيباء نحو سنة ٤٤٠ م •
(المترجم)

(٢) الاساقفة جمع الاسقف وقد يجمع على الاساقف ، من رؤساء الدين عند النصارى ، والاسقف (القسيس) وتحت (المطران) ، واللفظة يونانية الاصل Episcopos
(المترجم)

(٣) القسان جمع قس وهى لفظة سريانية معناها (الشيخ) والمراد به خادم الكهنوت عند النصارى ، أى خادم دينهم وامامهم فى أمور عبادتهم وتأتى على وزن فعيل بصيغة المبالغة ، ومنها القسيس فى العربية (راجع مجلة المجمع العلمى العربى ٢٤ (١٩٤٩) ص ٤٨٨) •
(المترجم)

الديرين . وكان يصحبني في ذلك رفيقان ، أحدهما قسيس كلداني . وهبت ريح عاصف من جهة الجبال الكردية ، ونحن نعبر الجسر العائم فوق (دجلة) . وانحرفنا صوب الشمال ، وتل قوينجق يرتفع فوق رؤوسنا . انه التل الذى يضم جواسق [٤] (نينوى) المطمورة . ثم اتخذنا سبيلنا صوب (تلكيف) وهى قرية كلدانية معروفة فى العراق كله . وتشتهر نساء تلكيف بالجمال وحسن الملبس ، ذلك انهن يرتدين لباس رأس محلّى بالنقود الذهبية ، والمرجان ، والزجاج الازرق ، والكهرمان ، وما الى ذلك من خرز ... فتنة للناظرين !

ويكلف رجال تلكيف بالمشروبات الروحية القوية . ويهجر القرية كثير من أهلها الى أميركة ، ولست أعرف ما الذى يفعله المهاجرون فيها ، ذلك ان التلكيفى ما أن يعود يوم الاحد من صلاته فى الكنيسة ومعه نساء بيته الجميلات الا ويأخذ فى احتساء العرق ، والنبيذ المحلّي ، حتى يصبح ثملا ثقيل الرأس ، ولا يستفيق من سكرته هذه الا صباح الاثنين التالى .

وفى (تلكيف) [٥] استضافنا أحد وجهائها وقدم لنا شرابا منعشا قال عنه : انه النبيذ المقدس ، لكن الاقداح التى قدم فيها الشراب لم تكن نظيفة أبدا ، وان كان الكرم عند مضيفنا أصيلا . وكانت زوجته الجميلة تختلس النظر الينا ، على استحياء ، ونحن نجلس فى الديوان ... يقال ان نساء (تلكيف) يعملن وأزواجهن يحتسون الخمرة . ولكننى لن أؤيد مثل هذا القول ، فعندما زرت القرية مرات عدة وجدت الرجال دائبين على العمل ، يقومون بتذرية الحبوب المكدسة كالتلال خارجها ، ويسحقون الجبس ،

---

(٤) الجوسق القصر ، أو الحصن . وهو تعريب كوشك الفارسية . (تاج العروس ٦ : ٣٠٦) .

(٥) تلكيف أو (تل الاحجار) هى اليوم مركز ناحية تلكيف قرب الموصل ولغة أهلها الكلدانية العامية (السورث) لكن الكثير منهم يتكلم العربية .
(المترجم)

وينقلون حجارة البناء • ان (تلكيف) قرية مزدهرة ، ولها مطامح قوية ، فأهلها يناقلون الحديث بعضهم بعضا عن جمع المال اللازم لاقامة مشروع لاسالة الماء • انهم يسقون اليوم من مياه الآبار ، وتقوم نسوة القرية بحمله الى البيت • وبئر القرية الرئيس كائن فى المقبرة ، وفى منتصف الطريق المنحدر الى التل • ولمشروع كهذا تأثير كبير فى صحة القرية ، ما فى ذلك شك •

وتتراءى القرية مظلمة : ذلك ان سحابة من التبن المتطاير غشيتها • ان أهل القرية يفرقون الحنطة عن التبن برمى الحصيد فى الهواء ، وحجبت القرية الاخرى عن أنظارنا للسبب نفسه • وفى مقدور المرء أن يدرك درجة ثراء المنطقة هذه مما تنتجه من مقادير عظيمة من الحبوب • انها مكدسة حوالى كل قرية فيها • واذا ما سلكنا الطرق الوعرة قاطعين مسافات من الاميال لرأينا الارض على جانبيها عامرة بالنبت العميم ••• وعلى غرار ما يشاهده الانكليزى فى سهل سولسبرى Salisbury Plain • وقد يشاهد المرء قطعا متجاورات : هذه متروكة لتبور ، وتلك صفراء ، وهاتيك سمراء ••• ويزيل جفاف الصيف الخضرة ويذهب بالزهور من هذه الارض الخصبة • وما ان تهطل بواكير الغيث فى الخريف الا وتحدث الاعاجيب • وما أن يرد الربيع الا وتضحك الربى وتغنّي • فهى تزّيين بكتائب من زهور البرية والعشب الاخضر •

واسم القرية الثانية (باطنايا)[٦] أو (بيت الحميّة) ، وخلفناها ظهريا وانعطفنا صوب (دير مر ابراهام) — وهو دير حديث بني على آساس دير يرجع تأريخه الى القرن السابع للميلاد • لم يبق من آثار الدير الاصلى الا

(٦) هى فى منتصف الطريق بين الموصل ودير الربان هرمزد • وأهلها لهم شهرة خاصة بصنع الحصران من البردى الذى يقتطعونه من الوديان المعشوشبة المجاورة لقريتهم • والقرية تلتحق اداريا بناحية تلكيف • (المترجم)

بئره . ورأينا من فوق سطح الدير الحديث منظرا رائعا لسـهل مترامى الاطراف ؛ يجلو حسنه جو الخريف . وشاهدنا (جبل مقلوب)[٧] وهو يقوم شاخصا فى جهة الجنوب الشرقى . ان سفوحه وردية اللون ، أو هى بلون الجمشت[٨] . وعلى الطريق الذى كان علينا ان نسلكه سور من تلال، وتختفى وراءه بلاد الكرد الجبلية . وعدنا الى الطريق الرئيس قاصـدين زيارة قرية نصرانية أخرى تدعى (تلسقف) . وما ان وصلناها الا وقدّمنا فيها فروض التبجيل لـ (خورى القرية) ، وهو شيخ جلّله الشيب وقد بلغ من الكبر عتيا . واستضافنا الرجل وقدّم لنا الشـاى فى أكوابه المعروفة (الاستكانات) وتجاذبنا معه أطراف الحـديث ، وما ان عرف انّا ذاهبون لزيارة ديار اليزيدية الا وزودنا بطرف من تجاربه مع اولئك القوم الاغراب.

ولخورى القـرية فى العـراق ما لخورى القرية الفرنسـية الصغيرة من شـأن . فالرعيـة يأتون اليـه ، ان جُوبه أحـدهم بأية مشـكلة من مشـاكل الحيـاة . وهم يسـتدعون الرجل لفض الخصومات وحل المنازعات الدائرة حول المـال والعقـار . ولن يكتب لمثل هذه الخصومات أن تصل المحاكم المدنية . وهو يسعى بالاضافة الى ذلك كله الى حل معضلات الاسر ومشاكل البيت المعقدة . وتعالت التـلال عندما خلفنا (تلسقف) ظهريا ، وكنا نمر بين الفينة والفينة بجدول يتسبسب ماؤه بين شعاب الجبل وقد تكاثر فيه السمك والسرطان البحرى واصطبغت الارض على حفافيه بالخضرة السندسية .

وقد ترى احيانا قرية تتسنم قمة تل ، وبيوتها مسطحة السقوف ، وتتابعت مناظر التلال حتى اصبحت (القوش) على مرمى البصر . ان التلال الواقعة عند اقدام الهضبة الكردية ، والتى تقوم شاخصة كجدار فى السماء ،

---

(٧) يبلغ ارتفاعه ٣٤٨٣ قدما وهو من أهم جبال العراق المنفردة .

(٨) فى الاصل Amythest وهو حجر كريم أحمر ازيرق (المترجم)

تسمى قرية (القوش) • لقد ذكرتني الارض ههنا بالربى في صقلية •
فالحليبة[٩] تنمو بوفرة ، كما هو الحال في (كاتانية) اثناء الربيع •والارض
تشبه ارض صقلية فهى مطرزة ومزركشة بالازهار والاوراد البرية مـــن
مختلف الضروب والاجناس • وقرية (القوش) السمراء ، مختفية داخل
الجدران لصيقة بالصخور السمراء • وعلى مبعدة ميل منها يقع (دير القوش)
وهو ابيض اللون تكتنفه عرائش الكروم • واشتهرت القرية لانها انجبت
النبي (ناحوم الالقوشي) وفيها اليوم ضريحه • واتخذنا سبيلنا راجلين في
شوارع القرية الضيقة ، وهى اشبه ما تكون بالاخاديد الصخرية ... الى ان
وصلنا الضريح • ان قيّمه يهودى ، ومبناه يشبه مبنى اضرحة الاوليـــاء
المسلمين • وعلى القبر رق مطوى فيه كتابة عبرية ، وهو (سفر ناحوم) •
واشار القيّم الى كلمة (الالقوشي) الواردة في الرق المطوى والظاهر ان
النسبة فيه الى (القوش) نفسها ، وهى التى انجبت هذا النبى لا الى (القوش
السورية) • ولعل السبب فى ذلك ان الاولى قريبة من نينوى التى دارت
حولها تنبؤآت جمّة • وقام رجال الدين المحليون بمهمة الادلاء فأرونـــا
فخورين كنيستهم ، وهى مبنية بالمرمر الاسمر المقتلع من المقالع المحلية •
وبناء الكنيسة لطيف وبسيط ومتين وعليه سيماء المهابة والجلال • انه يمثل
الطابع الفردى وهو ميسم العمران فى هذه المنطقة • وتناولنا طعام الغداء مع
الاخوات الراهبات ، وهنّ عذارى دمثات الخلق ، ويقمن بادارة مدرسة
القرية للاناث • ولا اعتقد ان الطفلات يتعلمن فيها شيئا اكثر من القراءة ،
والخياطة ، وحسن السلوك • والضبط المدرسي فيها رائع • وراهبات القرية
من طائفة الكلدان ، وهنّ يرتدين ملابس غريبة الشكل تذكرّ المرء عنـد

(٩) فى الاصل Spurges والحليبة نبـات طبى ، واســـمه العلمى Euphorbia وهو علم على كل النباتات الغريونية أو كل نبت له لبن يسيل اذا قطع (راجع معجم أســـماء النبات للدكتور أحمـــد عيسى بك ص ٧٨ كلمة ١٩) .
(المترجم)

رؤيتها بتصاوير الفلمنديين فى القرون الوسطى • وكان الغـداء مؤلفا من الرز (پلاو) والعنب الجبلي الرّيان • وما ان فرغنا منه الا واتخذنا سبيلنا الى الدير ، والطريق اليه وعرة عسيرة • وللفائدة ، لا معدى لى من ان اذكر ان الطريق الصخرى يصبح قرب القرية خطرا ؛ فالحجارة مبعثرة عليـه هنا وهناك • وهكذا تقطعت دواليب عجلات سيارتنا بسبب ذلك • ويقع الدير على مستشرف صخرى وهو محاط بأسـوار دفاعية • وعلى الباب الرئيس استقبلنا رئيسه وبعض رهبانه ، ورجونا ان نمكث من غير طويل لاحتساء الشاى قبل مواصلة السفر • ويأتلف الدير من ٣ أقسام متصلة فيها المكاتب والغرف ، وهو على غرار مانراه من الابنية بجامعة اكسفورد ••• وفى وسطه باحة • ويضم القسم الاول أجنحة خاصة بالضيوف ، ودوائر عدّة •

وعلى مقربة منا حظائر للخراف وسائر الانعام • وفى القسم الثانى بيعة[١٠] ، وصوامع[١١] رهبان الدير • وفيه أبصرنا راهبا بلغ من الكبر عتيًا وهو يعمل طوال يومه فى اعداد خرزات السبح • انه متمنطر ، ووجهه يطفح بالبشر وينم عن براءة كبراءة الطفل • وحياة الرهبان هؤلاء يغمرهـا المرح ويسودها البِشْر ، وذلك دليل على ان فى حياتهم وداعـة ويسـرا واسماحا ، وذلك على الرغم من بساطتها ، وطابع التقشف الذى يسـود صوامعها •

أما الجناح الثالث فهو مخصص للمترهبنين[١٢] • وكل بنـاية فى الدير تأتلف من طابقين ، وانك لتشاهد من فوق سـطحه ، ومن نوافذه ،

---

(١٠) البيعة (بكسر الباء) : متعبد النصارى ، واللفظة سريانيـة بمعنى (البيضة) و(القبة) اشارة الى شكل بناء الكنائس قديما • (المترجم)

(١١) الصوامع ، قلالى الرهبان ، وهى تبنى بناء ان كان الدير قائما فى السهل أو تنقر فى قلب الصخر ان كان الدير فى الجبل • (المترجم)

(١٢) فى الاصل Novices وهم الذين لم يقدموا النذور الرهبانيـة وما زالوا تحت التجربة • (المترجم)

سهولا ، مترامية الاطراف ، وتلالا منحدرة ، وتتنسم من جوانبه هواء عذبا طلقا نقيا .

ويعيش رجال الدين من سكنة الدير عيشة شظف وبساطة ، وهم يعملون دائبين ، ولم نر بينهم من تظهر عليه امارات المرض . وفي ليلة وصولنا ، ولم أنم خلالها الا غرارا ، سمعتهم (في غرّة الفجر ، والعصفور لم يطر) يمضون الى الكنيسة ويرتلون الصلاة فيها ... وأنغام صلاتهم بدائية ، وهي على غرار ما يسمع في الكنائس الاسيوية الاخرى ، فهذه البلاد لم تتبدل عما كانت عليه عبر القرون الا لماما . وانك لتخال كهان معبدي (بعل) و(عشتار) نقلوا أنغامهم الى رهبان يومنا هذا! . ولم ينته مطافنا بالدير ، بعد . ان (دير القوش) لا يعدو أن يكون مؤسسة عصرية ، وسكانه كانوا فيما مضى ، يسكنون بناء عتيقا عاليا كنا بسبيل الذهاب اليه . ان الصخور النائية تتراءى وهي شامخة الذرى في الجهة الشمالية منه . وانك لتخالها لصيقة بفوهة الهاوية ، أو هي جزء لا يتجزأ منها . وأعدّوا لنا بغالا مزينة السروج بالمطرزات ، ومضى مضيفونا أمامنا خفافا صوب (دير الربان هرمزد)[١٣] وهو من أقدم الآثار النصرانية في هذا البلد العريق . وكان الشعب اليه وعرا منحدرا يشق قطعه حتى على بغال العراق القوية . وكلما أوغلنا في سيرنا مصعدين بين عطفات الجبال وثناياها كلما اتسعت أمام ناظرينا مناظر الجنوب الرائعة . وأخذ الهدف الذي نسعى اليه يتجلّى لنا قليلا قليلا ... انه أشبه ما يكون بوكنة طائر . وقيل لنا ان البقع السود التي كنا نراها على سفح الجبل ان هي الا قلايات رهبانه . انهم قوم يعيشون عيشة انعزالية صرفة ، وسكَنهم هو هذا المدرج العجيب من الصخور الناتئة . ورأينا على

---

(١٣) دير قديم جدا ما زال قائما منذ ١٣٠٠ سنة وهو مؤسس على جبل بيت عذرى المسمى أيضا جبل ألقوش ، في شمال العراق .
راجع : (أثر قديم في العراق — دير الربان هرمزد للاستاذ كوركيس عواد) .
(المترجم)

سفح الجبل ما يشبه خلايا النحل من كهوف وكوى ••• وهى على غرار جحور الثعالب ، ولن يصدق انسي انها مساكن بشر نذروا أنفسهم للتدين والعبـــادة •

ومراقى الجبل منقورة فيه بشكل بدائى ومماشيه خطرة ، وشرفاته ضيقة • انها همزة الوصل بين رهبانه المنعزلين وسائر البشر • ولا بد لهؤلاء الرهبان أن يطعموا ، ولابد لهم أن يشربوا ، وانك لتراهم في الـكنيســـة مجتمعين فى أوقات معينة من النهار يحمدون الله ويصلّون له • ولقد تهدمت كثير من شرفات الدير الحجرية الكائنة على سفوح الجبـــال بسبب انزال السماء عزاليها في الشتاء • وبعد حوالى الساعة أصبحنا على مقربة من الدير واستطعنا أن نشاهد بعض الشخوص وهى تتسلق سلّما فى احدى بناياته ، كما استطعنا أن نميز من بينها شخصا يرقب القادمين بناظوره • وأخـــذت كلاب الدير ، حراس أولئك الرهبان العزل ، تهر وتنبح ونرجع صدى ذلك ثنايا الجبال وعطفات الوديان • وكان نباح الكلاب هذه ابان عهـــد الاضطهاد والمذابح خير منبه لاخوان الدير • وفى الحق ان وعورة طريق الدير وضيقه ، وعطفاته كل أولئك من أسباب منعته بازاء الهجمات عليه ، لكن اهلاك سكانه جوعا ممكن أيضا • لذلك فمن سـداد الرأى أن يفتح الطريق ولو كان القادم عدوا • واجتزنا ، فى خاتمة المطاف ، طريقا مرصوفا بالحجارة الخشنة وهو يفضى الى الباب الرئيس • وما ان ترجلنا الا واستقبلنا الشمّاس ثم تسلّم منا دوابنا المكدودة وقادنا الى روشن (١٤) الدير حيث استقبلنا الديرانى (١٥) وهو شيخ لطيف العشرة، فى عينه ابتسامة • وجلسنا

---

(١٤) الروشن = جناح السطح ، أو المنظرة التى تشرف على خارج البيت • (المترجم)

(١٥) نسبة الى الدير على غير قياس ، والمراد به الراهب الممتاز القائم بأمور الدير، أو رئيسه، وهى من السريانية : (ديرنايا) (راجع الديارات للشابشتى ، فى ا لحاشية ، تحقيق كوركيس عواد) • (المترجم)

على مقربة من آنية تغلى فيها أعشاب طيبة النكهة ، وقدمت لنا السكائر وسقينا شرابا مصنوعا من انتاج الدير نفسه . والدير مكان جميل ، حللنا فيـه للاستجمام واتقـاء أوار شمس الظهيرة . وكنا نلقى السمع الى كلمات الترحيب ينطق بها الديرانى . وفى مقدور المرء أن يرسل النظر من الروشن عبر الاميال فيرى تلك السهول المترامية والتى تبدأ من اقدام مستشرف الدير الصخرى ، أو يتطلع ، ويكاد الدوار يثقل رأسه، الى المنهوى السحيق تحته .

وفى الحق لابد وان جال فى خاطر الرهبان ، وهم يتطلعون الى تلك السهول الخضر وجمال الطبيعة الفطرى ، اغراء (الشرير) لـ (المسيح) اذ لن تكون الدنيا أجمل وأشد اغراء من هـذا المنظر الذى يراه المرء من هـذا المستشرف المنيع الشبيه بـ (عش النسر) .

ويتلوى الممشى الوعر الذى سلكناه هابطا ، والزهور الجبلية تزين حفافيه في الربيع . وتشاهد (القوش) فى أسفل الدير صغيرة ، وخلفها مرتفعات بعيدة عند خط الافق ، انها زرقة بازاء زرقة ، وظلال وردية بازاء ظلال وردية أخرى .

وقدم لنا الشاى ، وأرغفة الخبز والعسـل الجبلى والعنب ، وكان الديرانى يتحدث فى أثناء ذلك عن تاريخ الدير وسكانه ، وهم اليوم جد قليلين . وحينما زار (الرحالة ريج Rich)[١٦] دير الربان هرمزد فى أوائل

---

(١٦) كلوديوس جيمس ريج رحالة معروف وممثل شركة الهند الشرقية والمقيم البريطانى فى بغداد فى أوائل القرن التاسع عشر . ولد على مقربة من (ديجون) من أعمال (بورغوندى) فى فرنسة سنة ١٧٨٧ ثم نقل وهو طفل الى (بريستول) فى انكلترة حيث قضى السنوات الاولى من حياته برعاية والدته . وفى سنى دراسته وتمرسه أتقن اللغـات الكلاسيكية والفرنسية والايطالية وعين مقيما فى بغداد وقضى فيها حوالى الـ ٦ سنوات. ولقد زار خلالها الكنائس المسيحية فى مواطن الكلدان وتمكن من أن يجمع ويضيف الى مكتبته عددا من المخطوطات السريانية والكلدانية القديمة القيمة، ومما زاره هذاا الدير . (راجع الجزء الاول من رحلة ريج فى العراق عام ١٨٢٠ ، تعريبى بهاءالدين نورى – ١٩٥١) . (المترجم)

القرن التاسع عشر وجد فيه ٥٠ راهبا أما اليوم فلا يزيد عددهم على أربعة . وواصل الديرانى حديثه وقال انهم كانوا فى الاصل ٣٥٠ وان مدونات الدير تقرر ان مؤسسه هو بطريرك الكلدان فى طيسفون ، وان تاريخ تأسيسه يرجع الى نهاية القرن الرابع . وتدور حول (دير الربان هرمزد) قصص وأساطير عدة . والربان هرمزد أحد ديرانيه ، ومن أشهر من حفلت بهم سير قديسى الكلدان . انه مدفون فى الدير نفسه ، والاساطير تروى انه ابن أحد ملوك الفرس ، وقد تنصر وأصبح مطرانا ثم لقي حتفه شهيدا . ولا يقطع بصحة هذه القصة تماما . وكان الربان هرمزد على المذهب الكلدانى النسطورى ، وهو مذهب البلاد التقليدى منذ التاريخ القديم . وكتب سيرته راهب يدعى (شمعون) وأحد تلامذة (يوصاداق) أحد معاصرى الربان هرمزد . ونظم (سرجيوس) أحد رهبان الطائفة فى القرن العاشر سيرة حياة الربان هرمزد شعرا ، وعلى غرار نظم الموشحات . وكل بيتين ينتهيان بقافية ، وهما يبدآن وينتهيان بحرف واحد . ونشر (سر اى . واليس بدج Sir Wallis Budge) السيرتين . والمخطوطان محفوظان فى دير السيدة[١٧] .

وتفيد المدونات ان (الربان هرمزد) ولد فى (شيراز) خلال النصف الثانى من القرن السادس ، وانه انحدر من اسرة موسرة عرفت بالسماحة والاحسان العظيمين . ودرس الرجل علوم زمانه في بلدته . وعندما بلغ العشرين من عمره ترك بيت أبيه قاصدا زيارة الاماكن المقدسة . وفى الموصل التقى بـ ٣ من رهبان (دير برعيتا) فأشاروا عليه بأن ينتظم فى سلك رهبان ديرهم . وخيل الى الربان هرمزد ان هذه دعوة من الله له واتخذ سبيله الى الدير توا . واختبره فيه الديرانى (الربان سبر يشوع) أبان تمرسه في الرهبنة ثم أعطاه مسح الراهب وكان عدد حبساء[١٨] دير برعيتا فى ذلك الوقت ٢٦٤ . وسرعان ما اشتهر اسم الربان هرمزد من بين هؤلاء جميعا بالتقوى والمواهب

---

(١٧) راجع : Journal Asiatique 1906 (3) pp. 63-64 (المؤلفة)

الروحية • ويذكر كتّاب سيرته كثيرا مما ينسب اليه من خوارق ، ومنها طرد العفاريت وابراء المرضى وما الى ذلك • وما زالت الخوارق المنسوبة اليه دائرة على لسان البسطاء حتى يومنا هذا • ومكث فى دير برعيتا لـ ٣٩ سنة ثم صمم على أن يصبح ناسكا منقطعا للعبادة • وعملا بنصيحة مطران قردى (سلفانوس) أخذ الربان هرمزد بالصوم والصلاة وقمع الشهوات والتهجد ، وعلى غرار ما يلتزم به نسّاك التأريخ الكبار • وذاع صيته ، وتضاعف عدد خوارقه • وبعد ان عاش حياة عزلة دامت ٧ سنوات خيل اليه ان الله تعالى يأمره بالذهاب الى (دير الرأس) قرب قرية (تنى) فى منطقة العمادية • ورافقه فى سفره هذا ٦ من الصحاب ، وعاش الجميع عيشة شظف ودين • ولم يمكث فى الدير هذا الا قليلا ، ومنه رحل الى (بيت عذرا) ومعه صحبه • و(بيت عذرا)[١٩] اليوم من مواطن (اليزيدية) ، وفيه تجمعت طائفة من النساك المنعزلين • ومن كهف يقوم على مجرى ماء منحدر من الجبل ، وعلى سفح تل ، اتخذ له سكنا • وأخذ الناس يقصدونه من أقاصى الارض للتبرك به ، وللاستفادة من لمسته التى قيل انها تشفى الداء العَيَاء • وممن قصده أمير مسلم موصلى طلب اليه أن يسعى الى ابراء ابنه ، فصدع بالامر • وقيل انه أحيا الابن هذا بعد موته • وبذلك نال (هرمزد) حظوة كبرى لدى الامير فمنحه حق تشييد (دير) بين هاتيك التلال • واختار لذلك شقا صخريا وعرا يحمل اسمه وشيد عليه الدير • وأسهم الامير المسلم فى نفقات البناء اظهارا لشكره وامتنانه •

وعانى (الربان هرمزد) كثيرا من حسد رفاقه المسيحيين • ويذكر بعض مؤرخى سيرته انهم عمدوا فى احدى المرات الى اغتياله لكنه استطاع أن

---

(١٨) فى الاصل Anchorites ومفردها الحبيس وهو الراهب المحبوس فى سبيل الله ، أى الذى يقيم فى محبسه أى صومعته لا يبارحها ، ودأبه فيها الصلاة وعبادة الله . (المترجم)

(١٩) تعرف اليوم باسم « باعذرا » . (المترجم)

يكسب مودتهم بالاعمال الصالحة فى خاتمة المطاف . وعاش الربان فى ديره بأمن وسلام ولم يهض جناحاه حتى آخر عمره . وتهافت عليه الرهبان ، وجمع من المتلمذين مائة ، وعاش معهم ، وهو المعلم ملء اهابه ، يعظهم ويدرسهم حتى وافته المنية وقد نيّف على الثمانين من العمر .

وعاشت الطائفة بعد موت رئيسها فى بحبوحة من العيش لسنوات طوال وأصبح مقرها موئلا للعلم والروحانيات . وكتب عنها (يوحنا برخلدون) فى القرن العاشر يقول : لقد كان فى الدير ٣٠٠ من رفاقه . وحج الديراني يوحنا سولاقا الى رومة فى القرن الـ ١٦ وقدم فيها فروض الولاء والطاعة للبابا يوليوس الثالث وتسلم « الرسامة » منه ، فأغضب ذلك أبناء طائفته المستقلين ، فكمنوا له فى طريق عودته واغتالوه فى دياربكر . وعانى الدير من صروف الدهر كثيرا ، ولا سيما فى عهدى (تيمورلنك) والاسرة التركمانية . وما ان وصلت زحوف المغول الى (الموصل) الا واحتلت الاديرة جميعا ونهبتها ونكّلت برهبانها . وسرعان ماأخذ الرهبان يرجعون اليها ، على الرغم من كل اضطهاد وتقتيل . وفى عهد (نادر شاه) فرق سكان الاديرة وخربها . وهجم نادر شاه على الموصل مرتين (فى سنة ١٧٣٢ وفى سنة ١٧٤٣) ثم وصل جزيرة ابن عمر وذبح فى خلال ذلك خلقا كثيرا من المسيحيين وسبى نساءهم وأطفالهم ودمر مدنهم وقراهم . وهكذا تحققت النبوءة الواردة فى السفر المسيحي « لقد أصبحت آشور خرابا يبابا ، تعشعش فيها البوم » ورمى نادر شاه الاديرة بالنار ، وأعمل السيف فى رقاب رهبانها وحمل معه كل ما كانوا يملكون . وبقيت أخربة الدير مهجورة لسنوات عدة ، وأعيد بناؤه سنة ١٨٠٨ ، ويعود الفضل في ذلك الى تاجر كاثوليكى من الطائفة الكلدانية فى ماردين . لقد أعاد هذا فتح الدير وأصبح قديسه ومعه ٥٠ راهبا . لكن النوائب والاضطهادات لم تفارق هؤلاء أبدا ..

وفرغنا من تناول الغداء ومضينا لنشاهد التلال الصخرية.. والوصول

اليها جد يسير ، وما بنى من الدير فعلا قليل جدا ، ذلك ان الجانب الاكبر
منه منحوت فى صخر ، ولا معدى من أن يأخذ المرء حذره دوما ، فعليه
أن ينحنى ان أراد الدخول ومشاهدة الغرف المنقورة والمعدة للنوم . انها
على غرار غرف (السيكل) التى يتخذها الفلاحون الصقليون حتى يومنا هذا
سكنا . والدكات التى كانت توضع عليها جثث الموتى فيما مضى تستعمل اليوم
أسرة للنوم . هل اتخذ (الربان هرمزد) وتلامذته مقبرة فارسية لهم ؟ وهل
تمتم الناسك الصالح بالمعني المتضمن فى مثل هذا ، وهو مضطجع يا ترى ؟.
« علمنى الحيـاة ... فلن أخاف القبر الا قليـلا . ان خوفى مبعثه
الفراش . » وتتصل كل غرفة صخرية بالغرفة التى تجاورها . ومن الغرف
ما هو على سعة كبيرة . وأرانى الديرانى المطعم القديم ، وهو أشبه ما يكون
بكهف ... وقد غار اليوم فى الارض . وكان يسـع ١٥٠ راهبا لتناول
الطعام . وانحنينا ، ونحن ندخل غرفة صخرية ، كانت خزانة كتب فيما مضى ،
ولم يبق فيها اليوم الا القليل من الكتب . أما نفائسها فما زالت فى مكتبة
القوش . وصف الرحالة ريج Rich خزانة الكتب هذه اذ قال :
(... فقدت بعض المخطوطات الكلدانية والسريانية من هذه المكتبة ،
وهى تكشف عن حقيقة هذا المكان العجيب ، ما فى ذلك شك . لقد كان فى
الدير حوالى الـ ٥٠٠ مجلد من المخطوطات الاسطرنجيلية[٢٠] القديمة .
والمخطوطات هذه كانت مكتوبة على رق وقد مزقت اربا اربا ، وتقاذفتها
الرياح فأصبحت هباء منثورا . وعرضت عليَّ بعض الاوراق المبعثرة فوجدتها
من أنفس الآثار القديمة ، ما فى ذلك شك .)

واستطالت الظلال فأسرعنا فى الطواف بالكنيسة قبل أن يخيم عليها

---

(٢٠) الاسطرنجيلية Estrangelo هى الصورة الاولية القديمة للابجدية الارامية ، ومنها تفرعت الكتابة الكلدانية والسريانية على نحو ما نراهما مستعملتين اليوم . (المترجم)

الظلام • وأمام الكنيسة أحجار رملية[21] تتراءى حمراء والشمس تلقى أشعتها عليها • وللكنيسة برج مزدوج ، وواضح ان أحدهما أقدم من الآخر • وأحدث البرجين مبني بالحجارة السمراء وقد قطعت أجزاء كبيرة ملس ناعمة • وهناك قرابة الـ ٣٠ ممرا رصفت بالحجارة ، وعرض كل ممر ١٥ انجا • انها تتراءى وكأنها من طراز ابتكره معمار نورمندى • وعلى كل حجارة صور محفورة غريبة ، فهنا صورة بطتين ، وهناك صورة حية ، وهناك صليب مالطى ، وتضاف الى ذلك كله طائفة من الكتابات والزخرف التقليدى • وهناك قبو تحت صخور خشنة ، وجوانبه الاربعة قائمة على قطع كبيرة من حجارة الآساس • ومدخل القبو باب منقور ومصبوغ ، وهو خرب الآن • ويفضى باب آخر الى الكنيسة ، أو بالاحرى الى الكنيسة الاولى السفلى ، فالمكان لا يعدو أن يكون مجموعة من الكنائس الصغيرة ولا يقتصر على بناء واحد • ومساحة الكنيسة الصغيرة هذه ١٨ قدما فى ٥٤ وهى على غاية من البساطة • وفوق المحراب قبة ينفذ النور اليها من خلال كوة • وللمحراب باب حجرى ، وهو فى الوقت نفسه شبكته الصلدة ، انها منقورة وطرازها جميل وألوانها زاهية • وفى أعلى درجتى القدس (المحراب) صورة حية[22] غريبة الشكل ، ورأس تمساح وكلها ملوّنة باللون الاخضر • وللحية لسان وعينان وكلها قرمزية اللون ، وتقابلها صورة نمر ملون بالاحمر والاخضر – وتحت الصور هذه نقوش ملونة بالاصفر والاسود ، ومنحوتات أخرى ملونة بنفس الالوان • وتحت القدس Sanctuary (المحراب) كوى ليس فيها صور أو آثار •

---

(٢١) ان الحجر الرملى الاحمر Red Sandstone هو صخر مكون من حبيبات من الكوارتز • مسك بعضها بعضا • وتتميز الاحجار الرملية بعضها عن بعض باختلاف المادة التى تحدث التماسك •

(راجع كتاب الجيولوجيا) للدكتور حسن صادق ص ٦٨–٩٩ •

(٢٢) الحية = رمز الحكمة والعقل عندهم •

ويستخدم اخوان الدير الاسرجة المنيرة • ولقد مررنا واياهم بسلسلة من الغرف الصخرية التي تفضى الى خارج الكنيســـة • انها تبـــدأ بغرفة المقدسات Sacristy فى الكنيسة ، وفيها صندوق خشبى ملىء بالعظـــام • وعرضوا علينا صورا حديثة للعذراء ووليدها واستطردوا قائلين : انالدم سال من الصورة عندما أغمد (اسماعيل باشا) خنجره فيهـــا • ودنا البعض من الصورة عساه يجد آثار الدم ، ولكن هيهات !• وهناك كنيسة أخرى تفضى الى الخارج ، وفى الجانب الشمالى منها دهليز كانفيما مضى يضم قبورا(٢٣) • وانتهينا الى محل يحتمل أن يكون أقدم جزء من الكنيسة ، اذ يرجع تأريخه الى أيام الربان هرمزد نفسه • ولعل هذه الغرفة الصغيرة التى وصلناها هى الكنيسة الاصلية فى الدير • انها على غاية من البساطة وليس فيها شىء من الزخرف ، وهي مظلمة • وعلى درجات (المحراب) سلسلة من حـــديد ، والظاهر أنهـــا كانت تحتوى على أطواق كبـــيرة ••• وقال اخوان الدير ان الربان هرمزد كان يستعملها فى صلاته ، وطريقتـــه فى ذلك أن يربط نفسه بالسلسلة ، وهى معلقة بصنارة فى سقف الغرفة ، فلا سبيـــل له لان يضطجع أو يرتاح ، ان حمله الاعياء على ذلك • ولهذه السلاسل وأطواقها اليوم منافع عجيبة أخرى ، فاليها يسعى ذوو الجنة من الناس ، فتوضـــع أعناقهم فى الاطواق ويتركوا فى الكنيسة المظلمة لمدة ٢٤ ســـاعة أو لمدة أقصاها ٣ أيام ، وما ان تنقضى الا ويهتف البشير ان الروح الشريرة قـــد فارقت أجسادهم •

وينفذ الى صومعة الربان هرمزد بوســـاطة دهليز يقوم فوق سراديب

---

(٢٣) أمثال هذه القبور تسمى بالانـــكليزية Catacombs والسبب فى استعمالها هو الخوف الذى كان سائدا وقتئذ من أعداء المسيحية • وقـــد شاعت فى رومة أيام اضطهادها •

راجع :

J. S. Northcote: Epitaphs of the Catacombs, London 1878

(المترجم)

تضم قبورا • وفى الصومعة اطلعنا الرهبان على الحلقـــة التى كانت سلسلة القديس معلقة فيها • والظاهر انها أحيطت بعناية تامة لما لهـــا من قدسية وحرمة •

وبمقدورك أن تمضى من الكنيسة القديمة الى كنيســة صغيرة أخرى (كنيسة مر انطونيوس) وفى الممر الذى يصلهما قبر منحوت وعليه نقوش بديعة • والمكان بما فيه من مخابىء سرية مخروطية الشــكل منقورة فى الصخر الصلد يبعث الدهش والحيرة • لقد أهمل تاريخ هذه المخابىء ونسى الناس أصلها بتقادم الزمن • وعفى النسيان على مظاهر التقشف والرياضة الروحية أيضا • وقيل ان النظام الذى ساد المكان كله كان صـــارما ، وان النسَّاك الذين وفدوا على الربان هرمزد كانوا فى نضارة العمر الا قليلهم ، وانهم كانوا يموتون أسى أو من السقم وقبل أن تعلو بهم السن • ولكن ذلك الزمن مضى وانقضى • أما اليوم فلقد أقبلت الدنيا على اخوان الدير فهـــم مرحون ينعمون بجمال المكان ويتيهون فخرا بتاريخهم العريق • ولم ننبـذ فكرة زيارة الكنيسة العليـا الا كارهين • ورجوت الديراني أن لا ينســى الصومعة التى اخترتها سكنا لى، عسى أن آوى اليها فى خريف عمرى • ووعدنى أحد اخوان الدير بذلك وهو يتبسم من قولى ضاحكا ، وقال : (أجل، لك أن تشدى الرحال الينا ان شئت ، لكن عدد النساء فى هذا المكان جد قليل !) • وامتطينا البغال وتركناها تسير على رسلها فانحدرت بنا صوب (القوش) • وكنا نسمع كلمات الوداع يرسلها مضيفونا من عل • وكان القمر الشاحب يرسل ضوءه اللاحب ويتكبد السماء •

* * *

وبعد أيام قلائل كتب لي أن أزور ديرا قديما وشهيرا آخر • انه فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة الموصـل ، ولا يبعـــد عن (تل نمرود) الا قليلا • وهو ، فى الوقت نفسه ، على مبعدة ٤٢ ميلا جنوبى (دير الربان

هرمزد) مباشرة • والدير هذا مربع الشكل ، وليس فيه من جمال الدير الاول شيء • وهو يقع على السهل المنحدر ، وعلى مقربة منه بيوت القرية المسيحية البسيطة • وهو كأغلب الديارات محصن بسور عال • وله كنيسة من أجمل كنائس القطر منظرا •••

ووراءها - وعلى غرار كنيسة الربان هرمزد - قديس كلداني هو (المر بهنام) • والشائع المتواتر ارجاع نسب القديسين الى منبت أصيل • وعلى ذلك فالمعتقد ان المر بهنام هو ابن عم أحد الملوك ، أو من سلالة سنحاريب • وحول (استشهاده) تدور روايات عدة ، والظاهر ان ليس هناك أى شيء مقطوع بصدد (المر بهنام) هذا ، وكل ما هنالك مجموعة من الاقاصيص تدور على ألسنة الناس • وقد يكون والده سريا من سراة بلده ، ولعله عاش فى القرن الرابع للميلاد • وقصته رواها لي أحد القسان : ان هذا الشاب الطيب الارومة كان يصطاد فى أحد الايام فرأى اسْتَجَا كبيرا(٢٤) فطارده حتى بلغ جبل مقلوب • وخيَّم عليه الظلام قبل أن يلحق الشباب بطريدته ، فاضطر الى أن يلجأ الى كهف فى سفح تل • ولم يكن ليدرى انه قريب من دير مار متى • وطغت على أحلامه تلك الليلة القوى الروحية • وفي فجر اليوم التالى قطع الامير بهنام صلاة الناسك القديس متى قائلا : (لقد أتيتك استجابة لرؤيا أمرت فيها أن أبحث عنك ولاستمع الى طرف من عقيدتك) •

وبدأ القديس يشرح عقيدته ، واستمع الشاب الى شرحه ، وسرعان ما دخل الايمان الى قلبه • وما ان وثق القديس من صدق ايمانه الا واقترح عليه أن يعمد • فسرَّ الشاب من ذلك ورحب به ، ولكنه رجا القديس أن يصحبه لكى يعظ أمه واختيه ويشرح لهن مبادىء المسيحية • ولم تكن النسوة وحاشيتهن ببعيدات عن المكان • واستجاب متى لدعوة الشاب ومضى الاثنان

---

(٢٤) فى الاصل Stag واسمه العلمى Cervas Elaphus وهو ذكر الغزال الاحمر • (المترجم)

لذلك • وقال بهنام لصاحبه فى الطريق ان أخته (سارة) مصابة بالجرب • وما أن وصل الرجلان مخيَّم النسوة الا واستطاع القديس الناسك أن يحملهن على الايمان بالمسيحية ، ولما لم يكن الماء اللازم للتعميد قريبا ضرب الارض بعصاه فتفجرت عن عين تجرى بماء كبريتى فيه منافع علاجية • وشفيت الاميرة من مرضها ساعة التعميد • و « هكذا رجع الامير وهو مسيحى الى نينوى » على ما استطرد مخبرى قائلا ـ هذا مع العلم ان نينوى كانت قد توارت منذ زمن طويل تحت اعفار الدهر ولم تخلف غير أطلال دوارس وبقايا مشعثة ـ « ودخل بيت أبيه يعلمه عما جرى وعن حواره » وما ان رأى كهان الآلهة القديمة ان الناس تدخل أفواجا فى الدين الجديد الا وتملكهم الرعب وأخذ منهم الغضب كل مأخذ •

وهكذا أصبح كل منهم اثيرا عند الملك مسموع الكلمة • ولم يأل الملك جهدا لحمل ابنه وزوجه وأخته على انكار العقيدة الجديدة ونبذها ، لكن سعيه ذهب أدراج الرياح وتمسك أهله الاقربون بها بقوة • ورجاه كل من (بهنام) و (سارة) أن يسمح بمثول الناسك القديس بين يديه ليذبَّ عن المسيحية ، فاستجاب لهما • وسار (بهنام) يصحبه ٤٠ فارسا للاتيان بـ (متى) من مخبأه فى (جبل مقلوب) • وهنا غلب على كهان آشور الاسى، وقرروا اتخاذ اجراء صارم بازاء ذلك• وأعدوا جماعة من المتعصبين، ونصبوا كمينا ، وما أن مر بقربه الامير ورفاقه ، وهم فى طريقهم صوب الجبل ، الا وانقضوا عليهم وقتلوا الامير نفسه، فكان « شهيد آشور الاول »• وفى رواية أخرى أن الملك نفسه قتل الاطفال ففرَّت أمهم • ثم تمضى الرواية هذه فتقرر انالام شيدت ضريحا بأخرة ••• تخليدا لذكرى أولئك الاطفال الشهداء • وللاسطورة هذه روايات عديدة أخرى •• انها تنسب الاعاجيب والخوارق التى عرف بها القديسون الآخرون الى (بهنام) • وهكذا ستبقي حقيقة الرجل مظللة بظلال من الافتراض والحدس والتخمين،

هذا وان الكلدانيين جد شغوفين باسباغ[٢٥] الوصف الخيالى الساحر على قديسيهم ولا يهمهم فى سبيل ذلك أن يخطأوا حتى فى تاريخ الحوادث •

وانك لتشاهد فى داخل كنيسة الدير تمثالا ظَهـاريا Stucco effigy لـ (بهنام) على صهوة جواده ـ (وذلك بحسب ما يقوله رهبان الدير ، ولكن التمثال يشبه القديس جرجس) ـ انه يطعن الشيطان برمحه طعنة نجلاء ، والشيطان يتمرغ تحت سنابك الجواد • ولأخت بهنام تمثال ظهـارى آخر فى الجهة المقابلة • وليست نقوش الظهارة الناتئة فى الكنيسة بذات شأن ، وهى ترجع فى تأريخها الى القرنين السادس والسابع للميلاد • ويزعـم الرهبان أيضا أن تاريخ الكنيسة يرجع الى القرن الرابع للميلاد ، لكن ما بقى من تلك الكنيسة جد قليل • وزارها مرة مستر ولسن مدير الاشغال العامة فى العراق فأعلمه المنسنيور قليان الديرانى آنئذ أن أقدم أقسـام البناء هو الصرح المتهدم ، ولعله القبر الاصلى الكائن على مقربة من الكنيسة الحالية •

وتعلو البناء قبة • وعلى المشكاة[٢٦] القائمة فوق المحراب تاريخ يدل على ان البناء يرجع ، على كل حال ، الى مفترق القرن الـ ١٤ والظاهر انه جزء من بناء واسع ، ما فى ذلك شك • واذا ما سلكت ممرا أرضيا قصـيرا وصلت الى غرفة متينة البناء مثمنة الزوايا والاضلاع ، تنور من فتحة في قمة تعلوها • وفي هذه الغرفة لوحات ممتعة ، وعليها كتابة ، ان احدى اللوحتين مرمرية أو البسطرية Albaster ذات لون فاتح ، يميل اليوم الى الاصفرار بسبب تقادم العهد عليه ، على ما يعتقد مستر ولسن • ولعلهم استوردوا هـذا المرمر من القسطنطنية أو من بلد غربى آخر • وتكثر فى هذه المنطقـة الدهاليز السرية التقليدية • والرهبان يرشدون الزائرين اليها ويزعمون انها كانت تؤدى ، فى الاصل ، الى (نمرود) •

---

(٢٥) اسبغ = اتسع وطال • (المترجم)

(٢٦) المشكاة كوة غير نافذة • (المترجم)

والشائع أن تاريخ القسم الاعظم من الكنيسة المحلية يرجع الى القرن الثانى عشر • لقد أجريت على البناء الاصلى ترميمات كثيرة وأعيد بناء قسم منه كليا ـ واستخدم فى ذلك الآجر القديم والاحجار وعلى غرار ما يجرى فى سائر الابنية الكلدانية •

رسم لي مستر ولسن مخطط الكنيسة وهو يعتقد ان ما رسمه يمثل شكل الكنيسة الاولى التى كانت قائمة فى هذه البقعة بالذات • ولم يُعْنَ اخوان الدير البسطاء باعادة البناء ، وقال لي أحدهم : « لقد كان مبنى الكنيسة فى هذا المحل عندما زحف الامبراطور يوليان بجيشه على طيسفون » • وللدير جناحان ، وتحتل الكنيسة أحدهما ، وفى الآخر صوامع الرهبان والمطاعم ، ودوائزهم وشاهدت امرأة كلدانية تسوق الابقار ، وهى خارجة من الباحة الكبرى ••• ساعة دخولنا الدير • ورأيت نسوة أخريات جالسات ويغزلن أمام البوابة الكبرى • ومثل هذا المنظر يكلف به أى مصور فرنسى من مصورى الطبيعة في القرن الثامن عشر • وألقت الشمس الغاربة ورس أشعتها على مبنى الكنيسة القديمة ، واصطبغت باللون الاصفر شرفتها ومنقوراتها الرمزية الغريبة من أساود[٢٧] ووحوش •• •وقديسين • انه مبنى منخفض ، ودون صعيد الارض بقليل، وهو كهيئة حرف (T) • وفى داخله نيف nave مزدوج مقسم بأروقة تستند الى أعمدة ضخام • وليس فيه محراب عال • وفى النهاية الشرقية كنيستان صغيرتان وسكرستية Sacristy ، ودهليز من دهاليز القبور • وينتهى الجداران ، الشمالى والجنوبى ، بكنيستين تعلو كل منهما قبة ينفذ منها النور • وعلى الجدار الحجرى الذى يفصل بين الكنائس الصغرى ، الكائنة فى شرق المبنى ، وبين الكنيسة الكبرى كتابات بالاسطرنجيلية ، والعربية والكلدانية ، وهو كثير

---

(٢٧) الاساود جمع أسود وهو الثعبان • (المترجم)

الزخرف والتماثيل • وأبواب الكنائس الصغرى ذات أروقة منحوتة نحتا دقيقا • وباب الكنيسة الصغيرة الكائنة على مقربة من السكرستية وفى الزاوية الشمالية الشرقية ، رائع الصنعة على وجه أخص • انها مزينة بصور الملائكة والمطارنة • وحجارة الاروقة منشورية الشكل ، وطرازها متسق • انهـا على غرار أروقة بعض مساجد الموصل التى يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر • وهناك لوحة موضوعة فى الجهـة الشرقيـة تخلد ذكرى زيارة (هولاكو) التترى الذى زار الكنيسة فاستقبله فيها الديرانى واخوان الدير بالمراسيم اللائقة • وصور الظهارة التى ألمعت اليها قبلا كائنة فوق الاعمدة الوسطى وهى ذات ألوان باهتة • انها تمثل الملائكة وهى تحمـل (تاج الشهادة) فوق رأس (الامير) • وثمة صورة بشعة جدا تمثل (سـارة) الاخت الجرباء !

والكنيسة هذه ـ بعد ذلك كله ـ من أروع آثار القرون الوسطى فى العراق ، ما فى ذلك شك • وتشير سجلاتها الى أنها بقيت متعبدا مسـيحيا

---

(٢٨) كتب مستر ولسن اليّ يقول :

(من الصعوبة بمكان أن نقرر على وجه الدقة طراز الـكنيسة بدون دراسة مستأنية • اننى أعتقد ان الابواب الرخامية ترجع على وجـه التقريب الى زمن واحد • وقد تكون الغرف المجاورة قد بنيت أولا أو بأخرة. ولقد قام أهل الصنعة الموهوبون الماهرون بتصميم الابواب وبنائها • وهناك دليل على وجود فترة انهيار ، ويؤيده ما أجرى عليها من مبالغة فى التزويق. وفى قرية قرهقوش ، وعلى بعد أميال قليلة من (بهنـام) ٣ كنائس قديمة ممتعة ، وانها أقدم ، من حيث الطراز والبناء ، من كنيسة مر بهنام . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن قد أعيد بناؤها من بقايا أبنيـة قديمـة أخرى •) •

وهناك أسطورة ممتعة تتصل باحدى هاتين الكنيستين • فهم يزعمون أن الشمس تلقى مرة واحدة بالسنة ظلال الذين سيموتون خـلال الـ ١٢ شهرا القادمة على الجدران • وأخبرنى أحد الانكليز انه رأى فعـلا موكب الظلال هذه • ويعتقد ان سبب ذلك يرجع اما الى سقوط أشعة الشمس على شبح متحرك فى الخارج ، أو انه من أفاعيل الكهان أنفسهم» •

(المؤلفة)

طوال أيام الصراع الديني والاضطهاد ، أى منذ نشوء المسيحية حتى القرن الثاني عشر ، والذى حفل بالاضطرابات والقلاقل أيضا • ان ذلك كله يجعلها أثيرة عند المسيحيين العراقيين حبيبة الى قلوبهم • ومن المؤسف أن تكون غالبية اخوان الدير فى عداد الاميين ، ولا حظّ لهم من العلم • وعندما زرت ديرهم هذا لم أجد فيه من يقرأ الكتابة الاسطرنجيلية أو يخبرنى عن محتوى كتاباته وفحواها • وآراؤهم عن تاريخ الدير وعمره مبهمة شحيحة• ولعل هذا هو الذى يبعث القلق فى الغريب الزائر عند اتصاله برهبان الدين المسيحى فى بلاد الرافدين[٢٨] •

الفصل الخامس

البصرة : مدينة السندباد[١]

عسير عليَّ أن أدوِّن حقائق قاطعة عن البصرة ، اذ ما زالت انطباعاتي الاولى عنها ذات أثر عميق في نفسي ... وسأبقى أسيرة سحر المدينة . لقد شهدت باسقات النخل[٢] في الليل البهيم وهي تتسامق فتعكس ظلالها

---

(١) جاء في تاج العروس :مادة « ب ص ر » (٣ : ٤٨) : « البصرة بلد معروف وكانت تسمى في القديم : تدمر ، والمؤتفكة لانها ائتفكت بأهلها أي انقلبت في أول الدهر . وأصل لفظ « البصرة » مختلف فيه ، وفي المعاجم العربية وكتب البلدان ما يفسره بكونه عربيا . (المترجم)

(٢) هناك حكاية تعود روايتها الى ما قبل ميلاد المسيح ، فلقد سئل أحد العراقيين القدامى :ـ ما هي أثمار بلادكم ، فأجاب : التمر ثم ـ ماذا ؟ ـ فأجاب : التمر أيضا ، ولما استغرب السائل من هذا الجواب ، قال العراقي : اننا نستفيد من النخل فوائد عديدة ، فاننا نستظل به من وهج الشمس ، ونأكل ثمرته ، وتعلف ماشيتنا بنواته ، ونعلن عن أفراحنا بسعفه ، ونتخذ من عصارته عسلا ، وخمرا ، ونصنع من جريده وخوصه الاواني والحصران وغيرها من الاثاث ، ونصنع من جذعه خشبا لسقوفنا وأعمدة لبيوتنا ووقودا لطبخنا . ومما يدل على أهمية النخل في العراق منذ القديم أيضا أن شريعة حمورابي قد خصصت جملة مواد من أحكامها لزراعة النخل والمعاملات الخاصة به . وتقدر الكمية التي ينتجها العراق منه بحوالي (٣٥٠ ألف طن سنويا) وما تنتجه البصرة وحدها من هذه الكمية حوالي الـ ١٨٠ ألف طن أي أكثر من نصف منتوج العراق . ومعدل السعرة الحرارية التي يبعثها الباون منه ١٢٧٥ سعرة وهي أعلى نسبة لاية مادة غذائية ، ويحتوي التمر على جميع العناصر التي يتألف منها الطعام المغذي من زلال وشحم وأملاح وهايدرات الكاربون والسكر في مركب سهل الهضم والتمثيل ، ومادته السكرية قابلة للتبلور ليصنع السكر منها ، كما توصلت الابحاث الى امكانية استخراج مسحوق (الداتامين)، الذي يشبه مسحوق الكاكاو، منه . كما ان بعض الادوية التي تصلح لمعالجة الروماتزم وأمراض العيون قد اكتشفت في التمرة . وفيها نسبة مهمة من الزيت تجعلها صالحة لصناعة الصابون ، كما تصلح لتحضير زيت الطعام ، وتبين ان بالامكان استعمال النوى مادة أولية للحرير الصناعي . (المترجم)

على صفحات الماء البلورية ••• وانها ليالى الشرق الساخرة• ان البدر ليرسل أشعته من كبد السماء فتتلألأ بها القنوات المائية • ولبيوت البصرة شبابيك مُطِلَّة ، وان قلبى ليهفو لقواربها ، التى يشبه الواحد منها (الجندول) ، ويشوقني منظر « مهيلاتها » الراسية على ضفاف النهر المظلمة • وقد توقد نار هنا أو هناك على سيف النهر ، أو على ظهر احدى السفن ، فتتطاير منها شواظ عبر النهر • أو قد يسرج مصباح هنا ، أو هناك ، فينير أحد البيوت أو مقهى من المقاهى• وتدأب الضفادع على النقنقة، وهى على حافة الغدير، أو فى الجدول الخفى ••• فتعكر بموسيقاها النشاز الهدوء والسحر •••

والبصرة ، كالبندقية ، ترتبط بالبحر ••• وفي مقدور المرء أن ينتقل فيها من بيته الى احدى القوارب مباشرة ، ثم يطلب الى القاربى أن يوصله الى دكاكين العشار مارا من تحت الجسور أو سائرا فى محاذاة الشارع • وقد يمضى المرء صعدا فى النهر لينفذ منه الى جدول خفى ومنه الى اليابسة فيمضى نزهته الخلوية • وسفرات النزهة النهرية من وسائل التسلية التى تشيع فى البصرة • وفى بواكير الربيع يتعالى العشب الغض الطرى وتزدهر الاشجار فما عليك الا أن تنساب بقاربك في احدى الجداول ، وعلى حفافيه باسقات النخيل متعالية ••• وبذلك تستمتع كثيرا وكثيرا بالطبيعة وزخرفها[٣] • والنخل موجود فى كل مكان فى البصرة ••• ذلك ان قنوات الماء كثيرة ، وهى التى تهىء ما يلائم زرعه وايناعه • ويقول المثل العربى : « ان اقدام النخلة يجب أن تكون فى الماء ورأسها فى النار • » والبصرة معروفة بشدة حرارة الشمس وحتى فى الشتاء • لذا ينمو فيها النخل وتجود بمادة التصدير الاولى : التمور • ان النخل يجود بكثير من لوازم الحياة ، فهو غذاء بالدرجة الاولى ، يؤكل ناضجا وغير ناضج ، ومجففا ، أو مسحوقا ، أو أخضر • والدبس شراب لذيذ، ويمكن أن تستقطر

---

(٣) زخرفها = كمال حسنها وألوان نباتها (المترجم)

منه أنواع المشروبات الكحولية ، وللحكومة(*) معمل تقطير تجريبي في البصرة ينتج أنواع المشروبات التركيبية الرخيصة ، كالويسكى ، والجن ، والروم ، والعرق و(كريم ده من) و(كوميل) وما الى ذلك ، وكلها من التمر بعد تكييفه . كما تصنع الحبال من ألياف النخل وتنسج ، ومن خوصه تصنع المكانس والسلال والحصران . ويستعمل خشبه فى صنع كثير من الاشياء وللتسقيف ، ولعمل الاسرة والمقاعد والاقفاص ، ويستفاد منه فى الجسور ، وهو مادة للوقود أيضا . وعلى الرغم من هذا كله هناك من يقول انه طعام سرعان ما يملّه الانسان ، لذا فان الاسرى فى البصرة تهفو قلوبهم الى منظر شجرة باسقة من أشجار الخوخ أو البلوط أو البق (elm - tree) .

شكا أحد المصابين بالحمى فى البصرة من أن رؤية (الكَرَب) المهتز على الطوف يجعله مخبولا ! وعندما يحل القيظ ، وتهفو النفوس الى الخضرة .. فالنخل مغبر ، كسائر الاشياء الاخرى !

وعندما وصلت البصرة سنة ١٩١٩ لم تكن المدينة غير مخيم قاعدى كبير . لقد خططوا القاعدة الكبيرة هذه أحسن تخطيط ، وكانت كلفة ذلك كبيرة جدا . وهكذا قامت فى الصحراء مدينة تأتلف من أكواخ تمتد لمسافة أميال عدة ، وبيوت للضباط ، ومخازن وسيعة ، ومقرات لجمعية الشبان المسيحيين ، ودور السينما وناد للضباط ... ومخزن للميرة ، وبمقدورك أن تبتاع فيه ما تشاء من فرش الاسنان ... الى المناضد السفرية .

أما الارصفة فأمرها عجيب : انها فى شغل شاغل لا ينقطع ، وهى مزودة بالروافع الكهربائية ، وفيها سكك حديد ، ومخازن حسنة . والمستشفيات كثيرة ، ومنها مستشفى للعزل وهو قريب ، واقع فى الجهة الجنوبية ، ومستشفى كبير يحل في (بيت النعمة) ، على مبعدة أميال قلائل صوب الجنوب . وهناك ٣ مستشفيات عسكرية تقع فى (المكينة)

(*) ظاهر أن (المؤلفة) تشير الى معمل كان موجودا ابان عهد الاحتلال (المترجم)

و (ماركيل)[٤] ومستشفى مدنى ، ودار حضانة مدنيـــة أيضا • وازدحمت هذه « المدينة الحربية » بالسكان وبضمنهم آحاد القوات البريطانية والهندية المحاربة ، والعمال الايرانيون ، لابسو اللباد وذوو الشعور المهتزة • وانك لترى سيارات النقل العسكرية فى جيئة وذهوب ، وسيارات حكوميـة من طراز (فورد) وسيارات الاسعاف ، وسيارات كبيرة أخرى يزهو بالجلوس فيها القادة وضباط الركن ••• كل هذه صيـَّرت الشوارع فى شغل شاغل وأخص بالذكر منها الشارع الممتاز الذى كلفنا مبالغ جسيمة فأثير موضوعه فى البرلمان • ان بغداد تحسد البصرة على مثل هذا الشارع •

وفى هاتيك الايام الخوالى خصصوا لجل الدوائر المدنيـــة سيارات ، ولكل سيارة سائقا • ولو دفعوا مبلغا شهريا زهيدا لامكن الاستفادة منـــه للمقاصد الشخصية أيضا • اما منتسبو الجيش فلن تتعذر عليهم وسائل النقل، برية أو مائية ، انها أيام اليسر ، والنعيم المقيم ، بالنسبة للمرأة الانكليزية ، والمنافع فيها جد موفورة • والحكومة تدفع عن ذلك كله لذا أصبح اســم (ما بين النهرين) اسما مباركا لدى الجميع ، فيما خلا دافع الضـريبة فى انكلترا ، بطبيعة الحال • وحدث تغيير كبير قبـــل ثورة ١٩٢٠ ، وأجرى خفض فى كل باب من أبواب الصرف ، وشاعت كلمة (الاقتصاد) على لسان كل مسؤول ، وأغلقت كثير من المستشفيات ، وبوشر بسحب الجنـــد من القاعدة تدريجيا لارسالهم الى الهند وبريطانيا • وعندما عدت فى خريف سنة ١٩٢١ الى المدينة وجدت الحياة فيها على شىء كبير من التبدل ، فبعد ان كانت

---

(٤) تريد المؤلفة (معقل) وهو من مواضع البصرة ، واسمه جاء من اسم نهر من أنهار البصرة القديمة منسوب الى (معقل بن يسار المزنى) وكان يعرف بنهر معقل (معجم البلدان ، مادة : نهر معقل) وحرّف الانكليز هـــذا الاسم حين احتلوا البصرة فنطقوا به (ماركيل) وجاراهـــم فى ذلك من كان يشتغل عندهم فشاعت هذه التسمية المغلوطة ، وهى مثال حديث لما يصيب الاسماء العربية من تحريف •
(المترجم)

زخّارة بالعمل والنشاط أصبحت هـادئة مقفرة ••• وكانت السفينـة التى قدمت على ظهرها وحيدة فى الرصيف ، والروافع فيه معطلّة عن العمل • كما خلت الاكواخ من ساكنيها فى الاغلب، وقلت السيارات• وكان القادة وضباط الركن قد غادروا المدينة ، ولا أثر فيها للنقل المجانى ! انها لبصرة أخرى ، يسودها الحرمان والصرامة، وكان بيتنا ذا نوافذ مُطلّة على النهر، وعلى مقربة منه جسر هو جزء من طريق تربط القرى بالاسواق • ان المواصلات من المدينة واليها دائبة دائمة ، وقطارات الابل تمر بنا دوما • كما تمر قطعان الماشية يتقدمها الرعاة وهم يستحثونها على المسير بنعيقهم (٥) العالى • وتمر بنا أيضا مواكب الاعراس والمآتم ، وكنت أرى النسوة وهن يذهبن الى السوق كل يوم • وفى البصرة طائفة من العاطلين المتسكعين لا عمل لهم الا مناقلة الحديث ونقل الشائعات • وانك لتشاهد أيضا الصبايا الصغار بعباءاتهن ، أو مآزرهن البهيجة وهن يذهبن الى المدرسة • وفى الحق ان الحياة على ذلك الجسر زاخرة بشكول والوان شتى وتستأهل ان يفرد لها كتاب خاص •

وعلى مقربة من بيتنا بيوت تعلوها اشجار الجهنمية (٦) وتحنو على النهر • وتنعكس لطاقات ورد الدفلى صور على المياه الجارية تحتها • وهناك جسـر خشبى لطيف يقوم على مقربة منه مقهى وهو ملجـأ واهن يختلف اليـه العاطلون فيجلسون تحت ظلال النخل يديرون الحديث بينهم ويحتسون القهوة بلا انقطاع • ويفضى هذا الجسر الى زقاق قريب يحاذى جدولا آخر • ان هذا ليزدهى بأشجار الدفلى فى الربيع ، وتأخذ الارض زخرفهـا وتزيّن بالعشب السندسى المخضلّ بقطرات الغيث • وطريق آخر يحاذى جدولا آخر ويفضى الى الصحراء مارا خلال باسقات النخل وقرية للزنوج • وما ان يتشعب

---

(٥) نعق الراعى بغنمه = أى صاح بها وزجرها . (المترجم)

(٦) أشجار الجهنمية هى الـ Bougainvillaea (انظر معجم النبات لاحمد عيسى بك) وبو غنفيلية اسم مدينة فى استراليا .
(المترجم)

الطريق هذا فيحاذى قسم منه جدولا مائيا الا وينتهى عند الحصون التركية القديمة •

واذا ما سار المرء خلال بساتين النخل حيث يتطاير فيها الرفراف (٧) وكأنه مارج من نار ، فمن الحتم ان يصادف فى طريقه الاوانس المليحات « خوات رزنة » • انهن يسكن قرية صحراوية و يزين بـ (الخزامات) ، فيها الشذر واللؤلؤ ، وان حجولهن ومعاضدهن من فضة آلقة دوما • انهن يستبدلن دروعهن السود باخر وردية متربة ، وهن يحملن على رؤوسهن المتوجة بالعمائم احمالا ••• فهذه سلة ، وذاك وعاء من نحاس ، وتلك سمكة يكنس ذيلها الارض كنسا • انهن يتبسمن لكل غريب ، وقد يعملن فى المدينة بنقل الآجر ، او الماء او ما الى ذلك • ولقد استخدمت احداهن لرمى قمامة البيت فكنت تراها تحملها على رأسها وتتبختر فى مشيتها كالملكة • واصوات (خوات رزنة) ليست بمتناسقة تناسق شكلهن • انهن يجتمعن فى غرة الفجر على ضفتى الجدول ، ويتبارين فى الصراخ والعنف • وما لصراخهن من آخر ، وقد يخالهن الغريب مشتبكات فى شجار ، وما هن فى الحق ، الا فى حديث يدور حول عملهن اليومى ••• وقد يكون ذلك بسبب فقد احداهن لـ (آنة ، او آنتين) ! وليس الليل كله بالوقت الذى يخلد فيه اهل البصرة الى الراحة والسكون • فالهدوء ينتهى عند منتصف الليل ، وبعده يتساءل المرء ان كان اهل البصرة نياما ام ايقاضا ؟! فما ان يرتفع المد العالى (في الساعة الثانية بعد منتصف الليل او فى اية ساعة اخرى من ساعاته) الا وتسمع جلبة وضوضاء وصرخات ولعنات وزمجرات ••• فاهل البصرة لا يستطيعون(كذا !)الى مناقلة الحديث الهادىء سبيلا ، وفى الليل على وجه أخص • ويبدأ العمل النهارى فى الساعة الرابعة ، وتعود المدينة الى ضوضائها وجلبتها •

---

(٧) فى الاصل Kingfisher ويعرف عند فصحاء العراق قرلى وعند عوامهم بالصليلقع على ما يقول (الأب الكرملي) •

المترجم

وانك لتسمع احدهم يكلم آخر باعلى صوته فيهب هذا الى المباراة ، وكأن الذى يعلو صوته على الآخر هو الفائز فى ميدانها • وتسهم النسوة فى ذلك ايضا فيضطر المرء الى الاعتقاد ان الصياح هو نمط الكلام الطبيعى فى البصرة •

ومن يلقى السمع الى العربى وهو يتكلم على سبيل الصدفة يخاله لايحيد عن موضوع الفلوس ابدا • فكلمتا (روبية) و (آنة) فى كل حديث يسمعه المرء • ويتبادل القاربيون الصراخ ، وروبية ، وآنة على لسان كل منهم • وتطرب السنة النسوة بـ (روبية) و (آنة) وهن يمـــلأن جرارهن من ماء الجدول • وسمعت امرأة تمر من تحت نافذة بيتى وهى تعول وتذهب نفسها حسرات فظننت انها فقدت عزيزا ، وما ان عبرت الا وسمعتها تسر القول الى احد المارة ، فاذا البلوى انها فقدت ٤ آنات !

والبصرة فقيرة فى الابنية العتيقة ، أسسها الخليفة عمر فى السنة الـ١٧ للهجرة(٨) أى فى الزمن الذى بنيت فيه الكوفة تقريبا • وموقع البصـرة القديمة غير موقع البصرة اليوم • فالاولى على مبعدة بضعة اميال غربا وفى

---

(٨) بدأت المدينة كمعسكر بسيط من خيام وبيوت من القصب لحوالى ٥٠٠ رجل محارب ثم نمت بسرعة حتى اصبح سكانها بعد حوالى نصف قرن يبلغون قرابة الـ ٣٠٠ الف وقد ظلت مزدهرة منذ اواسط القرن الاول الى اواسط القرن الثالث حيث بدأت منذ ذلك الحين تنحط وتضعف أهميتها وتغيرت مراكز النشاط فيها فتحولت تدريجيا الى الشرق ... ثم ان مواد البناء فى البصرة من اللبن او الطابوق وكلاهما مما يسهل هدمه فلا تبقى للبناء المهدوم آثار واضحة • ومن المعروف جيدا ان كثيرا من أبنية الزبير الحالية قد بنيت بطابوق اخذ من خرائب البصرة ... والزائر لاطلال البصرة القديمة اليوم لا يرى الا ارضا واسعة غير مستوية فيها تلال كثيرة غير مرتفعة قلما يستطيع المستطلع فهمها وتقدير اهميتها ما لم تجر حفريات دقيقة تعينها • ولم تجر فيما اعلم حتى الان الحفريات الاولية التى قد تعين على تعيين احداثيات لرسم مخطط البصرة القديمة ... وان خير احداثية يمكن اتخاذها كنقطة البداية لتعيين مخطط البصرة هى جبل سنام ، وهو تل عـــال فى جنوبى البصرة القديمة تردد ذكره عند القدماء ولا يزال معروفا باسمه (راجـــع – خطط البصرة – الدكتور صالح احمد العلى – مجلة سومر – العدد الثامن) •

الصحراء ، الصحراء التى كانت تغمرها المياه فى ايامها الخوالى • اما الزبير ، التى سميت باسم احد اصحاب النبى وقد قتل فى واقعة الجمل[٩] فتقع في حى من احياء البصرة القديمة ، ولم يبق من (جامع على) ذى المنارات السبع ، واكبر جامع بنى فى الاسلام اى اثر ، كما لم يبق اثر ايضا للبنايات العباسية التى بنيت بالآجر اللطيف • وهناك برج يسمى محليا : (برج السندباد) ويقع فى منتصف الطريق بين البصرة والزبير ، ولعله من آثار المدينة القديمة ، ولم تبق من مجد المدينة القديم اليوم باقية •

والزبير[١٠] مدينة صحراوية صغيرة يتردد عليها البدو لشراء ضرورات الحياة • انها من موانىء البادية ، وترتبط بخط من خطوط السيارات بالبصرة • وعربات الخط هذا حقيرة ، وتبدأ السيارات بالسير من قرب مقهى صغير يقع على حافة الصحراء ، وفى المقهى يجلس المسافرون للراحة والاستجمام عند الذهاب والاياب • ويتلوى الطريق فى ارض رسوبية مسطحة مغبرة ، او هى بلون القطا الذى يتطاير مذعورا كلما مر انسي من هناك • فان هبت عاصفة رملية أثارت النقع فى تلك الارض الوسيعة ••• ولكنها سرعان ما تمر ؛ وبعد عكرها يأتى صفاء وجو رائق لطيف • ومن بعيد تتراءى الزبير كخط صغير من

---

(٩) من الروايات ما يشير الى ان موقعة الجمل حدثت فى (الخريبة) وهى روايات يؤيدها الشعر المروى ، ورسالة الامام على التى يذكرها الطبرى (٣٢٢٨) : « ••• فلما التقينا فى النصف من جمادى الاخير بالخريبة فناء من افنية البصرة ••• » • ويمكن توفيق هذه الروايات مع الرويات القائلة ان الواقعة حدثت فى (الزابوقة) وذلك باعتبار ان الخريبة تقع عند الزابوقة • والخريبة كانت محلة كبيرة بقيت الى عهد ياقوت ، وكان بقربها ميدان يتسع لقتال كبير كموقعة الجمل • ويقرر (ياقوت) ان موقعة الجمل جرت فى (الزابوقة) •

المترجم

(١٠) تبعد الزبير عن البصرة مسافة ٢١ كيلو مترا الى جنوبها الغربى وبجوارها مدافن طلحة وابن سيرين والحسن البصرى وغيرهم ، وخرائب البصرة القديمة تبعد عنها ١٥ كيلومترا • ومن أبرز آثارها بقية باقية من مئذنة المسجد القديم •

المترجم

شجر يمتد فى عزلة تامة ، وهناك صف من بيوت بنيت بالرِهْص (١١) .

اصبحت الزبير وهى تدين بما يشبه مذهب المتطهرين Puritan المذهب الوهابى . كما جرت المدينة على عرق من العقيدة المتزمتة التى يكلف بها أهل نجد ، فعندما تحين أوقات الصلاة الخمسة في كل يوم تصبح المدينة خالية من أهلها ، كما تقفر الدكاكين من باعتها . والدخان واحتساء القهوة محرمان على الوهابى ، وان كان العربى عموما أشد الناس كلفا بهما . ان الملابس الحريرية ، والكماليات محرمة ايضا شأنها شأن الدخان والقهوة . ولن تجد في (الزبير) ابوابا مزخرفة او شبابيك يلهو الناس بها ، وكل ما هناك جدر بسيطة من الرهص وقد جففته الشمس . انها خدر الحياة البيتية ، تصرف عنها عين كل غريب . واشكالها اما مربعة ، او ساذجة ، وقد تتلألأ هنا او هناك (كاشية) زرقاء على باب جامع . ولاهل الزبير شبه بيوتهم ، ان ميسمهم البين الجد ، والصرامة ، والاباء .

وقد تسمع رغاء الابل وانت تمر بالميدان . لقد عقلوا ركبة كل واحد منها ليمنعوه من النهوض . وانك لتجد معهم بعض اهل البادية السمر ، ذوى الجرم الصغير والجسم النحيل . ان هؤلاء يأتون الزبير من اقاصى البادية ، وانك لتراهم يمشون مشية من ألف السفر فى المفاوز والبرارى .

واسواق (الزبير) نظيفة جذابة ، وقد تعثر فيها احيانا على سجادة جيدة ، او قطعة قديمة من نحاس جاء بها احد المسافرين على سبيل الصدفة . وهناك كميات لا حد لها من العباءآت المخططة المصنوعة من وبر الابل ، ومن النوع الذى يرتديه البدو عى الاغلب الاعم ، وكذلك الكفافى والعقل المصنوعة من حبال و بَرية أيضا . ان بيع أمثال هذه البضاعة هين ميسور فى كل حين .

وحكم (شيخ الزبير) المدينة فى سنة ١٩١٩ . انه أحد كبار المُقْطعين Feudal Lords الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال والحرية ، وفى الجرى

---

(١١) الطين الذى يبنى به يجعل بعضه فوق بعض . المترجم

وراء اهوائه وملذاته ايضا • انه يهوى صيد الغزلان ، وتربية الصقور لاستخدامها فى الصيد • وقد تصادف فى السوق احد الرجال المكلفين بتربية صقور الصيد هذه • انها معصوبة العينين ، محمولة على الايدى ، وقد صانوها بالقفازات • وقد تترك الصقور لتقف على مساند خشبية وقفة المهابة والجلال ، بينما يخلد مربوها الى الراحة ، او يناقلون الحديث ولعل من افضل وسائل اللهو واشدها ملائمة لاهل البادية : الباز الجوال Peregrine : انه ذو عينين حادتين متوحشتين ، وبلون الكهرمان ، وله منقار معقوف حاد •

ولقد تبدل الحال اليوم ، فشيخ الزبير اساء التصرف فى ممارسة واجبات وظيفته واوغل فى المكر والدس ـ على ما يلهو به أمثاله عادة ـ لذا أجبروه على الاقامة ببغداد ، ونيطت ادارة الزبير بمتصرف البصرة •

وتقع (الشعيبة) ـ التى شهدت معركة ربيع ١٩١٥ ـ على مقربة من الزبير • لقد احرز فى معركتها سرجون نيكسون نصرا مؤزرا حاسما على القائد التركى سليمان العسكرى • لقد كان هذا القائد مجروحا في معركة سابقة فحملوه على نقالة ليدير معركة الشعيبة ، وما ان رآى قواته تتراجع مندحرة الا وآثر الانتحار • وبمقدور المرء ان يشاهد آثار الخنادق اليوم ، اما الحصن التركى الذى قلبوه الى مطعم للضباط ، ومستشفى بعد المعركة ، فلقد ترك الآن •

والشعيبة واحة ساحرة ، تتلألأ ذرات الملح فى اطرافها فيحسبها الرائى ندف الوفر المتساقط ، وفيها الاثل Tamarisk (١٢) الاخضر تلاعبه الرياح دوما •

ولنعد الى البصرة ، فالسوق فيها جميلة جذابة ولكنها ليست بوسيعة تتنوع فيها البضائع كما فى بغداد • وانك لتشاهد فى سوق الماشية الاغنام

---

(١٢) اثل ج آثال واثول • ثمر الاثل يسمى عذبه وهو عفصها ، والاثل فى الجبال يسمى نضار ـ معجم النبات ـ الدكتور احمد عيسى بك •

والماعز والحمير والجمال ، وما تتوق لرؤيته من خليط متنافر من الرجال ، والنسوة العجائز وقد جلسن على الارض وأمامهن حبات الكهرمان والحصى والبلورات والملابس القديمة وقطع النحاس الاصفر والخرز ـ كلها منثورة على الخرق . وعلى مقربة من السوق الملهى المسمى (ملعب الملكة مارى) ولا احسب ان ذلك تكرمة للملكة مارى على كل حال !

وفى حى (العشار) سوق يتبختر فيها امثال (السندباد) من كل جنس، وفيها دكاكين لطيفه تبيع الحرير والاقطان وسبح الكهرمان ، وتلك الصناديق الغريبة الصغيرة المصنوعة من فضة ولها اغطية من عقيق .

وفى البصرة ، كبغداد ، دور للسينما يرتادها فى الليل جمهور متحمِّس مشوق . انه خليط من الاجناس : كالعرب والصينيين والفرس واليهود ، وهم جميعا يتابعون الدراما على الشاشة البيضاء ، وقد يصفقون لها ويهتفون عندما ينقذ البطل البطلة ! وقد يذهبون النفس حسرات عندما يكون النصر لمن لايستحق النصر ... وهكذا دواليك حتي تختتم الرواية بالمشهد الاخير !.

الباب الرابع

اهل العراق ...

جوانب من : حياتهم العامة ، عقائدهم وشعائرهم الدينية

الفصل الاول

المذاهب الاســلامية

حَسَن للغاية ، على ما يبـدو ، أن يترك شـأن العراق لاهله[1] ولكن ... ما مغزى ذلك يا ترى ؟ ان أهل العراق ليسوا بعرب جميعـا ، وليسوا بمسلمين جميعا ، فيه قوميات عدّة ، وبقايا قوميات عديدة ... وفيه طوائف متعددة ، وعقائد شتى . وفى الحق ، ان بلاد الرافدين العظيمة ، وهى التى شيد فيها « برج بابل » الشهير[2] ، ما زالت اليوم موطنا لكثير من اللُغى ، والشعوب ، والعقـائد . ومن مذاهبهـا الدينيـة : السنّية ، والشيعية ، ومن قومياتها : الكردية ، ومن أديانها : الموسـوية والمسيحية ، وهناك الصابئة واليزيدية وغيرهما .

وكانت للاتراك شبه سيطرة على البلاد ، وكانوا يحرضون القبـائل ، الواحدة ضد الاخرى ، ويغرون الملل ، كل ملّة ضـد أخرى ، ويثيرون أصحاب الاديان ، كل دين ضد الآخر ... وهكذا كانت تنطلق الحزازات والاحقاد والثارات ...

ولِمَن لم يكتنه حقيقة الاسلام أقول : ان المسلم مسلم ، ولن يأبه لامر

---

(١) تشير « المؤلفة » الى نزعة الانعتاق والتحرر والاستقلال التى طغت على البلاد ابان تأليف كتابها (١٩٢٣) وقبل ذلك وتجسدت بثورة ١٩٢٠ وما تلاها . (المترجم)

(٢) جاء فى الاصحاح الحادى عشر من (سفر التكوين) ذكر (بابل) حين حاول الناس ان يتخذوا لانفسهم مدينة عظيمة وبرجا شامخا يطـاول السماء فبلبل الله ألسنتهم وجعلهم فرقا وشيعا لا يعرف بعضهم بعضا بعد ان كانوا اهل لغة واحدة فانتشروا فى الارض وتعددت لغات البشر ولهذا سميت المدينة (بابل) واشتق اسمها من بلبلة الالسن . وبعض البحاث يرى ان بابل معناها : (باب ايل) أى باب الرب . (المترجم)

هذه الـ ٧٢ فرقة .... التى يتحدث عنها (عمر الخيام) . ويرجع الاختلاف المذهبى بين السنة والشيعة الى أوائل تاريخ الاسلام... واليك حديث ذلك :

انتقل محمد الى الرفيق الاعلى ولم يخلف من زوجاته العديدات عقبا . ذلك ان (ابراهيم) ـ وأمه (مارية القبطية) ـ ولد فى مضارب الاسلام ، ومات صغيرا ، وضمته رمال الصحراء . وأصابت الدين الجديد ، بموت نبيّه ، رجة . وارتدت قبائل بدوية عدة . وقضى على (الردة) الخليفة الاول : أبو بكر ، وهو شيخ أيّد حازم ، وكان ساعداه فى ذلك القائدين خالد ابن الوليد ، وخالد بن سعيد . وحُمِلت بعد ذلك راية الاسلام خفّاقة مظفرة الى سوريا والعراق[٣] . بويع لابى بكر بالخلافة ، وكانت الشيعة ترى ان عليا ، زوج بنت النبي ، أحق الناس بها . ولم يظفر بها (علي) بعد وفاة أبى بكر أيضا ، وخلف (عمر) أبا بكر . وعمر هذا هو المثل الاعلى لفروسية الاسلام فلقد كان : قوى الشكيمة ، شديد الحمية ، حصيف الرأى ، حصافة[٤] ابن الصحراء ، صريح القول ، عميق الايمان ، عادل الحكم[٥] ،

---

(٣) وجه الخليفة ابو بكر (رضى الله عنه) الحملات القوية لمحاربة اهل الردة وشكل منها أربعة « أرتال » رئيسة ، جعل الاول تحت قيادة خالد بن الوليد وأنفذه لمقاتلة طليحة الاسدى ، ومالك بن نويرة التميمى ، والثانى تحت قيادة عكرمة وشرحبيل لمقاتلة مسيلمة الكذاب فى اليمامة والثالث تحت قيادة العلاء بن الحضرمى لمحاربة اهل البحرين ، والرابع تحت قيادة عمرو بن العاص لمحاربة قبائل قضاعة ووديعة والحارث .

وهناك ارتال اخرى عقد لواءها لقادة اخرين بلغ عددهم جميعا (١١) قائدا ، وتوالت الانتصارات على يد قادة هذه (الارتال) فى كل مكان واستتب الامن فى الجزيرة العربية ثم كرس جهوده لغزو حوض الفرات الاوسط ، وفتح الهلال الخصيب ، ولكن المنية عاجلته قبل ان يتم الفتوحات التى عزم عليهــا (المترجم)

(٤) الحصافة جودة الرأى واحكام العقل (المترجم)

(٥) كان عمر (رضى الله عنه) كثيرا ما يردد انه يخشى ان يظلم بعض ولاته احدا من الرعية ولا يستطيع المظلوم ان يرفع اليه شكاته ..

ويؤثر شظف العيش[٦] ؛ انه القائد المثالى للاسلام المجاهد • وسار جنده ، بامرة القائدين العظيمين خالد ومعاوية ، وهم أولو قوة وأولو بأس شديد • وكان الخليفة يدير حركات جيوشه من مقره فى المدن المقدسة • وأصبحت دولة الاسلام ، قبل أن يوافيه الاجل ، مترامية الاطراف عظيمة الشأن[٧] • وبقى هو حتى وفاته يؤثر البساطة المتناهية• وختم خنجر (قاتله) صفحة حياة رجل فذ ومن ألمع شخصيات التاريخ فى العالم •

وحلت الفرقة فى الاسلام اثر موته ، فلقد اغتيل الخليفة الثالث عثمان بعد فترة من القلق والاضطراب وانتقلت الخلافة الى علي ، زوج (فاطمة) بنت النبى ووالد سبطيه • وكان علي وديعا رؤوما • وسرعان ما عمت الفوضى ونشب الخلاف فى دار السلام[٨] • وكان علي •••• من الشخصيات التى تلازمها النكبات والمآسى • وفى الحق ان الخيبة غشيت حياته وحياة أبنائه وأحفاده جميعا وكانت خواتيم حياتهم مفجعة • ان سوء الطالع لم يفارق ولديه : الحسن والحسين • فما ان اغتيل علي الا ونودي

وكان يؤمن بان اى ظلم يقع من ولاته ثم لا يجد هو فى اصلاحه فهو الظالم • (المترجم)

(٦) وهو الذى كان يقول دوما ولا سيما بعد ان طعن : وددت لو اخرج منها كفافا لا على ولا لى • (المترجم)

(٧) وعلى يد خليفة الاسلام العظيم تم فتح البلاد السورية ، والفلسطينية والعراقية ، والمصرية وبلاد فارس • واصبحت كلمة (لا اله الا الله محمد رسول الله) تدوى كل يوم فى مدنها ، وقراها ، وسهولها وبطاحها ، وهو اول من ضرب النقود بالعربية (وكان التعامل يتم قبلا بالنقود الفارسية والرومية) ، واقر يوم الهجرة مبدأ للسنة الاسلامية ، وهو اول من وضع تدوين الدواوين ، وترتيب الجنود على الثغور ، وامر ببناء البصرة (سنة ١٥ هـ) والكوفة (سنة ١٧ هـ) والفسطاط • (المترجم)

(٨) دار السلام اى بلاد المسلمين ، ودار الحرب مناطق سكنى العدو المتربص على حدودها (المترجم)

بالحسن خليفة المسلمين • لكن عودة معاوية من سوريا ملأت الحسن رعبا[٩] فآثر العافية ونزل له عن الخلافة • ومات الحسن كسير القلب ، وعلى يد زوجه • ولما كان معاوية على غير وفاق مع آل علي ، ويرى ان جعل الخلافة بالانتخاب سبب في اشاعة القلاقل والاضطرابات ، فلقد سارع الى جعلهــا وراثية وملكا عضوضا ، وأعلن ان الخليفة من بعده هو ابنه يزيد • ورفع ابن علي الثاني (الحسين) راية بيته ، ومعــه قلة من المقاتلين فاستشهد • وكان استشهاده مسببا عن عدم « تقدير الموقف » على وجــه الصواب ، وحاصرته قوات الخليفة في (كربلاء) ، قرب الكوفة • وكان معه أفراد أسرته جميعا ، ومنع أعداؤهم الماء عنهم ، وكل عطشان اليه ، ثم أعملوا فيهم القتل ، فاستشهد الواحد اثر الآخر • لكن جنود أعدائهم لم يتخلوا عن الرحمة كلّيا ، فهم يعرفون جيدا الاصل الشريف الذى ينحدر منه هذا البيت ونبالة مولد أبنائه ، لذلك نجا أحد أبناء الحسين ومنه انحدر العلويون الذين انتابتهم صروف الدهر ومآسيه ردحا[١٠] من الزمن •

ويعاد تمثيل فاجعة كربلاء خلال شهر (المحرم) من كل سنة في (ايران) والمراكز الشيعية الاخرى • وانك لتشاهد المواكب تمر فيه وفيها اللادمون والواكزون[١١] والضاربون بالسلاســل على الظهور • ويتعالى في أثناء ذلك عويل الجموع ، ويختلط بأصوات « قراء » قصة الفاجعة وهم يروون

---

(٩) بايع العراقيون الحسن بن علي –ع– بعد استشهاد أبيه، ولكنه تنازل عن الخلافة تحاشيا من نشوب حرب بينهما تذهب ضحيتها نفوس مسلمة بريئة كثيرة ، واشترط الحسن على معاويه (١) ان يعفو عن اهل المدينة والحجاز والعراق و (٢) ان يمنع سب الخليفة على من على المنابر و (٣) وان تكون الخلافة له من بعده • وقبل معاوية الشروط اولا ثم نكث بعهده ، وقيـــل ان زوج الحسن (جعدة) دست السم له ، باغراء من معاوية ، فمات • (المترجم)

(١٠) الردح : الوقت الطويل • (المترجم)

(١١) اللدم = الضرب بكلتا اليدين ، والوكز الضرب على الصدر (المترجم)

ما صحبها من فشل وهزيمـــة • وتعتبر كل من (النجف) و(كربلاء) من العتبات المقدسة لدى الشيعة جميعا ؛ فهما تضمان جدث الخليفـــة الشهيد وأجداث البعض من أبنائه • أما الكاظمية ، وهي على مقربة من بغـداد ، ففيها مرقدا حفيدين من أحفاد الحسين ؛ وهما الامامان السابع والتاسـع • أما الامام الثاني عشر ، وهو الاخير ، فقيل انه اختفى في كهف بسـامراء (احدى العتبات المقدسة) وانه سيظهر في نهاية العـالم ليقود المؤمنين ، في خاتمة المطاف ، الى النصر المؤزر •

ان الشيعية والسـنية في العراق كالبروتســتانية والـكاثوليكية في ايرلندة • والشيعة على وجه العموم ، تسكن جنوب العراق ، من بغـداد حتى مصب شط العرب • وجل الملاكين ، والمرموقين في البلاد من أبنـاء السنّة[١٢] • وكان كل الموظفين ، ابان الحكم التركي ، منهم على وجـه التقريب • أما الفلاحون والمستوطنون ممن دأبوا على زرع بلاد الرافدين منذ أيام بابل الاولى ، ولم يأبهوا في أي يوم الى حكامها والمرموقين فيهـا ، فهم من أنصار علي الشهيد دوما • انهم يقفون دائما بجانب قضية لم يحالفها التوفيق في يوم من الايام ، قضية بيت فاطمة المضطهد • وسـيل الزوّار يتدفق دوما على النجف وكربلاء • وفي أضرحة المدينتين ثروة آلقة ، وفي قلوب قصّاد المدينتين المقدستين عاطفة جياشة••• ويتوسل بمواكب التعازي في (المحرم) ، وبالبكاء والضرب بالسلاسل على الظهور الى احيـاء ذكرى استشهاد علي وأبنائه •

---

(١٢) ان اهل السنة والجماعة من اهل المـــذاهب الاربعـــة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي) يكبرون الامام عليا واولاده واحفاده من الزهراء وغيرها اكبارا لا مرية فيه واكبر دليل على ذلك قولهم بعد ذكر اسمه : « كرم الله وجهه » باعتبار ان وجهه الكريم لم يسجد لغير الله منذ خلق • اما حبهم لآل البيت فدليله القاطع قولهم (اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد) ومن لا يذكر آل البيت في صلاته عمدا بطلت صلاته • (المترجم)

ان المجتهدين يملكون حق تفسير شريعة القرآن فى ضوء آراء الأئمة . وفى مقدورهم اصدار الفتاوى للمؤمنين ، وهذه على غرار المحلّلات Dispensations والمرصصات(١٣) ، تفرض على الشخص واجبات أو تجعله فى حل من بعضها . لذلك كانت لهم سلطة كبرى . ومن هم هؤلاء المجتهدون يا ترى ؟.

ان المعنى الحرفى للمجتهد هو « المثابر » أو « الكاد » أو « المواظب » . و « المجتهدون » هم رجال الطبقة الاولى من علماء الشيعة ولهم الكلمة العليا فى أمور الدين والشريعة ، فلا استئناف لحكم يصدرونه أو تمييز . وهناك « مجتهد أعظم » دوما ، ومما يؤهل المرء ليتبوأ هذا المقام الجليل أن يبلغ من الكبر عتيا ، وأن يتمتع بسمعة طيبة(١٤) . ومن أقوم السبل لذيوع صيت « المجتهد » أن يصدر حكما شرعيا فى قضية عويصة من قضايا الشرع .

---

(١٣) فى الاصل Bulls والمرصوص اى المختوم بالرصاص كتاب يرسله البابا او منشور منه (المترجم)

(١٤) اقفل باب الاجتهاد فى منتصف القرن الرابع الهجرى وجعل القضاة واصحاب الفتوى مقيدين باقوال الائمة الاربعة المعروفين الذين اجمعت الامة على الرضى بهم . وفى ذلك يقول العلامة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ : « ووقف التقليد فى الامصار ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه كما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ، ولما خشى من اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا يوثق برأيه ولا بذمته . فصرحوا بالعجز والاعواز ، وردوا الناس الى تقليد هؤلاء ... ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده وقد صار اهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الاربعة » . انتهى قول ابن خلدون . ونجحت بعد ذلك حركة مباركة تدعو بقوة الى ترك التفكير الذى ران على العقول وثقل على الصدور طوال القرون الماضية والى فتح باب الاجتهاد لمن هو اهل له والفضل فى هذا يرجع الى رجلين عظيمين من اعيان الفقهاء والعلماء وهما ابن تيمية المتوفى عام ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ ثم من بعدهما الى محمد بن عبدالوهاب التميمى النجدى المتوفى عام ١٢٠٦ هـ (المترجم)

ولقد بنى كثير من المجتهدين (١٥) آساس مجدهم على حل قضية شرعية معقدة • واصدار الاحكام الشرعية عند مجتهدى الشيعة قريب الشبه بالتشريع القضائى Judge - made law فى انكلترا • والمراد بذلك ان اصدار حكم ما يجعله سابقة يستطيع أى مجتهد بارز أن يكيفها فيصدر حكما آخر على أساسها ، وهكذا تصبح السوابق مصدرا للواحق • ومن لهم مقام الصدارة من بين مجتهدى الشيعة اليوم : ثلاثة :ـ [اذ لم يتبوأ مقام (المجتهد الاعظم) أحد منذ ان توفى السيد محمد كاظم اليزدى فى النجف] وهم : مرزا حسين النايني النجفى ، ومما يناهض دعواه كونه فارسى الاصل وأصم ، ثم المرزا عبدالحسن النجفى ، وهو عربى تسنده الحكومة فى سعيه لكى يصبح (المجتهد الاعظم) فالسيد على بن السيد كاظم اليزدى ، وهو أثير عند أبناء العشائر خاصة • أما الشيخ مهدى الخالصى الكربلائى فلقد فقد

---

(١٥) تقول الآنسة جرترودبيل : « ان المجتهدين من الوجهة النظرية هم من رتبة واحدة ، ولكنهم فى الواقع ينتظمون فى ٣ صنوف تبعا لتأثيرهم فى الناس وعدد اتباعهم • وليس هناك من دراسة مقررة يتبعها احد دراس الشيعة ليصبح مجتهدا ، أو تؤهله للانتقال من درجة الى أخرى • وليس هناك امتحان رسمي يجتازه المرء اثر دراسة اشياء مقررة • ولكى يصبح أى شيعى فى عداد المجتهدين عليه أن يسعى الى ضمان اعتراف أكبر عدد من مجتهدى زمانه واقرارهم بأنه واحد منهم ، وبأن له حق اصدار الفتاوى • ولن يحصل على مثل هذا الامتياز اى شيعى ما لم يدرس حوالى الـ ٢٥ سنة فى النجف ، وعلى يد المجتهد الاعظم حصرا • ويجب ان يتخلق المرشح ابان دراسته بالخلق المثالى • والعزلة ضرورة من ضرورات الحصول على السمعة الطيبة • ولذلك لم يصبح أحد أبناء الاسر المعروفة مجتهدا فى يوم من الايام • والخطوة التالية بالنسبة للمجتهد ان يجمع حوله طائفه من العلماء ويرسلهم الى مختلف انحاء الدنيا يعظون الناس ويدعون له • فان حالفه الحظ السعيد ازداد نفوذه قليلا قليلا حتى يقر الناس جميعا بانه فى عداد كبار المجتهدين • ثم يقصده الطلاب فيحضرون مجالس درسه وتنهال عليه اعطيات الشيعة الاتقياء من مختلف الارجاء • ويأخذ هو بتوزيع المال على طلاب وفقراء بلدته • ولا يصبح ابن المجتهد مجتهدا فى الغالب ، لكن ابناء المجتهدين يتمتعون عادة باحترام الناس والنفوذ بسبب نبالة مولدهم » • (المترجم)

ما له من نفوذ منذ اجتماع كربلاء (كذا). واليك حادثة وقعت فى النجف بأخرة، وهى خير مثال على ما يستطيع المجتهد أن يقوم به . عين سيدان بصريان أمناء على مال محبوس للخير ، والخير هذا اعداد صداق لمن يريد أن يتزوج من السادة « الشبان » . وقرر السيدان البصريان ، بحسن نية أو خبث طوية، أن يتاجرا بهذا المال ، لذا حمل أحدهما مبلغا منه وقدره ١٠٠٠ روبية وذهب به الى النجف . أما الثانى فأخذ الباقي وقدره ٤٠٠٠ روبية وسار به الى (الحلة) ثم أودعه فى مصرف هناك . ولم يكتم الاول خبره وتجارته فوصل ذلك اذن المجتهد ، والسيد التاجر البصرى من مقلديه وأتباعه . وفى اليوم التالى أصدر اليه (المجتهد) أمرا بأن يقدم اليه سريعا ... فصدع بأمره توا . ولما جاء الى المجتهد وجده جالسا فى غرفة تزدحم بالناس ... وسلّم عليه بكل تجلة واحترام . لكن المجتهد لم يلتفت اليه ، ولما عرّفه بنفسه انفجر موبخا البصرى . وبعد ذلك أمره المجتهد بالجلوس فى أحد أركان الغرفة ، ولم يأمر له بالقهوة .

وأصابت التاجر السيد البصرى ربكة واعتراه الخجل من ذلك كله ، ثم انه أفصح عن سبب زيارته وأخرج من جيبه رزمة أوراق مالية دليلا على حسن نيته . وهنا وقف المجتهد مغاضبا وقال : « وأنت يا شيعى أتجسر على أن تحضر مجلسى وجيبك ملىء بمال الفقراء ؟ ألست المجتهد الذى تقلده وتتبعه ، ألست أحق الناس بتسلّم هذا المال . هاته اذن ! » وصدع السيد البائس بما أمر . ثم سأله المجتهد مستطردا : « وأين بقية المال ؟ ائتنى به ! » وهنا بسط السيد له، وهو يرتجف فرقا ، ما حل بال ٤٠٠٠ روبية الباقية... ولكن المجتهد عاد الى غضبه فصاح به : « ماذا ! أوضعت مال الفقراء فى مصرف ملعون للكفار ؟ أ أنت شيعى ، أم لا ؟ انك مفارق زوجك حتى تأتينى به » فما كان من السيد الا أن يترك دار المجتهد مهرولا ويتخذ سبيله الى الحلة على جناح السرعة . وما أن وصلها ليلا ، وهى على مبعدة ٤٠ ميلا

من النجف ، الا وحمى وطيس الجدال بينه وبين شـريكه حول الامر • وأسفر صباح اليوم التالى وقفل راجعا ومعه بقية المال • وتسلّمه المجتهـد وعدّ منه ما يساوى ٥٠ روبية ناولها الى مقلده الناشز ليستعين بها على العودة الى البصرة • ثم انه أمر ساقي القهوة أن يناوله فنجانا منهـا • ومما يمتع النفس أن تسمع آراء الشريك ـ بصدد هذه الحادثة ـ فى النسـاء ، وقوة العقـل •

ويعمد أبناء الشيعة الى تغطيس كل ما يدخل بيوتهم بالمـاء الطهور ـ سواء أكان ذلك لحما أو لباسا أو فاكهة أو غير ذلك •

وطلب بعض صغار الشيعة اذنا من مدرستهم الحكومية ببغداد للذهاب الى بيوتهم وتأدية الصلاة فيها (والصلاة فى مواعيدها الخمسة المقررة فريضة على كل مسلم ومسلمة) •

وحصل أبناء الشيعة فى عهد الحكومة الحالية على امتيازات لم يحصلوا عليها قبلا • ومنهم من يتبرم بذلك أيضا[*] •••

وحلية أبناء السنة هذه النظرة السديدة الى الحياة ، وشؤونها • انهم يتقبلون حقائق الحضارة ، وهم قادرون على معـاملة الاوربيين معـاملة الند للند • وان لهم روحا رضيا[١٦] •

(*) لقد أخذت (المؤلفة) برأى الاستعماريين، قصار النظر ، من الذين سيطروا على مقاليد الارض أحقابا متطاولة ، ورأوا فى التفرقة بين أبنـاء البلد الواحد ، والدين الواحد ، سبيلا سهلا لوضع (الربقة) و(الجامعة) فى أعناق أهلها وأيديهم ، ولكن الوعى القومى والاخاء الاسـلامى ذهب بذلك كله الى غير رجعة • (المترجم)

(١٦) الواقـع ان هذه هى روح الاسـلام السمحة • ومن الادلة على ذلك ان ما يسمى فى الفقه الاسلامى (الحدود) وهى عقوبات المحرمات فى الاسلام انما فرضت لصيانة العقل والعرض والمال والنسل والمجتمـع ليس غير ، وفيها يقول الرسول (صلعم) : « ادرأوا الحدود عن المسـلمين ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله فان الامام ان أخطأ فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » • (المترجم)

لقد آن للمجتهدين أن يجربوا التعاون وتبادل الولاء مع الحكومة[17] ذلك ان عهدا جديدا سيشهده العراق ، سداه الوطنية ، ولحمته السير قدما الى الامام .

---

(١٧) نفد صبر الحكومة العراقية عندما عثر على ابن الخالصى وهو يلصق فتاوى والده التى تمنع أبناء الشيعة من الاسهام فى الانتخابات . وألقي القبض على (المجتهد) و « أرسل الى الحج » وتبعه المجتهدون الآخرون تاركين البلاد بمحض ارادتهم معلنين السخط والاحتجاج على ما عومل به .

(المؤلفة)

الفصل الثانى

المحرم الحرام فى العراق

ها قد انقضى المحرم ، ولما يقع فيه « حادث » ! وفى مثل هـــذا النبأ ما تهنأ عليه الشرطة ، فلقد نيط برجالها حفظ النظام بين حشود من الناس يأخذ الحماس منهم كل مأخذ وتطغى العصبية عليهم الى أبعد حد • لقـــد جمعتهم ذكرى محرم الحرام فلا معدى من أن تقوم الشرطة فى مثل هذا الحال بما أوتيت من حصافة وسداد رأى •

ان كل ما شهدته هذه السنة وفاة ايرانى متأثرا بجراحه وان يهوديا أهوج نال شيئا من الضرب ، جزاء وفاقا •

ولم يكن الاتراك ، ابان حكمهم العراق ، ليســـمحوا باقامة التعازى ومرور المواكب ببغداد خلال العشرة الاولى من المحرم الحرام ، بل حصروا ذلك كله فى الكاظمية •

والكاظمية ذات القبب الذهبية القائمة فوق المراقد المقدسة على مبعدة أربعة أميال من بغداد ، واليها تتدفق المواكب فى العاشر من محرم مع طلوع الشمس • ولن يسمح لاى فرد من « الانصـــار » بأن يضرب على يافوخه بالسيف الا بجوار الكاظمية ، وتلزم الشرطة الضارب بألا تزيد ضرباته على ثلاث • وعلى باب المراقد المقدسة يقف شرطى نيط به جمـــع السيوف من أيدى الضاربين الخارجين الى الشوارع وهم يتدفقون حماسا وأسى • ويجد من يتأمل هذا الشرطى انه هادىء يمتلك ناصية نفسه ولعلك تحسبه مأمورا مكلفا بجمع التذاكر فى احدى محطات السكك الحديد !•

وتدق الطبول فى ليالى العشرة الأولى من المحرم الحرام دونما هوادة أو انقطاع • وتتجمع المواكب وتسير ، وفي مقدور المرء أن يشـــاهدها فى

تلك الليالى ان تشوّف اليها من حالق ، أو من فوق أحد السطوح . فالمشاعل
المتوهجة اللاهبة تنير الازقة الضيقة ... ويضرب القوم بأيديهم على الصدور
وعلى ظهورهم بالسلاسل، وكلما قاربت الايام العشرة الاولى من المحرّم على
الانتهاء ارتفع حماس القوم واشتدت حميتهم ، ولا سيما ابان الايام الثلاثة
الاخيرة منها . وفى اليوم التاسع تسير (التشابيه) من بعد الظهر ببغداد ، وفى
اليوم العاشر تسير فى الكاظمية .

ومن زار الهند المسلمة ، وسائر بلدان العرب ، يعرف جيدا ان العشرة
الاولى من المحرّم تفرد لاحياء ذكرى (فاجعة كربلاء) . ذلك ان أهل (الكوفة)
أغروا الحسين -ع- على مغادرة مكة والتوجه صوب بلدهم ووعدوه بالعون
والنجدة ان سعى لاخذ البيعة له بالخلافة ونزعها من ... يزيد .

وجاءهم الحسين عبر الصحراء ومعه منظومة زاهرة من أهل البيت ،
وبعض مناصريه ، ولكنه سرعان ما وجد القوم ، أهل الكوفة ، وقد انقلبوا
على أعقابهم ، فانصرفت عنه قلوبهم وأصبحوا مع أعدائه إلْبا عليه . وكان
أعداء الحسين كثرة كاثرة وقطعوا عليه وعلى مناصريه مورد الماء ، فلا سبيل
للصادى فيهم أن يروى غلته منه . واستشهد الحسين ، ومن معه ، فى مشهد
كربلاء ، وأصبح منذ ذلك اليوم مبكى القوم وموطن الذكرى المؤلمة ، كما
غدت تربته مقدسة ...

وتنسب الروايات المتواترة الى (الشمر) قتل الحسين ، لذا تصبّ عليه
اللعنات دوما ، وعلى كل من قاد القوات الاموية ... ضد شهداء كربلاء .
فالشمر صنو الشيطان فى الاثم والعدوان ، غير منازع وغير مدافع .

وتفضل بعض أهل السنة فسمحوا لنا بمشاهدة المواكب من فوق
سطح أحد المساجد القائمة فى أحد الميادين الواسعة . وكانت المواكب
تسلك أزقة صغارا تنتهى بهذا الميدان ، كما كانت الشوارع والمقاهى مزدحمة
بالمتفرجين ، ولقد شاهدناهم ونحن نمر بسيارتنا قبل الساعة التاسعة . وغصت

سطوح المنازل بالنسوة ، وقد ضربت كل واحدة منهن الخمار الاسود على وجهها ، وهنّ يتشوفن من حالق الى المواكب • وتقوم جماعة كل مسجد بتنظيم الموكب الخاص بها ، لذلك فلا يستبعد أن ترى فى الليلة الواحدة ٦ أو ٧ منها فى كل محلة • وقد تتنافس فتبدى كل جماعة من الانصار المتحمسين قصاراها من الجهد والفاعلية •

والتعاون مفقود بين المواكب ، لذلك قد يضطر أحدها مثلا للوقوف فى أحد الشوارع الفرعية لمدة ما حتي يمر الموكب الآخر • وبمقدور الانسان أن يشاهد من فوق سطح المسجد ، كالذى وقفنا عليه ، مواكب عدة وفيها اناس يضربون على الظهور بالسلاسل ويلطمون على الصدور وينشدون أناشيد الاسى • انهم شبه عرايا ، وما ان ترتفع الايدى الا وتتجلى فى ضوء المشاعل ، ثم سرعان ما تنزل على الصدور فى لطمة واحدة لها دويٌ مرعب• أما موكب الحسين فتحفُّ به المهابة والجلال ، فيه الفرسان من حملة الاعلام المقدسة ، خضراء وذهبية ، والرماح المعدنية المشرعة ••

ان كل المواكب تمر من الميدان ، وما عليك ان أردت مشاهدتها جميعا الاّ أن تجلس على السطح المشرف عليه •

ويرتفع دخان المشاعل وتنتشر رائحة الزيت فى كل مكان • وتقرع الطبول بشدة ، وترتفع أصوات المنشدين ، وتدق الصنوج ، فيختلط ذلك كله بعويل النسوة من فوق السطوح • ويوحى ذلك للانسان مشهدا من مشاهد « جحيم دانتى Dante's Inferno » •

نحن اليوم فى السابع منعشرة المحرّم الحرام••• والقوم لا يلطمون الصدور او يضربون بالسلاسل على الظهور ، قصاراهم • والدم لا يسيل منها ولا تتهشم على ما يحدث فى اليومين الاخيرين منها • ان القوم لايستنفدون منهم القوى كلها بل يختزنونها الى ذلك الوقت بالذات • وقد يحدث بين الفينة والفينة انيخرج أحد الانصار من المواكب فيشعل سيكارة ، أو يتناول

فنجانا من الشاى يقدمه له احد الناس من تلك الجموع الحاشدة .وتختلف المواكب فى نظام سيرها ، وهى على العموم ، كما يلى :

يكون حملة المشاعل فى المقدمة ، ثم يليهم (المشعل) الكبير وهو خشبة تحمل على عمود وطولها حوالى ال ١٥ قدما وقد علقت بها حوالى ال ٢٠ صفيحة مصنوعة من (التنك). انهم يحشونها بالخرق البالية ويشبعون الخرق بالزيت ثم تشعل ، ويدأبون على سقيها بالزيت من صفيحة مليئة به فتبقى دائمة الاشتعال . ويتطاير منها دوما الشرر ، وكذلك تتطاير اجزاء من الخرق المشتعلة ويسقط كل ذلك على حشود الناس ... وقد تصيب احد البائسين ، او حامل المشعل ذاته . انه دوما متسخ الثياب والعمامة . وقد يصاب بعضهم ابان هذا الشهر الحرام بحروق ويدخلون المستشفيات للمعالجة، كما قد تحرق بعض البيوت الكائنة فى الازقة الصغيرة . وقد يشاهد حامل المشعل بين الحين والحين قافزا راقصا يدير مشعله الملتهب فتتساقط منه اللهبات ذات اليمين وذات الشمال . ويوضع زيت الوقود في جلود تحمل على ظهر حمار ، او قد توضع فى صفائح تحمل على عربة يدفعونها بالايدى، وبذلك تبقى المشاعل دائمة الاشتعال . وتكون الطبول دوما فى مقدمة المواكب ، وعلى انغامها الرتيبة يضرب القوم ظهورهم بالسلاسل ، فان اسرع الضاربون فى ضربهم تسارعت أيدى القوم الى الضرب أيضا . وتأتى بعدها الخيول يقودها رجال ، وقد زينت بالمخملات الكثيرة ، وعلى رؤوسها وضعت قلنسوات فولاذية انشبت فيها السهام .

ويغطى جواد (الحسين) بغطاء ملطخ بالدم وقد انشبت فيه نبال عدة . ويليه الحسين ، فأخوه العباس ، وبقية افراد اسرته واتباعه . انهم جميعا يركبون الخيول المطهمة ، ويلبس (الحسين) و (العباس) دروعا فاخرة ، ولعلها من انواع الدروع الفارسية المتينة . والدروع هذه مزينة بقطع من ذهب وفضة وقد تستعار من تجار العاديات ، وقد تكون ملكا للمواكب ويحتفظ

بها فى احد المخازن وتستعمل فى مشاهد عاشوراء سنة بعد سنة • ومنها ماهو ممتاز الصنعة الى حد كبير • ويلبس اتباع الحسين ثيابا خضرا ، ويمثل دور القاسم (وعمه الحسين) شاب وسيم قسيم • انه كان بسبيل الزواج فى يوم المعركة بالذات، ولكنه لقي حتفه فيها ويا للاسف ! انهم يزينون فراش عرسه بستائر حريرية وبالمصابيح ، وتضاء (القبة) بنور ساطع وتحمل وتمر مع المواكب • وللرضيع عبدالله مهد وردى ، ويمتطى طفل أو طفلان ، صهوة جواد، أو جوادين ، يقودهما بعض الرجال • (وقد يُشاهد أحد الطفلين وقد غلبه النعاس على صهوة جواده) ويتبع ذلك كله جماعة من القوم يضربون الصدور ويلهبون الظهور بالسلاسل • ويعقبهم الشمر واتباعه • انهم يلبسون الثياب الحمراء ويتدرعون بدروع فاخرة مثل دروع الحسين • وكل فرد من لاطمى الصدور ، عارم الفتوة ، صلب العود ، موثق البنية ، وهم يفوقون ضاربى ظهورهم بالسلاسل من هذه الناحية • انهم يكشفون عن صدورهم حتـي الخصور دوما • وهم فى الغالب من عامة القوم كالحمالين ، وارباب القوارب ، والعمال ، ومن فى حكمهم • انهم لايضربون على الصدور باستمرار : فقد يقف المتقدم فيهم ويتجه اليهم بين الفينة والفينة ويأمرهم بالتوقف وبترنيمة قوية يثير فيهم الحماس فتهوى الايدى على الصدور • وقد تعلو أصواتهم باستغاثات قصيرة : علي ! علي ! او حسين ! حسين ! وقد يسرعون فى امثال تلك الصيحات او يتوقفون عنها فجأة باشارة من قائدهم ثم يمضون فى سيرهم مرتلين وقد اشتبكت منهم الايدى •

وشهدت فى الليلة التالية جمعا حاشدا من الاكراد قوامه خمسة آلاف رجل او نحو ذلك وهم جميعا من لاطمى الصدور • واستمر ضربهـم عليها أكثر من نصف ســاعة ، وكل منهم بالغ الحماس مطمئن القلب : وكانت ايديهم ترتفع لتهوى بكل شدة على الصدور ، اما الصراخ فحدّث ولا حرج • وهناك فئة قليلة اخرى من المتحسسين تندس بين صفوف هؤلاء

المتحمسين وتضرب على صدورها بلطف وبذلك تشاركهم فى شعورهم .
وتنتهى كل ليلة بـ (محاربة) وهى معركة صورية لما حدث فى كربلاء، وقد يسبقها حوار بين الطرفين .

وتكون المواكب فى الليـلة الثامنة أكثر اتقانا . ففيها يُحمل جثمان الحسين ، والعباس وعبدالله فيثير فى المشاهدين الاسى الصاخب والبكاء المرير . وانك لتشاهد أيدى الشهداء وهى ملطخة بالدماء ، خارجة من بين الاكفان .

ويغطى رأس من يمثل الحسين بقطعة ملطخة بالدماء فتظهر جثته وكأنها مقطوعة الرأس . وتحرس جثمان الحسين حمامتان مربوطتان بـه وقد لطخت الدماء الريش من كل منهما ، وتجلس على نعشه صبية صغيرة تمثل ابنته ، وقد حلّت شعرها فبدا ملطخا بالطين ويغمره التبن ، وهى تعول محتضنة النعش بيدها . ويمشى فى ركاب (الشمر) حرس يلبسون الملابس القرمزية . انهم ينفخون فى ابواق خشبية ضخمة لها افواه تشبه الاجراس . وهم كثيرو الشبه بكهان (اريحا) ، فابواقهم تتجه دوما صوب السماء . وفى أنغام هذه الابواق شيء من نشاز ، ولكنك لن تشاهد (الشمر) بدون أتباعه من البوقيين . ويزين رؤوس هؤلاء الاشرار ريش الطاووس . اما يزيد فلا يتدجج بالسلاح والدروع ، شأنه شأن صاحبه عبدالله بن زياد الكوفى المزّيف والذى ترفع فوق رأسه شمسية حمراء . انهما يلبسان ثيابا حمراء من الرأس الى اخمص القدم . ويأتى فى اعقابهما عمر بن سعد ومعه جنده وهم يلبسون البزات الحمر ، فطفلا مسلم وهما يلبسان ثيابا خضرا وقد ربطا بالحبال الحمراء ويقودهما حرملة .

ثم يظهر محارب هرطقى آخر وهو يقود عددا من الاطفال وقد شدّ وثاقهم وهم يصرخون ويبكون .

واخيرا فأنك تشاهد بين الامويين بعض النصارى والفرنجة . فالمتواتر ان مسيحيا فى الكوفة مالأ الحسين ، وتبعه ، وحارب معه . ويضع هـــذا

المسيحى قبعة على رأسه ، ويلبس بزة خاصة كما يضع عوينات على عينيه وفي يديه قفازان ويحمل على رأسه شمسية سوداء • انه يمتطى جوادا ، ويأتى فى آخر الموكب البدو الفرسان • كما تختلط مع الجموع حزقة من الصبيان وهم يلبسون القبعات المصبوغة ويمثلون الجان والارواح • وهذه اعلام كثيرة وجماعات اخرى من ضاربى الظهور بالسلاسل • ان هؤلاء يلبسون بزات غريبة مصنوعة من القطن الاسود ، وقد فتحت من خلف حتى الخصر • انهم حفاة ويلطخون رؤوسهم ووجوههم فىاليومين التاسع والعاشر من (المحرّم) بالطين • انهم يلبسون الاكفان وهى ملطخة فى الغالب بالدماء ويحتفظون بها، كما يحتفظون بكنز ثمين ، الى يوم يدفنون • والسلاســـل مثبتة بمقبض نحاسى ، وهم يضربون بها بكلتا اليدين ويحركون كل كتف ليتلقى الضربة• وللصبية سلاسل صغيرة وقد يشاهد بعضهم بين جموع ضاربى الظهـــــور بالسلاسل وهم يضربون على نفس الوتيرة ويرتلون الاناشيد •

التمثيليــة الخارقة

وينصرف القوم ببغداد فى اليوم التاسع الى مآتم محرم كليا ، فتبدأ مواكبهم بالسير على قرع الطبول طيلة النهار • وذهبنا بعد الظهر الى بيت صديق تركى لنشاهد التمثيلية العجيبة • ولقد رؤى ان من الاحجى ان ارتدى لباس المسلمين وان اسدل على وجهى نقابا طويلا • وركبنا فى (بلم) حملنا عبر دجلة الى شريعة بيت علم من اعلام الشيعة حيث يجرى التمثيل • وكانت النسوة محتشدات على السطوح المجاورة وهنّ يرتـــدين العباءات السود ، كما احتشد المتفرجون من الرجال فى باحة الدار ••• وتسلق الصبية على احدى الشرفات الخشبية لكى يستطيعوا رؤية مايجرى فيها من حالق ، ومن فوق رؤوس الكبار • وقادنا ابن رب البيت ، وهو فتى فى الرابعةعشرة من عمره ، الى الجناح الخاص بأمه ، ومررنا فى طريقنا بجموع تثرثـــر

وانتهينا الى غرفة عالية لها جانب من زجاج يمكننا من رؤية كل ما يجرى فى فناء الدار .

واحتشـدت النسوة فى هـذا الجانب بالذات ، وجلس بعضهن على الكراسى . ومن كنّ فى الصفين الاول والثانى جلسن القرفصاء أو متربعات . وكان نصيبي الجلوس فى الصف الاول وبذلك استطعت أن أرى كل شيء بوضـوح وجلاء . وبلغ الصـديد[1] حـدا ينـد عن الوصف ... وعلى غرار ما تسمعه فى الحمام فى اليوم الذى يخصص فيه للنساء . وأقيم فى أسفل الدار مسرح صغير ، ونصبت خيمة مشبعة بالزيت استعدادا لآخر فصل فى الرواية . وفى خارج باحة الدار غرفة يستعملها الممثلون لاعداد أنفسهم لمشاهد الرواية . وانتظرنا ساعة من الزمن ، وبدأ الموكب يدور دوراته التقليدية فى باحة الدار . ووضـع على الارض نعش الحسـين بحماماته ، وهذا جثمانه وقد غطى بقماش مضرّج بالدماء ، وهـذه طفلة تندبه وتنشج نشيجا يحز فى القلب . وتقـدم الضاربون بالسلاسل على الظهور لابسين الاكفان فوق ثياب الحـداد وألهبوا ظهورهم ضربا دونما هوادة ورأيت رئيسهم يؤنب بشدة أحـد الصبيان ممن ترك الجمع قبـل الاوان . ولم أشاهد أحدا من الناس يدخن سيكارة فى هذا اليوم وشاهدت ظهور القوم وقد بدت عليها القروح هنا وهنـاك ، كما انتفخت صدور اللاطمين واحمرت من أثر اللطم . وبأمر من رب الدار لفوا أطوالا من الحرير حول أعناق قادة اللاطمين على الصدور والضاربين بالسلاسل على الظهور . ولم يكن لمثل هؤلاء القادة ان يلطموا أو يضربوا ، فجل همهم أن يثيروا أتباعهم لذلك .

سبق وان وصفت فيما مضى « شخصيات » الموكب الحسينى لـكن

---

(١) الضجيج . وفى التنزيل العزيز (اذا قومك منه يصـدون) أى يضجون . (المترجم)

الاستعداد هذه المرة بلغ قصاراه مهابة وجلالا ، اذ لم أر مثله فيما مضى . واستطعت في ضوء النهار الساطع أن أشاهد بوضوح الدروع ، والفؤوس، والمخرمات الفارسية ، والتروس على وجه الدقة والتفصيل . وكانت الاعلام موشاة بالذهب ، ولقد أعد الكثير منها مضيفنا ، رب البيت ، وأفراد اسرته. كما قدمت الاسرة بعض الضروريات الاخرى كغرفة العرس ، والمهود ، والمفارش التى توضع على الخيول وما الى ذلك . واستعير الكثير من الدروع من باعتها ، وكذلك الاعلام الفولاذية الجميلة الموشاة بالذهب وعليها ما يشبه الطواويس والحمام ، ومواضـع للشـموع والبخور والريش ، و « يد العبّاس » وكتابات أخرى .

قيل انهم قطعوا يد العباس بكربلاء لذا أصبحت اليد المبسوطة رمزا أثيرا عند الشيعة . وتسمى هذه اليد فى مصر وتونس (يد فاطمة) وتشاهد دوما يد مقطوعة وضعت على نعش العباس الدامى ، كما يوضع فيه جثمان أخفى رأسه فبدا قطيع الرأس أيضا . ان تلك اليد ما هى الا دميـة من قماش أحمر ، ومن المفارقات المضحكة ان الرجل الذى كان يمثل جثمان العباس أخرج مرة كلتا يديه من وراء الغطاء فأصبح للعباس ٣ أيدى !!.

وهناك لواء من فولاذ يسمونه (لسان الشمر) وتتدلى منه شرائط ، من يشد أحدها ويتمني شيئا فليس بدّ من أن تتحقق أمنيته .

وكانت « الجثث » تتراءى وكأنها حقيقية : فالغطاء الذى يغطى به كل منها مضرّج بالدم ، وقد بدت بعض الارجـل من الجوانب . وما أن تمر جثة منها الا ويرتفع عويل النساء ويشتد ضاربو الظهور بالسلاسل فى ضربهم ، ويزيد الطبالون من قرعات طبولهم المدوّية .

ثم يسمع صفير ، ويسود القوم صمت وسكون . ويظهر اللعينان الشمر وابن زياد على المسرح ويبدأ عرض الرواية . ويجيد الشمر تمثيل دوره بنشاط وحيوية. و «اللعينان» يلبسان ثيابا قرمزية هي من لباس الشيطان،

بينا يلبس من يقوم بتمثيــل دور الحســين وأدوار أتباعه الاطهــار ثيــابا خضــرا ذات قدســية ورواء .. وصــوت ابن زياد أشــبه ما يــكون بالنأمة[٢] ولعــله أميــل من غــيره الى الرحمــة والرأفة . لكن الشمر يحمله مكرها على الفتك بالحسين . وانك لتراه يهز السيف ويشرب الماء من أحد الاكواب مرات عدة ثم يرمى الكوب ليرى الناس كيف يحرم الحسين من رشفة الماء ليموت من الجُوَاد[٣] .

ثم انه يلقي خطابا طويلا ، ثم يتوقف . وهنا يقدّم طولان من الحرير الى الممثل ويلف بهما عنقــه . ويســتمر عرض الرواية فيؤتى بخوذة ، وترس ، ودرع ، وسيف ويتلبب[٤] الشمر للقتال (والحرير ملفوف حول عنقه) . وتسقط أكمام ثوبه الطويلة على الارض فيرفعهــا ويشــدها حول معصميه ويضع على الرأس غطاءه ، ويســتعد . ثم ينفــخ البوّاقون ذوو الملابس القرمزية فى الصور متجهين فى نفخهم صوب السماء ، ويتجمع الجند وتهتز السيوف العارية ويستعرض الفرسان البدو .

ثم يجرد المسرح من كل ما هو قرمزى اللون ، ويظهر عليه الحسين والعباس : ها همــا يتخاطبان برائع القول . وتلف حول عنقيهما الاطوال الحريرية أيضا ويظهر (الشمر) وهو ينحنى كثيرا ويطلب اليهما بمعسول اللفظ مبايعة يزيد والتخلّي عن كل حق يدعيانه فى الخلافة . وينهض العباس اليه وقد اربدّ وجهه[٥] فيسرع الشــمر بالخروج من المســرح محتميا بدروعه .

ويعلو اللجب[٦] والصخب[٧] فى معسكر الحسين ، ويزدحم التموم

---

(٢) النأمة = الصوت الضعيف .
(٣) الجواد = العطش القاتل .
(٤) يتلبب = يلبس السلاح ويشمر للقتال .
(٥) اربد وجهه = احمر حمرة فيها سواد الغضب .
(٧) الصخب = الصوت الشديد عند الخصومة .
(٦) اللجب = صوت العسكر .

على المسرح وبضمنهم ولدا مسلم ، والعريس الفتى الوسيم القسيم : القاسم ! ويخاطبهم الحسين قائلا : ان العدو أكثر منّا عددا ، فالموت ، والجنة من نصيبنا ، ما في ذلك شك ! ويأخذ كل منهما الآخر بالحضن والعناق ويبلغ المشهد الذروة من الاشفاق والاسى عندما يشرع الحسين بتوزيع الاكفان على أتباعه ، وسرعان ما تراهم يرتدونها فوق الدروع ليستقبلوا الموت عن رضا وطيبة نفس .

ويظهر على حين غرّة ذلك المسيحى (الافرنجى) ليشرح كيف انه أصبح فى صف الحسين بسبب ما لقيه هذا الطاهر من ظلم وخيانة . واظهارا لايمانه تجده يرفع قبعته (وهى من الطراز المعروف بـ هومبرغ Homburg) ويرميها أرضا ثم يدوس عليها ويترك مظلته وقفازيه وينخرط فى صفوف المصلّين والحسين يصلي فيهم اماما .

ويقف المقاتل الكمي العباس يحرس المصلّين والعدو المهاجم يرشقهم بالنبال . ويغلب على المتفرجين عند هذا المشهد التأثر الشديد .

هذه امرأة تجلس على مقربة مني وهى تنشج نشيجا يقطع نياط القلب ، وتلك فتاة وضيئة لا تتجاوز الـ ١٤ ربيعا من العمر والدموع تهتن من عينيها السوداوين مدرارا ، وهى تنساب على الخدين بهدوء . ويشتد تشوّف النسوة فوق السطوح وترتفع من قلوبهن الآهات والأنات ، وتتصاعد من صفوف المتفرجين أصوات الحنق [٨] والحسرات .

ويتقدم خلسة محارب يرتدى ملابس حمراء والحسين وأتباعه فى صلاتهم خاشعون . ولكن للعباس عينا ساهرة لا تغفل فسرعان ما يمسك بتلابيب هذا القادم ويصرعه ويتظاهر بقطع رأسه .

ثم ينهض المصلّون من سجدتهم ويركبون خيولهم ويتقدمون الى ساحة الحرب .

---

(٨) الحنق = شدة الاغتياظ مع الحقد .

ويقبض الشمر على ولدى مسلم وينالان منه الخسف والهوان ، لكنهما يرفضان نقض بيعة الحسين : ويأخذ كل من الاخوين أخاه بالحضن والعناق ثم يصلّيان ، ويجهز عليهما الشمر ويدوس على الجثثين بقدمه .

ويثير هذا المشهد ثائرة المتفرجين كثيرا .

وها نحن نشهد معركة كربلاء . فالنبال تتطاير (ويمسكها البعض بلطف ويعيدونها الى من يرشقها) ، والخيل تنهب الارض نهبا وهى تدور فى الميدان ، ويرتفع الوغى[9] هذا يضرب وذاك يتلقى الضربات ، وهكذا دواليك .

ويختفى أصحاب الحسين من الميدان الواحد تلو الآخر ليعود كل منهم وقد تضرج كفنه بالدم أو لفّ حول عنقه لفيفة عليها بقع من دم . ويشد المسيحى نفسه بمشد ويبلى فى القتال بلاء حسنا . ها نحن فى المشهد الاخير ، لقد قتل الحسين والعباس ، وحول جثتيهما يدور الجمع الغاضب . لقد انتصر الامويون وخذل (الحسين) وهؤلاء أنصاره بين مَيْت[10] وبين مَيِّت[11] ومنهم ومن يضطجع على جواده وهو جريح ايضا .

وهذا جمل عليه راكب يقاد بالسلاسل . ويحمل القتلى الاطهار على النعوش وتشعل النار فى خيمة الحسين ويتصاعد منها اللهب والدخان فجأة ، وفى ذلك ما يعنى الاجهاز على الجيش كله .

وتدور المواكب المؤلفة من اللاطمين على الجيوب والضاربين بالسلاسل على الظهور في باحة الدار ثم تنصرف . وبهذا تختتم الرواية .

وتخرج الحشود الى الشارع وتمضى النسوة الى بيوتهن وهن يثرثرن ثرثرة تشبه سَقْسَقة العصافير وقد بللّها وابل من مطر !

وانتظرنا قليلا لينصرف الناس ثم ودعنا مضيفنا على الطريقة التقليدية

---

(٩) الوغى = صوت الجيش فى الحرب .

(١٠) الميت = الذى مات

(١١) الميت = المائت الذى لم يمت بعد ولكنه بصدد أن يموت .

المتبعة فى البلاد وهى امرار اليد على القلب فالفم والحاجب وانسللنا الى القارب ٠

ان أناشيد الحزن التى رتلتها المواكب وجماعات اللاطمين على الجيوب ذات أنغام بسيطة ، وكلماتها مليئة بالاسى وهى منظومة باللغة المحلية ٠٠٠

وأخيرا ٠٠٠

هذه صورة لن تمحي من ذاكرتى ٠٠٠

انها تتمثل أمام ناظرى كلما ذكرت المحرم وأيامه ٠

انه منظر زقاق صغير فرعى٠٠ وفيه ٦ أو ٧ من الاطفال يتراوح عمرهم بين الـ ٤ـ٥ سنوات ٠

لقد ثبتوا الخرق فى رأس عمود وأخذوا يتقافزون حوله وقد كشفوا عن الصدور حتى الخصور ٠

انهم يرتلون أناشيد المحرم الحزينة ، ويلطمون على الصدور بأيديهم الصغيرة ٠٠٠ وهم مع ذلك يقهقهون !٠

انها الطفولة ، والطفولة هى الطفولة فى العالم كله !

الفصل الثالث

بنو اسرائيل فى العراق

عاش بنو اسرائيل في العراق منذ عهد سحيق • فلقد شهدهم تاريخه على مياه بابل يبكون ، وللمـال يجمعون ، وما زالوا على اتلاده [١] ، حتى اليوم ، يدأبون • ان بعض المهن حكر[٢] عليهم ، وأغلب الصيـارفة ، والمرابين ، فى البلاد منهم • ومن تجار الاقمشة اليهود فى العراق من له أقارب يعملون فى متاجر مانجستر البريطانية •

ويقال ان أحفاد الاسباط المسماة : (روبين) و(غاد) و(مناصح) ممن حملهم تيغلات بيلصّر (وهو الملك الآشورى بول علـى ما ورد فى الـكتاب المقدس) الى الاسر ما زالوا يعيشون فى العراق • ومن الاسر اليهودية عدد يدعى انه ينحدر من أسرى نبوخذنصر ، وهو الملك الذى اسـتولى على القدس ، وخربها ، على غرار ما فعله أسلافه الاولون ، ونقل علية القوم فيها الى بابل • وكثير من انبياء بنى اسرائيل مدفونون فى العراق ، ومنهم : عزرا ، وحزقيال[٣] ، ويونا ، وناحوم وغيرهم • وسيبقى اسم (أور) مقرونا باسم (ابراهيم) وغيره •

ولا يكاد أحد يشك فى أن (سفينـة نوح) ، جرت ، اثر فيضـان

---

(١) اتلاد المال ، تنميته

(٢) الحكر = الشيء المحتكر منذ ألوف السنين .

(٣) ان حزقيال ، باتفاق المسلمين والنصارى واليهود العراقيـين هو ذو الكفل وسبب تلقيبه بذلك هو انه كفل يهوذا واسرائيل باضطجاعه على الارض ونومه مـدة ١٩٠ يوما على الجانب الايسـر و٤٠ يوما على الجانب الايمن طالبـا من الله أن ينجى هـاتين الطائفتين من عقبى آثامهما ففـاز بأمنيته وكان حزقيال من بين أسرى السبى البابلى الاول .

الرافدين بالذات ، فى موج كالجبال ، وان جنة عدن ، انما قامت فى مكان (القرنة) الحالية ، على مقربة من البصرة • (كذا !)

واليهودى مرهف الحس ، فقد ذاق طعم الاسر[٤] ، لذلك أخذ يسعى الى سلب من يتوهم انهم هم الذين سلبوه • وهو يؤمن بـ (اله اسرائيل) ويعبده ، ويسخر ما فطر عليه من عبقرية وقدرة فى ميدانى المال والتجارة•

يؤكد بروفسور ديلتز Prof. Delitzsch ان قد كانت هناك شركة تدعى (شركة ايكبى « او يعقوب » واولاده) ، وهى شركة يهودية صرفة عملت فى التجارة ابان العهد الاخير للانبراطورية البابلية • كانت الشركة تتألف من عملاء وصيارفة كثيرين ، ولقد عثر المنقبون على لوحات طينية كثيرة محفوظة فى جرار وعليها سجلات الشركة وقيودها • ومن هذه اللوحات ما يمكن رؤيته فى المتحفة البريطانية اليوم • وبقيت الشركة هذه فى ازدهار متصل ، وبلغت قمته فى عهد نبوخذنصر •

ويقول بروفسور ديلتز : ان الشركة كانت تضطلع بشؤون البلاط البابلى المالية لأمد طويل • انها كانت تجبى الضرائب عما تنتجه الارض من محصولات الغلال والتمور وما اليها ، كما كانت تستوفى بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة ، وقنوات الرى لقاء الافادة منها • فهذه الالواح الطينية التى قد يخيل للبعض انها من التفه بمكان ، انما تعكس لنا صورة جلية مهمة عن الحياة البابلية القومية ؛ انها تمثل لنا صورة فيها جميع طبقات البابليين ، من كبار موظفيهم حتى فلاحيهم البسيطين والعبيد ، وهم يتزاحمون

---

(٤) ان السبى البابلى وبقاء اليهود فى بابل سبب فى تطور ديانتهم على أساس فكرة الوحدانية الشاملة والتسامى الروحى لقد حدث ذلك واليهود يعانون الاضطهاد • والديانة اليهودية التى نعرفها الآن ولدت فى أثناء الاسر فى بلاد بابل • كما ان أسفار التوراة الاولى قد دونت معظمها فى هذه الفترة أى فى أثناء السبى (٥٨٦ـ٥٣٨ ق• م) •
راجع (طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ج٢) •

فى فناء بيت الشركة هذه لاجراء مختلف المعاملات .

ومن اللوحات الطينية ما يرجع الى عهد متأخر عن ذلك ، فهى تحمل
أسم الاسكندر الكبير . واول (ايكبى – يعقوب) كان فى الغالب يهـوديا من
(سامريا) ولعله كان من اسرى سرجون .

ويرى مؤلف كتاب (الغصن الذهبى)(*) ان (بويريم) عيد اليهود ان
هو الآ شبه الاحتفال الذى كان البابليون يقيمونه استهلالا للربيع والخصب .
كما قد تكون الملكة أستر ، بظن المؤلف ، هى الآلهة عشتار ، ومردخاى ،
هو الاله مردوخ ، ذو المعبد الكبير في بابل . ولكنى سألت بعض يهـود
العراق ان كان فى مأثوراتهم ما يؤيد هذه النظرية ، فنفوا ذلك .

ويعتبر اليوم الذى خرب فيه نبوخذنصر (المعبد) من ايام الحداد(٥) .

ومن اليسير ان يؤمن المرء بأن اليهود اقتبسوا (النقود) وهى مـن
اختراع الليديين ، فى سرع سريع : فمن غرائزهم الاصيلة المقايضة ،والتبادل،
وهما من الامثلة الحقة على خصائصهم القوية عبر العصور .

واليهودي جمّاع للمال حريص عليه ، اما العربى ، فان جمع المال
بيسر عمد الى صرفه باسطا يديه كل البسط . ان المال عند العربى عرض من
اعراض الدنيا ، وعند اليهودى هو الدنيا كلها .

ارتفع سعر الروبية فى اعقاب الحرب العالمية الاولى ارتفاعا سريعا ،
حتى بلغ سنة ١٩١٩ شلنين وستة بنسات . وضارب يهودى بغدادى فى سوقها
ثم اخذ سعرها فى الهبوط ... فشاهد الناس هذا اليهودى بالذات يسأل

(*) هو سر جيمس فريزر Sir James Frazer مؤلف كتاب (الغصن
الذهبى The Golden Bough ومن كبار البحاث فى(تطور الدين) . (المترجم)

(٥) كان ذلك اثر سقوط أورشليم سنة ٥٨٦ وتدميرها تدميرا
كاملا وازالة هيكلها من الوجود وأخذهم سكانها أسرى مصفدين ؛ ويقـدر
عددهم بزهاء (٥٠٠٠٠) نسمة وهـذا هو السـبى البابلى المشهور على يد
نبوخذنصر . ٥٠,٠٠٠

(المترجم)

هذا وذاك مشوقا متلهفا ان كان السعر سيرتفع تارة اخرى • ولكن السعر استمر على الهبوط ، فساءت صحة اليهودى يوما بعد يوم ••• وحار الطبيب المداوى فى امره اولا ، الى ان شخّصه صديق له ، قائلا : « ان مرض عزرا ، مرض الروبية ليس غير !» وعلى الرغم من انه شفى في الظاهر ، فان حالته انقلبت الى حالة أخرى ••• وان بقى فى عداد الاغنياء الموسرين • واستدعى طبيب بغدادى لعيادة مريض يهودى ثرى • وعندما كشف عليه وجـــده يعانى من قيء متواصل ، واوجاع ، وضعف ••• واستمر على هذا الحال وان لم ينقطع عن تناول طعامه كالمعتاد •

وخامر الطبيب شك ، لعّل السبب فى ذلك عقلى ••• فاقدم عـــلى الاستفسار عن شؤون مريضه ، وعلم انه مُنى مؤخرا بخسائر مالية فادحــة فغدا فى غضب متواصل ، وأسف مرير • وعندما زاره للمرة التالية قال له: « لن تتصل زياراتى لك مالم تدفع اجرى المستحق » • وسأله اليهودى : وكم هو هذا الاجر ؟ « فعمد الطبيب الى ذكر مبلغ فاحش فما كان من المريض الآ ان يثب من فراشه محتجا ••• وزال عنه المرض الى غير رجعة أثر تلك الوثبة المفزعة • ولكننى لم أسأل الطبيب هل قرر ، اثر هذه النتيجة ، تخفيض الاجر •

ويهودى بغداد شرقى الطباع دوما • انه يتمسك بالعبادات والشعائر الدينية كآبائه الاولين • ولكن من الجيل اليهودى الناشىء من يذهب لزيارة ابناء عمومته ، واعمامه ، واشقائه فى باريس ، ولندن ، ومانجستر فيضيق ذرعا بالقيود المحافظة المفروضة عليه• انه يكره مئزر المرأة اليهودية وبرقعها، وينادى المتجددون من اليهود بتغيير كثير من التقاليد التي يجرى عليها من علت به السن من ابناء جلدتهم • ولا معدى من هذا كله ، بطبيعة الحال • ومما يدعو الى الاسف حقا ان نجد اليهودى البغدادى الذى عاش شطرا كبيرا من عمره كما عاش اسلافه يعمد الى تكييف نفسه على نمط اليهودى الاوروبى ، والذى فقد الكثير من خصائص قديمة لقاء ما حصل عليه من خصائص جديدة، هى جد قليلة•

ثم ما رأيك في التربية والتعليم ، ليس هناك من سبب لان تجهز التربية على كل ماهو جميل محترم خلفه لنا الماضى • وسيأتى اليوم الذى لاتخضع فيه التربية فى الشرق الى مؤثرات غوغائية • وحتي ذلك الوقت فلن اميل لفوائدها كل الميل •

واعياد اليهود واحتفالاتها ببغداد هى ، بطبيعة الحال ، نفس اعياد اليهود واحتفالاتهم فى سائر انحاء العالم • واشد هذه الاعياد بهجة ومرحا هو عيد الفصح(٦) ، وفيه تخرج اليهودية بمئزرها الحريرى ذى الالوان اللطيفة الفاتحة ، فتخال الشوارع مزدهرة ، ازدهار الحدائق فى حزيران • وهم يتمسكون بما يفرضه هذا العيد من اعداد الخبز الفطير ، وطهو الحمل وما الى ذلك ••• وهم يقيمون الولائم الكبيرة فى الليلتين الاولى والثانية منه ويتبادلون الزيارات مع المعارف والاصدقاء • ومن العادات المتبعة ارسال الهدايا (كالزهور والحلوى) باسماء مستعارة ومن بيت الى آخر • ويزور اليهود جميعا فى اخر ايام العيد الحدائق والبساتين •

وهم يتمسكون بشعائر عيد الكفارة Atonement جدا • اذ لن تجد الا فى الاقل النادر من يفطر فيه ، وهم يصومون لمدة ٢٥-٢٦ ساعة ويلبسون البياض من قمة الرأس الى اخمص القدم ، ولا يلبسون فيه نعلا جلديا ابدا •

اما عيـــد المظـــال The Feast of Tabernacles فهو عيد تتوق اليه كل اسرة يهودية وتنصب فيه عرائش من سعف النخل كى تنام فيها الاسرة وتأكل ، وقد يعلق فى العريش شىء من فاكهة البرتقال وغيرها ، تذكرة للجنس اليهودى وذكرى ما كان له في امسه الدابر من نشاط زراعى •

---

(٦) انه عيد اليهود الاكبر Passover ، ووصف خروج اليهوديات فى هذا العيد بما آزرهن يرجع الى العهد الذى كتبت فيه (المؤلفة) كتابها هذا أى فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، ويندر أن تراه اليوم فى شوارع بغداد .
(المترجم)

ويتجمع اليهود فى اخر يوم منه فى القوارب النهرية ، او قد يجلسون على ضفة النهر جماعات ووحدانا .

ويؤمن فقراء اليهود بقوة العين الشريرة ، والجن ، والسحر الى أبعد حد . ولقد ذكرت فى الفصل الخاص بالسحر أن اليهود يراجعون (السادة)، كما تذهب كثير من نسائهم ، صحبة جاراتهن المسلمات ، الى المزارات الاسلامية ، وأخص بالذكر منها ضريح الشيخ عبدالقادر الجيلى (الكيلانى) ، ومن اليهود من يعتقد أنه كان يهوديا (كذا!) .

وكثير من نساء اليهود يحترفن السحر ويدعين بالمقدرة على شفاء كثير من الامراض ، بما فى ذلك العقم ، والجنون ، وان بامكانهن جلب الطالع السعيد ، واحلال الحب فى القلب . وهن يزعمن المقدرة على اعدادالناعوظ (٧) وطرد الارواح الشريرة ، ومخاطبة الموتى ، والاتيان بأخبار الغائبين . وقد جيء ، فى احدى المرات ، بساحرة يهودية لتشخص داء أعيا نطس الاطباء . وسرعان ما أعلنت أنه مسبب عن الجن . والجان اما أرضية ، أو مائية . فان لم تفد المريض الرقى والتمائم فى طرد الروح الخبيثة الحالّة فيه ، عمدت الى مداهنته . فيؤتى بالمريض الى بيت خال ليمضى الليلة وحيدا ، ومعه الساحرة . وهذه تطلب من ذوى المريض ، بالاضافة الى أجرها ، خضروات ودجاجا ولحما وما الى ذلك . وعندما يخيم الليل بسكونه تقوم الساحرة باعداد وليمة تدعى اليها الارواح . وهذه الارواح لاتستطيع أن تقاوم الاغراء المنبعث من رائحة الاطعمة اللذيذة هذه . لذا تترك الروح جسم المريض وتسعى الى المائدة ، وهى لن تستطيع الرجوع بعد ذلك الى الجسم لفقدانها القوة اللازمة لذلك . وقد تكون الجنّية من جان الماء ، فهى لاتميل الى الدجاج أو اللحم ، وفى مثل هذه الحال ، يؤخذ المريض الى سيف النهر ، وهناك

---

(٧) الناعوظ = شراب العشق واثرناه ترجمة لـ Love - potion الواردة فى الاصل . (المترجم)

تعمد العجوز الى كسر البيض ، ذلك أن الجان المائى شديد التوق الى أكل البيض .

وهم يعتقدون ان المرض يأتى احيانا الى البيت عن طريق الروائح على اختلافها . وفى مثل هذه الحال يؤخذ الطفل المريض ، او الرجل العليل الى احدى المدابغ ويطلب اليه فيها ان يشم الروائح المنبعثة منها ، وبذلك يطرد المرض منه الى غير رجعة . وعكس هذا صحيح ايضا .

فان استهوت الجان الروائح الكريهة أمكن طردها بالروائح الطيبة . وسبق (السحر) ، برقاه وتعاويذه ، (الطبيب) وعمله ، وما زال ناشطا مع وجوده .

ويحمل الناس (الطلسم) فى الدنيا كلها ، انه قرص معدنى رسمت عليه رموز سحرية ، أو هو رق دوّن عليه أحد أحبار اليهود ، أو السحرة ، سطورا .

ويعتقد المسلمون واليهود بكثير من الخرافات ، فأرجل الطير ، والبصل ، عندهم مما يبطل أفعال الجان . فان حلّ فى بيت مرض ، أو عرف البيت بالنحس جيء اليه بأحد « الحكماء » أو احدى « الحكيمات » ورشت أركانه بقطرات من الزيت . ومما يلجأون اليه فى مثل هذا الحال استخراج مسمار دق فى جسر ، والهتاف فى المقبرة . وفى الحق أن الامثلة على الاستشفاء عن طريق السحر جد كثيرة .

استخدمت يهوديا في بيتى ردحا من الزمن ، وكانت والدة خادمى هذا من الساحرات « البيض » المعروفات ، تدرّ عليها مهنتها دخلا مرضيا . وعندما كان يمرض هذا الخادم كنت أسعى الى حمله على مراجعة الطبيب ، ولكنه كان يفضل دوما مراجعة احدى عجائز محلته ، فتعالجه بما تمارس من ضروب السحر والدجل . ويكلف أهل محلته باستشارة حبر يهودى عرفه الناس بالمقدرة على « مخاطبة الارواح » وكثيرا ماكان قصّاده يرونه ،

والفزع آخذ منهم كل مأخذ ، ضاربا الارض بعصاه ، ملقيا السمع الى همسات عجيبة تنبعث منها .

ويمارس فقراء اليهود عموما شعائر دينهم ويلتزمون بفرائضه أشد الالتزام . ومن ذلك رفض أحد كتاب الدوائر اليهود اشعال المصباح الكهربائى فى يوم السبت ، ذلك ان ايراء النار محرم على بنى اسرائيل فى مثل هذا اليوم . ولا يطبخ الطعام فى بيوتهم اعتبارا من ليلة السبت (أى من الساعة السادسة من بعد ظهر الجمعة حتى الساعة السادسة من بعد ظهر يوم السبت التالى) . لذلك فلن ترى نارا موقدة طيلة هذا الوقت ، وهم يأكلون خلاله طعاما باردا .

ويعنى اليهود بالمدارس على أحسن وجه ، فالمؤسسة المعروفة بالاليانس الاسرائيلية Alliance Israelite مدرسة جيدة للبنين ، ولها مدرسة أخرى للبنات لا أعتقد ان مستوى تدريسها ، من حيث الجودة ، بمستوى تدريس البنين . وتدرب البنات على التخاطب بالفرنسية ، ويدرسن قليلا من الانكليزية ، ويتلقين دروسا فى صنع المطرزات ، والمخرمات . لكن معلوماتهن فى الموضوعات الاخرى قليلة . وهن يتركن الدراسة فى بواكير العمر ويتزوجن . وتضرب الفتيات اليهوديات القناع ، شأن المسلمات ، على وجوههن ، ولكنهن لسن بمتحرجات جدا فى ذلك كالمسلمات . واليوم تزدرى الحجاب الفتيات اليهوديات ، بسبب ذيوع الافكار العصرية . ان هذه الفتيات مخلوقات صغار ، كالاطفال ، ولكنهن ذكيات مشرقات ولا يحفلن كثيرا بفتيان المدرسة .

حضرت حفلة لتوزيع الجوائز فى مدرسة كبرى ينفق عليها أحد سراة اليهود فى المدينة ... ولشد ما أدهشنى اعتداد الفتيات فيها بأنفسهن ، وسرعة خاطرهن . ومما يسترعى اعجاب كل انسان فى الطلاب الشرقيين ظاهرة عدم الارتباك أو الارتعاد عندما يقومون بتمثيل احدى الروايات ، أو عندما يلقى أحدهم خطابا .

وسن زواج الفتاة اليهودية يتراوح بين ال ١٢-١٧ اطرادا . ويتقاضى « وسيط الزواج » من أحد طرفيه أو من كليهما ، ولقاء أتعابه ، أجرا . ولم يكن خادمي يعرف فتاة بغدادية تصلح له زوجا ، مادام عن محيطها غريبا ، لذلك استخدم ثلاثة من (الدلالين) : امرأتين ورجلا . واستطاع الوسطاء أن يعثروا على الفتاة المنشودة ، وسعى خادمي الى بيتها فى أحد الايام ، يصحبه الدلال ونفر من أصدقائه . وسمح له بأن يكلم عروسه المنتظرة لاول مرة ، ويبحث معها فى أمر الصداق . وعندما عاد الى بيتى سألته عما دار بينهما من حديث ، فأجاب : « جلست على كرسى وجلست على آخر بقربى ، وسألتها : أحقا انك تعرفين الانكليزية ؟ فأجابت : قليلا منها فقط ، ودار الحديث بيننا بهذه اللغة لامد قصير . ثم سألتها عن مقدار الصداق فأجابت : ٣٠٠٠ روبية ، فقلت لها انه لايكفى ، وأطلب ٦٠٠٠ روبية . وبعد مساومة طويلة استقر مبلغ الصداق على ٤٠٠٠ روبية ، واضيفت اليه ألف أخرى لسد نفقات الزواج . وشرب الجميع القهوة ، وهلهلت النسوة فرحا ، وعزف أحد الاجواق ، وقد استؤجر خصيصا لهذه المناسبة ، أنغامه المعتادة .. وانتهى الامر كله عندما قام الحبر (الحاخام) بأجراء مراسيم الخطبة التقليدية » .

وللخطبة عندهم قوة الزام ، كالزواج . ودفع الى الحبر حلوانه ، والى الدلال أجره ... لكن خادمي لم يدفع الا ٥ روبيات ، هدية صغيرة (بقشيشا) الى الدلال . أما الذى تولى دفع جميع هذه النفقات فهو والد الزوجة .

ان هذا كل ما وقفت عليه من أمر زواج خادمي ، ولو طرحنا منه ما يحتمل من مبالغة فى أرقام الصداق ، وجدنا ألا مكان أبدا للعاطفة المشبوبة والغرام فى صفقات زواج عامة اليهود .

وبما يتصل بالطبقات الاخرى ، أى التى هى أحسن حالا ، فالامر مختلف بطبيعة الحال . فالشاب الخطيب عادة يعرف خطيبته ، ويدبر أمر الزواج كله على وفق الاساليب الاوربية . وكل يهودية مصيرها الزواج .

وقد يقوم أحد الافراد الاسرة باعالتها ان لم تتزوج بسبب مرضها ، أو تشويه فى خلقها ، أو بسبب مانع آخر • وهذا فى النادر القليل • ولا ترث اليهودية من أبيها مالا ، ومهما كان الاب موسرا •• فمال الاب يرثه أولاده ، وأقاربه الذكور حصرا • ويراد بصداق المرأة التعويض عن ذلك ، وشمولها بالعدل والانصاف • وتعطى بنات الاثرياء من اليهود صداقا كبيرا • فان هجر احداهن زوجها ، أو افترقت عنه عادت بالصداق كله الى بيت أبيها •

حضرت مؤخرا حفلة زواج يهودية ثرية ، وبدعوة منها • وأقيمت هذه الحفلة فى مدرسة الاليانس الاسرائيلية ، وكان عدد المدعوين كبيرا • وفرش فناء المدرسة بالطنافس ، كما وضعت فيه صنوف من الارائك الخشبية ، مغطاة بالمفارش القطنية البيضاء • جلس العريس على مقعد فى آخر الصف ، وهو يرتدى حلَّة أوروبية أنيقة ، ويضع على رأسه طربوشا ، وجلس على يساره صديق ، وعلى يمينه صديق آخر • وجلس سائر المدعوين على المقاعد وقد نظمت صفوفا متوازية ، وكل منهم يرتدى الملابس الاوروبية والطربوش الاحمر اياه •

أما النساء فلقد وقفن حانيات على الشرفات العالية المحيطة بفناء المدرسة الطليق ، وهن يرتدين المآزر الحريرية الجميلة ذوات الالوان المختلفة والخيوط العسجدية والفضية • وضربت كل واحدة منها القناع على وجهها • والقناع هذا اسود سميك فى الغالب ، ولقد شهدت بعض الحاضرات يتقنعن بالقناع الاوروبى الحديث •

والتزمت النسوة الصمت ، لا تنبس احداهن بنت شفة ، وكن ينحنين على حواجز الشرفات ويتشوَّفن (٨) الى من فى فناء المدرسة • وجيء لنا ، نحن الاوروبيات ، بأريكة وجلسنا عليها نتشوّف ايضا • وجاءت العروس للترحيب بنا وكانت مرتدية ملابس الزواج الاوروبية التقليدية ، فرداؤها من الساتان ، ونقابها ، واكليل زهرة البرتقال وطاقة الورد ••• كل اولئك على

(٨) (تشوفت الى الشيء أى تطلعت اليه ، يقال النساء يتشوفن من السطوح أى ينظرن ويتطاولن) الجوهرى فى الصحاح •

اتم ما يكون ويرام • وحيتنا بتحية قصيرة وانصرفت ، فالتقاليد تلزمها على الانفراد فى غرفة يفتح بابها على الشرفة ، ومعها امها • وقدموا لنا كثيرا من الاقارب • وكنت اشاهد اليهوديات الطاعنات فى السن وقد لفت كل واحدة منهن كفية تحت الحنك ، ووضعت على رأسها غطاء صغيرا غريبا يرفع المئزر عن رأسها قليلا • ويستقر هذا الغطاء على قمة الرأس ، وهو مطرز بالذهب، وخيطت فيه حبات اللؤلؤ أيضا• انه يشبه الغطاء المعروف بال (بانجادورم)، اذ يعلوه زر مدور صغير مصنوع من الذهب الكاذب وقد ثبتت فيه الشرائط وقد خيطت بها حبات اللؤلؤ • ولم تتقدم لنا القهوة ، وانما قدم (الملبّس) ، وطاقات صغيرة من الزهر •

وكان هناك جوقان موسيقيان ، يجلس افرادهما تحت الجانب الذى كنا نجلس فيه من الشرفة مباشرة • وكانا يعزفان بالتناوب • ويأتلف احد الجوقين من الآلات العربية وهى : (الزرنة) ـ وتشبه المزمار ـ و (السنود) ـ الصنجان ـ والطبل الكبير ، و (النقارة) وهى عبارة عن وعائين من نحاس ، غطى كل منهما بجلد خروف • وعزف الجوق العربى انغامه جيدا • أما الجوق الآخر فكان يأتلف من آلات أوروبية يشوب عزفها شىء من فقدان الضبط ويعزف انغاما تركية ، ولم يحالفه التوفيق فى ذلك •

وانشد بعض الصبية الصغار اناشيدهم ، وكنت تراهم فاغرى الافواه يرفعون اصواتهم عالية مدوية •

وانتهى العزف وصعد العريس الى فوق بعد ان امضى الوقت كله والابتسامة لاتعرف الى ثغره سبيلا • واطل الحاخام ، واجلس العريس بجانب عروسه على احدى الارائك• ورأيت فى يد الحاخام فنجانا خزفيا مليئا بالنبيذ الاحمر • اما سائر المدعوين فلم يبارحوا اماكنهم • ورتل الحاخام صلاة قصيرة ، رد عليها الصبية الصغار • ثم ناول العريس الشراب ، فشرب وصب قليلا منه فى فنجان وقدمه لعروسه • واحتست العروس ما فيه ثم تناوله العريس مرة ثانية وألقاه أرضا فانكسر • هذا ، بايجاز، ما هو متبع تقريبا

فى الاعراس اليهودية فى العالم كله • ويسود الاعتقاد فى هـذه البلاد ان حطام الفنجان يطرد الجان •

لم يكلم العريس عروسه أو يلحظها طيلة الحفلة ، وما ان انتهت وأصبحا زوجين الا وتركها نازلا الى الطابق الاســفل ليجلس الى أصدقائه • وكان العروسان اشد ما يكون سآمة ، وهو ما كنت اتوقعه بالذات ، ولم يكن هناك من مخرج يخرجان منه مباشرة بعد انتهاء الحفل • ولو كان نصيب الاسـرة من التمدين أقل لشهدنا اجراء بعض مراسيم الزواج التقليدية القديمة الاخرى كذبح احد الديكة ، واحدى الدجاجات ، وتقديمها الى العروسين ، ولشهدنا الشموع توقد فوق الحنطة والشعير ليصبح الزواج مثمرا خصيبا •

وان مات اليهودى تقاطر اقرباؤه كلهم على بيته وعلا البكاء والعويل • وقد يحثو بعضهم التراب على رأسه • وقد يمزق البعض الاخر ثيابه حزنا عليه وأسفا • ويستخدم اليهود والمسلمون « ندّابات » محترفات يبكين على الميت ويعددن فضائله ويذكرن المصيبة الفادحة التى حلت باهله • وليس مـــن المستساغ ان تترك المرأة الحزينة بيتها الا بعد مرور شهور على الوفاة ، فيما خلا قضاء بعض الامور المستعجلة • وتستقبل الحزينات زائراتهن ، ولا تعلو وجوههن الابتسامة طيلة أيام الحداد • وهن يزرن قبر الميت كل يوم من الايام الاولى المارة على وفاته ، ثم يزرنه بين الفينة والفينة بعد ذلك •

ولدى كل زيارة يعلو عويلهن ونشيجهن ، وهن دوما لابسات السواد ، شأن الاوروبيات •

وهناك عادة لطيفة بارزة لدى بعض يهود بغداد فلو توفى شاب لـــم يتزوج سارت فرقة موسيقية فى تشييعه •

وقيل لى انهم كانوا يؤجرون فتاة تمشى بجانب نعشه ، وهى ترتدى ملابس العروس ، والفكرة التى تنطوى عليها هذه العادة هي عدم حـــرمان الشاب المتوفى من مباهج الحياة • والظاهر انها ، ككثير من العادات الاخـرى سائرة الى الاندثار ، ويوشك ان يعفى على مغزاها النسيان •

الفصل الرابع

الصابئة[١]

انه مكب على عمله فى دكان صغير ... وهذه نار تتوهج بين الفينة والفنية ، يذكيها ، بمنفاخ من جلد المعز ، طفل صغير ...

وله لحية سوداء ملساء ، وعينان سوداوان ، ترتفع اليك بين حين وآخر فتنبعث منها نظرات عميقة آسرة ، نظرات الدارس الفاحص المتعمق !.

وقسمات وجهه لطيفة متناسبة ، وبشرته بيضاء ...

انه يرفع ابريق القهوة الفنى من فوق منضدة صغيرة ، صفت عليها بضاعته ، فيعرضه عليك . والابريق منقوش بالميناء ، وعلى جوانبه صور من

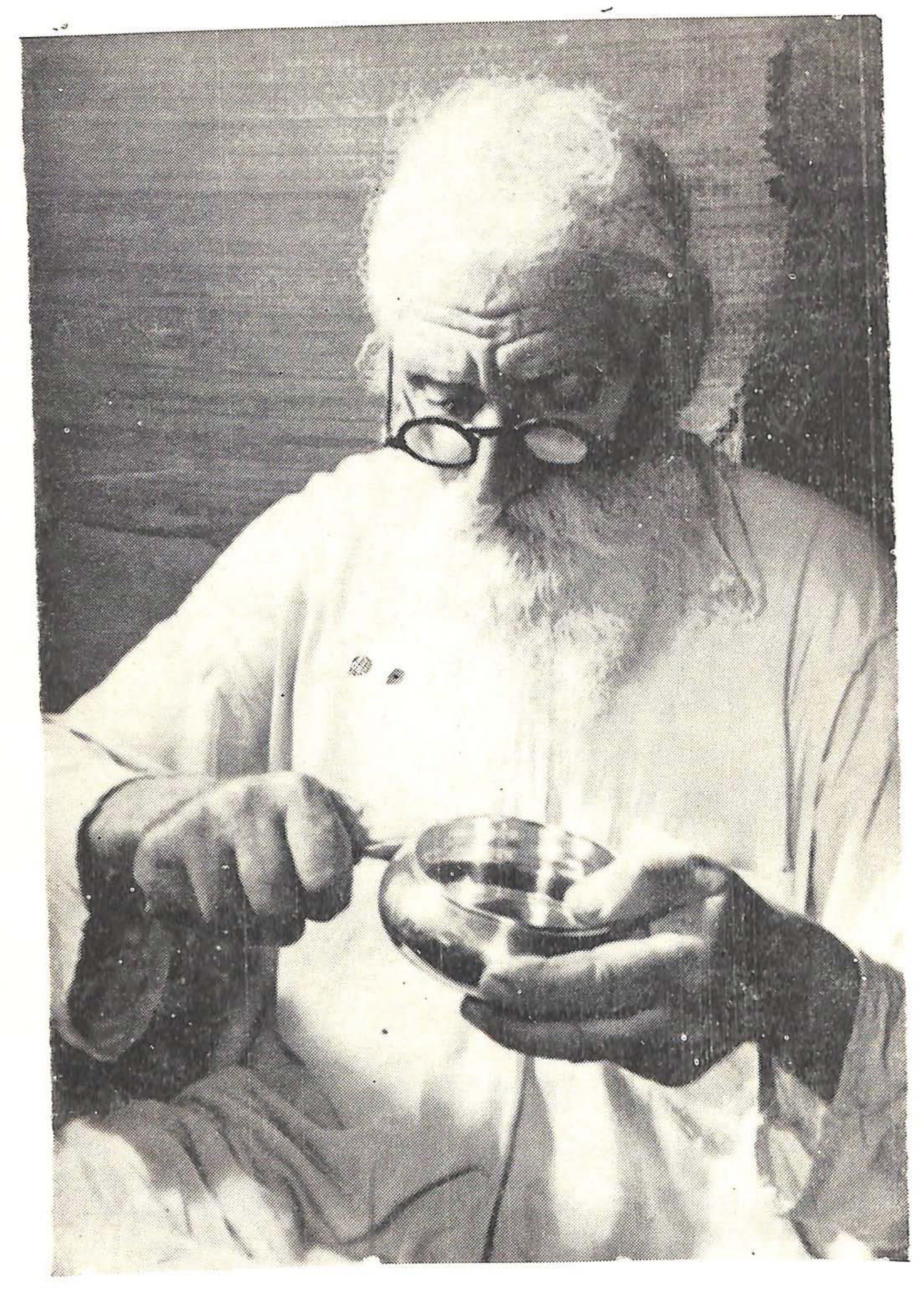
---

(١) فرقة دينية قديمة اسمها « مندايا » والعامة تسميها « الصبة » والفصحاء يسمونها (الصابئة) وسلفنا الصالح سماها « صابئة البطائح » . والطابع المميز لهذه لفرقة انها كاليهود ، واليزيدية تحصر نفسها فى نطاق ضيق ، ولا تختلط بمن يحيط بها ، وان تزوج الصابئى ، أو تزوجت الصابئية ، خرجت من الطائفة تلقائيا . ان موطن الصابئة فى العراق هو منطقة البطائح والعمارة والناصرية والبصرة والقرنة وقلعة صالح وحلفاية وسوق الشيوخ . وقد توجد منهم جماعات فى سائر مدن العراق أو فى بيروت ودمشق والاسكندرية . وقد كان عدد كبير منهم فى خوزستان من أعمال ايران ولكن العدد هذا آخذ فى التناقص . ولقد ذكر اسم الصابئة ٣ مرات فى القرآن الكريم مقرونا باسم اليهود والنصارى وباعتبارهم من أهل الديانات المعترف بها . والراجح ان المقصود بالصابئة فى القرآن الكريم هم (الحرانية) وقد كان الكثير منهم فى بلاط الخلفاء وقام بعضهم بترجمة الكتب الاغريقية الىالعربية ، كماكان منهم الاطباء والمنجمون والفلاسفة والشعراء . ولقد ألفت العالمة الانكليزية مؤلفة هذا الكتاب الليدى درور كتابا مفصلا عنهم بعنوان :

The Mandaeans Of Iraq and Iran

وطبعته جامعة أوكسفورد فليرجع اليه من يريد استقصاء خبرهم على وجه التفصيل والتدقيق .

(المترجم)



صائغ صابئي

يشتهر الصابئة باتقان صياغة الفضة ونفاستها

أمام الصفحة ٢٢٦



خطوط ؛ هذا مسجد ، وهذه سفينة (مهيلة) ـ وقد ارسلت اشرعتها لتسير باسم الله مجراها ومرساها ، وهنا خروف ، وهناك ابل ، وهنالك نخل باسقات لها طلع نضيد ...

وانك لتلمس فى هذه الصور جميعا روح الفنان ، فيخيل اليك ان السفينة تجرى حقا ، وان الابل تبارى الريح فى سيرها حثيثا ، وان النهر يتدفق بمائه غدقا ... ولعلك تسأل عن سعره فيجيبك بصوت خفيض ، فهذا الانسان لقّن منذ طفولته ، والتزم بذلك ... وهو يشتد ساعده ويترعرع ،ان خفض الصوت فى الكلام من الفضائل البشرية .

وعلى جانب من الدكان (لافتة) سوداء كتب عليها ما ترجمته : (من اتباع القديس يوحنا المعدان : صائغ الفضة العمارى) وعلى مقربة منه دكاكين اخرى لاتختلف عن دكانه من حيث المظهر ، وفيها رجال عليهم سيماء الجد ، ومظاهر الوسامة .

وهناك طائفة من هذه الدكاكين فى كل مدينة من مدن العراق تقريبا ، وقليل ممن يرحل عن البلاد ولا يصطحب معه نماذج من مصاغات الفضة ، والتى يحذق صنعها ابناء هذه الطائفة الغريبة .

فمن هم هؤلاء (الصابئة) يا ترى ؟!.

ان العرب تسميهم (صُبّا) وهم يسمون انفسهم (المنداى) او (الاغناطسيين) Gnostics . ولقد نجوا من الاضطهاد الى حد مابسبب ان المسلمين يعتبرونهم من « اهل الكتاب » و «الصابئة » الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وهم من عبدة الله الحق ، وهم يزعمون ان صلة روحية تقوم بين عقائدهم وبين المسيحية ، لذا يسميهم البعض « بمسيحى القديس حنا » وان لم يكن في عقيدتهم ، وفلسفتهم من المسيحية الا القليل ... انهم يعيشون فى شبه عزلة ، ولهم لغة خاصة بهم ، ولا يتزاوجون مع الاجناس واهل الاديان الاخرى الا فى النادر .

ولما كانت الطهارة تلى القدسية فى المرتبة ، فلابد وان (الصابئة) هؤلاء اقرب مجاورى من فى السماء ! ذلك انهم يمضون شطرا كبيرا من حياتهم اليومية فى الاغتسال والتطهير ، ويلتزمون بواجب الوضوء المقدس فى كل حين ••• ولو انعدم الماء الجارى ، او النهر ، فى سكنهم لما وجدت فيه من هؤلاء ديارا !•

لقد عُنيت طويلا بهذا الشعب العجيب ، وعولت على ان اكتشف ، قبل رحيلى عن بلاد ما بين النهرين ، شيئا اصيلا مما يتصل بحياتهم الخاصة • يقال ان ابناء هذه الطائفة يحرصون على اسرار دينها وطقوسه ، ويجعلونها فى حرز أمين ، ولقد تأيد لى ان لا سبيل للوقوف على شىء من ذلك خلال محادثاتي مع من اتصلت به منهم فى بغداد • ولما سمح لى بالسفر الى (العمارة) وجدت فيها من هو اقرب الىّ من حبل الوريد ! ودارت بينى وبين (الشيخ جودة) احاديث شتي عديدة • انه « حبر الصابئة » ومن اظرف والطف الشيوخ الذين اتصلت بهم آبان اقامتي فى العراق • انه لم يتردد فى الاجابة عن أى سؤال وجهته اليه • ولو لم يكن وقتى ضيقا لتسنى لى الوقوف على اكبر قسط مما كنت اتوق اليه من المعلومات •

يشترط فى رجل الدين الصابئى ان يكون فى منجـاة من الشوائب الخلقية ، وسالما من الامراض والعاهات البدنية • والشيخ جـودة ، كابائه الاقدمين ، من رجال الدين الصابئة ••• لذا نجده حسن الشكل ظريفـا متوددا ، وعلى الرغم من انه جاوز الستين من عمره المديد ، ان مظهره المريح يذكرك بـ (البطارقه) ، ولعله خير نموذج لمن يشاء من الرسامين •

وهو جار لـ (زهرون) ••• وهذا ابعد صاغة الذهب والفضة من الصابئة صيتا ، وتدر عليه صناعته هذه رزقا حسنا • انه فى الخمسين من عمره ، ولو وضع اسمه على اى مصاغ لارتفعت فى الحال قيمته اضعافا مضاعفة • وفـى احدى المرات اهدى الى ولى عهد انكلترا (برنس اوف ويلز) علبة سكاير

نقش على جانب منها منظر عراقى ، وعلى الجانب الاخر صورة (الأمير) نفسه . والاشاعات تقول ان هذا الفنان ، كغيره ممن سبقه من النابهين ،مولع بالنبيذ الاحمر ! ، ولقد سبق ان قدم الى (سربرسي كوكس المندوب السامى) طرفا مما يصنع فسأل (سربرسى) عما يرضى به (زهرون) كمكافأة على ذلك.. فأجيب : اهده صندوقا من الشراب المعروف : (بورت Porte) ! . لقد لمع اسم (زهرون) فى سماء الصيت البعيد ، والشهرة الواسعة وعرفه الناس فى البلدان القاصية كأمهر ابناء طائفة الصابئة ، غير مدافع ، وغير منازع !.

وزهرون ، بعد ، رجل لطيف منتصب القامة ، صبوح الوجه تعلوه ابتسامة ساخرة . انه اليوم ثرى ، لايعمل الا ان صادف العمل هوى في نفسه، وهو يسخر لعمله طائفة من الصناع الماهرين والمستجدين ، تعمل باشرافه وبوحى منه .

ولنعد الى الشيخ جودة ، انه بمثابة حبر الطائفة الاعظم ويسمونه ال (كانزورو او كانزفيرو) ، وهو لا يميل الى معاقرة الشراب ، او احتساء الشاى او القهوة ، او التدخين ، ولا يصيب شيئا من السكر ، فهى محرمة عليه جميعا ، وعلى سائر الروحانيين الاخرين ايضا . ولهؤلاء ان يتزوجوا وينجبوا الاطفال ، لكن هناك من الاشياء الخاصة بهم ، كالخبز الذى يأكلونه ، ما هو محرم صنعه او لبسه على زوجاتهم . وهناك بعض المناسبات يحرّم فيها على هاته الزوجات الاتصال بهم . ذلك ان دين الطائفة دين طهارة قبل كل شيء ، ولا يقتصر ذلك على طهارة الجسد فحسب وانما يشمل طهارة الفكر والعمل ، ان للاغتسال والوضوء والتعميد ، وهى من طقوس الطائفة الرئيسة ، أهمية خلقية وتألهية أيضا . وعلى الصابئى الصالح أن يزدان فى حياته بضبط النفس وطهارة الذيل .

وانك لتجد الشيخ جودة جالسا فى أغلب الوقت اما فى بيته الصغير تظلله شرفة خشبية . انه يجلس القرفصاء على (الحصيرة) وامامه منضدة صغيرة

فوقها مواد الكتابة ، وصندوق يضم الكتب المقدسة . هذه عصاه الروحانية ، اللاعقفاء ، تقوم على حائط البيت ، خلفه ، وتلك بعض الآنية والجرار المقدسة مبعثرة فى احد اركانه . وفى الساحة التى تقوم أمام بيته خليط من الحيوان . ففى ركن منها زريبة مفتوحة ، وفيها بقرة تأكل العلف وترنو الى الحبر وهو يصلى ، او يقرأ فى احد كتبه المقدسة . وهنا خروف سادر ... وهذه بضع دجاجات باحثة فى التراب ، في قوقأة ونقنقة ، وهاتان اوزتان تحدقان بعيون زرقاء باهتة فى الزائر ... وتلك هرة تجرى لسانها على جسمها ، وتظللها الشرفة ، وهى بجوار سيدها الكريم !

وهذا هو المطبخ خارج البيت وعلى جدرانه (الجَلَّة) وهى أقراص مجففة من روث الحيوان تستخدم وقودا ، وتلك خيمة عليها استار اعدت للضيوف من النساء . ويمر عدد من اهل هذا البيت أمام الشيخ ، وقد يبحث بعضهم معه طرفا من الشؤون المنزلية بصوت مسموع ... وسواء أكان هذا مستغرقا فى صلاته أم لا !! .

حقا ان بيت هذا الرجل الدينى - على بساطته - مغمور بجو عائلى ودى، نساؤه على أهبة الاستعداد دوما ، وتعلو وجوههن ابتسامة الرضى والترحاب. لقد تزوج الشيخ مرتين ، والاخيرة من زوجتيه شابة لطيفة رزق منها البنون والبنات . لكن سيدة البيت ، على ما يخال لى ، ليست الا اخته ، وهى امرأة طويلة ظريفة وان بلغت من الكبر عتيا . لقد اسهمت فى احاديثنا دوما ، وكثيرا ما ساعدت اخاها فى شرح الموضوعات العديدة التى تتصل بشعائر الطائفة ، وردت على استقصائى لمعانيها . واول هذه : (الرسته) ، انها (العباءة المقدسة) التى تلبس عند اجراء فروض التعميد والزواج ، او اى جانب آخر من المراسيم الدينية . فالعروس والعريس يلبسانها في حفلة الزواج ، وهى آخر رداء يرتديه الميت ! انها لباس الرهبان والاحبار ابان قيامهم بالمراسيم الدينية . والنساء ، كالرجال ، ترتدى (الرسته) عند التعميد ، وفي المناسبات

التى يجب عليهن ارتداؤها فيها • لقد اسميتها بالعباءة ولكنها فى الحقيقة بدلة كاملة ، ومعها غطاء للرأس • انها مكونة من قطع عديدة ••• وقد يهمـل بعضها عند اللباس فيما خلا العباءة •

وهذه القطع هى : (١) (الشالوالو) ، وهو سروال قصير (لباس) قطنى واسع يرتفع الى الخصر ، وله مشد قطنى ايضا (تكة) ، ولا يخاط احد طرفيها ابدا • و (٢) (السدرو) : وهو قميص قطنى طويل • (٣) وعلى السدرو هذا، وعلى الجانب الايمن منه بالضبط ، تخاط قطعتان من مادة قطنية ، طول كل منها حوالى البوصة ، وتسمى القطعتان (ديش ـ شو) • (٤) ثم عمامة طـول قماشها حوالى ٤ ياردات ونصف ، ولا يلف قسم منه بل يترك سادرا عـلى الكتف الايسر و (٥) الحزام او الـ (هيميانو) وهو نسيج يتألف من ٦٠ خيطا قطنيا ، ويحيط بـ (السدرو) فى الخصر • و (٦) شريط قطنى طويل اشـبه ما يكون بلفيفة ، ويسمى (الكبوغة ـ أو الكنزالا) ويلف حول الرقبة• وهذا الاخير يستعمل كثيرا في الاحتفالات الدينية ويعلق عادة فى الحزام • ويموت الصابئى فيكفن بـ (الرسته) ، وتوضع الـ (كنزالا) فوق رأسه ، ويخاط طرفاها تحت حنكه • ويجب ان تكون (الرسته) كلها بيضاء ، لكن ما رأيته منها لم يكن بياض الثلج بسبب غسلها دوما بماء النهر ••• وماؤه عكر فى الغالب مما يحمله من الطمى •• وعلى الرغم من ذلك كله فالرسته مطهرة على وفق ما تؤمن به الصابئة ، وهو الاهم المطلوب •

ويستعمل الحبر الاعظم ابان قيامه بالشعائر الدينية قطعة من شـريط صوفى خشن الملمس ، ولا يزيد طوله على نصف اليارد وعرضه على البوصة • وطرفاه موصولان فيحاكى بذلك الحلقة ، يضعه الحبر تحت عمامته ، ويسمى (تاغه) • كما انى وجدته يختتم بخاتم ذهبى منقوش يضعه فىالاصبع الصغير من اليد اليمنى ، ويسمى (ايساختو) • اما عصاه الروحانية (ماركنو) فـلا تفارق يده ابان القيام بالمراسيم الدينية ابدا •

ولا يُعَمَّد الصابئى عند مولده فحسب ، وانما يجرى تعميده فى كل
أحد ، وعندما يخالف قواعد الطهارة ، فيصبح نجسا ••• وعندما يصيب من
لحم لم يذبحه (الجزار الروحانى) ••• ففى مثل هذه الحال لا معدى من التعميد
مجددا ، وعلى ما ورد فى احد الشعائر الدينية • وان لمس جسم اخيه الصابئى
(ذلك ان جسم غير الصابئى كجسم الحيوان (كذا !) ليس بنجس مادام من الطين!)
وجب عليه التعميد ايضا • وان أكل من فاكهة او خضر لم تغسل ، وان دخل
السجن ، او لدغته افعى ، او لسعته عقرب ، او أكل من زبدة اعدها غير
الصابئين Gentiles ، أو أخذ منه الغضب كل مأخذ ، أو قفَّ شعره فرقا ،
وجب عليه التعميد ايضا • وان نسى ، او اهمل شيئا من فروضه الدينية ،
او اصبح نجسا ابان قيامه بشعائرها ، فلا عبرة بالساعتين اللتين قضاهما وهو
يمارس هذه الشعائر ، وعليه ان يبدأ الامر من جديد •

والقديس الذى تُجِلّه الطائفة كثيرا هو : (يحيى) أو (يوحنا المعمدان)
على ما يسميه النصارى • ويدعى الصابئة انهم اخذوا بالتعميد منذ اقـــدم
الازمان ، لذا لم يأت (يوحنا) بشىء جديد فيه • لكنه ظهر فى زمن كاد اليهود
فيه ان يغلبوا (الطائفة) على أمرها •

وتقول اساطيرهم انهم كانوا يسكنون (اورشليم) فى هذا الزمن بالذات•

وسيرة (يوحنا) مدونة فى احد كتبهم المقدسة ، وهو المسمى (يحيى
درافشود) وانك لتجد فيه سردا لما يتصل بمولده العجيب ، وتربيته فى الجنة،
ثم نزوله الى الدنيا يبلغ رسالته ، واخيرا وفاته ، وصعوده الى السماء صحبة
أبيه السماوى (ماندو ـ صناى) « روح القوة فى ميادين الفخار » •

انه عمّد المسيح (يشو) ابان نزوله الى الارض وتبليغه الرسالة ،فكان
في ذلك منفذا لارادة السماء • وتردد فى التعميد هذا اولا لان المسيح ، فى
طفولته ، أمر اليهود بالتبتل ، وهو بنظر (يوحنا) عصيان لاوامر الله • وتبجل
الصابئة (يشو) وتعتبره من القديسين ، لكنها تؤمن ؛ (يوحنا) حصرا ، تدين له

بالولاء كله ، ذلك ان تعميده ، بالغطس ، اسمى واقوم .

وتؤمن الصابئة ، ايمان المسلمين والمسيحيين ، بالله الواحد الحق ولا يعبدون غيره [٢] . ان اسمه فى لسانهم (الاها) ، ويعتقدون انه فوق الجميع ، لكنه اناب طائفة من (الاوصياء) يمارسون سلطانه ، ويسيطرون على العالم المنظور . ان (الاوصياء) هؤلاء مبعث القوة وسبب الطهارة ، وقد تم خلقهم بمجرد نطق الخالق باسمائهم . ومن هؤلاء الاوصياء الذين خلقوا : ٣٦٠ (ملكى) وهم يخضعون جميعا الى عالم النور (اولمى دانهورو) . انهم يرتفعون عما عليه البشر من احاسيس وعواطف لكنهم يتزوجون وينجبون الاطفال . انهم على درجات ومراتب ، وعالمهم يتسم بالخلود ،ولا يعرف الفناء . وهم ليسوا بأرباب ، كما انهم ليسوا بملائكة ، لهم سلطات روحية واعطيات ، وتقوم الملائكة على خدمتهم . والاوصياء المخلوقون ال (ملكى) هؤلاء يقيمون الصلاة كسائر البشر لوجه الله العلى وهم يأتمرون باوامر (الاها) فى كل شىء .

ولهم اسماء يعرفها الصابئة ، وانى لا اعرفهم جميعا . ولست بسبيل ايراد هذه الاسماء ، وان عرفتها فعلا . ومن اهمهم :

(١) (مورو ـ ايدار بوثو) وهو كبيرهم .

(٢) (اواثر موزانيا) ويسكن فيما وراء النجم القطبى ، وهو الذى يفصل

---

(٢) يذكر ابن النديم فى الفهرست قصة خلاصتها ان المأمون اجتاز دياربكر قاصدا غزو الروم فتلقاه الناس وكان بينهم جماعة من الحرانيين يلبسون الاقبية وشعورهم طويلة فأنكر عليهم المأمون زيهم وسألهم أنصارى أنتم ؟ قالوا : لا . قال أفيهود أنتم ؟ قالوا : لا . قال أفمجوس أنتم ؟ قالوا : لا . فغضب المأمون وقال اذن أنتم عبدة الاوثان . وانتم حلال دماؤكم فذهبوا الى شيخ فاضل من فقهاء حران وسألوه عن دينهم أهو من الاديان السماوية فأجابهم انهم الصابئون المذكورون فى القرآن .

فى امر ارواح البشر وهم يمرون من (المطهر) [٣] ، فيقرر ان كان التطهير بدرجة تؤهل الروح لدخول الجنة •

(٣) بتاهل ـ وهو المهيمن على مكان العقاب ، والتطهير •

(٤) هيفل ـ زيفو ـ وهو الذى عاد ، وعلى رأسه اكليل الغار ، من الاصقاع المادية السحيقة ، تصحبه زوجة دنيوية اسمها (روحية) ، وبذكراها يحتفل كل سنة ، وهو العيد المسمى (ديهفو ـ هينو) • ولقد حملت منه (روحية) ولدا جبارا عتيا اسمه (اور) ، ثم بنيت على ظهره العوالم المادية كلها واستقرت على منكبيه العريضين ، وستستقر امد الدهر •

وتعانى الارواح الشريرة ، بعد موت اصحابها ، من عذاب زفيره اللاهب المحرق ، ومن زمهرير الهواء القارص الذى يستنشقه ويملأ به رئتيه الواسعتين • ولعل افظع تهديد يمكن ان يوجه لآثم هو : « فليلتقمك اور !! » ••• وعلى ذلك عقب (زهرون) قائلا : لا ادرى كيف ان امرأة صغيرة كروحية استطاعت ان تلد مثل (اور) الجبار ، ياخاتون ! وتبسم من قوله ضاحكا ، لأفهم ما في دخيلة نفسه ، وتابع حديثه : « وانت تعلمين انه يحمل الدنيا كلها على ظهره !! » •••وافتر ثغره عن ابتسامة تشكك معبرة •

فقلت : « ومن يستطيع ان يدلى بفصل الخطاب فى هذا الباب ؟! » ثم انثنيت الى الحبر الاعظم وسألته :

« وما الذى يراه جنابك ؟ »

ولم يشأ الاخير ان يتورط فى جواب ، ولكنه تقبل بروح سمحة ما ذهبت اليه من ان الامر لا يعدو ان يكون من باب المجاز ••• أما (المتشكك فلاذ بالصمت المعبر العميق •) •

---

(٣) المطهر أو (المطراثى) عند الصابئة هو الشىء الثالث بين الجنة والنار وفيه تعذب الارواح التى ارتكبت الذنوب البسيطة ، ويكون عذابها لامد محدود ، ثم تنتقل الى مواضعها فى عالم الانوار الذى يسمونه (المى دنهورا) •



الاســـكندولة

خاتم الصابئة المقدس وشعارهم القديم

ان صور الحيوانات الاربعة فيه ترمز الى العناصر الاربعة : فالحية ترمز الى التراب ، والعقرب الى الماء ، والاسـد الى النـار ، والزنبور الى الهواء ، والاسكندولة كلمة مندائية معناها (سكين الدولة) وقد تعلق بالحزام للوقاية من الشر ، وقد توضع فوق موضع القبر قبل حفره .

ويتضرع الصابئة الى (الملكى) ابان اقامة الصلاة علّه يمنحهم البأس ، والقوة ....

واوصياء الله ، على ما يفرض فيهم ، ارهف الجميع سمعا الى تضرعات المتضرعين واسخاهم عطاء ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

وتمر كل روح بعد موت صاحبها بالمطهر (ماتا راثو) حتما ، وسواء اكان صاحبها من الاخيار او من الاشرار ، وليس هناك من روح طاهرة كل الطهر فتتخذ سبيلها الى (عالم النور) سراعا ... ان القديسين هم الذين يمرون به مسرعين ، اما مرتكبو الذنوب فيمكثون فيه حتى يطهّروا منها ، وما ان تنتهى مدة مكثهم الا ونجدهم ماثلين أمام (اواثر) وهو يزن ارواحهم بالقسط ! وان بقى ، بعد ذلك كله ، وضر كثير على الروح ، فلا معدى من ارسالها لتتطهر كرة اخرى . وفى خاتمة المطاف ، يصل الاثمون ، شأن القديسين انفسهم ، (موطن النور) ، وينتهى الامر كله ، ثم يطوى الـ (ماتاراثو) طى السجل للكتب،

ويختفى الى غير رجعة . ولعل اغرب ما تراه الطائفة فى خلق العالم ان هنـاك دنيا ، ثانية ، خفية ، شبه مادية ، وهى كهذه الدنيا تجرى الى مستقر لها ، هو يوم الآخرة . وتزعم الصابئة ان هذه الدنيا الثانية تعايش دنيانا ، ولكن لاسبيل الى رؤيتها ، وان سلطنا عليها ابصارنا جميعا . انها دنيا مثالية تشبه (مدينة الله) على ما تخيلها (اوغسطين) او (الدولة الخيالية) التي تصورها افلاطون او كمـا قال الشاعر هرك Herrick :

« ... والى (جزيرة) كل ما فيها ينبعث من الصميم دوما » والعالـم الاخر الذى تسميه الصابئة (مشونى كوشتو) أتم ما يكون طهرا وامنا ودعة . ومن تلده ام دنيوية لن يدرك الكمال الذى يتسم به اهله ، فهم خلق غريب، وان اشبهوا البشر . وهم يتزوجون وينجبون الاطفال ولكنهم لا يستشيطون غضبا ولا ينتابهم الهلع ، ولن تسيطر عليهم المشاعر الخسيسة .

والملك عندهم مشاع ، وهم يصفقون فى الاسواق ، ويُعَمَّدون .انهم كالصابئة لا يحلقون شعورهم ويرتدون انصع الثياب ولا يقربون ما هو نجس . وما ان يأزف وقت الرحيل الى الجنة الا ويسيرون اليها خفافا . انهم لايمكثون فى المطهر الا امدا قصيرا ، فهم على اشد ما يكونون طهرا ، وليس الطاهـر بحاجة الى التطهير .

وهم لا يموتون ، والدمع يترقرق فى مآقيهم ، ولا ينتابهم وصب، ولا تَـرداد بينهم كسائر الناس . ان (ملك الموت) يزورهم بالذات داعيا . وعلى ذلك يتوضأ الـ (مشونى كوشتو) ويرتدى الـ (رستة) ، تاركا جسده شـبه الروحى ، ثم يسير فى هدوء وطمأنينة الى المكان الموعود .

قلت ان البشر يموتون والدمع يترقرق فى مآقيهـم ، لكن الصابئى الصالح ، والروحانى على وجه التخصيص ، يموت ويفتر ثغره عن ابتسامه مشرقة . أما نساؤه فلا ينتحبن ، او يُعولن عند موته . وتقرر اساطير الطائفة

ان كل دمعة تهمع [٤] تؤلف نهرا كبيرا يشق على الروح الراحلة المتحررة عبوره •

وفى الحق ان مما يجعل القلوب تهفوا الى هذه (العقيدة) هو ان الصالح، بموجبها ، من كان هاشا باشا طيب القلب ضحوكا ، والضحك له اعزاز خاص مادام ذلك دليلا على راحة الذهن ، وامن القلب •

فأعظم القديسين من كان اسرع الناس الى الابتسامة طرا • وهناك سبيل آخر يسلكه الصابئى فيصبح فى حال من القدسية ، بل على مقربة من سكنة الـ (مشوني كوشتو) • فالغرباء ، من غير اهل الارض ، يلجأون اليها غالبا• ولكى يبلغ الانسان هذا الشأو عليه ان يخلف آرابه الدنيوية، وملذاته الجسدية ظهريا • والسبيل جد عسير ، وهو اشد عسرا من السبيل التى يتخذها القس الكاثوليكى ، مادام الانسان ملزما ان يعيش بين الناس كواحد منهم، وان يساكن اسرته وهو لايصيب من مباهجها شيئا •

وفى الحق ما ان تتم مراسيم (النبذ) ، وتتلى على الميت الصلاة الا ويتحول الى شبح حى ، ولا شيء اكثر من ذلك • بمقدور من ينبذ ان يتابع عمله كمزارع ، او كأحد بناة القوارب ، او صاغة الفضة ، لكن حياته تتسم بالنبذ ، والحرمان ، والفناء الذاتى • وله ان يمتنع عن التدخين ومعاقرة الشراب ، واحتساء الشاى او القهوة • وهو حر فى الامتناع عن اصدار اى أمر ، او الافصاح عن اية رغبة • فان احتاج الى شيء وجب عليه القيام الى ذلك بنفسه ، او فليستعفف عنه ! وعليه ان يعتزل كل ما هو دنيوى ، فلواندلعت النيران فى بيته وأتت على ما فيه من متاع ، وماتت زوجه وهلك اطفاله اختناقا فليس له ان يطلق ما تضيق به نفسه من احاسيس ومشاعر !

وفى سنة ١٨٨٠ كتب مسيو سيوفى عن الـ (شالمونو) وهو أسم تطلقه الصابئة على (الزاهد) فقال :

---

(٤) اذا سالت الدموع قيل همعت • (المترجم)

« ... فلو جلس الى طعامه وافتقد الخبز والملح فيه فليس له ان يسأل عنهما ، وبمقدوره ان يقوم ليهيء منهما ما يريد . وان سألته زوجه عما يريدها ان تطبخ له من صنوف الطعام فليس له ان يشير عليها بنوع معين ، وعليه ان يجيب : ذلك من شأنك حصرا . وعليه ان يلبس البيض من الثياب، ووجهه يجب ان يطفح بالبشر دوما » (٥) .

وتدعى الاجراءات التي تعزل الـ (شالمونو) عن عالم الاحياء (ساختو) . وهي تبدأ بذهاب من يطلبها الى حبر الطائفة الاعظم اولا ، فيقوم الحبر بالتحقيق عن نواياه السليمة مؤكدا له ان خطوة كهذه لن يرجع عنها ، وتلي ذلك سبعة أيام يستعد خلالها الحبر والطالب للامر ، فان اثبت الطالب ان رغبته مصممة ثابتة وجب عليه ان يشرع بالصلاة في (المعبد) طوال سبعة ايام بلياليها وفي كل يوم منها يأتيه الحبر الاعظم او الكاهن . أما طعامه اليومي فلا يعدو ٣ ارغفة رقاق من الخبز المقدس ، وكل رغيف منها بحجم البسكت المعروف بـ Osborne ومعها شيء من لحم حمام (٦) وقد غسل مسبقا واسبغت عليه البركة .

وتعرف هذه الاجراءات الدينية بـ (مورو ايدا ربوثو) : يطحن دقيق الخبز المقدس ثم يعجن ويشوى في داخل المعبد ، ويصنع منه مقدار ٦٠ رغيفا

---

(٥) "Etudes Sur La Religion des Soubbas" M.N. Siouffi 1880.
وكان سيوفي هذا نائب قنصل لفرنسه في الموصل . والظاهر ان الكتاب يزخر بمعلومات صحيحة تتصل بعقيدة الصابئة. لكن حبرها الاعظم يعتقد بأن فيه بعض الاغاليط ومنها ما اتصل بالمراسيم الدينية كالتعميد كما ان مصطلحات مسيو سيوفي تشوبها أخطاء هنا وهناك. وكتب أحد المستشرقين الالمان (بترماين Petermann عن هذه الطائفة قبله بسنوات عديدة) .
(المؤلفة)

(٦) أكد لي حبر الطائفة الاعظم ان دم الحمامة لا يمص ، على ما ورد في بعض الكتب خطأ . ذلك لان الدم محرم على الطائفة في كل زمان .
(المؤلفة)

فى اليوم الواحد ، الرغيف تلو الرغيف • ذلك ان عدد الملائكة الذين يوكل اليهم حراسة الـ (شالمونو) ، واسداء العون له : ستون • وما لا يؤكل من ارغفة الخبز هذه يوارى التراب فى المعبد ، والمراد من ذلك ان الرغبات الدنيوية والملذات الجسدية التى تراود الانسان الاول قد تم دفنها ايضا ، فان لم يسعفه اللحم سمح له بشىء من الزبيب والجوز ليقيم به اوده ، ولا يسمح بما هو اشد صلابة من ذلك •

وفى آخر الاسبوع يقام حفل يدعى اليه الـ (شالمونو) المستجد فى بيت الحبر الاعظم • وما ان ينتهى الحفل الا وينهض الروحانيون جميعا وبيد كل منهم آخر لقمة من طعامه • ثم تقام صلاة الميت على الـ (شالمونو) بخشوع ، وتلتقم اللقمة الاخيرة على غرار ما يجرى بالنسبة لمن يموت حقا • ان اللقمة الاخيرة بزعمهم هى التي تقيم اود الروح فى رحلتها عبر المطهر •

ان نفسى لتمتلىء اسى وكمدا على زوج مثل هذا الانسان • وفى الحق انها قد تطمئن بقولهم ان لو قتل الزوج ولم تجر له مراسيم الدفن الدينية فان روحه المحررة ستمضى سراعا من المطهر الى الجنة ، لكن هذا عزاء لا غناء فيه لمن تزوجت كائنا حيا فأصبحت زوجة اسمية • انها تقوم له ، مع ذلك كله ، بكل ما تستطيع من امور البيت فى غير الحاف او لجاجة • وقد تثور الزوج ، على الرغم من كل شىء ، فى وجه الروحانيين وان أصرت على أن تعيد زوجها من روح بلا جسد الى جسد بروح أصبح طلاقها أمرا مقضيا ، ولن تتزوج المطلقة فى عرف الطائفة غالبا ؛ فعليها اذن أن تستسلم الى القدر المحتوم •

ان حياة الـ (شالمونو) أشق من حياة الروحانيين • فلا ضير أن يتزوج الروحانى وتتزوج الروحانية ، وقد يكون زواجهما فى عرف الطائفة الزاميا • ومن يروم الانخراط في سلك الكهانة أن يبدأ تدريبه لذلك فى سن مبكرة • وابن الروحانى ، فى الاغلب الاعم ، روحانى الطائفة فى قابل الايام • ويعمد على وجه خاص عند بلوغه السابعة ثم يكون فى المرتبة الابتدائية من نظام الروحانيين قبل ان يبلغ

العشرين من العمر • وهو يقوم خلال هذه المدة بمساعدة الروحانيين المتقدمين عليه ، كما يحفظ كثيرا عن ظهر قلب • وعليه ان يرتدى ال (رستة) ابان اسهامه فى المراسيم الدينية • وتمر سنة أخرى فيصبح مرشحا الى درجة روحانى وعندئذ يسأل القوم عنه ، اذ لا امل لمن تشوب سلوكه شائبة فى هذه الدرجة ابدا •

ثم تعقب ذلك طقوس رمزية غريبة يستهل بها الروحانى حياته الخاصة : فيبنى اولا كوخان متباعدان من القصب ، ويمضي المرشح ليلته الاولى فى احدهما مسهدا طوال الليل ومصليا • ثم يحرق هذا الكوخ ولا يبقى له اثر ، فيمضى المرشح الى ثانى الكوخين ويقضى فيه ٦ أيام بلياليها مسهدا طوال الليل ومصليا أيضا • ولقد أكد لى الحبر الاعظم ان المرشح لن ينام طوال الاسبوع، فيغالب فى ذلك الالم الجسمى بقوة الروح • ولو نجمت اى حال تحيله الى نجس ، او اخذته سنة من النوم ، او رآى فى نومه ما يراه الانسان من حلم ، لوجب عليه ان يعيد المراسيم والطقوس كرة اخرى • وفى كل يوم توضع عليه (رستة) جديدة • والمرشح ملزم بان يتصدق خلال هذه الايام على الفقراء فيطعمهم ، ويؤدى الزكاة • وفى اليوم الثامن ، وهو يوم الاحد ، تقام على هذا الرجل المكدود مراسيم الدفن، ثم يؤخذ الى النهر من قبل ٤ روحانيين، و يعمد فيه • وعليه بعد ذلك أن يتعمد ٣ مرات يوميا خلال ال ٦٠ يوما القابلة والمخصصة لذلك دونما عرقلة أو تأخير •

ويقتصر طعامه ابان هذه الفترة على بعض الانواع ، كما يطلب اليه ان يختبز (٧) بيده ، ويجب أن ينقى الخبز سبع مرات قبل أكله فان انتهت ال ٦٠ يوما فيهمد الروحانى مرة أخرى ومعه نساء بيته هـــذه المرة • وفى اليوم التالى يقيم الروحانى مأدبة يوزع خلالها الصـــدقات والملابس على الفقراء

---

(٧) يصنع الخبز ويتخذه .

(المترجم)

والبائسين ، فيها قد أصبح الان روحانيا له سلطات تامة ، وواجبات معينة وفي مقدوره ان يقوم بمراسيم التعميد ، وسائر الطقوس الدينية ، باستثناء مراسيم الزواج ، فهي من اختصاص الحبر الاعظم حصرا .

ثم يأتي دور الحبر الاعظم اذ يقرأ عليه عند تنصيبه الـ (مساختو) ، ولكن ذلك لن يصيره شبحا حيا كما يحدث للانسان السوى . فله أن يعتزل زوجه شهرين ، ولا يعلق به أى شيء من المحرمات Taboo . وهناك بعض المراسيم الممتعة التى تجرى ابان تنصيب الحبر الاعظم ، ويضيق عن سردها مجال هذا الفصل . كما لا مجال أيضا لوصف حفلة العرس التى تقام لابناء الصابئة وبناتهم ، وما يتخللها من طقوس التطهر ، ولكن سأصف عمليـــة كتب لى ان اشاهدها من أولها الى النهاية :

ففى أحد الايام (والصابئة تهدى أول أيام الاسبوع الى الشمس شأن الغربيين) دعانى الحبر الاعظم الى بيته قبل الظهر ، حيث تبدأ المراسـيم فى مثل هذا الوقت من النهـار . وما ان دخلت البيت الا رأيت الحبر الاعظم يهرع لارتداء الـ (رسته) ويتوضأ . وسرعان ما عاد ، وبيده عصاه الروحانية وقد لبس البياض ، ليقف على حصير ، والشمس خلفه ، وبذلك أصبح قبالة النجم القطبى ... ثم بدأ بصلاته .

أما اخته فقد جلست وراء ظهره وهى تلف سيكارة وترنو اليّ باعزاز ، وتنطق بين الفينة والفينة كلمة توضيـــح ، أو تدلى ببعض المعلومات المتصلة بأسرة (الحبر) بصوت غير منخفض ...

وكانت كتب الحبر الاعظم موضوعة فى حقيبة صغـيرة رميت على الارض . وهناك وعاء صغير وسميك مصنوع من الطين المفخور يتوسط اناء له مرشفتان فى الجانبين ، وقد وضع الاناء على مسند مدور مصنوع من الطين المفخور ، وهو مجوف فى الوسط قليلا . (وجيء بالخشب ووضع عليه الفحم وأشعل جيدا) . وعلى مرشفة الاناء وضع شيء أشبه ما يكون بدواة مربعة ،

وبها بخور مسحوق • وعلى مقربة من ذلك ، وعاء نحاسى ، وقنينة زجاجية ،
وشيء من الطعام ، وبعض أغصان طرية من شجر الآس [٨] • ووقف ابن
الحبر الاعظم ، وهو ممن يسعون الى الدخول فى سلك الروحانيين، قريبا
ليكون فىعون أبيه•لم أر رجلا فى حياتى يصلي بنفس طويل ، واستمرار
كالحبر الاعظم • ولقد دأب على صلاته ساعتين تمت خلالهما عملية التعميد •
ولم يستخدم أى كتاب ابان ذلك ما خلا بعض أقسـام صـلاته • انه يتلو
صلاته عن ظهر قلب ، ولم ينقطع صوته خلالها أبدا • فبدأ أولا باسباغ بركته
على كل قسم من أقسام (الرسته)التى يرتديها،ثم أخذ يرمى شيئا من البخور
فى الصحن ، ويقوم فى أثناء ذلك بطقوس متقنة جدا • وهنا وضع (الحبر)
شيئا من الطعام في آنية ، ثم اختفى ليصنع الخبز المقدس (بيثو) •وما ان
عاد منذلك الا وشرع فى اختبازه • أما اخته فألبست ابنأخيهالصغير الرسته،
واخذ الطفل يرنو الي مبتسما على الدوام • وأسهم الطفل فى المراسيم الدينية
هذه وأخذ يكرر بعض ما يرتله (الحبر الاعظم)،ثم التقط افانين الآس،وجمع
الحبر جمع أدواته ومشى الجميع وأومأ الي بأن أسير فى اثرهم • وأكدت لى
الاخت ان كل هذا سيعاد كرة أخرى فى الغد » •

وسرنا على حافة شارع صغير حتي بلغنا النهر ، وقد قام على ضفتيه بيت
كانت المرأة التى يراد تعميدها تنتظرنا فيه • ولم يكن هـذا بالتعميـد الذى
يجرى فى يوم الاحد عادة ، ولكنه التعميـد الذى يتم فى اعقاب الولادة •
ومهما كانت برودة ماء النهر ، أو سرعة جريانه ، فلا معدى من أن تعمَّـد
المرأة فى الاحد الرابع من ولادة طفلها ، وما لم يتم غسلها فهى غير طاهرة ،

---

(٨) ذكر الآس وقيمة شرائه فى الكتابات القديمة فى العهد البابلى
القديم والعهد الآشورى القديم • وهو يستعمل فى القبور ويوضـع فى
التابوت وقد يزرع حول القبور وهو مذكور فى (التلمود)• ان الراقصين فى
مقدمة موكب الزفاف يحملون بأيديهم الآس • واسم الآس بالبابلية مثل
العربية (آسو) وبالسريانية (آسا) •

ولن يجرأ على لمسها أحد • وتفرد لمثل هذه المرأة أوانى الطبخ والادوات اللازمة الاخرى ، ومن الضـروري أن يجرى تطهيرها فى نفس الوقت الذى تعمد فيه المرأة •

والبيت الذى وصلناه بيت لطيف نظيف تحف به الاشجار وينمو فى باحته النبت العميم • ووجدنا فيه بعض الروحانيين والروحانيات فى انتظار مقدمنا ••• وسرعان ما بدأ الجانب العلنى من الصلاة • ولست بسـبيل الاسهاب فى وصف تلك الطقوس المعقدة ، والبخـور يتصـاعد خلالهـا فيملأ الجو ، وما جرى من اغتسال ولي" لاغصان الآس وجعلها تشبه الحلقات وما الى ذلك • ذلك ان أهم ما فى ذلك كله هو التعميد الفعلى • وكانت المرأة التى يراد تعميدها مرتدية الـ (رسته) ، وفوقها عباءة ، وهي تقف على حافة النهر ، وتنتظر • انها ليست بطاهرة فلا سبيل لدخولها الدار • وخاض الحبر الاعظم فى النهر ، حتى بلغ ماؤه الركبتين ، وبيـده عصاه الروحانية • وبعـد ان قـام ببعض المراسـيم دعا المرأة الى خوض النهر والاتجاه اليه • وصدعت المرأة بما أمرت ثم غمرها المـاء كليـا لثلاث مرات ، وكان الحبر الاعظم يرمى عليها الماء ليتوثق من انها ابتلّت تماما ثم اعطاها من ماء النهر لتشرب • واخذ برأسها بعد ذلك وجعل يغطسه تحت مائه مرات عديدة •

وخاضت المخلوقة المبتلة ماء النهر خارجة وهرع الاطفال وكل منهم يحمل أحد الآنية « الملوثة » الى الحبر الاعظم الذى أخـذ يتناول كل اناء ويدخله فى ماء النهر وهو يرتل صلواته بلا انقطاع •

وعاد الكل الى البيت ، والمرأة مبتلة من رأسها الى أخمص قدميهـا ، فوقفت أمام الحبر الاعظم ليسبغ عليها بركته ، ثم تلت ذلك بعض المراسيم الاخرى ••• وسمح لها بأن تنصرف • أما طفلهـا فيجرى تعميـده فى فرصة قادمة •

ان مثل هذا التعميد المستدام لا بد وان يجعل من أبناء طائفة الصابئة صلاب العود ، أشداء ، ذلك ان ماء النهر ابان الربيع ، والثلوج تصب ذوبها فيه ، على أشد ما يكون برودة • وان امرأة حملت طفلها وهنا وزادتها (الولادة) وهنا على وهن ، لابد أن تتجلد ازاء قسوة الماء البارد فى مثل هذا النهر • ويقال ان كثيرا من الامهات الضعيفات يمتن ابان التعميد •

وتجرى جميع المراسيم الدينية بلغة المنداى ، وهى لغة قديمة يتكلمها جميع الصابئة ويكتبون بها ••• وذلك على الرغم من ان لسانهم العربى يتفصح بطلاقة •

انهم يتكلمون العربية فى بيوتهم ، أما المندائية ، وهى من اللهجات السُريانية ، فيتعلمها أطفال الصابئة جميعا ويتكلمون بها •

وهذه الطائفة تسير الى فناء ، اذ لا يزيد عدد أبنائها اليوم على بضعة آلاف شخص ، وذلك على الرغم من لطافة بنية هؤلاء الابناء وأمانتهم والتزام النظافة فى معيشتهم •

ومما يملأ قلوب أبناء الطائفة بالاسى أن تعمد بعض الصابئيات الى الزواج من جيرانهم المسلمين • فقد تهوى احدى العذارى الصابئيات شابا ، ثم تسعى الى استمالة رجال الصابئة واقناعهم بأن الاصهار الى أسرة مسلمة سبب فى حمايتها من الاضطهاد ، أو القتل فى يوم من الايام •

وأراني الحبر الاعظم كتب الطائفة المقدسة • انها لم تطبع ، ولكنها مكتوبة بخط واضح جميل • والروحانيون يكتبونها لقاء دريهمات معدودات، وقد يستغرق استنساخ (كتاب الله) شهورا عدة • والكتاب الرئيس من بينها هو كتاب الـ « كنزا - رابا » وهو فى جزئين ، واحدهما مكتوب بوجه مقلوب • ويقول البعض ان ذلك ييسر قراءته من قبل راهبين فوق الماء الجارى • ولقد انكر مثل هذا القول الحبر الاعظم ، وقال ان القسم المقلوب يتضمن الصلاة على الموتى •

ويأتي بعد هذا الكتاب ما يسمى : (يحى درافشود) وهو عبارة عن سيرة ومعتقدات القديس حنا ، ثم (نيان الراحانى) وهو من كتب الصلاة ، و (كتاب المسوتيا) وفيه مراسيم التعميد ، ثم (كتاب القلستا) وفيه مراسيم الزواج ، وأخيرا (النشيترا) وهو مجموعة من الصلوات ، ويتضمن نظام الطقوس المختصة بـ (المساختو) أيضا • هذا واني لا أعتقد ان الحصول على نسخها بالامر الصعب البعيد ، ان كان المرء على استعداد لدفع الثمن • ذلك ان استنساخ الكتب المقدسة هو من موارد الدخل لدى الروحانيين، يضاف اليها رسوم التعميد ، وخمس الدخل السنوى ، وهو ما يقوم الصالحون من الصابئة بدفعه الى الروحانيين •

ويحترف صابئة العمارة والناصرية وسوق الشيوخ حرفة واحدة ، تكاد تكون مقصورة عليهم ونعنى بها بناء (المشاحيف) ، وهي قوارب مجوّفة تستخدم فى البطائح (أهوار العراق) • ولعل هذه الصناعة اليدوية قديمة قدم بناء القفة • وهناك كثير مما يحملنا على الاعتقاد بأن الصابئة شعب قديم ، ذو تاريخ موغل فى القدم • ولعل من أخص ذلك هذه الاسماء التى يطلقونها على النباتات ، وهي فى كثير من الحالات أسماء الآلهة القدامى ، وعلى ما عرفتهم هذه البلاد بالذات ـ منها : شماش ، سن ، سيرا ، ليفت ، نيراغ ، كيوان ، امنبو ، بعل • ان هذه تعود الى الزمن الذى كانت المعابد الزقورية قائمة فى سهول هذه البلاد ، ما فى ذلك شك •

ومن الكلدانيين استعار الصابئة اجلالهم النجم القطبى • وخلف هذا النجم يجلس (اواثر) ليحكم بين الناس بالعدل • انهم يعتقدون ان السيارات أرواح ، ولكل روح منها واجب يقوم به فى العالم المنظور • فشماش اله الشمس العريق ، يحكم النهار ، وسيرا (القمر) يحكم الليل • أما ليفت (الزُهْرة) فهى التى توحى بالاختراع وتوجه الصناعة البشرية ـ لذلك فان الطائرة والتلفون من آثار فعلها فى عقول البشر • و(نيراغ) ـ المشترى ـ

هو الذى يجلب البرق ويسبب الحروب ، و(كيوان)سبب الرعد ،و(رابنوا ـ او نيبو) الذى ينزّل المطر ، ويرسل السحاب . أما (بعل) الذى كان للبابليين ربّاً أعظم فانه يحكم النجوم غير المأهولة .

ولا تصلي الصابئة لارواح السيارات هذه ، ولكنهم يعتقدون انهـا تؤثر فى البشر والحوادث . لذا فان علم النجوم محترم لديهم ، ولن يقدم أحد على مغامرة ما بدون استشارة النجوم . فأن ولد طفل عنى أبواه بالكشف عن طالعه على ما تنبىء أيام السعد ، وأيام النحس ، وعلى ما يقرره سحر النجوم . ولنسأل أنفسنا (أ نحن أكثر من هؤلاء علمـا ولدينا من أمثـال كتاب Almanach و Old Moore's ، والفلكيين ، وقراء البخت ؟! .

ان الصابئة [٩] من المتألهين وليسوا ممن يؤمن بالخرافات ، ودينهم يؤمن بعالم آخر ، ولهم مثل عليا تتصل بالروحانية والسلوك . وتمثل جميـع الطقوس الدينية والصلوات المطولة أمرا واحدا : ميلا شديدا الى طهـارة القلب ونقاء الروح ، وبذلك تتصل حياتهم بالسماء ، وان طهارة أرواحهـم هذه تشبه طهارة أرواح المخلوقات المعصومة والتى تسكن العـالم الغريب (مشوني ـ كوشنو) .

---

(٩) يعتقد الصابئة « المندائيون » انهم يتبعون تعاليم آدام ، ولديهم كتاب الكنزا ـ أى صحف آدم ـ غير ان تقادم العهد على الرسول الاول للدين ونشوء بعض المذاهب الزائفة والاديان الوثنية ، كل هـذه أدخلت تعاليم غريبة فى الدين ، فجاء (يحى) ليخلص الدين من هـذه المذاهب الدخيلة ، ولم يكن رسولا ، بل نبيا خاصا بهم » الدكتور عبدالجبار عبدالله (رئيس جامعة بغداد) : فى هامش كتاب (العراق فى القرن السابع عشر) ص ١٠٣ (بغداد ١٩٤٤ م) .

الفصل الخامس

اليزيــــدية(١)

و

(عبادة الشيطان ـ طاووس ملك)

... فى خريف ١٩٢٢ كنت نزيلة الموصــل .

ومن بغداد جاءنى ما يفيد أن لا سبيل لامرأة أن تزور كردستان ، فهى تمور آنذاك بالقلق والاضطراب . وساورنى من جراء ذلك شعور الخيبة والأسى اولا ، لكن مقابلة مع (المشاور الادارى) اسفرت عن السماح لى بزيارة التلال الواقعة خلف (القوش) ـ على حدود المنطقة الكردية . انها المنطقة التى كنت شديدة الشوق لزيارتها بالذات ، ذلك اننى كنت اتطلع الى التعرّف على (اليزيدية) و (عبادة الشيطان) عن كثب .

---

(١) تنحدر طائفة اليزيدية فى العراق من الاكراد ، ولعلهم هاجروا الى موطنهم الحالى بجوار الموصل (فى قضاء سنجار وبعض قرى الشيخان) من شمال البلاد . انهم ينفردون فى مساكنهم الجبليــة ، لذلك احتفظوا بدينهم القديم الذى خالطته على مر الايام بعض البدع . أراد العثمانيون ابان حكمهم الطويل فى العراق تبديل دين هذه الطائفة وجعلهم مسلمين فجردوا لذلك حملة عسكرية استولت على بعض قراهم الا انها أخفقت فى تحقيق هذا الهدف . وفى خلال الحرب العالمية الاولى أخذ اليزيديون يغيرون على خطوط مواصلات العثمانيين مما اضطر هؤلاء الى ارسال حملة عسكرية تأديبيــة . والطائفة تخضع فى أمور عقيدتها الى (أمير) ـ والامير الحالى يدعى تحسين (بك) ـ وهو يسكن قرية (باعذرى) ، وأفرادها يحجون الى مزار الشيخ عدى بجوار القرية ، ومن هذه الطائفة فئة تسكن القفقاس وغيرها . ويقدر عدد أبناء هذه الطائفة بحوالى ٤٠ ألفا منهم ٢٥ ألفا يسكنون فى لواء الموصــل وهم جماعتان : الجماعة الاولى تسكن جبل سـنجار (١٧٫٥٠٠) والثانيـة تسكن القرى المتناثرة بجانب جبل مقلوب وأول التلال الكردية ، ولا سيما فى منطقة قضاء الشيخان . (المترجم)

وامير هذه الطائفة (سعيد بك) يسكن قرية (باعذرى) فيما وراء (القوش) ببضعة اميال . ومزار الطائفة الرئيس هو (مرقد الشيخ عدى) ويقوم بين شعاب التلال الكائنة خلفها .

... واتخذنا سبيلنا الى (القوش) حيث استضافنا نفرٌ من رهبانها المسيحيين الكرام . وفى بكرة الصبح رحلتُ منها ، مع رفيقىَ ، بالسيارة . وكانت الطريق وعرة عسيرة، وغارت عجلات السيارة فى أرض رويت حديثا تقع بجوار أحد التلول الآثورية . وأخفقت الجهود المضنية التى بذلناها لاخراج السيارة من الوحل ... فتعالت صيحاتنا طلبا للنجدة ... وسرعان ما لمحنا حاصبا من الرجال الاشداء ، وفى اثرهم حزقة من الصبيان ، يندفعون الينا من قرية يزيدية دانية ، وهم يتضاحكون . ان كل واحد منهم يرتدى اللباس اليزيدى الخاص : قميصا ذا عنق مستديرة ، له اكمام واسعة ، ويحيط به فى الخصر ، مشدّ ، وهو يعلو سروالا واسعا .

وبتلك الاكتاف القوية ، والارادة المصممة زحزحت السيارة من الوحل، واستقرت على الارض اليابسة . وناولناهم عن مجهودهم نقودا ، جزآء وفاقا لكنهم رفضوا ذلك بإباء وشمم ، فالنجدة تشيع فى نفوسهم سرورا ، ومن العيب ان ينال المرء على النجدة اجرا !

وانحدرت سيارتنا من قريتهم المسماة (جراحية) ... وعبرنا جدولا تسلسل ماؤه الغدق الرقراق فوق الصخور الملساء ، ثم سارت بنا بعد ذلك على ارض قوية صلفاء ، فترة من الزمن ... حتى تراءى لنا ، من بعيد (بيت الامير) ـ او بالاحرى ، حصنه المنيع ... وقد نحت فى تل صخرى . وتناثرت هنا وهناك بيوت قرية (باعذرى)(٢) على اقدام الحصن

---

(٢) هناك أسماء عديدة لقرى ومواقع مجاورة للموصل وكلها تحمل فى مقدمة أسمائها (با) أو (بى) وتكتب هذه اللفظة دائمـا فى المخطوطات الكلدانية .. أو بيت مثل باطناية ، باقوفا ، باعذرى ، بى مريم ولعلها من أصل آشورى قديم

(المترجم)

المنيع ، ولم نستطع رؤيتها بجلاء ووضوح الاّ عندما قاربتها سيارتنا ، وهى تسير على طريق متلوية فى الوادى الاخضر ، يرويه ماء ينحدر من عين ثَرّة فى اعلى الجبل ، وقد تعالت فى جوانبه اشجار الزيتون ، واللوز والفاكهة الاخرى . وفى مشارف القرية (شجرة متقدسة) يحيط بها سور صخرى يقيها اللمسات النكراء ! .

ولشدّ ما تملكنا العجب ! ... فالامير لايستقى من ماء هذا الجدول الصافى العذب ، انه ينفرد بساقية تقع خلف الحصن ، ولا يسمح لاى فرد من عامة (رعيته) ان ينال من هذا المورد الطهور ! .

وتناهت الى اسماعنا ، ونحن نغادر السيارة على وصيد باب بيت(الامير)، قرعات طبول ونغمات مزمار ... تنبعث من القرية الوادعة الصغيرة . انها حفلة عرس ، والقوم يرقصون رجالا ونساء على حفافى جدول يتسبسب بين بواسق الشجر .

وحصن (الامير) مشيّد بالحجارة الضخمة ، وله باب كبيرة عليها قرنان ... وتفتح الباب على باحة خارجية كبيرة ، فيها باب ثانية تفتح على باحة داخلية صغيرة ، تضم (المضافة) الواسعة ، حيث امضينا ليلتنا الاولى ، وتحت المضافة غرف عديدة خصصت للخدم وبجوارها اسطبلات الخيل . ومن الباحة الداخلية الصغرى يمكن الوصول الى بناء مربع آخر هو مسكن الامير الخاص ، وفيه سيدات الحصن .

واديرت علينا فناجين القهوة ، رمز الترحيب بالضيف . واصطحبنا الامير الى حفلة العرس ، فلقد شاء ان يشرّفها بحضوره . وفى غمرة الحفل خطر ببالى أن أزور العروس فى خدرها ، ففعلت ! لقد وجدتها بنتاً صغيرة لايزيد عمرها على ١٢ سنة وهى تجلس منكمشة ، متوردة الخدّين خجلا ، فى ركن من اركان غرفة ، شبه مظلمة . ذلك ان تقاليد اليزيدية تلزمها بقضاء ايام عرسها الثلاثة الاولى فى شبه عزلة ، لا ترى فيها وجه النهار !

اما العريس فشاب يناهز عمره الثلاثين ، ولقد وجدته شديد التوق الى ان اصوّر له عروسه ، لكن الضوء القليل الذى كان ينساب الى الغرفة حال دون ذلك ، كما لم يكن بمقدور العروس ان تخرج من خدرها ابدا .

لليزيدى ان يتزوج اربع نساء ، ولا يحلّ له طلاق زوجه كما يفعل المسلم ، اذ لن يفرّق اليزيدى عنها الاّ الموت ، ومن تجلب معها صداقا محترما من اليزيديات تحتلّ فى بيت الزوجية مقاما محمودا مرموقا . ولا تضع اليزيدية النقاب على وجهها الا خلال الاسابيع الاولى من زواجها ، وحقها فى الملك والتملك مصون محترم . و (الامير) له حق مطلق فى التصرف بشئوون (اتباعه) وبمقدوره ان ينكح ما طاب له من نسائهم لا تثريب عليه فى ذلك ولا لوم ، انه (رأس الطائفة الدينى والدنيوى) فلن (يخطىء في تصرفاته مطلقا) !! .

ويفضل اليزيديون اللون الاحمر على سائر الالوان ، وتتزين نساؤهم بحلى بدائية . ويبارك الزواج عندهم بكسر الرغيف ، وبحضور الشيخ . وهو الذى يأخذ بيد العروس الى بيت زوجها ، وعلى وصيد الباب لابد ان ينحر خروف عند قدميها (٣) .

وقفلنا راجعين الى بيت (الامير) حيث احتسينا الشاى ، وقمت بعد ذلك بواجب زيارة السيدة زوجه .

ثم جاء دور زيارة مرقد الشيخ عدى . ذلك ان الامير اعلمنا انه ارسل من يخبر قيّمه بمقدمنا ، واعداد القِرى (٤) لنا ، كما نصحنا بأن

---

(٣) وعندما تزف العروس الى بيت عرسها لا بد لها من أن تمعن النظر في كل فرد ، أو شبح مقدس (كالشجرة المقدسة مثلا) ، أو الكنيسة المسيحية ، تمر به فى طريقها . وعندما تلج بيتها المقبل ، على العريس أن ينثر فوق رأسها أجراسا صغيرة وضعت فى آنية . وعليه بعد ذلك أن يكسر فوق رأسها الرغيف لتصبح من أهل الخير والاحسان ، تطعم البائس والجائع الفقير .

(٤) القرى — طعام الضيف . (المترجم)

نصطحب ، بالاضافة الى الشرطى الذى يرافقنا ، حرّاســا مسلحين ... فالطريق الى المزار غير امينة ، يسرح فيها اللصوص ويمرحون ... انهــا طريق وعرة صاعدة ، تتلوى كالأفعى بين التلال ، فلا معدى لنا من ركوب البغال ... لذلك امر الامير ان تعدّ لنا وتسرج ... واتخذنا سبيلنا بين التلال المحيطة بالوادى المقدّس ، وبعد نصف ساعة كنا نسير على الطريق التى يسلكها حجّاج اليزيدية فى زيارة المرقد ، ورأينا على جانبيها الحصى التى يرمونها ، وهى من شعائر حجهم هذا ، كما مررنا بكثير من الاشجار المقدسة المسوّرة ، من نوع الشجرة المقدسة التى رأيناها اول مرة .... وانتهى بنا المطاف الى قبة مزار صغير ، انها تربة (الشيخ المصلّخ) ، ولست اعرف ان كان هذا الشيخ يزيديا بالفعل ام لا ؟ ولست اعرف لم سمّي بهذا الاسم الغريب ؟ ! . لعلّ قطّاع الطرق تصدوا له في احد اسفاره فسلبوا منه لباسه فانطبق الاسم على المسَمى ؟ ! . وليس هذا ببعيد فى مثل هذه الارجاء.

وتياسرت قافلتنا ، وتيامنت ، فى سيرها على الطريق الصخرية ... لقد برهنت البغال على انها شديدة الجلد ، فهى لاتعرف كلالا ولا ملالا ، ثابتة الاقدام ، لاتباريها فى ذلك الخيول ابدا .

وكانت الشمس مشرقة ساطعة ، والجو رائقا ... وكان حراســنا ينهلون من النسمات اللطيفة وتنطلق منهم بين الفينة والفينة ، أغان تُعلي من شأن الشجاعة ، والاقدام فى الوغى ... يسرى فى الفاظها روح عذب ،وهى البديل الاوحد عن اغانى الصبابة فى مثل هذه الربوع .

وتسلقت البغال قمم التلال تباعا ... ومزار الشيخ عدى لا تقع عليه العين . وبعد ثلاث ساعات وصلنا قمة تلّ كثيف الشجر تنحدر منه طريق الى الوادى المقدّس . ومن القمة هذه سلكنا سبيلا متعرجا تضللّه اشـجار البلوط ، وسرعان ما ترآءت لنا قبة المزار البيضاء ! وقبب المزارات اليزيدية ومراقد شيوخها تزدان بهذا اللون الابيض اليَقَق الناصع .!.

وشاهدنا فى الطريق حجرا مربعا يرشد الحجاج الى المكان الذى يجب ان يخلعوا نعالهم فيه ، وعلى الحجر بقع تخلفت عن الزيت الذى يوقدون به ذبالاتهم ... فالوادى فى ليالى الاعياد يلتمع بأضواء هذه الـذبالات فى شكل عجيب .

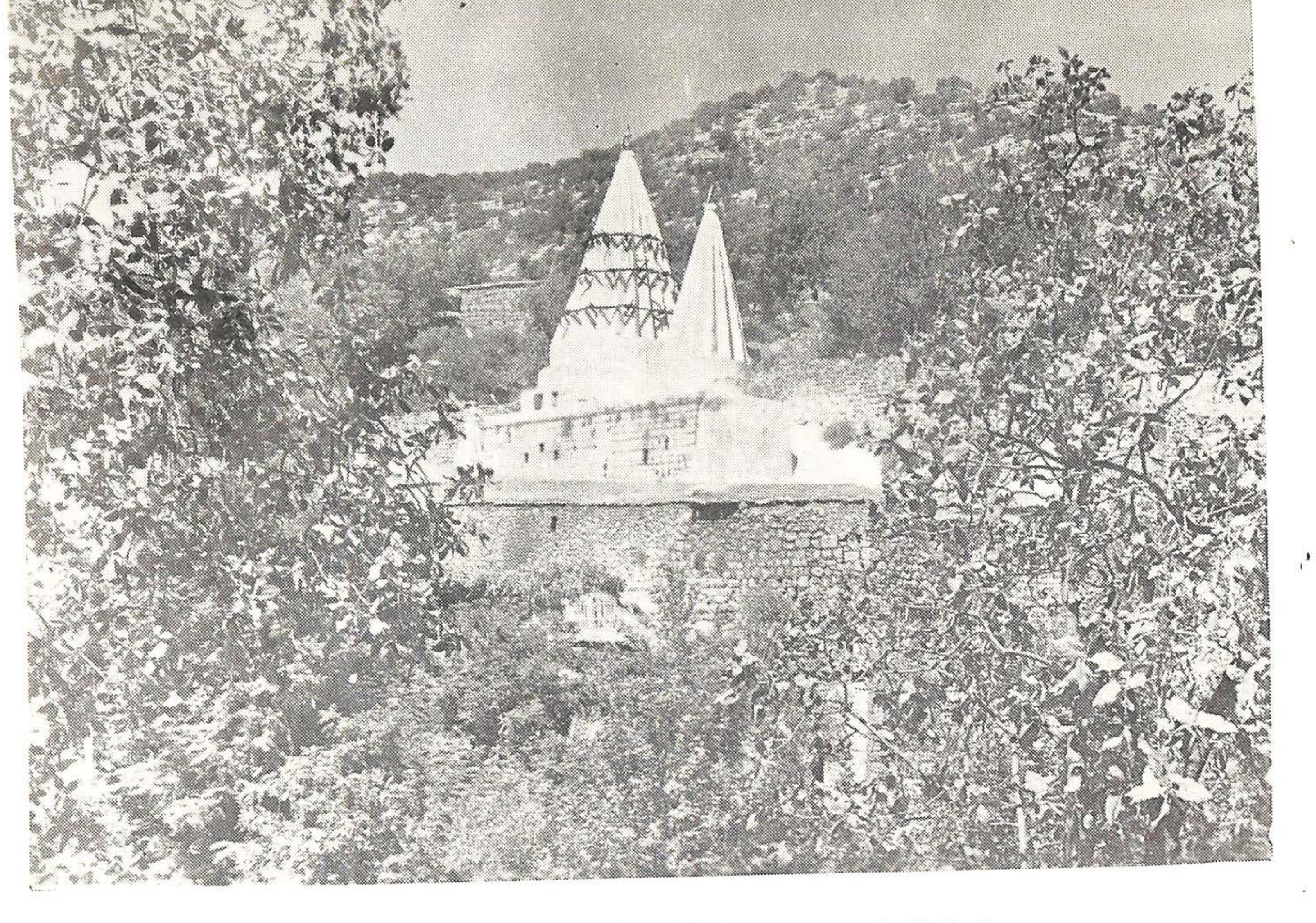
وقيم المزار يضع فى الداخل ما يضعه هؤلاء الحجاج فى هذا الوادى، فهو يمر كل مساء حاملا احزمة من الذبالات (الفتائل) وجرة مليئة بزيت الزيتون ، ويضع فى كل شق من شقوق جدران المزار ذبالة فى قليل مـن الزيت ويشعلها ليخنق لهبها داخل المزار ويتطاير سناجها حتى تنطفىءقليلا قليلا .

حقا ان الوادى الشجير هذا ، وقد توج بالمزار الابيض ، لأروع روعة وابهر جمالا من ان يستنفد فيه القول ...

وفى نهاية الممر المنحدر استقبلنا قيم المزار المسمى (حسن فقير) ، عند باحة المزار الخارجية ، مرحبا باسما . انه فى الخامسة والخمسين من عمره ، قوى الجسم ، طويل الانف ، وطول الانف من مميزات اليزيدى الجسمية .

وفى باحة المزار قامت اشجار التوت معرشة ، انها باحة واسعة رصفت بالحجارة ، وفيها ثلاثة احواض ، ينصب فيها ماء عذب بارد زلال وهو ينبجس من شقوق الحجر الصلد . وسرعان ما اندفعنا صوبه ننهل منه فيشفى منا الغليل ويبرد اللظى .

وكان القيم حسن فقير يرقبنا سمحا كريما ، فما كنا لندرى اننا نشرب من الماء المقدس الطهور الذى يعمد فيه اطفال اليزيدية حالما يدرج أحدهم . وللمـــاء فى جـريه خرير لا ينقطـــع ، وهـــو ينحـــدر تارة فـى ساقية صخرية ، وآنا يحل فى حوض ، ومرة ينساب تحت الارض ، وليظهر، فى خاتمة المطاف وقد انطلق من اساره على الارض الفضاء .



تربة الشيخ عدى بن مسافر الاموى فى (باعذرا) ـ الموصـــل ٠

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش

ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و

ى پ چ ژ گ ڤ

SCRIPT USED IN YAZIDI HOLY BOOKS

الحروف التى تستعملها (اليزيدية) فى تدوين كتبها المقدسة
وما يقابلها من الحروف العربية

ويعتقد اليزيديون ان مصدر هذا الماء هو (بئر زمزم) بمكة ، وانه ينساب الى بلادهم باعجوبة ، وانه جماع للمزايا والفضائل • وهم يصنعون من سكب ماء الشيخ عدى على ترابه الواحا من الطين ويجففونها ويتبركون بها فى كثير من مناسباتهم الدينية واحتفالاتهم • ففى حفلة الزواج تكسر لوحة منها نصفين ويعطى كل من العروسين نصفا ، وبذلك يعقـد النكاح فعلا ، وان غاب عنه الرجل الدينى • وهم يضعون لوحة منها بين شفتى الميت قبل دفنه ، وهم لا يحضرون الاعياد ، او المناسبات الدينية الاخرى ، الا صحبة هـذه الالواح التى يرسلها لهم شيوخ القرية •

وقادنا مضيفنا الى باحة اخرى احيطت بجدار فيه اطواق كثيرة ، كل طاق منها يتخذ حانوتا ايام الحج المعدودات ، حيث تقام خلالها سوق كبيرة • ومنها سرنا لنجلس فى عريش نثرت تحته الوسائد المريحة • واديرت علينا اقداح الشاى ثم جىء بعد ذلك بقليل بصحن كبير من الرز وعليه ما يشبه الاكلة الغربية المعروفة بـ (اومليت) • انها تحتل المحل الذى يحتله عادة الدجاج فهذا محرم على اليزيدية اكله • واستخدمنا الاصابع فى تناول الطعام، على ماهو مألوف فى هذه المنطقة وفي غيرها ، وسقينا المخيض (٥) (شنينه) وتلتها فناجين القهوة اللذيذة •

واخيرا اقترح القيم المضياف ان نطوف بالمزار • انه اشـبه ما يكون بكنيسة مسيحية ، ولقد اعيد بناؤه مرات عديدة • وانك لتجد على بابه رموزا سحرية غريبة ، لعل ابرزها ما يمثل حية(٦) لها رأس اسود ، وقد حفر الرمز هذا على ايمن الباب • ويقبل كل حاج رمز الشيطان هذا ابان حجه • وخلعنا احذيتنا عند وصيد الباب ، انه مقدس لايلمس باليد ابدا • وفى داخل المزار يسود الظلام الا أضواء قليلة تنبعث من ذبالات أو قناديل يضعهـا

---

(٥) المخيض ـ اذا مخض اللبن واستخرجت منه الزبدة •

(٦) يلاحظ ان (الشيطان) او (الحباب) فى العربية من اسماء الحيـة الخبيثة ـ فقه اللغة للثعالبى



باب تربة الشيخ عدى بن مسافر الاموى ويشاهد الى يمين الداخل
صورة حية سوداء

أمام الصفحة ٢٥٤

الحجاج فيه • وبناية المزار تأتلف من طاقين يرتكزان الى اعمدة ستة ، مربعة الشكل ، تزين كل عمود منها ستارة ، أو علم له الوان ثلاثة اصفر ، واخضر ، واحمر بلون الكراز •

ويقع مزار الشيخ حسن فى الجهة الشمالية ، وهو يضم صندوقا من صناديق الموتى غطى بستار كثيف ، ومن هذا المزار يلج الزائر بابا واطئة تؤدى الى مرقد الشيخ عدى نفسه • ان طول القبر حوالى ٧ اقدام ،وعرضه ٤ ويعلو عن الارض بـ ٥ أقدام • والظلام يسود المرقد ايضا ما خلا بصيصا من نور ينفذ اليه من فتحات صغار تقع فى اسفل العتبة • وعلى جدار المزار لوحة كتبت بحروف عربية ، كما حفر فيها ما يرمز الى الشمس والقمر • وعلى مقربة منه مزار صغير آخر للشيخ شمس الدين ، وفى هذا المزار تقضى شعائر اليزيدية ان يذبح ثور كل عام قربانا للشمس ! كما تقضى هـذه الشعائر بأن تقوم نخبة من شبانهم بجر الثور ليطوف المزار ثم يذبح ويؤكل! •

يحتفل اليزيدية بعيدهم الكبير فى تشـرين الثانى ، اى فى الخريف • وعلى جميع ابناء الطائفة الاتقياء الصالحين ان يحجوا الى مزار الشيخ عدى ما استطاعوا اليه سبيلا • ولهم اعياد موسمية اخرى تقع فى الشتاء والربيـع والصيف والخريف • فعيد الربيع من الاعياد التقليدية الموغلة بالقـدم ، وهو يذكرنا بتلك الاحتفالات البدائية التي شهدتها اوروبا منذ قرون سحيقة ومـا زالت لها رواسب فى احتفالات (يوم ايار) ! وعلى كل اسرة يزيدية ان تذبح خروفا عشية هذا العيد او تشترى لحما يقدم طعاما الى الموتى • وفى فجره يقوم شبابهم وشوابهم بجمع باقات من زهـور البرية ، وتزين باب كل دار من الدور اليزيدية باكليل منها • وتذهب النسوة بما اعددنه من طعـام الى القبور ومعهن ضاربو الطبول والزمارة والصناجة • وهن يضعن الطعام على قبور موتاهن اولا ثم يوزعنه على الفقراء وعلى انغام الاناشيد التى يرتلهـا الكهّان ، ولن تغفل النسوة عن تقديم الحلوان الى الكاهن ايضا • ويحتفـل

اليزيديون بعض اعياد الاديان الاخرى ، فهم يحتفلون بعيد الميلاد المسيحى،
والسيد المسيح بنظرهم من كبار الانبياء المرسلين ، وهم يحتفلون بعيدى الفطر
والاضحى الاسلاميين ... كما يحتفلون بعيد آخر يسمونه (عيد خضر الياس)،
وعلى من كان اسمه (الياس) ان يصوم ثلاثة ايام فى هذا العيد .

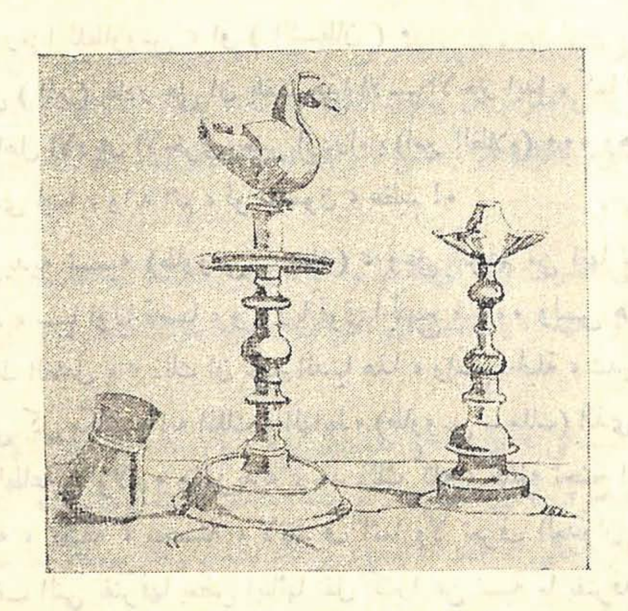
ولم ننس ، قبل ان نغادر المزار ، حُلوْان [7] قيّمه المسمى حسن
فقير ، فهذا القيّم ملزم بدفع حوالى الـ ٨ آلاف روبية سنويا الى (الامير) ، كما
ان قيّم مزار شمس الدين ملزم بدفع ٥ آلاف روبية لقاء ما يحصلون عليه من
الزوّار والحجاج .

وكنت اشد ما يكون شوقا لرؤية (ملك طاووس) ، او (السنجق)
وجلجت فى صدورنا فكرة الطلب الى القيّم عسى ان نراه ، ولكنه راوغ فى
الامر وادعى ان السنجق فى (سنجار) ، الموطن الاخر للطائفة اليزيدية .
ولقد شرح لى أمر هذا (السنجق) فيما بعد فعلمت انه تمثال طاووس صنع من
حديد ، وله مسند يقوم عليه ، وان منه نسخا عدة احداها فى تربة الشيخ
عدى ، والاخر في سنجار ، وفى سوريا ايضا .

ويوضع حق عرض هذه (السناجق) بالمزاد ومن يرسو عليه صوره
من الروحانيين يسمح له بجمع الاعطيات من ابناء الطائفة عن سبيل عرضه
عليهم تبركا ، ولذلك فالتمثال ينقل من قبل الروحانى من قرية الى قرية .
لقد فقد سنجق روسيا خلال الحرب الاولى ، واختفى تمثال (طاووس-
ملك) منها ، واختفى روحانيه أيضا ولم يعد يسمع للاثنين ذكر أبدا .
وتركنا (المزار) وقد علت وجوه روحانييه وأتباعهم ابتسامات الرضى ...
ومررنا بالوادى النضير الشجير ، وتاه البصر فى جمال هاتيك المناظر
الخلابة ...

---

(٧) الحلوان ــ أجر الكاهن .



السنجق (طاووس ـ ملك)

ويتكون من : الطائر ، والشمعدان ، والكأس .وفى الكأس يوضع ماء ويوزع بين زائرى السنجق على أنه مقدس . ومن يحصل على (السنجق) لقاء مبلغ يدفعه الى « امير اليزيدية » يدور به على ابناء الطائفة لجمع النذور والاعطيات .

---

(٢)

... وفى ربيع سنة ١٩٢٠ كنا نقيم بالبصرة .

وجاءنى الخادم فى يوم من ايامه ببطاقة زيارة ، وهو يقول : ان (امير اليزيدية) ، وتابعه ، فى الطابق الاسفل من الدار ، ويسرهما ان سمح لهما بالاقامة معنا حينا من الدهر ! والظاهر انهما ضلاّ السبيل فظنّا ان دارنا هى المضافة الرسمية ؟!.

وتناولا القهوة ، وبعد حديث ودى ارشدناهما الى المضافة فخرجا مودعين . ولاحظت على البطاقة كلمات كتبت بالحبر الاحمر ، وعلى اسم (المير) صورة طائر اشبه مايكون بالديك ، او الحمامة ... لكنه لم يكن فى

الحقيقة الا رمزا للطاووس ، او (الشيطان) •

وليس (المير) بقادر على ان يلفظ هذا الاسم الاخير ابدا ، كما ان النطق به من قبل اهل الاديان الاخرى يعتبر ازدراء بـ (امير الظلام) ••• وهو اثم لن يقارفه يزيدى ابدا ، وانه اثم ، لو تعلمون ، عظيم !•

واليزيدية تسميه (طاووس – ملك) ، وعلى الرغم من انها تعبد (الله) لكنها تعتبره » سببا اوليا قاصيا « و « ربا فوق الجميع » ••• وليس هو بـ «سيد العالم الناشط الفاعل » ، ذلك ان سيد الدنيا هذا ، واسع الحيلة ، شديد الايد ، وموجود فى كل مكان • انه الملك « الهابط» (طاووس – ملك) الذى يدين له اليزيدى بالطاعة والولاء • واليزيدية ، بعد ذلك كله ، طائفة تجنح الى السلم، وهى نشطة ، نظيفة ، محسنة ، لاتقترف اثما ولا تعرف العدوان • ونسبة جرائم العنف التى يقترفها بعض ابنائها تقل كثيرا عن نسبة ما يقترفه منها ابناء الطوائف الاخرى •

ان « اربابها السود » لاينطوون على نيات سيئة سوداء • وهذا الرب الذى يؤمنون به لا يعصى (من) فى السماء ابدا • فالله تعالى منحه السطوة في هذه الدنيا ، وهو ليس بجبار عنيد كـ (يهوه) المذكور فى (العهد القديم) ، ومن يلعنه يلق جزاء لعنته ، ما فى ذلك شك • انه الذى يجعل الناس تمرض ، او يجعلهم رافلين فى بحبوحة من السعادة والصحة • انه (الاحجى) لذا نجده يضع دوما حدود سطوته فلا يستعمل من الكلم « الا ما يلائم نواميس الزمـــان والمكان » (٨) بقدر تعلّق الامر بسلطانه على العالم المادى •

ويقول اليزيدية ان الغربيين أساءوا التصرف بازاء (الشيطان) وكان الاحرى بهم ان يجعلوه سببا لما يعتور حياتهم من هنات ••• أى ان يخترع (الغاوى) اولا لكى يصبح عذرا للغواية !!•

ان صفاته الشريرة سلبية ، كما ان فضائله سلبية ايضا !•

---

(٨) على ما ورد فى كتابهم عن الوحى المسمى « جلوه » • (المؤلفة)

وعند اليزيدية طائفة من الطقوس الدينية ، وليس لديهم شيء من السنن الخلقية . فاليزيدى ملزم بأن يكون نظيفا ، ولكنه يفتقد الاوامر والنـواهى الالهية . انه ملزم باطاعة الروحانى ، واعطائه (الحلوان)... ولكنه غير ملزم بأن يحب جاره .

ان اليزيدى منصرف كليا الى القيام بواجباته المقررة تجاه روحانييه ، وليس له من وقت ، او جهد ، يستنفده فى اقتراف الخطايا بازاء جاره ، او اى فرد آخـــر .

يصرف المسيحى ، على ما هو مفروض فيه ، ١/١٠ دخله على الكنيسة. أما اليزيدى ، فيصرف ، فى الاقل ، ربع هذا الدخل ، يناول جانبا منه كلا من قيّم المزار ، والروحاني ، كما انه يجود بزكاة ماله ، وقد يتجاوز ما يصرفه ربع دخله ايضا .

ولليزيدية شهرة خاصة شائعة فى حب الخير والاحسان . فلقـــد بلغنى ان قرابة الـ ٤٠٠ لاجىء ، خلال الحرب العالمية الاولى ، اندفعوا صوب (سنجار)[٩] واستجاروا شيخها اليزيدى المعروف (حموشرو) ، فأجارهم هذا السرى وقد عرفه الناس دوما ينقذ المكروب ، ويسعف المحروب ، ويعين الناس على نوائب الدهر ، وهكذا وجدت ١٠٠ اسرة لاجئة بائسة المأكل والمأوى في قرية الشيخ المذكور نفسها . وعندما جاءه المسيحيون اللاجئون خاطب قومه قائلا :

ان هؤلاء الناس لم يتكففوا فينا منذ عهد المسيح حتى الان ، فلا معدى لنا من اطعامهم ومن يرفض ذلك منكم ستحل لعنتى عليه .

ورؤساء اليزيدية الدينيون ، و (المير) فوقهم جميعـــا ، هم آباؤهـــا

---

(٩) تقع بلدة سنجار على بعد ٧٠ ميلا غرب الموصل وفيها خرائب المدينة ـ الحصن الرومانية سينكارا وظاهر ان اسم المدينة الجديدة مشتق من الاسم الروماني .

الروحانيون ايضا ـ وهم كسائر رجال الاكليروس لا يخطئون ابدا ... والقس لا يمس ! ولقد حدثني (دكتور ويكرام) وهو من الكتاب الذين وصفوا الايام التي قضوها في (كردستان) امتع وصف ، واطرفه ، حديثا عن احد امراء اليزيدية ، وكيف لاقى حتفه ، قال :

(ان خليفة الامير ، وابن اخيه ، كان غائبا عن ديار اليزيدية في بعض شأنه ، وما ان آب اليها من غربته الا واستقبله عمه بحضور ابناء طائفته ، مرحبا ، وفي حفل بهيج . وكان الامير يتقلد سيفا أهدى اليه ، وعرضه على أبن اخيه ، وهو يزهو به ، ويقول : « الا ترى ، في هذا السيف ، يا ابن اخي ، جودة صنع ونفاسة معدن ؟ فما كان من ابن اخيه الا ان يتناول السيف من يد عمه ويقول : « حقا انه من اجود ما رأيت ... وان فرنده قد صقل على يد صنَّاع وسأجربه ! » وبهجمة مفاجئة فاتكة اجهز بالسيف على عمه فارداه قتيلا على التو ... ثم انثنى الى حشود اليزيدية وقد تملكها الهلع ، والروع ، والجزع ، وقال :

« انا الامير من هذه اللحظة ...! » فرددت الحشود ، بخضوع ووجل ، وخنوع : « اجل ، انك الامير ، بلا منازع » .

وقليل من امراء اليزيدية من يموت حتف انفه (١٠) .

ولكل جماعة من اسر اليزيدية شيخها الخاص ، وهو رأس الجماعة الديني ، اليه تنهال الاتاوة الدينية المقررة ، ولديها (البير) ـ وهو الروحاني الوراثي . ومن يمتنع عن الدفع تحل عليه اللعنة ويصبح خارجا على الطائفة ويقضي حياته شريدا طريدا منبوذا . وتدفع الرسوم الدينية عند (الولادة) و (الزواج) و (دفن الموتى) . وهي تدفع الى المزارات ، والى الروحانيين ، عندما تنتاب اليزيدي الكوارث ، والنكبات ، كما تدفع شكرا لله على نعمائه .

---

(١٠) أي من غير قتل ، وأول من تكلم بذلك النبي (صلعم) ـ فقه اللغة للثعالبي .

وللشيخ ان يختار شيخا آخر ليكون محاميه في الآخرة ، وكل شيخ سماوى يجب ان يكون قريبا من اخيه الدنيوى ساعة موته • وللشيخ السماوى واجبات عدة منها السماح لاخيه الدنيوى بتقبيل يده الكريمة يوميا !•

ونظام الروحانيين اليزيدى ذو درجات وطبقات ، فالامير ، او (ميرا) او (المير) هو ، كما قلنا ، الامير ـ البابا فيه • ويأتى بعده فى الدرجة (الاختيارى ـ المرغاهى) او (الشيخ الاعظم) ويعين من قبل الامير نفسه ، ويشترط فيه ان يكون من نسل (الولى) حسن البصرى ، واصدار الفتوى من اختصاصه حصرا • وتلى هذا طبقة من رجال الدين المتقدمين بحكم الوراثة ، وواحدهم يسمى (البير)[11] ، وليس لهم من الواجبات الدينية الا قليل، ثم طبقة الشيوخ، وهم اصحاب السلطتين الدينية والدنيوية ، وتفوق سلطتهم الدنيوية نظيرتها الدينية• أما (القوّالة) فهم الروحانيون الاعتياديون وهم « يضربون على الطبول، وينفخون فى المزامير ، ويرتلون الاناشيد الدينية » و (الفقراء) هم القيمون على المزارات ، الاماكن المقدسة الاخرى ، ولهم نظام يشبه نظام اللاويين عند اليهود •

ولعل اكثر هذه الطبقات امتاعا « طبقة الكوجيك » • انهم العرافون ، والوسطاء المحترمون ، وصانعو المعجزات فى طائفة اليزيدية • والزعم الشائع ان قواهم الروحانية وراثية ، وقد يمتلكها فرد من خارج الطبقة بسبب مواهبه الخارقة فيصبح فى عدادهم • والكوجيكى من أرباب الرؤى ، وقد يدخل فى غيبوبة ، فيتزبّد فمه ، ويأتى بالتنجيمات[12] وقد تشتد سطوة احدهم على ابناء الطائفة الى ابعد حد ، فيطمع بأن يرقى الى مقام « الشيخ الاعظم » •

ولقد سمعت عن شاب من الرعاة اصبح واحدا من طبقة الكوجيك بعد

---

(١١) البير ـ أى الرئيس ، وشيخ الشيوخ بالفارسية • (المترجم)
(١٢) فى الاصل Oracles (المترجم)

ان تجلت فيه قابليات غيبية خارقة ، منها اخراج السكر من فمه • وان فتح
أحد أردانه ظهرت فيه شجرة من شجر الرمان، وأشجار (جنتهم) الخضراء ، وفى
الردن الاخرى يكمن لهيب المطهر !

ويرتدى الكوجيكى الملابس السوداء ، ولا يختتن على سنة اليزيدية •
ولا يتزوج الا من طبقته الخاصة ، شأنه فى ذلك شأن الشيوخ و « الفقراء » •
ويرتدى « الفقراء » الملابس السوداء أيضا ، وهم يستعملون فى صبغ قماشها
صبغة مستخرجة من اوراق شجر الجنار (١٣) ، ويغلى القماش بها ١٢ ساعة
ضمانا لديمومة اللون • وتعتقد اليزيدية ان مجرد تعليق سترة الفقير على
شجرة يحول دون الخصام والشجار • ويلجأ ذوو الميّت الى الكوجيكى ، وكل
منهم مهموم دنف ، فيصيبون لديه أمن القلب وطمأنينة النفس ؛ فهو يُعلمهم
ان فقيدهم خالد فى العالم الآخر ، وان روحه ستبعث كرة اخرى • وبقوم
بغسل الميت اما شيخه ، او بيره ، وتوضع بين شفتيه (تربة) من ترب الشيخ
عدى ، على ما سبق لنا القول ، ويرفع الكفن عن وجهه عندما يوضع فى القبر
وترش عليه حفنة من تراب الشيخ عدى ••• ومن الغريب ان (العرق) يشرب
بكميات كبيرة وابناء الطائفة اليزيدية تحيى ذكراه ، ايام العزاء !• ويلجأ
الكوجيكى الى أفعال عجيبة ليطمئن ذوى الميت بصدد عودة روح الفقيد ، فهو
يدخل غرفة ويغلّق أبوابها لينصرف الى اقامة الصلاة للشيخ عدى ، ويزيد ،
ومحمد رشان ، وغيرهم من قديسى اليزيدية • وفى اثناء ذلك تظهر عليه
علائم الصرع ، ويدخل فى غيبوبة ويتزبّد فمه••• وكلها دلائل على ان روح
التنبؤ قد حلت فيه ، والشائع انه يتصل ، وهو فى مثل هذه الحال ، بالعالم
الآخر • ثم تذهب عنه الغيبوبة ويولى الصرع فينام الكوجيكى نوما هادئا طبيعيا
الى ان يتعجل ذوو الميت خبر فقيدهم فيعمدون الى ايقاظه بتقديم الطعام

---

(١٣) جنار أو (شينار) الفارسية هى شجرة الدلب ، أو صنار
وهى بالانكليزية Plane - tree معجم النبات ـ الدكتور أحمد عيسى (بك) .

والشراب له • فان كان الفقيد حسن السيرة والخلق ، وان كانت العطايا التى قدمها ذووه مرضية افصح الكوجيكى عن النبأ السار : ان روح الميت المتحررة خلقت من جديد وحلت جسم رجل ـ طفل من ابناء الطائفة • وان كان الميت من المعروفين بسوء السيرة والطوية ، او كانت العطايا التى قدمها ذووه ليست بذات شأن فان الكوجيكى يبادر فيخبر اهله بان روح فقيدهم حلت فى جسم كلب ، أو حمار ، أو حصان أو ما الى ذلك ، وهذا بلاء لن يدفع ولا يعاد الميت الى حظيرة البشر الا بقيام ذويه بدفع العطايا السخية الى قيّم المزار والحلوان الى الروحانيين •

ومهما كان الامر بشأن بعث الميت ، وخلقه من جديد فان جميع ملابسه، ومقدارا من الطعام يكفى لاطعامه لسنة يجمع ويعطى الى الشيـــخ • ومن الضرورى ان تقام فى مطلع كل شهر قمرى وليمة يحضرها الفقراء تصدقا على روح الفقيد •

ولا تؤمن اليزيدية بالجحيم ، فلهيبها منطفىء منذ سنين عديدة ، وكان اطفاؤها على يد طفل يدعى (ابريق شوثه) • وهم يعتقدون ان الطفل هذا كان يشكو من امراض في عينيه ، وانفه ، واذنيه ، ويديه وقدميه ، وكان يندب سوء طالعه طوال سنوات ست ، سالت خلالها دموعه مدرارا وانسكبت فى احدى الجرار الصفر ، وما ان حلت السنة السابعة الا وامتلأت الجرة وطفح منها الدمع على لهيب الجحيم فأطفأه ، واصبحت البشرية منذ ذلك اليوم ، بمنجاة من عذابها ! •

وتختم الوثيقة السريانية التى انقل عنها هذه القصة الكلام فتقول :

« لقد ازجى الارباب السبعة شكرهم الجزيل لهذا الطفل على حســن صنيعه » • ولليزيدية معتقدات أخرى تتصل بالقصص الواردة فى كتب الاديان الاخرى ، ومنها ما يتعلق بقصة الطوفان ، فهم يعتقدون ان الطائفة كلها تنحدر من نوح ويسمونه (ملك ميران ـ أى ملك الامراء) ـ بينما بقية البشر تنحدر

من صلب ابنه الذى عصاه • فلا عجب بعد ذلك ان ادعت ان لغة (الجنه) هى اللهجة الكردية التى يتكلم بها اليزيدية بالذات • فالجحيم ان لم تكن من معتقدهم ، فالجنة موجودة ، وهى لمن تحررت روحه من الحلول ، وطنا مستقرا • وهم يعتقدون ان الماضى الدابر والمستقبل القابل مسطوران فى كتاب مفتوح الصفحات لهم ، وهو لمن يتخبط فى أمر الخلق والبعث خير معين • وكل هذا يفسر لنا ما ينطوى عليه اليزيدى من اكبار واعزاز للقديسين ورجال الدين •

ولنكسر القول قليلا على الشيخ عدى الذى يزور ابناء الطائفة كافة قبره (١٤) فى كل حين ، حاجين متبركين ، ومن كل مكان ، سواء أكان قاصيا ام دانيا •

والروايات بشأنه جد مختلفة ، وفيها تخليط • فهناك من يقول ان الرجل من سوريا ، التجأ الى موطن اليزيدية الحالى فى القرن العاشر الميلادى حيث تأثلت فيه صفته الدراسية ، كما حرر لهم كتبهم المقدسة • ومن قائل ان مزار الشيخ عدى الحالى كان فى الاصل كنيسة مسيحية هى كنيسة المار يوحنان والمار يشوع صبران ، وان القرن الـ ١٢ الميلادى شهد قبرا عامرا يقوم في هذا الوادى ذى المياه الغمرة الغدقة ، والذى يسمى اليوم بوادى الشيخ عدى • وان رهبان هذا الدير كانوا يستخدمون أحد الاكراد (المسمى عدى بن مسافر) (كذا !) والذى نشأ وترعرع فى ظل ديرهم ، أصبح وكيلا عنهم فى جباية الاجور والعشور • واصبح (عدى) بسبب هذا شديد الايد ، كما استغل فرصة غياب رئيس الدير ، وقد سافر هذا الى القدس حاجا ، فتآمر مع ابناء عشيرته من بنى أمية (كذا !) ورجال آخرين من قبيلة (زدناية) وانقض على رهبان الدير ، واستولى عليه واتخذه سكنا له ومعه ابناؤه الثلاثة : شرف الدين ، وشمس الدين ، وفخر الدين • وفى نفس الوثيقة السريانية ما يفيد ان الشيخ عدى اصبح نبيا فى

(١٤) يبعد عن شمال - شرقى الموصل بقرابة ٣٠ ميلا •

قومه ، يصدقون كل ما يقول ، وحتى ما يدعيه انه من اصل الهى ؟! لقد حظر الشيخ على اتباعه القراءة والكتابة ، وعيّن بنفسه رؤساءهم الدينيين ، للارشاد وجمع العطايا والهبات •

وأسر جنكيز خان الشيخ عديا وأرسله الى فارس حيث تم اعدامه • كما طلب قواد التتر الى أبنائه تسليم الدير فسلموه على كره منهم ، ولاذوا بالفرار ، لكن شرف الدين قتل ابان هروبه ، وذهب شمس الدين وزوجه واتباعه الى سوريا ، والتجأ فخرالدين الى جبل سنجار •

وتهدّم من بعدهم الدير ، لكن احد احفاد الشيخ عدى التمس من سلطان التتر ان يعيده اليه ، فلبى السلطان الطلب فبناه هذا الحفيد مجددا وبقى بيد ابنائه من ذلك الحين •

والحقيقة التاريخية هى ان الشيخ عدى بن مسافر كان من المتصوفة ، ولد فى بيت فار ، قرب بعلبك (مدينة الشمس) الشهيرة في القرن الـ ١٢ الميلادى • ولقد تتلمذ الرجل على عدد من الفلاسفة وجاب فى سبيل العلم كثيرا من البلدان • ولقد ورد عنه فى السفر النفيس الذى ألفه المونسنيور هوار عن (الادب العربى) ما يلى :

(اعتزل فى التلال الكائنة غرب الموصل ، وسكن خرائب دير مسيحى متهدم وفيه أقام « زاويته » وقد مات فى الدير سنة ١١٦٣ بعد ان أسس الطريقة المعروفة بـ « العدوية » • ولقد جعلت منه اليزيدية التى تسكن تلال سنجار حاميا لها ونسبت اليه « عقيدة » لا تمت الى الاسلام الا بأوهن صلة ، وبقى حتى اليوم ، وبنظر اليزيدية ، القديس الاعظم ، وقبره المحج الاول لهم •)

والشيخ عدى بن مسافر الهكّارى مؤلف كثير من كتب التأله[٥] ، وله قصائد ايضا ، ومن مؤلفاته (عقائد السنة) وهو موجود فى مكتبة برلين •

---

(٥) فى الاصل Mysticism ونحن موردون ترجمة هذه المفردة كما أقرها مجمع اللغة العربية فى القاهرة • (المترجم)

وعند اليزيدية كثير من الاساطير والمعتقدات الغريبة . فهم يقدسون الشجر الى حد العبادة . وانك لتجد ، اينما طوّفت فى ديارهم ، اشجارا مقدسة مسوّرة . فان تمرض اليزيدى نذر الى « ست حفيظة » وهى شجرة من اشجار التوت كائنة في قرية (بعشيقة) . ومثلها شجرة مقدسة موجودة فى قرية (كبارة) ، واخرى فى (بحزانى) وتسمى (الشيخ باليكو) . وبقرب هذه الشجرة الاخيرة منبع يعمد اليزيدى ، ان أصيب بالحمى ، الى ربط خرقة بها واصطياد السمك من منبعها ، وتحل اللعنة على من يرفع الخرقة عن الشجرة .

ان عبادة الشجرة ، وعبادة الماء الجارى ، عند اليزيدية ، صنوان . وترجع عبادتهم للشيطان ، فى بعض اصولها ، الى التثنيـــة ، وهى من خصـــائص (المانوية) ، ما فى ذلك شك . عاش (مانى) صاحب هذه العقيدة فى عهـــد (سابور) ، ومحصل التثنية فيها : ان عاملى الخير والشر فى اصطراع دائم . ولما كان مهد (المانوية) هو ارض ما بين النهرين ، وفيها ازدهرت ابان انتشـــار المسيحية ايضا ، فمن المحتمل ان اليزيدية الحقت بـ (الشيخ عدى بن مسافر) بعض العقائد المانوية . وكانت دقائق فلسفة الشيخ المذكور فوق مدارك (عبدة الشيطان) ، ومن المحتمل انه ازاح طائفة من المسيحيين كانت تسكن الوادى المعروف باسمه اليوم . ومن الممكن تلمس بعض ما يدل على اصل العقيـــدة اليزيدية ، وعمرها ، فى كتب الطائفة نفسها : ان وجود هذه الكتب لم يكن سرا ، فى اى وقت من الاوقات . لكن الحفاظ عليها ، والعناية بها ، ادى الى ان تبقى أسماؤها مبهمة لمدة طويلة . ومن يجرؤ من أبناء الطائفة على افشاء الاسماء لغير ابنائها يعاقب بالموت . ومن واجب كل يزيدى ايضا ان يجعل ذهن السائل عنها مشوشا مختلطا عن طريق تلقينه معلومات مغلوطة .

كان الاعتقاد السائد خلال فترة طويلة من الزمن ان ما يسمي (مصحف رأش) ، أى الكتاب الاسود ، لم يكن الا (القرآن) نفسه ، وقد حذف منه كل ما يمس (الشيطان) بسوء .

وبالاضافة الى الترجمات العربية العديدة لهذه الكتب اليزيدية المقدسة قام (الاب انستاس مارى الكرملى) بانماء معلوماتنا عنها • ذلك انه استقى كثيرا من الفوائد من شاب يزيدى أسمه (حبيب) اراد ان يعتنق المسيحية فاشترط عليه (الاب) ان يثبت اخلاصه فى رغبته هذه عن طريق الكشف عن اسرار عقيدته اليزيدية السابقة وما يحويه كل من (كتاب الجلوة) و (الكتاب الاسود)، فجاءه حبيب بما فيه الغَنَاء • واليزيدية نفسها لا يعرفون شيئا عن مخبأ الكتب هذه ، وهم لا يرونها الا ابان المواسم الدينية الخاصة • ومخطوطا الكتابين المذكورين موضوعان فى صندوق خشبى يحتفظ بمفاتيحه الثلاثة كل من : (المير) ، و(الشيخ الاعظم) و (أمين خزانة كتب اليزيدية السرية) التى فى سنجار • والصندوق مخبأ فى كهف تم اغلاق بابه بالحجارة • ولن يسمح لاى يزيدى ، عدا من يوكل اليه ذلك ، أن يقرأ الكتابين ••• ولا تنس ان القراءة والكتابة محرّمتان عليه أصلا • وعلى الصندوق المذكور صورة طاووس ، وهو رمز (طاووس – ملك) ، وعلى يمينه الشمس وعلى يساره القمر ، وفوقه احدى النجوم ، ولعلها (نجمة الصبح) •

واستطاع الاب الكرملى ان يمحص ما جاءه به (حبيب) اثر زيارة شخصية قام بها فى (سنجار) ، ذلك انه أغرى أمين خزانة كتب اليزيدية السرية بالمال الكثير وحمله على استنساخ ما فى كتبها ، فأتم (الامين) ما أغرى عليه بظرف سنتين !! و (كتاب الجلوة) مدون على صفحات دقاق من رق الغزال ؛ وعلى كل صفحة منه ١٦ سطرا ، وكل صفحة منها مستقلة عن الاخرى ولا تحمل رقما من أرقام التسلسل المعتادة • والصفحات تتخذ أشكالا غير متقنة ، وهى تمثل الهلال ، والارض ، والشمس ، والنهرين ، او رأس انسان وله اذنان وقرنان، او لهيب نار لها ثلاثة السنة ، وما الى ذلك • وفى اسفل كل صفحة منه توجد الكلمة التى تبدأ بها الصفحة التالية • ويأتلف (مصحف رش) من لفيفة من رقوق الغزال فيها ١٥٢ سطرا من كلمات ضخام نوعا ما •

والوثيقتان مكتوبتان بلهجة كردية شبيهة بلهجة اليزيدية اليوم ، ولعلها
اكثر منها ايغالا فى القدم ، وهناك خصائص تمتاز بها ، ولعلها اخترعت لتضمن
لها السرية • ومما ساعد الاب الكرملى على فك رموز هذه الحروف واللهجة
التي تنطق بها ما حصل عليه من طبعات عربية لبعض كتب اليزيدية • لكن
المخطوطات ، بوجه عام ، مازالت لغزا لم يفك سره بعد • واكثر الكتابين
قدسية لدى اليزيدية هو (كتاب الجلوة) ولكنهم لا يقرأونه الا لماما ، والروحانيون
منهم يكادون ينفردون بمطالعته • ان الكتاب هذا هو (البيان الاكبر) وهو
الذى يفصح عن سطوة طاووس ـ ملك ، وتتردد فيها لفظة (انا) دوما ،
ويطلب من اليزيدية ان يعبدوه ، وهو يعد من يبجله بالثواب ، ومن يزدريه
بالعقاب •

وليست هناك مبادىء خلقية فى الكتاب ، أو كيف يجب أن يتصرف
الانسان بازاء اخيه الانسان ، ما خلا الامر الذى يطلب فيه اطاعة اوامر
(وزرائه) • ويعتقد الاب انستاس الكرملى ان هذا هو اقدم الكتابين • ان فيه
جميع مظاهر الوحدة ، وما يدل على انه كتب فى مكان واحد ، وزمان واحد ،
ومن كتاب شخص واحد • وكاتبه مشبع بالافكار المانوية الى حد كبير • وعلى
النقيض من ذلك (مصحف راش) ، انه مفكك الاوصال ، وفيه تكرار كثير ،
كما ان فيه كثيرا من المتناقضات • ومن يقرأ فيه يجده اشبه ما يكون بسلسلة
من المتواترات دوّنت ، وكأن مدوّنها حاطب ليل • وفيه من المحرمات القبلية
ايضا ولقد اوردت لغير ما سبب معقول •

ان الاساطير العديدة الواردة فى (مصحف رش) والتى تدور حول خلق
الانسان جد مختلفة عما يتواتر على السنة ابناء الطائفة • وذكر المسيح
والمحمديين فيهما يدل على انه مدون بعد زمن محمد • والتناقض فى ذلك
يدعو الى الدهش • ففى احد المواضع ما يفيد ان الله قسّم اللؤلؤة التى هى
اصل الكون بضربة قوية ، وفى موضع آخر ان الملك فخرالدين هو الذى

قسّمها بصرخته المدوية • وفى احدى العبارات ان الله خلق السموات كلها ، وفى عبارة اخرى ان جبرائيل هو الذى خلقها من احد اجزاء اللؤلؤة الكبرى • وهناك عبارة تفيد ان اول الارباب الستة الذين خلقوا هو الذى اقام قبـة السماء ! ومثل هذا ايضا بصدد خلق الانسان : فالى فخرالدين يرجع خلقه ، وذلك فى اعقاب كسر اللؤلؤة ، وعلى ما ورد في الصفحات الاولى من الكتاب • ثم انك لتجد ، فى الصفحات التالية منه ان الله نفسه هو الذى خلق الانسان من التراب والهواء والنار والماء ، وقد جاء بها (جبريل) جميعا •

ولكن ما الذى يستنبط من هذا الخليط ••• القصصى ؟•

اننا نستنبط منه ان اليزيدية ، قبل قرون من كتابة مصحف راش ، كانوا يعتقدون الـكائن الاعلى ، وانه خلق من روحه الخـاص ٧ أرباب أو ملائكة ، وان أهمها شأنا هو ملك طاووس والمعروف ان له سطوة الشر ، وانه الذى يغرى الناس على عصيان اوامر الله ، وهو بذلك يشبه الشيطان في غوايته اما الثانى من هذه الارواح السبعة فيمثل بالشمس ، والثالث ، بالقمر ، والبقية تمثلها العناصر الاخرى •

ان الارباب السبعة هم الذين خلقوا العالم المنظور ، وهم الذين يسيطرون عليه ، وان اشدهم أيدا ، واكثرهم نشاطا ، هو ملك ـ طاووس • الا يذكرنا هذا بالمعبد الزقورى الكبير «الصرح» الذى تقوم القرية اليزيدية اليوم على أرضه ، والابراج البابلية والآشورية التى أقامها بناتها تخليدا لآلهتهم ، والطوق السبعة المنقوشة بمختلف الالوان والتى يهدى كل واحد منها الى المتألقات المختلفة : الشمس ، والقمر ، والكواكب الخمسة •

ان العقيدة اليزيدية هذه كلها لا تعدو أن تكون مُتحَفة تضم الاساطير والمعتقدات وخزانة للاديان ، ما بقى منها وما اندثر ، وعلى سبيل المثال ، ان قيام اليزيدية بذبح ثور ابيض فى مرقد الشيخ عدى سنويا وقربانا الى شمس الدين ، أو الشمس ، لا شك فى انه دليل على تمثيله بالاله ميثرا •

ولنرجع الى (مصحف رش) مرة اخرى : فالمحرمات فيه ممتعة حقا .
وبعضها يتعلق بحرمة الشيطان ، والبعض الآخر ، كتحريم اللون الازرق ،
والذى هو حرز شائع فى بلاد ما بين النهرين يقي من العين العائنة الشريرة ،
يدل على ان اليزيدية ، وهم الذين يدينون بالولاء لرب البشر ، يتخذونه لهذا
السبب ايضا .

أما المحرمات الاخرى فلا تعدو ان تكون للمحافظة على الصحـــة ،
والاحتفالات ، ومن ابرزها منع استعمال الحمام العام فى هذه البلاد التى تشيع
فيها الامراض الجلدية .

وهناك كثير مما يمكن ان يقف عليه الانسان من أمر اليزيدية ، ولعل
الاقامة فى سنجار ومعرفة لهجة هذه الطائفة بالذات ، وهو من الاهمية بمكان
بالنسبة لدُرّاس المأثورات الشعبية (فوكلور) ، ومن يسعى الى القاء الضـــوء
الكاشف على دين هذه البقعة السحيقة من العالم ، وتأريخها . ان اليزيديـــة
من ابرز سكان هذه البلاد ، وهى بلاد تنطوى على معتقدات عريقة ، واصول
منسية ، لذلك فهى حرية دوما بالدراسات المستأنية .

الفصل السادس

سكان البطائح[1]

تشغل البطائح ، أو الاهوار[2] مساحة شاسعة واسعة من الارض ، لا يكاد النخل ينمي فيها أبدا ، أما طرقها فمائية ، كما ان دروب قراها مائية أيضا . وينبت القصب فيها بكثرة .

انها شبه صحراء مائية ، وهى موطن الملايين من البعوض ... فمن يصدق يا ترى ان الانسان يختارها لسكناه ؟! وواقع الحال ان كثيرا من القرى الآهلة تقوم في هذه البطائح بالذات . انها تمتد من دجلة الى الفرات ، جنوبى بلاد ما بين النهرين . وساكنوها بشر لم يتح لهم النفوذ من حدودها ، وهم ، لذلك ، كالطيور المائية لا تعرف عن اليابسة الا قليلا !.[3]

ولا تبنى بيوت البطائح من الطابوق ، أو الحجر ، أو حتى الطين ... انها مشيدة بالقصب ، والقصب وحده . ان القصب يتلألأ كالعسجد والشمس

---

(١) تفضل الدكتور شاكر مصطفى سليم مشكورا فعلق على هذا الفصل تعليقات قيمة ، وله كتاب نفيس بعنوان (الجبايش) – دراسة انثرويولوجية لقرية فى الاهوار فى جنوبى العراق بـ (جزئين) وبحوالى ٥٠٠ صفحة ، وطبع سنة ١٩٥٧/٥٦ .

فليرجع اليه من أراد التوسع فى هذا الموضوع . (المترجم)

(٢) « أنا أفضل كثيرا كلمة (الاهوار) على (البطائح) . فليس للكلمة الاخيرة على ما أعتقد وضوح مفهوم كلمة (الاهوار) رغم كثرة ورودها فى الكتب التاريخية القديمة . كما ان كلمة (البطائح) لا تكاد تستعمل الآن فى العراق لا فى كتب الادب ولا فى كتب الجغرافيا » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(٣) « ربما صح هذا الحكم على الفترة التى سبقت الحرب العالمية الاولى ولكنه بعيد عن الواقع فى الفترة التى ألف فيها الكتاب (عام ١٩٢٥) وهذا غلط فاحش بالقياس لواقع الامر الآن . فلقد بدأ سكان الاهوار

تلقى عليه ضوءها الوهاج فتنعكس له صور على صفحة الماء الازرق . واذا ما أردت أن تتخذ سبيلك فى مسالكها المائية فعليك أن تركب فى أحد القوارب البدائية التى يستخدمها السكان فى تنقلاتهم . انه مطلى بالقار ، وانك لتجد الكثير منه فى القنوات المتلوية بين مزارع الرز ، ومنابت القصب .

فى سكان البطائح شىء كثير من طباع الطيور المائية ، انهم مرحون ، يستمتعون بالنكتة ، ويكلفون بالضحك ، ويولعون بالغناء . ان موطنهم : اليابسة والماء على حد سواء . وما أن يدرج الصبى الا وتجده سابحا فى الماء ، والرجال ابان نهار الصيف يقضون جل وقتهم فيه أيضا . وفى الشتاء لا تجد عليهم الا القليل من اللباس . أما الاطفال فى القرى فهم عرايا وحفاة دوما . ومن ينشأ على مثل هذه الحال لابد أن يكون سليم البدن صلب العود ، لذا تندر فيهم أمراض العيون ، ولا تجد من أصيب بعاهة فى أطرافه ، وعلى غرار ما تجده في المدن الكبرى . والشائع ان أخلاق هؤلاء الناس متردية ، ولو تأملنا طبيعة سكنهم ، وهذا الجوار المتلاصق ، وطبيعة اولاعهم المحدودة ما استغربنا وجود شىء من التعقيد فى تصرفاتهم الخلقية .

* * * *

وفى فجر يوم من أيام آذار تركت العمارة صحبة ضابط يقوم بجولة

يتصلون بالعالم الخارجى وبالحضارة ممثلة فى حياة المدن القريبة من منطقتهم بعد الحرب العالمية الاولى وبصورة شديدة منذ بدء الحكم الوطنى فى العراق . وكما دخلت المدرسة والمستشفى والادارة المدنية وحتى السيارة الى أهوارهم وقراهم فلقد خرجوا هم منها الى المدن والمدارس وحتى الى العاصمة بغداد . بل لقد حدثت هجرات واسعة تحت ضغط عوامل دافعة قوية من الاهوار وعوامل جاذبة شديدة من المدن أدت الى أزمات ذات آثار واضحة فى المنطقة التى هاجروا منها وفى تلك التى هاجروا اليها .

أما الآن فالاتصال شديد ومستمر والهجرة الى المدن واسعة شاملة بل هى أدت الى الازمات الاقتصادية والاجتماعية الحادة التى تعانيها البلاد . »

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

تفتيشية فى منطقة البطائح وكانت معنا احدى صديقاتى المولعات بالصيد • ومخر بنا القارب البخارى فى نهر دجلة ، ومضت سويعات قبل أن ندخل المنطقة بالذات • وكنا نشاهد ان طراز البيت أخذ يتغير تدريجيا ، ذلك ان بيوت الآجر أصبحت متداخلة مع أكواخ الحصر ، ثم أصبحنا لا نرى الا بيوت القصب حصرا •

وفى العاشرة صباحا وصلنا الى أول موضع نحل فيه : انها قرية كبيرة تعود الى الشيخ حمود شقيق الشيخ مجيد الخليفة ، ووكيله فى استنبات احدى المقاطعات •

يزرع الرز فى منطقة الاهوار بكميات كبيرة • وتعطى الحكومة ، ولها رقبة الارض فى المنطقة ، مساحات شاسعة منها الى الشيوخ المحليين بقصد زرعها • ومدة التصرف فى هذه الاراضى حوالى الـ ٥ سنوات ، والحكومة تحتفظ حاليا بحق معاودة النظر فى اجر الارض وزيادته بعد ٣ سنوات ، ان كان هناك ما يبرر ذلك •

ولقد تمت فعلا زيادة اجرة الارض التى يستنبتها الشيخ مجيد من ٥ الى ٦ الكاك الروبيات سنويا ، واستطاع هذا ان يدفع المبلغ الضخم من ارباحه الزراعية[٤] • وينتمى الشيخ مجيد الخليفة الى عشيرة محلية (ألبو محمد) ،

---

(٤) بعد ان تم للجيش البريطانى احتلال العراق سنة ١٩١٨ رغبت القيادة العامة فى المحافظة على مصالح الادارة البريطانية العسكرية ، وحفظ مؤخرة الجيش فسنت نظاما خاصا لادارة المناطق العشائرية قيل فيه انه مستمد من نظام الحكم الذى أنشأه وطبقه فى بلوجستان سر روبرت ساندمان الذى يوصف بأنه ادارى استعمارى كبير • فالادارة البريطانية أرادت تعزيز النظام العشائرى فأناطت بشيوخ العشائر مسؤولية المحافظة على الامن ، والقبض على المجرمين وحماية طرق المواصلات ، وجمع الضرائب وزودتهم بالهبات والسلاح وفوضت لهم الاراضى التى كانت تتصرف بها العشائر ، مما أدى الى حرمان كافة أفراد العشيرة ••• لذلك فلا غرو أن يطلب عدد غير قليل من العشائر ، وخاصة رؤساء العشائر فى العمارة استمرار وضع الاحتلال ونجدهم يتفانون فى اظهار الولاء فى مختلف المناسبات للبريطانيين • (المترجم)

ويجرى اختيار كبار المُقْطِعين Feudal Lords من بين شيوخ المنطقة الاثرياء ، فهم يعرفون السكان والاراضى التى يزرعونها واساليب الزراعـــة التقليدية .

وما ان قاربنا القرية ونحن نمخر في شط العدل الا وبدأ المطر ينهمر مدرارا ... اننى ، ان نسيت ، فلن انسى بيوت القرية يساقط عليها المطر .. ان اكواخها على نوعين : فهناك بيوت بسيطة شيدت من القصب فقط وقـــد تكون واسعة احيانا ، وذات اطواق ضخمة ، ولكنها دوما تشبه اعشاش الطير . ومضيف الشيخ مبنى من القصب ايضا وهو واسع جدا ، وقد يضـــاهى فى سعته ما لدينا من مخازن الحبوب والكنائس . اما النوع الاخر فهو النـــوع المعروف : (الصريفة) وليس فيها من الاعمدة او الطوق شيء ، انها تأتلف من اربعة جوانب مربعة وسقف بارز ، وفى الوسط عمود من القصب هو دعامة الكوخ (٥) . وارض الاكواخ هذه مفروشة بالحلفاء والقصب ايضا . وتحفر على جوانبها اخاديد وسدود ، ولا ترتفع السدود عن مستوى الماء الا ببضع بوصات . وكان الموسم ابان زيارتنا موسم الفيضان ، وكلما ارتفع الماء رفعوا من مستوى سدودهم باضافة حفنات من التراب تكفى لوقاية البيوت من خطر المياه ، وباعتبار ان ضغطها يسير .

وتساكن (اهل الاهوار) دواجنهـم وانعامهـم وابقارهم وجواميسهم ، وفى كل بيت كلب « يطرد الطراق عنه » ، وانت تشاهد الاطفال وهم عـراة يحدقون فى وجوه الغرباء العابرين ، كما ان الكلاب تنبح فى وجوه هـؤلاء

---

(٥) « هذا وصف مبنى على المشاهدة الخارجية والخيال فالصريفة مستطيلة دائما وليست مربعة ولا تشاد على عمود وسطى من القصب ، بل تبنى على أعمدة أربعة تغرز فى زواياها الاربع ويستند سقفها على جســر يمتد من (الكوسر) وهو أحد الضلعين القصيرين فيها الى (الكوسر) المقابل وقد يكون هذا الجسر حزمة من القصب أو عمودا من « الخشب » .
تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

بصوتها الاجش . ويختزن اهل الاهوار الرز في مخزن طيني واسـع ، وهم يكسون فتحة المخزن بالطين ايضا ، وقاية لما فيه . وكلما تقادم الزمن على الرز الخزين ، كان اجود . وقد يعمد اهل الاهوار الى اخراجه بين الفينة والفينة وغربلته . ولا يزرع أهل الاهوار الخضر ، وهم يأكلون الرز بدلا من الخبز (٦) . وقد يصيبون مع الرز شيئا من اللحم والسمك والخضر من انواع القصب (٧) ايضا . وتقتات الابقار على القصب ايضا (٨) ، ذلك ان العشب قليل ، وسطح اليابسة محدود . كما انهـم يتخذون من القصب وقـودا ، ويبنون به الجسور والاكواخ ، ويصنعون منه الحصران والقوارب (٩) .

---

(٦) « هذا حكم عجيب . فسكان الاهوار يأكلون الخبز والرز ان كانوا موسرين ولا يكادون يجدون طعاما غير خبز الذرة ان كانوا معدمين . ولا يستعمل الرز فى الاهوار كلها الا فى طعام وجبة المساء » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(٧) « لا يعرف سكان الاهوار اللحم طعاما مطلقا . وربما أطلقت المؤلفة حكمها قياسا على موائد الشيوخ الاثرياء الذين نزلت فى بيوتهم ، وقد تمر سـنون على ابن الهور دون أن يذوق اللحم . أما (الخضر من أنواع القصب) فلا وجود لها فيما أعرف فى الاهوار الشيء الوحيـد الذى يقرب مما تدعيه المؤلفة هو ولع الاطفال بأكل كعوب القصب الاخضر الطرى حين يعضهم الجوع وهم وسط الاهوار أثناء رعى الجاموس أو جمـع القصب ، وقد يأكلون فى حالات نادرة بعض الحشائش البرية التى تنبت على سطح ماء الاهوار وكلها يشبه ما يسمى فى العراق بالـ (خبيز) » !!

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(٨) « لا تأكل الابقار القصب مطلقا بل تأكل (الحشيش) قبل أن يكبر وييبس فيصبح (قصبا) . وقد يأكل الجاموس عندما يندر (الحشيش) القصب اليافع الاخضر الطرى فقط » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(٩) « لقد وقع كثير من الاجانب الذين كتبوا عن الاهوار فى نفس الغلطة التى وقعت فيها المؤلفة ، وهى ادعاء ان القوارب تصنع من القصب . فالمؤكد أن ليس فى أهوار العراق كلها قارب واحد مصنوع من القصب . صحيح أن (الشوش) ، جمع (شاشة) ، وهى حزم مربوطة جنب بعضهـا

وتركنا القارب .... واستقبلنا الشيخ حمود الذى قادنا الى مضافة مبنية بالآجر ، وهى حقا من ترف منطقة الاهوار ! وكانت المضافة مفروشة بالسجاد ، وفيها وسائد اتخذناها متكأ .. وطال انتظارنا للغداء الذى كان يجرى اعداده ، ذلك ان الشيخ لم يأمل وصولنا فى مثل ذلك اليوم المطير .

وسأمنا احتساء القهوة ، والشاى ، والحديث فقمنا نتجول ونشاهد ما نستطيع : رأينا اولا مضيف الشيخ الكبير ، وهو على مقربة من المضافة التي حللنا فيها . وعندما دخلناه من بابه الصغير المربع وجدنا انفسنا فى قاعة واسعة معتمة ، وشاهدنا الحزم القصبية التى تكوّن أطواق البيت فوق رؤوسنا ولم يكن فيه شيء من الاثاث فيما خلا الحصران ، وقد فرشت عليها البسط . وتجرى تهوية المضيف بواسطة فتحات سفلية مزخرفة . وفى المضيف جلس قهواتى الشيخ وامامه عدد كبير من دلاّت « القهوة » وبينها كبيرة الدلال ، وما فيها من القهوة يكفى لوحدة عسكرية كاملة ! وكان الهاون الذى تطحن فيه القهوة كبيرا ايضا . وبكلمة من الشيخ اصبحنا نستمع الى نقرات تنبعث من هذا الهاون ، والقهواتى يطحن فيه !! ولعله كان يعنى بالنقرات الموسيقية هذه قدر عنايته باعداد القهوة للضيوف ... ، ذلك انه كان يضرب جوانب الهاون اربع او خمس مرات بينما كان يضرب قعره ليطحن القهوة مرة واحدة !. وقال الشيخ : « ان سمع الناس هذا بادروا بالمجىء الينا لاحتساء

البعض على شكل لوح مستطيل من القصب ، ويستخدم للعبور ولتنقل الاولاد الى أماكن قريبة ولا تحمل أثقالا ولا متاعا ، تصنع من القصب ، ولكنها ليست بالقارب ولا هى مطلية بالقار . ولقد استقصيت هذه الحقيقة الغريبة ابان اقامتى الطويلة فى الاهوار ودراستى لها فما وجدت أحدا سمع حتى مجرد سماع باستعمال القصب فى صنع القوارب فى السنين الخاليات بقدر ما تمتد له ذكرى أهل الاهوار . ويقينى ان مصدر هذه الغلطة هو الربط الاستنتاجى بين حقيقة وفرة القصب وحقيقة كثرة استعمال القوارب » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

القهوة !» ••• حقا، ان نقرات الهاون هذا تسمع من بعيد ! ان الأريحية (١٠) طبع اصيل فى العرب، والشيخ يقرى عددا كبيرا من الناس يوميا • وكان عدد الزوار فى المضيف فى ذلك اليوم بالذات حوالى الـ ٢٠، وعندما دخلناه هبوا جميعا واقفين بكل أدب واحترام، وبقوا على مثل هذه الحال طيلة مكوثنا فيه • وكان الشيخ نفسه يقوم على خدمتنا فى بيت الآجر، واعتذر عن عدم تناول الطعام معنا بسبب ذلك • ولقد فرشوا قماشا على الارض ثم بدأوا بجلب الصحون تباعا، وتناولنا ما فيها من الطعام كالدجاج ولحم الخراف الصغار والرز، الذى كدّس كالرواسى العاليات، والحلويات مرة واحدة • ولم يكن هناك شيء من الشوكات أو السكاكين، بطبيعة الحال : ذلك اننا تناولنا طعامنا على الطريقة العربية الصرفة : بالاصابع ! ولم أستطع شخصيا أن أجعل من الرز كرة فى راحة اليد أولا، ثم أدفع الكرة هذه الى فمي بالابهام، وعلى ما يصنعون، بكل مهارة !!•

وكدليل على تكريم الضيف العزيز يؤتى بصحن فيه حمل مشوى كامل، وبالتوّ يقوم المضيف بقلع عينيه ووضعهما فى صحن أمام هذا الضيف ليصيب منهما فهى أكلة مفضلة لديهم لا يجدر بالمرء أن يرفضها أبدا • ثم يؤتى بعد الطعام بابريق وصحن ومناشف بدوية ويبدأ الضيوف، حسب أهميتهم بغسل أيديهم ويكون المضيّفون فى المؤخرة • ثم يهرع الاتباع بعد ذلك ليجلسوا الى مائدة الطعام ويجهزوا على خُشَارتها * !!

وكان علينا أن نقطع مسافات شاسعة أخرى من رحلتنا هذه لذلك بادرنا الى توديع الشيخ اثر تناول الطعام وركبنا (المشاحيف) التى كانت بانتظارنا • ان هذه القوارب غريبة الشكل، فهى طويلة، ضيقة وليست بذات غور بعيد • وقد يخيل اليك بادىء الرأى انها قد تنقلب رأسا على عقب لاقل حركة،

---

(١٠) والاريحي : الذى يرتاح للندى •
(*) الخشارة (والخشار) = فضالة المائدة • (المترجم)

لكننا فى الحق امينة • ووضع مضيفنا فيها البسط والوسائد ضمانا لراحتنا ، كما انه خصص ٣ من الرجال لكل واحد منها • ان كل واحد منهم يمثـل سكان الاهوار اصح تمثيل ، وآسف لاننى لم استطع ان اصوّر واحدا منهم بالذات • كانت لحية الرجل مربعة الشكل وبارزة ، وانفه اعقف ، وكانت معالم وجهه واضحة ••• فان نظـرت اليــه خلته احد الآشوريين وقـد خرج لساعته من المتحفة (١١) البريطانية •! أما ثيابهم فقصيرة لا تكاد تصل ركبتى ارجلهم النحاسية ، وعضلاتها ضخمة • أما مهارتهم فى دفع المشاحيف القلقة فتبعث الدهش والاعجــاب ، اذ مهمـــا كانت القناة المائيــة ضيقة ، او متلوية ، فلن يصطدم المشحوف بالضفة ابدا! • ان المشاحيف تجرى ذات اليمين وذات الشمال وتوجهها فى ذلك (المرادى) التى بايديهم • وسرنا اولا فى المسالك المائية الواسعة خلال قرية الشيخ حمود ثم صرنا الى احدى البطائح

---

(١١) ان الهياكل البشرية فى اريدو الســومرية (الموقع الاثرى المعروف الآن بتل « أبو شهرين » فى جنوب غربى أور) ـ ومنهـا نموذج معروض فى المتحفة العراقية ـ أثبتت نتيجة دراسة الاستاذ كارلتون كون الاختصاصى الامريكى ان سكان هذه المدينة من بداية الالف الرابع قبـل الميلاد لم يكونوا يختلفون فى شىء ملحوظ عن أهــل العراق الجنوبى فى الزمن الحاضر ، كما توصل الى ما يشـابه ذلك ســر اثركيث الذى درس الهياكل العظمية المكتشفة فى المقبرة الملـكية فى (اور) من منتصف الالف الثالث قبل الميلاد •

(المترجم)

« أنا لا أتفق وهذا الرأى مطلقا • فجملة المؤلفة تعطى انطباعا بأن كافة سكان الاهوار يشبهون فى ملامحهم البشرية السومريين وهى اشـارة الى أنهم نسلهم المباشر النقى • ولقد أوضحت رأيى فى أصل سكان الاهوار من الناحية الانثروبولوجية الطبيعية فى الفصل الاول من الجزء الاول من كتابى الجبايش وخلاصته ان الصفات البشرية لسكان الاهوار حصيلة تفـاعل طويل معقد بين بقايا سكان العراق الاصليين ، السومريين وغيرهم ؛ وموجات هبطت المنطقة من الهضبة الايرانية وموجـات أخرى ســكنتها قادمة من الجزيرة العربية • » •

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم •

الواسعة التى كونتها مياه الفيضان • وكنا نمر تارة بقرية ، وتارة باحــدى البطائح • واضطر رجال (المشاحيف) الى سحبها لانها استوت فى احـدى المرات فوق (الفكّة) وهى حاجز مبنى من القصب والطين يقوم بتحويل ماء الطمى من احدى الاراضى الزراعية العائدة للشيخ الى مزارع الرز الاخرى العائدة له • وعلى الرغم من وجود قرى مبنية بالقصب فى هذه المنطقة الا اننا لم ندخل منطقة القصب الحقيقية بالذات ذلك ان نبات القصب والبردى اللذين مررنا خلالهما لم يكن ليزيد على مانعهده فى انهر بلادنا • وكنا نمر بمناطق تزرع الرز ، انه اخضر الان ولكنه سيصبح فيما بعد صلبا متلألأ وتكمن فيه ثروة السنة القابلة • وكان رجال المشاحيف اعلم الناس بمجارى المياه العميقة ، وكنـا احيانا نصطدم باليابسة لهنيهة من الزمن ، فسرعان ما كانوا يخوضون فى الماء ويدفعون المشاحيف ••• أما في المياه العميقة فقـد كانــوا يستعملـــون « الغرافات » • وكان هؤلاء الرجال في غناء وضحك دائمين ويداعبون بعضهم بعضا دوما • واذا ما تعثر احدهم فى عمل له ضحك منه الآخرون كثيرا • وكنا نمـّر بكثير من المشاحيف المتنقلة ، منها ما هو مشحون بعلف القصب ، ومنها ما لا يعدو ان يكون دكانا مائيا تكدست فيه الاقمشة القطنية وما الى ذلك وهو يمضى من قرية الى اخرى • وكنا نمـّر بين الفينة والفينة باحدى مقابر القرى ؛ ويبنى سكان الاهوار مقابرهم من طين ، وقد تضم بعضها جثثا عديدة انها تشبه مصغر مساكن الاحياء ، فيمـــا خـــلا ان الاولى من الطين والثانية من القصب • ان بيوت القصب تشبه ايضا خيام البوادى شكلا • ورأينا احدى الرايات ترفرف فوق احد الاكواخ وعلمنا من رجال (المشاحيف) ان ذلك يدل على حدوث وفاة فيه[١٢] •

---

(١٢) ترفع الراية فوق (المضايف) والبيوت فى منطقة الاهوار فى حالات ثلاث فقط ، الاولى عند اقامة مجلس فاتحة على روح رئيس أو شخص بارز وفى هذه الحالة لا ترفع الراية الا على المضيف حيث يقام مجلس الفاتحة وتكون الراية عادة راية العشيرة الحربية التى تستعملها فى المعارك وهى

ووصلنا احدى القرى وقد لفّنا الليل بشملته : هذه اكواخها العديدة، والشفق يطل خلالها على صفحة الماء ، وهذه شوارعها ودروبها المائية ، وعندما نزلنا الى اليابسة حيث يقوم بيت مضيفنا الجديد شعرنا بآثار مياه الفيضان التى انزاحت عنها ، انها مقاطعة لشيخ آخر يدعى (شواى الفهد) ومن عشيرة الازيرج • ولهذا مضافة مبنية بالآجر ايضا ، ومضيف من القصب ايضا ، وفيه جلسنا نتحدث لساعات طوال • يلازم الشيخ حمود الصمت الطويل ، اما الشيخ شواى فيمتاز بمرح النفس وسهولة الطبع • وجلسنا مع حاشية الشيخ الاخير على ارض المضيف نتكلم ونشرب الشاى والقهوة ، وكان اكثرنا كلاما (الملا) التابع للشيخ • ذلك ان لكل شيخ من شيوخ الصحراء او البطائح (ملاّ) خاص به • انه على شيء من التعليم ، وبذلك يستطيع معاونته فى كتابة رسائله • ويشير عليه بما يتعلق بالقانون ، وعلى وجه اخص بما يتصل بمعاملات الشيخ مع اهل المدن الماكرين • وملاّ الشيخ شواى من طراز الرجال الذين يمتازون بحلاوة اللسان والاطلاع الواسع والادب الجم والدهاء • اعلمنى احد الانكليز انه كان يتصل بالملاّ اولا قبل اجراء أية معاملة مع شيخه • وتحدثنا طويلا ، وتناول حديثنا كثيرا من الشئون ومنها ما اتصل بقضية حساسة : الاختلاف بين الديانتين الاسلامية والمسيحية • وكان الملا لبقا جدا فى الحديث حيث اختتم بان الفروق العقائدية بين البروتستانية الانكليزية والشيعة تكاد ان تكون معدومة وتافهة ! واستأذنت لاقوم بزيارة حريم الشيخ ، وبعد ان مضى وقت قصير ، اخبرنا بأن السيدات على استعداد لمقابلتنا • وفى غرفة من الآجر ،

كبيرة وقد تكون من أى لون من الالوان وقد تحوى زخارف ونقوشا • والحالة الثانية حين تطلب امرأة مرادا من أحد الائمة • وخاصة من الامام العباس ولا تكون الراية عندئذ الا بيضاء • والحالة الثالثة حين تستعمل الراية كلافتة تشير الى دكان ، اذ يرفع أصحاب الدكاكين رايات بيضا صغيرة فوق دكاكينهم لتدل المستطرقين عليهم • »

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم •

شبيهة بالغرفة التى كنا فيها استقبلتنا ٥ او ٦ نساء ... لكن الغرفة هذه اكبر من الاولى وقد تناثرت فيها الوسائد الحريرية وفرشت بالسجاجيد ، وفى احد اركانها اريكة عالية عليها فراش كثير ، واعـــدت لجلـــوس سيدات البيت وضيفاتهن . ولو لم نكن قد اصطحبنا فراشا لكان اجود هذه الفرش فى متناول ايدينا ، ولكان فراشنا من الحرير واغطيته من الدمقس ووســـائده مطرزة ... وكأننا العرائس فى ذلك البيت .

وجلسنا على مقربة من السيدة المتعالية المتقدمة على البقية من نساء الدار (١٣) ودار حديثنا حول موضوعات تقليدية عدّة : عن سفرتنا ، والجو ، والصحة ، وحدث ما لم يكن بالحسبان عندما ابدينا الاعجاب بالقلادة اللطيفة التي تتقلدها السيدة المضيفة فالسيدات جميعا اخذن فى عرض ما لديهـــن من الحـــلى والمجوهرات : من معاضد ضخمة ، وقلادات من ذهب وفضة ، وما الى ذلك . وتغطية لما نحن عليه من واقع ، شرحنا للسيدات ان رجالنا يكرموننا ايضـــا بهدايا فى بعض الاحوال ، لكننا لا نلبس المجوهرات فى اسفارنا ، وان مالدينا منها فى بلادنا جد قليل .

وسُرت النسوة بما ابديته من اهتمام بوشم اذرعهن ، وسرعان ما نزعن ثيابهن ورفعن ارديتهن لكى يبدين ما يخفين من زينتهن بهذا الوشم الشامل لاجسامهن ، ومن الركبتين فصاعدا . ذلك ان حسناوات البطائح متخصصات بوشم خصورهن الضوامر . وحاولت ان اقف على ما بين النسوة من صلات لكن الامر كان على شيء من الدقة ، فلم اوفق اليه ، ولكننى علمت ان السيدة التى كانت تدير الحديث هى زوجة الشيخ شواى الاولى ، وان الشاب الـذى قادنا الى بيت الحريم هو ابنها .

---

(١٣) ان تعددت نساء الشيخ فهناك دوما الزوجة المتنفذة المسيطرة الاولى فى بيته ، وتدعى هذه (أم البيت) أو (العزيزة) وهى فى الغالب أولى أزواجه وقد تكون أجملهن ، أو أصغرهن سنا ، على وفق مشيئة الشـــيخ ذاته .
(المترجم)

وبعد ان تناولنا وجبة دسمة اخرى من الاكل ، اعدت لنا ، في كوخ كبير قريب ، الافرشة وتركتنا المضيفات لنخلد الى النوم • وكان من المقرر ان نبكر في السفر ، ذلك ان (الملا) تعهد بان يرينا قرية قصب حقيقية ، اى غير القرية التى تبنى على الارض اليابسة ، فهى – على ما يقال : « في بطن الماء » ومن ثم نقفل منها راجعين الى الشيخ حمود ، مارين بالبطائح • واحتسينا اقـداح الشاى ، والصباح غض ندى ، وتأهبنا للسفر ••• وتجمعت النسوة والرجال وهم يتطلعون الى وجوهنا ، كما رأيناهم منهمكين فى قضاء اعمالهم الصباحية من طحن دقيق الرز ، وغزل ، ورعى الماشية • وقد تصادف من بين الرجال ، لا النساء ، من له ملامح دقيقة بارزة ••• ولكن ذلك فى النادر القليل •

ها نحن الان فى ارض القصـب الواسـعة ، ان سـيقانه قويـة عالية • • وقد تقل فى بعض ارجائها ، وقد تتكاثف فى ارجاء اخرى • وقد تتناهى اليك اصوات تنبعث من بين تلك السيقان فتعرف ان الناس منك عـلى مقربة ، وان اختفوا بينها • واعلمنى احد الانكليز الذين عاشوا فى الاهوار خلال الشطر الاول من الحرب انه كان فى احدى المرات يتخذ سبيله بين اعواد القصب فى احد المشاحيف ، فسمع على فوت* صوت امرأة ينبعث من تلك الاجمة الخضراء ، وهى تسأل :

– « ما هو اتجاه الريح اليوم ؟ » فرد عليها احدهم – « الريح اليـوم شمالية » – وكان تعقيب المرأة على ذلك :– الحمد لله !•

واحتار الانكليزى فى الامر ، فهو يعلم ان المرأة تستعمل الالغاز فى كلامها ، فالعربى لا يحتاج ان يسأل غيره عن اتجاه الريح • فقال لصاحبه ، وهو يحاوره : ماذا تعنى المرأة ؟ فاجابه هذا : « انها تسأل عمن له الغلبة فى الحرب ، الاتراك ام الانكليز ، فاجبتها : الانكليز » •

وفى الصيف يصبح ماء البطائح الضحل حارا ، فان اردت ماء للشرب فما عليك الا ان تدخل الجرة الى اعمق نقطة فيه ، وعندئذ تحصل على ماء بارد

(*) على فوت = على بعد •

عذب سائغ شرابه . ويسمى هذا الماء بـ « ماء العروس » .

ومن الامور التى جئنا للاطلاع عليها رسميا حالة الحدود . انها تتراءى من مبعدة ، وقد تمّ وضع علامات عليها ، وبهذا ختمت سلسلة مشاحنات طويلة بين شيوخ المنطقة . انها مخروطية الشكل ، وطينية ، اقيمت فى وسط الماء وقد دق عمود طويل فى مركز كل منها . ولقد رأينا اثنين منها ، ثم رأيناهما بعد اكثر من ٦ اشهر فكانا على حالهما كما تركناهما اول مرة . وارتفع صوت الملاّ عاليا يمجد الاجنبى الذى استطاع بحكمة سليمان فض مثل هذه المعضلة الصعبة . ولقد وجدنا هـذا (الملاّ) واسع الاطلاع ونحن نوغل فى سفرنا . فلقد سمّى لنا الدغل المائى الذى يشبه ورقة الاقحوان المائى وهـو يطوف على سطح الماء ـ (كعابو) (١٤) على ما اعتقد ، ثم اعلمنا ان مسحوق هذا الدغل يشفى عُوّار الماشية(*) .

وفى حوالى الظهر وصلنا القرية التى وعدنا بها (الملاّ) ، انها حقا فى « بطن الماء » اذ لم يكن هناك من اليابسة شيء . وكل بيت قصبى مبنى عـلى بساط قصبى ايضا ، وهو يرتكز الى آساس من الاكداس القصبية الغاطسة فى الطين (١٥) . فان ارتفع الماء قام اهل البيت بتكديس بسط اخرى ، وهى لا ترتفع عن سطح الماء باكثر من بوصة . وان اراد المرء ان ينتقل من بيت الى آخر فعليه ان يستخدم (المشحوف) ، وقد تجد بين الفينة والفينة قنطرة

---

(١٤) الصحيح (گعيبة) وليس (كعابو) وهو نبات مائى برى كثير الوجود فى الاهوار وكثيرا ما يكون كثيف السيقان والجذور تحت سـطح الماء لدرجة يعرقل معها سير القوارب خاصة فى المجارى المائية الضيقة » .
تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(*) عوار = كل ما أعل العين .

(١٥) « معنى النص الانجليزى حرفيا (وكان كل كوخ قصبى مبنيا على حصر كدس بعضها على بعض وتستند من الاسفل الى أعمدة مغروزة فى الطين) . ويخيل الي أن (المترجم الفاضل) تعمد التستر على خطأ المؤلفـة فترجم النص بتصرف أخفى به الكثير من فشل المؤلفة فى فهم واقع الامر . والصحيح ان أكواخ الاهوار تبنى على (چبايش) ، جمع (چباشـة) ، وهى

من القصب ايضا . وتساكن اهل هذه الاكواخ الدواجن والجاموس لـــذا تنبعث منها روائح كريهة ، وقد تكون مسرحا للجرذان على ما يخيل لى .
وبناء على دعوة رئيس هذه القرية وقف المشحوف الذى يقلنا قرب مضيفه .
هذه نار موقدة فى داخله وبقربها « دلال » القهوة : اما الفناجين فقليلـــة ، وعندما يحتسى المرء القهوة في حسوة عاجلة ورشفة خاطفة يسلّم الفنجان الى جاره وهكذا تمر الفناجين من يد الى اخرى دائرة على القوم (١٦) . وما لم يجرؤ المرء على الاعتذار فلا معدى له تأدبا من أن يحتسى القهوة معهم على هذه الشاكلة (١٧) .

ولم نر على رجال القرية الا القليل من اللباس ، أما الاطفال فقد كانوا عراة حفاة . انهم اطفال الماء فما ان يشب الواحد منهم عن الطوق الا ويتعلم دفع المشحوف بـ (المردى) ، وهم كما رأيناهم على أتم ما يكون من الصحـــة وصلابة العود ، وان كانوا على شيء من القذارة . كان حشد من الناس ، رجالا ونساء ، ينشط الى قطع القصب ، ذلك ان فى مقدمة ما يقوم به سكان البطائح

جزيرة اصطناعية صغيرة تتكون من تكديس طبقات من القصب والبردى ، والتراب فى حالات نادرة ، يعلى سطحها كل عام فى موسم الفيضان باضافة طبقات جديدة من القصب والبردى ولا تستعمل فيها الحصر مطلقا كما انها تتصل بقعر الماء مباشرة ولا يمكن أن تشاد على أعمدة من قصب » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(١٦) « هذا خيال غريب . فتقاليد شرب القهوة معروفة ثابتة لدى البدو وسكان الريف والاهوار على حد سواء . فالذى يدير القهوة يسلم الفنجان للشارب فيعيده الاخير للاول بعد أن يشرب ما فيه فاذا ما ارتوى الشارب أو اذا ما صل قدم الساقى للشارب عددا معينا من الفناجين ، وهو عادة ثلاثة ، يمر الساقى منه الى شـارب آخر . ولم يعرف قط أن أديرت القهوة بالطريقة التى تخيلتها المؤلفة لا فى الاهوار ولا فى البوادى » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

(١٧) الشاكلة : الطريقة ، أو الجديلة .

من عمل هو صنع (البوارى) [١٨] . انهم يحتذون فى ذلك حذو آبائهم الاولين . ومنهم من يقطع القصب لعلف الحيوان ، ومنهم من يلتقط (البردى) لكى تشد به الحزم الضخمة المتخذة اطواقا للبيوت . وهم من اشد الناس كلفا بأكل السمك ، ولقد رأيت رمحا ذا ثلاثة رءوس مما يستخدم فى صيده مرميا فى احد جوانب المضافة . وهم يستعملون الشباك والخيوط فى صيد الاسماك ايضا ، وقد يستخدمون مخدرا يرمى فى الاهوار فما ان يصيب السمك منه الا وتراه يطفو ميتا فوق سطحه [١٩] .

ورأى رئيس القرية ان يصحبنا فى بقية السفرة ، لذلك دخل مشحوفه ومعه بضعة من رجاله ، وابنه ، والمشحوفي الخاص به . وكان مشحوف الرئيس هذا يجرى على مقربة من مشحوفنا ، فالسبيل المائى ضيق . وبينا نحن نجرى فى اليم اذ طرقت سمعى كلمة (حميرة) ـ وهى بلغتهم الحمارة الصغيرة ـ كما انها تدل على السعال الديكى ، ولعلهم وجدوا فى سعلته ما يشبه نهيق الحمار ، فاطلقوا عليه ذلك الاسم .

وما ان رأيت الطفل منكمشا في حضن ابيه الا وسألت ان كان حقا قد اصيب بهذا المرض ، فاجابونى بالنفى واضافوا ان اسمه الحقيقى هو (حميرة) فعندما كان صغيرا اصيب بهذا السعال وعرف به فبقى اسمه علما عليه .

وهنا تذكرت ان عرب الاهوار يولعون بتسمية اطفالهم باسماء غريبة ، ما انزل الله بها من سلطان ، وهم يعتقدون ان هذا النوع من التسمية حرز

---

(١٨) البارية ، أو البورية فارسية لا تحتمل شكا ؛ ومعناها الاصلى نوع من القصب تتخذ منه الحصران والبوارى ؛ وهى تضفر ضفرا أو تجدل جدلا .
(المترجم)

(١٩) « يسمى الرمح (الفالة) ويكون ذا ثلاثة أو خمسة أسنان ويستعمل أداة لصيد السمك كما يستعمل عند الحاجة سلاحا لقتل الانسان . والمادة المستعملة كمخدر فى صيد السمك تسمى (الزهر) . »
تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم .

حريز يعمى العين الحاسدة الشريرة ويقى اطفالهم ... والا فهل من قـوة شريرة تستطيع ان تصيب من يسمى (حصبة) بشرّ ؟!! انها ولا شـك « تبتسم » من هذا الاسم وتمرّ بصاحبه مرّ الكرام !

وقفلنا راجعين الى (بيت حمود) ثم بالفلك البخارى الى العمارة ...

ان كل الذى شهدناه ، ومتعنا به ، ستبقى ذكراه عالقة بالذهن ابـد الدهر . لقد عاش سكان البطائح السنين الطوال على هذا المنوال . لا يعنيهم من أمر الدين شيء (كذا !) ، وان كانوا على المذهب الشيعى . وليست هناك مساجد فى قراهم ، وقد يؤمهم (الملا) في صلاتهم ، كما قد نجد هنا او هناك من زار (العتبات المقدسة) فهو (زاير) تفريقا عمن زار (مكة) وهو (الحاج) . انهم لا يلتزمون بشعائر الدين الا قليلا . والتعليم يكاد يكون مفقودا بين ظهرانيهم .

انهم كطيور الماء ، وسيبقون كذلك ، على الراجح ، ابد الدهر .

الفصل السابع

السحر فى بلاد الرافدين

يزعم البعض ان بلاد الرافدين هى مهد السحر ، وتسخير الارواح الشريرة ، وما يتصل بذلك كله من تعاويذ ، ورموز ، وترنيمات ، فطبيعى ان تزخر بثروة تليدة من (مأثورات العامة) [١] واساطير الاولين [٢] .

اجهز الاسلام ، بتحكيم العقل ، على كثير من باطل المعتقدات ، ما فى ذلك شك . لذلك نجد ابناء العراق لا يأبهون ، عموما ، بما هو من عند غير الله ... فهم ليسوا كالزنوج الذين يكلفون بطقوس غريبة ، ما انزل الله بها

---

(١) آثرناها ترجمة لـ (فوكلور Folklore) وهى تدل على ما يرسم (البيئة الفكرية) للعامة من آدابهم ، ومعلوماتهم ، وأساطيرهم ، وأغانيهم ، وأمثالهم ، وألعابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم والى ما جرى هذا المجرى .

(المترجم)

(٢) ليس صحيحا ما يزعم البعض من ان بلاد الرافدين هى مهد السحر وتسخير الارواح الشريرة . والواقع ان السحر تراث بشرى عام نجده فى شعوب الارض على اختلاف أنواعها . ويجوز القول بأن السحر يضعف تأثيره فى الناس كلما تقدمت المدنية بهم وازدهر العلم . ان السحر والعلم وسيلتان متفاوتتان لهدف واحد هو السيطرة على الطبيعة وتجنب كوارثها وأخطارها فاذا كان الشعب قليل العلم لجأ الى السحر يحاول به التغلب على الظروف السيئة المحيطة به ، ولكنه لا يكاد يتخذ سبيل العلم وينظر فى الامور نظرا موضوعيا حتى يأخذ باهمال السحرة شيئا فشيئا . وهذا هو ما لاحظناه فى العراق فى الآونة الاخيرة ، فقد كان أبناء الجيل الماضى فى العراق شديدى التعلق بخرافات السحرة يعتمدون عليها فى معالجة أمراضهم وحل مشكلاتهم ، ولا لوم عليهم فى ذلك ، اذ كانوا يعيشون فى وضع ليس للعلم والمدنية الحديثة -فيه نصيب كبير . فالأم التى ترى طفلها مريضا مشرفا على الموت وهى لا تجد فيما حولها طبا راقيا يمكنه من شفاء طفلها ، لابد أن تندفع مولولة نحو السحرة والمشعوذين وفتاحى الفال تناشدهم أن ينقذوا طفلها من الموت . ومن الظلم أن نسخر من مثل هذه

من سلطان . ولا تهيمن على العراقي الفرد غمرة شعورية قوية تجعله اسير (الآخرة) فحسب(*) ... فهو لا يشبه ، من هذه الناحية ، الفلاح الايرلندى مثلا ، وانه لا يرهب الموت ، شأن سكان جزائر المحيط الهادى ايضا .

ولا تسكن إشباح الموتى البيت العراقى ... انه قد يكون سكنا للجن ، وخلق الله الجان من مارج من نار ، فهم ابناؤها . وقد يعمد مؤلف كتاب (الغصن الذهبي)[٣] الى تدوين مشاهدات عدة تتصل بحياة أهل العراق اليومية، وما يمارسونه خلالها من طقوس قليلة يعتقدون انها تقيهم سوء الطالع، او ما يصطنعونه من طرائق سحرية تحميهم من الامراض .

وفى الحق ان (الخرافة) [٤] تسيطر على جانب من حياة العراقى ، شأن

الأم اليائسة أو نحاول منعها من هذا العلاج الخرافى . ان التحذلق عليها بالمقولات العقلية لا يجديها نفعا ولعله يزيد فى ألمها وبؤسها . انها كالغريق الذى يمد يده نحو القشة الطافية على الماء ، والقشة لا تنقذ الغريق فعلا ولكنها تعطيه على الاقل أملا وايحاءاً بالنجاة ، وكثير ما ينفع الامل والايحاء ...

لقد بقيت البشرية على مدى مئات الآلاف من السنين وهى تلجأ الى السحر والايحاء السحرى فى مواجهة الامراض والاخطار . ولما جاءت المدنية أخيرا لم تستطع أن تقتلع من البشر هذا التراث النفسى القديم اقتلاعا تاما . فلا يزال السحر عالقا فى عقول كثير من المتمدنين على وجه من الوجوه . ولا يختفى السحر نهائيا حتى تستطيع المدنية والعلم أن يكتشفا جميع أسرار الطبيعة ويتغلبا على كل أخطارها وآفاتها وأمراضها . فهل هذا أمر ممكن ؟ علم ذلك عند الله ؛

تعليق : الدكتور علي الوردي .

* منهجه المستقيم : (اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)

(٣) تشير المؤلفة الى Sir James Frazer مؤلف الكتاب المعروف The Golden Bough هو كتاب ثبت ومرجع صحيح فى دراسة تطور الدين والسحر لدى مختلف الشعوب ويقع فى ١٢ مجلدا . المترجم

(٤) الخرافة حديث مستملح كاذب ، والمشهور انها الحديث الباطل مطلقا ـ (محيط المحيط) والخرافات ترى حتى عند أكثر الامم تمدنا فعند الانكليز مثلا اذا شاهدت العروس على ثوب عرسها نسيج العنكبوت تعد ذلك (المترجم)

الايطالى مثلا ، ومن ذلك الخوف من (العين الشريرة) • فما هـــذه (العين) يا ترى ؟! انها قوة يمتلكها فريق من الناس ، وانفهم راغم ••• فيوقعون بها الشر بغيرهم ويجلبون لهم سوء الطالع • ومن يعرف بأن له عينا شريرة يخشاه الناس جميعا وينبذه جيرانه نبذ النواة ، ويزدريه ابناء اسرته بالذات ، فهو الداء الوبيل ، والضيف الثقيل فى حلّه وترحاله • وقد يعمد العشائرى الى تطليق زوجه ان خيل اليه ان لها عينا شريرة •

اخبرنى احدهم انه يعرف انسانا ذا عين شريرة ، يستطيع بها ان يكسر صارى سفينة ! وان الناس تراهنوا على قوة عينه هذا و كانت النتيجة ان خسر الرهان من انكر ذلك ، فصارى السفينة انكسر فعلا •

والشائع فى انكلترة ان العروس يجب أن ترتدى ، فيما ترتديه ليلة الزفاف ، لباسا ازرق اللون • فهذا اللون حرز حريز يقيها من عيون الحساد، ومثل هذا الاعتقاد شائع فى الدنيا كلها •

وفى العراق يتخذ الناس ، شأنهم شأن سكان ايطالية وصقلية ، من الخرز الزرق حرزا يقيهم شر العين الحاسدة ، لذا فانك تشاهدها على ظهور الاطفال، والخيول ، والحمير ••• وتزدان القفف التى تنساب فى (دجلة) دائرة ، بها ايضا • ويعلّق سائق سيارتي البعض منها فى مفتاح المحرك ان رحلنا الى مكان قصى • وقد يضعون بعض القطع الخزفية الزرق فى بناء البيت ، وانك لتجـد بعض الخرز الزرقاء والودع معلقة على سروج الخيل واعنتها • والودع منذ

بشرى بحسن مستقبلها والفرنسيون وغيرهم من الاوروبيين يتشاءمون بعدد ١٣ فلا يركبون فى مركبة ولا على مائدة وعددهم ١٣ ، والخرافات اما بقـايا معتقدات وثنية ، أو انها تصدر عن جهل القوم لدواعيها فتنسب الى علة ليست علتها أو انها قد تكون نتيجة لمشابهة شيء مفقود لشيء موجود، أو تكون منبثقة عن أكذوبة اخترعها رجال امتازوا بحصافة ادراكهم وذلك تملصا من التماس أو طلب أو خطر كما فى حكاية كولومبس عندما أراد به أهل أمريكا ســوءاً فهددهم بأن يجعل الحوت تلتقم حمرهم •
(المترجم)

قديم الزمان حرز آخر يقى الانسان من (العين – الشريرة) ، واهل جنوب
أوربة يؤمنون بذلك أيضا .

مما يتردد فى بغداد : (ودعة(٥) ودهاشة ... من عين اللاشــة) .
و (الدهاشة)هذه زر زرقاء فيها(٧)ثقوب تخاط فى الاردية ، او اغطية الرأس .
ويندر ان تشاهد طفلا صغيرا وليس على ملابسه عدد منها ، فهذه واحدة بين
كتفيه ، وتلك على ظهر سترته ، فالعين الشريرة قد تصيبه من وراء او من
قدام ، على حد سواء . وفى العباءة العراقية المعـروفة ، والتى تصنــع فى
(النجف) من الحرير ، قطعة من الخيوط الزرقاء (بلون الشذر) مخاطة فى احد
جوانبها . واللون الازرق هو الغالب فى (الكاشى) الذى يشاهـد على المنائر
والقبب ببغداد . وليس كل أزرق بجالب للطالع السـعيد دوما . فالازرق
الفاتح (الشذرى) هو المقصود حصرا . وهناك حرز آخر يقى من العـين
الشريرة وهو العفص Gall nut فالعفصة تخاط فى غطاء رأس الطفـل
جنبا الى جنب مع الودع والدهاشة .

وقد يشاهد المرء حذاء قديما سمر الى احدى نوافذ البيت او بابها ،
وهم يعتقدون انه يقى ساكنى الدار من العين الشريرة ايضا . وعندما شـق
الاتراك الجادة الجديدة ببغداد قام احد سكانها ببناء داره مجددا فسقط عدد من
العمال ، ومن كان يشتغل بالبناء ، من على الرافعة الخشبية الى الارض فاصيبوا
باضرار ... لذا امتنع بعد هذا أى عامل من العمل في ذلك البيت ما لم يتم
وضع حذاء قديم مسمَّر فيه . ومما يأتى بالطالع النحس أن تعجب بشىء ولا تقول
(ما شاء الله) . وقد تسمع امرأة تقول لاخرى : « ما ابدع هذا المئزر الـذى
ترتدينه !؟ » فتجيبها هذه «لا تصيبينى بالعين » وهو جواب لا يعدو اظهـار
الخوف والوجل . وتعنى النسوة بترك شىء من الوضر على وجوه اطفالهن ،

---

(٥) الودع : خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت فى الصغر والكبر
شقها كشق النواة تعلق لدفع العين الواحدة . ودعة الجمع (ودعات) .
محيط المحيط

أو فى الباسهم المهلهل الخلق من الثياب لئلا يسترعى جمال الطفل « العـين » فيصاب بشرها . ولو طاوعت احدى النسوة النفس الامارة ، ابان الاحتفالات، فاظهرت وليدها على ابهى حال ... لوجدتها قد خاطت فى لباس رأسه ، قبل كل شيء ، التعاويذ والبسته سترة من حرير ، كما وضعت فى رجله (جناجل) من فضة وحملته الى مكان الاحتفال حيث التراب المتطاير واشـعة الشمس المحرقة . فان عادت به الى البيت تحمله وقد ظهرت عليه اعراض الحمى طار صوابها فزعمت ان تعاويذه لم تكن كافية ، ومن الحتم ان عينا شريرة اصابته ، فعليها ان تبحث عن صاحب العين ، وعسى ان تكون جارتها التى يأكل الحسد قلبها من حسن الوليد ؟ ويبدأ المسعى على هذا المنوال : تأخذ المرأة كـسرة صغيرة من الرصاص وتذهب بها الى العذارى السبع على التعاقب . فهى تعرف عددا منهن فى بعض البيوت ، لذا فانها تزورهن فيها ، فتأخذ كل عذراء الكرة وتضعها في فمها ثم تبصق فيما بين ردائها وجسمها من جهة العنق . ثم تمضى الام بالكرة الى بيتها وتذيبها فى ملعقة على النار ، ثم يصب ذوب الرصاص على قرص من (الجلة) وضع على رأس الوليد المريض ، وتراقب الام الشكل الذى يتخذه ، وقد تستدعى جارتها لتسهم فى المراقبة ايضا . ثم سرعان ما تهتف الام : « عباءة ! هذه امرأة بدينة ، واظننى رأيت امرأة بهذا الشكل تتطلع اليه قرب سوق الصفارين ! »

« كلا ! انظرى ان هذا منشار » ثم يتم الاتفاق على هذا ، لذا فالحاسد يجب ان يكون ذلك النجار الذى يعمل بجوار بيت السيد حسين ، فالشائـع انه ذو عين شريرة ، وهنا تنصح الام بالذهاب الى شيخ ، او شيخة ، للحصول على تعويذة تبطل الشر . ومثل هذا الشيخ عرفه البابليون فى شـخص الـ (اسيبو) ، وهم يسمونه (فتاح فال) وان كانت امرأة فهى (فتاحة فال) ـ فكل منهما يفتح كتابه لمن يستنصحه ، فلو شُغل فتى بحب فتاة أحبَت غيره وجدته يهرع الى (فتاح الفال) عارضا عليه امره . وسرعان ما تظهر على الشيخ امارات

الجد والتعقل ، ثم يكتب له تعويذة على جذاذة من ورق يناولها المحب الولهان، ومعها قليل من (البخور) . ثم تجده يضع (كتابه) على رأس الزائر ويقـرأ فيه مستفتحا . وبعد ان يستخبر تنجيماته ، يقول : « ارم التعويذة التي اعطيتها لك في الماء في اليوم الفلاني ، ثم اشرب قليلا منه ، وحاول ان تحمل من تهوى على الشرب منه ايضا . وبخّر نفسك بهذا البخور عند مغيب الشمس، فلو لحت لها آنئذ احبتك ونسيت الآخر ... »

ولنكسر القول مرة اخرى على (العين الشريرة)(٦) : والعادة الشائعة في البلاد ، كما في سائر بلدان الشرق ، تفضيل الاولاد على البنات كثيرا . وانك لتشاهد بعض الاولاد وقد البسوا ملابس البنات ، لئلا تصيبهم العين الشريرة بسوء . وجاءت غسالة الملابس الى بيتي بطفل تحمله وقد ألبسته ملابس البنات فسألتها : « ما اسم هذه البنت الصغيرة ؟ » فاجابتني : « انه ولد ، وليس بنت ، وهو وحيدي ولي ٣ بنات غيره»

ولا يرجع المحب الفاشل في امره الى (فتاح الفال) دوما . فهنـاك

---

(٦) كثير مما جاءت به المؤلفة في شأن « اصابة العين » عند نسـاء العراق صحيح . وأود أن أضيف الى ما قالت شيئا آخر هو أن اعتقاد النساء باصابة العين أدى الى بعض الضرر في تكوين شخصية الطفل العراقي . فالأم تخشى أن تمدح طفلها بشيء مخافة أن تصيبه هي بالعين . ان كل مدح مهمـا كان نوعه ومصدره قد يؤدي في زعمها الى الاصابة بالعين الشريرة . ولهـذا فهي تميل الى ذمه دائما ، وهي لا تدري ان الذم المستديم يؤدي الى نمو عقدة الخيبة في طفلها .

مما تحرص عليه التربية الحديثة هو انماء عادة التفاؤل والثقة بالنفس في الطفل ، ولابد للمربي الناجح من أن يمدح طفله أحيانا في سبيل تشجيعه على عمل من الاعمال أو عادة من العادات . ولكن الأم العراقية القديمة لا تفهم هذا . انها تحاول في كثير من الاحيان أن توحي في عقل طفلها بأنه سيء الحظ وانه دون غيره من الناس .

ولهذا أسباب متنوعة ، ومن جملة هذه الاسباب في رأيي ان الأم تخشى أن تمدح طفلها على شيء فيصاب بنكسة من جراء العين الشريرة أو غيرها .

تعليق : الدكتور علي الوردي .

(وصفات) جاهزة لمن يفشل فى حبه ، او ينتابه وصب ، او يألم من وجع . شاهد احد اصدقائى مرة شابا من الطبقة المتعلمة (الافندية) يغسل يديه فى النهر . ثم شاهده يخرج بيضة ومنديلا من جيبه وهو لا يدرى ان عينا تراقبه. ثم انه غسل يديه مرة ثانية ، ووضع المنديل على الارض وغسل يديه مرة ثالثة ، ثم انه وضع البيضة فوق المنديل ورماها فى النهر فانكسرت واختفت . وعيّن الشاب المكان الذى اختفت فيه البيضة ، ثم اعاد الاغتسال ، وتناول حجرا وضعه على المنديل وصرّه فيها ثم رماه فى نفس المكان . وغسل يديه آخر مرة ثم نهض وانصرف . وقد يغلب الحياء على المتعلمين فلا يقرّون امثال هذه الخزعبلات ، لكن صديقى استطاع بواسطة كاتبه ان يعلم ان ما رآه هو من ضروب السحر القديمة وان القصد منه استمالة المرأة التى يهواها الشاب والحيلولة دون حبها لغيره . والبيض كثير استعماله فى السحر و(فتح الفال). سبق ان بينت فيما مضى شيئا عن الركن الذى تزوره الساحرات اليهوديات وما فيه من قشور البيض المكدسة . والركن هذا هو على مقربة من مكتب زوجى ، وكان يشاهد فيه عجوز تقوم بضروب السحر مستخدمة البيض دوما. فالاطفال يجلبون اليها فتمر بيدها على رؤوسهم مرات عديدة . ثم تخرج بيضة من صدرها وتتمتم ببعض تعويذات ، وتكسر البيضة وترميها فى النهر ... وتغسل العجوز يديها لتستقبل وليدا مريضا آخر . أنا لا أفقه ما تمارسه هذه العجوز من سحر !.

ويعتقد البعض ان من نحس الطالع اعطاء البيض بعد مغيب الشمس ، فانك بمثل هذا تضحى بطفل . واعلمنى مخبرى ان امه رفضت مرة اعطاء جارتها بيضة بعد غروب الشمس ، وطلبت منها ان تعود فى اليوم التالى لتعطيها ما تريد ، ولو كان ١٠٠ بيضة[٧] .

ويستخدم اهل العراق ما يسمى : (سحر المحبة) على ما اظن . واليك

---

(٧) الخرافة الشائعة عند عوام العراق ان اعارة بيضة فى الليل تجلب المنية على أطفال المستعار منهم .
(المترجم)

تعويذة تستخدم وقاية من الحمى والصداع : يؤتى بسعفة نخل ، وتشعل ، ثم تناولها احدى النسوة وتمضى بها ، ثم تقف عندما يطلب اليهـا الوقوف . وما ان تنطفىء النار المشتعلة الا وتولّي الحمى، في الوقت نفسه ، الى غير رجعة . واذا ما أشفقت المرأة على الطفل الذى تحمله ذهبت الى (السيد الافعوان) - افعوان السحر - وأعطته عصفورا ليبتلعه وما ان يتم ذلك الا ويقتل الافعوان، ويخرج العصفور من جوفه ويخاط فى حقيبة جلدية وتعلقها المرأة على ظهرها دوما .

ويشفي الزكام بكى الصدر ، كما تشفى آلام المعدة لدى الاطفال بكى بطونهم بسيكارة . وان احسّ الراشد بألم فى معدته فلا دواء له الا الكى ، وتستخدم لذلك قطعة من قماش ازرق صبغ محليا . واعلمنى احد المسيحيين ممن اقاموا مع البدو ان رجلا اصيب بتضخم الكبد فغمسوا ذراعه فى ماء حار ثم قطعوا وريده ، ومن الدم الذى سال منه صنعوا كعكة ما ان تم جفافها الا وتماثل الرجل الى الشفاء !

ولكى يشفى المصاب بـ (حبة بغداد) او (الاخت) - ولم يوفق الى علاجها علم الطب حتى الآن ، تستخدم الطريقة البسيطة الاتية : يؤخذ عصفور ويقتل فيسيل دمه على الحبة ، ثم يعلق العصفور ليجف ، ويشفى المصاب فى الوقت نفسه . ويشفى المصاب بالحمى ، على ما يعتقدون بارسال شخصين من بيت المريض ليشدا خيطا فى الجهة المقابلة من الشارع ، ومن يفك الخيط من المارة يصاب بنفس الحمى ، ويشفى المريض [٨] .

وشبيه بـ (العين الشريرة) ما يسمونه بـ (النفس الشريرة) . قيل ان أحدهم ساوره شك فى وجودها فأروه رجلا استطاع ان يقتل كلبا بنفسه ، بل وبمجرد التأوه . ولقد اصاب احد من عرف بـ (النفس) جميع اطفاله فماتوا ، فما كان منـه الا أن يرجع الى (المـلا) يستخبره فأشـار عليـه هـذا بألاّ يخنق أى طفـل يولد له ، واتبـع الرجـل النصيحـة فكان له البنون . وقبل ان اختتم هذا الموضوع لابد لى ان اذكر العلاج المحلى الذى

---

(٨) هذه من خرافات « كبش الفداء » . (المؤلفة)

يرون فيه ما يشفى السعال الديكى • فاسم السعال المحلى (حميرة ـ مصغر حمارة) بالنظر للشبه بينه وبين (نهيق الحمار) وقد يسمى (خنيزيرة ـ مصغر خنزير)، وليس من اللائق ان يذكر اسما هذين الحيوانين •

ويصحب الوالد ولده المصاب بالسعال الديكى الى احد الخفافين ، وهم صانعو الاحذية الحمر والصفر التى يرتديهـا المسلمون واليهود ، ويقول له : « ياكلب سوى لى كلب خاطر الكلب بن الكلب ! » • ان مخاطبة اى شخص بياكلب بن كلب اهانة لا تغتفر ، ولكن الخفاف ، فى هذه المناسبة ، يبتسم من هذا السؤال ضاحكا، ويقطع من الجلد قطعة بشكل كلب ويعلقها برقبة الطفل• ومن العلاج الشافى لهذا المرض أن يشرب المصاب من ماء سبق لكلب أو خنزير ان شرب منه ، او ان يذهب الى جزار فيأخذ هذا خنزيرا الى النهر ويخنقه فيه • ثم ان الجزار يمسك برقبة المريض ضاغطا عليها ، وبذلك يطرد السعال المزعج •

وتختص بعض الاسر بالمقدرة على شفاء امراض معينة ، فانى اعـرف شخصا لطيفا متقادم السن ، كان حتى عهد قريب يشغل وظيفة حكومية ، وله مقدرة موروثة على شفاء الناس من الحمى• فهو يكتب (سورة الفاتحة) من القرآن الكريم على لوزة نزع عنها القشر ليأكلها المريض ويشفى، فان استمرت الحمى أعد لوزة أخرى ، ولم يعرف عن مريض احتاج الى لوزة ثالثة ليشفى ! والمرأة العاقر لها وصفات عدة : ومنها ان تحبو المرأة بين رجلى بعير واقف • ومن لا طفل لها من المسيحيات تزحف تحت تابوت مصغر ملىء بالزهر يطاف به فى الكنيسة يوم الجمعة الحزينة • وتشد النسوة على اختلاف اديانهن خـرقا بسلسلة مدفع قديم يدعى (أبو خزامة) موضوع على باب القلعة ببغداد(*) • والامهات يأتين بالرضع ويدخلن رؤوسهم فى فوهة المدفع استجلابا للطالع السعيد •

(*) نقل هـذا المدفع فيما بعـد ، الى متحف الاسلحة ، فى الباب الوسطانى ، أحد أبواب بغداد القديمة •
(المترجم)

ومن لا طفل لها من النساء تزور جامع الشيخ جنيد ، وهو على مبعدة
من بغداد ، خارج مرقد زبيدة • وعلى الجهة الشرقية ، خارج الجامع ، بئر
يقال ان الشيخ كان يتوضأ فيها • وتمتح المرأة من البئر بجردل ثلاث مرات
وتصب قليلا من مائها على كتفيها ، وهي تردد : « نحبل » وبذلك تتحقق رغبتها
المشبوبة • على المرأة أن تقوم بهذا يوم (الاربعاء) وان تدفع الى قيّم المرقد
قليلا من المال • وشبيه بهذا ، ان المرأة التى لا ولد لها ، ولها البنات فقط ، تنال
بغيتها بواسطة (البئر) ايضا • وهناك صخرة شافية محفوظة فى المسجد ، فلو
فركت باليد وامرت اليد على العضو المصاب زال عنه الالم حالا ، وقد يكون
من الافضل ان يلمس الحجر بالعضو نفسه ، او ان يطوف بالحجر حول مرقد
الامام • ولعل افضل من يزار من القديسين الابرار فى النائبات هو (خضر
الياس) وكلمة (خضر) تعنى (الخضرة الدائمة) والمراد منها تخليد قدسيته
المستدامة وسطوته • ويؤمن بالخضر المسلمون والنصارى واليهود ، فهو من
الصالحين يجيب دعوة الداعى اذا دعاه ، سواء أكان الداعى امرأة عاقرا ، او
حبيبا مهجورا ، أو أما ثكلى • وهو يحضر بمجرد ذكر اسمه فهو شديد
التوق للشؤون البشرية • وتنذر له النذور ، كما توقد له الشموع وتمنح
باسمه العطايا • وهو يدعي ايضا بـ (شيخ الشط) ، ومن المألوف ان يشاهد المرء
سعفة نخل لطخت بالطين ووضعت فيها ٣ او ٥ او ٧ شموع وهى تطوف منحدرة
فى دجلة • ومن يرمى السعفة لا ينفك عن متابعة سيرها ، فلو وصلت نقطة
معينة فى النهر ، وبقيت فيها شمعة تشتعل ، لكان ذلك دليلا على ان (خضر
الياس) قد قبل النذر ، وسيتحقق المراد • ويصوم البعض أياما معدودات وهو
(صوم نينوى) ، ذكرى تخريبها او صوم خضر الياس ، ومن لا طفل لها
تصوم وتنذر لخضر الياس الحلوى توزعها على الفقراء وتدعو الله أن يرزقها
ولدا • فان رزقت الولد دأبت على التصدق سنويا • وقد تشتاق مثل هذه
المرأة الى أمر قبول نذرها ، فتعمد الى وضع صينية كبيرة حافلة بالكعك فى
احدى غرف الدار وتوقد فيها الشموع ، كما تضع فيها صحنا مليئا بالماء ،

ومشطا ، وفرشاة وشيئا من الكرفس • وهى لا تغفل عن فرش طبقة كثيفة من الطحين والسكر على الكعك ، فان قبل نذرها ظهرت عليها آثار عصا الخضر ، أو انطبعت سلسلة لجام فرسه • والكرفس لهذه الفرس ، أما المشط والفرشاة فللقديس نفسه يسرّح بهما لحيته الطويلة ويتأنق • أعلمنى من قصّ عليّ كل هذا ، وهو من المتعلمين ، ان آثار الخضر تظهر واضحة جلية فى الغالب • فان لم يعثر عليها تعمد المرأة الى تسلية النفس فتقول : « لا بأس عليه ، فسيزورنا فى السنة القادمة » • والشائع لدى العامة ان الخضر يعود الى الدنيا بمجرد ظهور (المهدى) الامام الثانى عشر •

نذرت زوج تاجر معروف ببغداد ، ومن اسرة موسرة جدا فيها ، اثر مرض ابنها ان تلبس الخلق من الثياب وتطوف على ٧ بيوت من بيوت الفقراء وتستجدى من فيها • فان اعطيت حسنة كان ذلك دليلا على قبول النذر ، ومن الغريب انها حصلت على شىء قليل فى تطوافها وان ابنها شفى من مرضه • انها اليوم ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، اكثر الناس على الفقراء تصدقا ، وتخلد ذكرى شفاء ابنها سنويا • وهناك الكثير من الحرز ضد موت الاطفال الضعاف ، فالمعروف ان نسبة وفيات الاطفال في المدن هى ٧٠٪ ، وهى نسبة تضفى على تلك الخرافات اهمية فاجعة • فالمرأة الموسرة وقد فقدت اطفالها لدى الولادة تجلس على قارعة الطريق متنكرة ، وتنادى على المارة (من بركاتكم) مستجدية وبما يتجمع لديها من مال تشترى به قطعة صغيرة من ذهب او فضة ثم تنقش عليها أسمها وتخاط فى سترة الطفل ، او غطاء رأسه ، مع كلمة (يعيش) • أو تعمد الى زيارة أم ذات حظ عظيم لبقاء أولادها جميعا على قيد الحياة ، فتستجدى منها الملابس لطفلها الواهن • وعلى شىء من الاهمية كبير حرز (محمد) •• فالمرأة تذهب لرؤية ٧ اولاد ، اسم كل منهم (محمد) وتستعطيهم قطعة فضية ، من كل واحد منهم ، ثم تذاب القطع فتصبح قطعة واحدة يكتب عليها (محمد) فاذا ما علقت القطعة بمشد حول عنق الصبى اصبح قويا سليما •

والعذراء البغدادية التى تخشى البقاء عانسا تحج ٤٠ سبتا ، فهى تنهض فى عماية الصبح وتمضى حافية القدمين ، او بالجورب فقط ، الى جامع الامام موسى الكاظم ، او الشيخ معروف الكرخى ، ولا تكلّم فى طريقها انسيا . وما ان تصل الجامع الا وتدخله وتطرق على الضريح المقدس فيه قائلة : « اتيتك ؟ فلا تقل انى لم ازرك » ثم تتقفل راجعة الى بيتها وهى جد مطمئنة الى زواج آت لا ريب فيه . ويزار مرقد الامام الاعظم ، لنفس الغاية ، وبنفس العدد من المرات ، اما زيارة الشيخ عبدالقادر الكيلانى لنفس القصد فتتم بـ ٤٣ سبتا . والفتيات الانكليزيات يعمدن الى وضع قطعة من كعك الزواج تحت وسائدهن ويحلمن بالزواج المرتقب . كذلك البغداديات ، انهن يكلفن بالملبّس الذى يوزع فى الاعراس ، ومن تأكل منه يصبح زواجها قريب المنال .

وهناك ايام للبؤس وايام للنعيم[٩] . فالفترة الاولى من محرم ، وايام صفر كلها من ايام البؤس لدى الشيعة ، ففى الاولى وقعت فاجعة كربلاء ، وفي الثانية انتقل محمد الى الرفيق الاعلى . ويعتبر المسلمون يومى السبت والخميس من ايام النعيم ويبدأون مشاريعهم فى احدهما (لعل اختيار السبت ناجم عن فقدان منافسة اليهود لهم فيه) . ومن طوالع النحس ان يرى المرء القمر وقد علته حمرة خلال شهر رمضان ، وهو شهر الصوم لدى المسلمين جميعا ، فيه يمتنعون عن الطعام والشراب والتدخين فيما بين الشفق والغسق . واستيقظنا فى أحد ايام رمضان الاخير على جلبة القوم ، وقرع الصفائح ، ونفخ الابواق ،

---

(٩) التشاؤم من الايام قديم ، وكان شائعا بين عرب الجاهلية ، يدلك على ذلك الحديثان الشريفان : (لا تعادوا الايام فتعاديكم) والثانى (لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر) ومن المحتمل ان قد جاء هذا التشاؤم لاهل العراق ، والاعتقاد بكثير من الخرافات والاساطير من الاقوام البائدين كالبابليين والامم التى جاورتهم كالرومان والفرس والاقباط والاحباش واليهود . واليهودمن اكثرالامم كلفا بالاساطيرواعتقادا بالخرافات، وفى التلمود جانب كبير من الحوادث العجيبة والامور الغريبة .

(المترجم)

~~واستيقظنا فى احد ايام رمضان الاخير على جلبة وقوع الصفائح ونفخ الابواق~~
واطلاق العيارات واصوات منكرة اخرى . فلقد اصطبغ القمر باللون الاحمر، وهو فى نظرهم مسبب عن اقتراب الحوت منه ، ساعيا لالتقامه. فان تم ذلك بقى رمضان ابد الدهر - وذلك شيء مروع حقا . وان الصرخات والقرعات والنفخات والاطلاقات التى سمعناها يراد بها تخويف الحوت لئلا يقدم على فعلته النكراء ، وعساه ان يولّى الادبار .

وهناك الصالح والطالح مما يؤديه الانسان من افعال فى حياته اليومية . ان تقليم الاظافر على الوجه القويم مثلا ، يجب أن يتم على الوجه الآتى : تقلم اظافر اليد اليمنى على هذا الوجه : اظافر الخنصر ، فالوسطى ، فالابهام ، فالبنصر ، فالسبابة. أما أظافر اليد اليسرى فتقلم كما يأتى : الابهام ، فالوسطى، فالخنصر ، فالبنصر ، فالسبابة . واني اذكر هذا لابين الى اى حد تسيطر الخرافات على حياة الشعب اليومية . وهناك اساطير عديدة تتصل بالسادة ، وهم الذين ينحدرون ، من صلب محمد وعلى ، وعددهم جد عظيم . ويرتدى السادة عمامات خضراء دلالة على قدسيتهم (واللون الاخضر مقدس عند المسلمين). ان المسيحيين واليهود يراجعون السادة أيضا ليكتبوا لهم التمائم والاحراز . وفى (بعقوبة) سيد اشتهر بين الناس بمقدرته على طرد الارواح الشريرة ، فأقارب الممسوس [(١٠)] يأتون به الى هذا السيد ، فان لم يخرج « الجنى » - او الروح الشريرة - بأمر منه ، عمد الى شد يدى المسكين ورجليه وانهال عليه ضربا وهو يصيح : « اطلع » . وكثير من هؤلاء المخبولين المساكين لقى حتفه بسبب ذلك ، ولكن السيد يصرّ ، حتى فى حالة الموت ، على ان الروح الشريرة فارقت الجسد أيضا . وطلبت غسالة يهودية شابة من صديق لى ١٠ روبيات كسلفة ، فسألها هذا الصديق : لِمَ تطلب ذلك ؟ فاجابت : انها تريد مقابلة (السيد) المقيم فى الجهة الاخرى من النهر ، فهو

---

(١٠) من به مس من الجن ، والملموم من به لمم من الجن أيضا .
(المترجم)

من الذين يتنبأون عن المستقبل • لقد نفى الاتراك خطيبها ولم تعد تسمع له ذكرا ، فهى اشد ما تكون شوقا لمعرفة خبره • انها لن تستطيع الزواج من غيره ما دام حيًّا ، ذلك ان الخطبة لدى يهود العراق ملزمة ، ولعل لها قوة الزام الزواج • وسألها صديقى : ما الذى يستطيع أن يقوم به هذا (السيد) فى هذا الباب ؟ فاجابت : ساشترى قطعة من اللحم ، واعطيها له ، مع ١٠ روبيات ، وسيضع اللحم تحت وسادته ، فان اخلد الى النوم فسيرى فيما يراه النائم من حلم ، مكان خطيبى ، وهل هو فى قيد الحياة حتى الآن ؟

وحوكم مؤخرا فى الحلة « سيد » اتهم بقتل صبى • فلقد القى السيد القبض على الصبى وهو يحتطب خارج المدينة ، فقتله ، واخرج قلبه • وتجلت البينة قوية ضده عندما عثر فى حوزته على احد المواس [(١١)] وعليه آثار دم • واشيع عنه انه قتل صبيانا آخرين على هذه الشاكلة ، والظاهر ان علاج احد الامراض هو ان يأكل المريض من قلب صبى انتزعه (سيد) من جسمه • وتدفع احيانا جوائز ثمينة جدا ، سرا ، الى احد (السادة) ممن لا يتورعون عن ارتكاب الجريمة والحصول على العلاج • ويجب ان يكون الضحايا ممن لم يدخنوا ابدا • ولقد اعلمتنى احدى السيدات ان خادمها اخبرها بانه تمكن مرة من الخلاص بشق الانفس ، فان احد (السادة) سعى لقتله لهذا الغرض بالذات [(١٢)] • وهناك تعويذات عدة تمكن حاملها من ان يصبح منيعا سالما • ولقد اعطى احد احبار اليهود فى البصرة ضابطا سياسيا من معارفى احدى

---

(١١) جمع الموسى ، وهو المستعمل فى الحلاقة .

(١٢) ان ما ذكرته المؤلفة هنا يفسر لنا الاساطير المختلفة التى كانت شائعة فى العراق فى الجيل الماضى حول ما كان يسمى يومذاك بـ « الخناق » . وأتذكر ان أمي كانت أثناء طفولتى تخوفنى بالخناق وتحذرنى من الذهاب بعيدا عن الدار لئلا أقع فى قبضته الرهيبة • ولما كبرت ظننت ان قصة الخناق غير صحيحة وان الامهات اختلقنها لمنع الاطفال من التجول بعيدا عن البيت • ويبدو لى الآن ان قصة الخناق لم تكن مختلقة من أساسها كما كنت أظن • وأرجح ان الخناق كان شخصا من السحرة يصطاد الاطفال ويستخرج (المترجم)

التعويذات • انها حزيمة جلدية تضم ٥ ابر ، و٥ خيوط حريرية مختلف الوانها ، واسم امه ، وتاريخ ولادتها ، وتاريخ ولادته ، وصام الحبر لمدة ٢٤ ساعة قبل اعداد التعويذة ، كما طمئن مخبرى ان التعويذة تقى حاملها من شر الرصاص وطعنة الرمح • وهناك تعويذة أخرى تقى حاملها من الجرح وهى تعد كما يأتى : يصطاد المرء قنبرة سالمة ، وتؤخذ والبدر فى تمامه الى المقبرة • وعليه ان يختار قبرا ويشعل النار فوقه ، ثم يضع آنية مليئة بالمـاء على النار ويجعل القبر دوما خلف ظهره • ثم تقتل القنبرة خلف ظهره ايضا ويضعها فى الاناء وهو يغلى بمائه ، حتى يصبح كل ما فيه سائلا ما خلا احد العظام الصغيرة • سيسقط ضوء القمر عليه فيلتمع ، واخيرا ليأخذ هذا العظم ويضعه فى وعاء جلدى ويحمله • انه درع واق من شـر الرصـاص • ويستعمل الهُدْهُد بالطريقة نفسها ، لكن عظمه يختار بعد غليه ورمي جميع العظام فى المـاء الجارى • فالعظم الـذى يطوف مصعدا فى النهر وبعكس مجراه ، هو العظم السحرى المطلوب • هذا وان التكلم ابان العملية خطـر ماحق • ولقد اشير الى اخرس كان جالسا فى احدى المقاهى باعتباره ضحية لخرق هذه القاعدة • ذلك انه فقد خاصية الكلام عن هذا السبيل • كان الرجل يقوم باعداد تعويذة الهدهد فى المقبرة والطير يغلى ••• وسمع جنى يناديه باسمه : « احمد ، اين انت ؟ » ونسى الرجل شرط العملية فأجاب : « انا هنا » وهكذا فقد النطق فورا • وقد تلطم الارواح الشريرة من لا يلتزم بذلك أيضا •

والجن ، منهم الصالح ومنهم الطالح • انهم يكلفون بالسراديب ، واليها يخلد الناس للراحة خلال ايام الصيف • والجن تغنى فيها ليلا وترقص ولا تصيب

قلوبهم ليعالج بها بعض الامراض حسبما تقول بعض الخرافات السـحرية الشائعة فى ذلك الحين ، وربما كان هناك بعض المرضى ممن كانوا يصدقون بصحة هاتيك الخرافات فيدفعون ثمنا غاليا لمن يأتى لهم بقلب طفل ليأكلوه ويتوقعوا الشفاء من مرضهم المستعصى •

تعليق : الدكتور علي الوردي •

احدا بسوء ما لم يعكر عليها صفوها . وقيل لى ان عامرا[١٣] يسكن شجرة تقوم في جوار بيتنا ، وانه يطرق علىّ النافذة احيانا . كما قال لى احدهم : ان العُمّار استعاروا ملابس جدته ليحضروا عرسا لهم . فسألته : « كيف عرفت ذلك ؟ » ذلك ان جميع الملابس وجدت فى الصندوق المقفل صبيحة اليوم التالى . فاجاب : « لقد كان على الملابس شىء من الحناء ، لذلك عرفت ان العمار استعملتها فى تلك الليلة . » ومن يرغب فى الحيلولة دون استعارة الجن لما يمتلك من متاع عليه أن يضع بينها سكينا ، ودبوسا ، وابرة ، و « حبة سودة » . ومن الجن ما هو شرير جدا فقد يعمد الى حرق متاع البيت او تهشيمه ، وقد يغطى الطعام بطبقة من التراب او الاوساخ ، او قد يتصرف تصرفات شائنة أيضا . ومنهم النشط الفعال يقوم بخدمة البيت قبل أن تنهض ربته من فراشها ، وقد يقوم بشراء الحاجات من السوق بدلا منها .

ويستهوى الجمال البشرى الجان ، فيشغفون بالعذارى الانسيات حبا . فقد تجد الفتاة اللطيفة عندما تهب من فراشها فى الصبح قطعة نقدية على الوسادة فتشعر ان محبا من الجان زارها ليلا . ولا تكتفى الجان بالزيارات العابرة : فلقد حكى ان فتاة هبت من نومها على سماع صوت يناديها باسمها ، وسرعان ما نزلت الى السرداب ، ثم استيقظت امها وتبعتها فوجدت ان باب السرداب مغلق . ونادت ابنتها ، فسمعت صوتا ضعيفا بعيدا يجيب : « انا هنا » وعندما شق طريق بالقوة الى السرداب لم يجدوا فيه الا ثقبا فى الارض .

ولا تلحق الجان الضرر بالاطفال ، او بمن يصطحبون الاطفال ، والبنات الصغيرات منهم بوجه اخص . وكثير من الامهات لا يغامرن بالدخول الى غرفة مظلمة بدون اصطحاب فتاة صغيرة . وتعتقد الصابئة ان الجن تسرق الطعام ، لذا فانهم لا يطبخون الطعام الا بعد ان يذكروا اسم الله . وهم يأكلون صامتين ، فلو نطق أحدهم بكلمة ابان الطعام عمدت الجن الى اقتطاف لقمات منه .

---

(١٣) ان العرب تنزل الجن مراتب فان أرادوا انه يسكن مع الناس ، قالوا : عامر ، والجمع عمار (راجع فقه اللغة للثعالبى) . (المترجم)

وتكلف الجان بالنكات البارعة . اعلمني احد البغداديين ان جده شاهد في احدى الليالى خروفا يسير فى عقد النصارى ، فجاء به الى البيت ، وطلبت زوجه منه ان يخرج الخروف ، لانها احست بشيء غريب فيه ، فلم يصدقها الزوج ، وربط الخروف فى باحة الدار . وفى صباح اليوم الثاني شاهد اهل الدار جثة غريب ملقاة فيها . فما كان منهم الا ان يسحبوا الجثة الى الشارع ، والفزع آخذ منهم كل مأخذ ، وفيه انقلبت الى خروف يسير على رجليه موليا(١٤) .

وهناك غيبيات اخرى ﻓ (السعلوة) من بنات السحر ولها شعر طويل اخضر اللون . وهى تغشى دجلة ، وقد تشاهد وهي تضفر جديلتها . ولقد أخبرنى أحد الاوربيين ممن يسكنون منطقة الاهوار قرب العمارة أن هناك من الامراض ما لا سبيل الى شفائه الا بتعويذات يعدها أناس عرفوا بأنهم ثمرة الاتصال بين عذارى النهر واحبائهن من البشر ، الاحباب الذين تجذبهم العذارى الى قعر النهر ، ثم يطلقن سراحهم بعد ان يقضين منهم الوطر ، وفى القانون التركى نص يحرّم زواج الانسى من بنات البحر .

وهناك ذكر من هذه الغيبيات ، يسمى (فرج الاكرع) . انه مخلوق غريب ، نصفه انسان ، وله رجلان ضعيفتان ورأسه خال من الشعر ، وهو يغشى دجلة فيصطاده السماكون أحيانا فيعمد الى استعطافهم ، ويعدهم باللآلىء

(١٤) كان أبناء الجيل الماضى من العراقيين يؤمنون بوجود الجن وطالما كانوا يتحدثون عن مشاهدتهم لها فى زوايا البيوت والازقة المظلمة . وقد خفت عندهم هذه العقيدة الآن حتى كادت تختفى . وأظن ان من جملة الاسباب التى جعلتهم يتخيلون مشاهدة الجن فى تلك الايام هو قلة ما كان لديهم من وسائل الانارة لا سيما فى الشوارع والازقة الضيقة . فكان أحدهم يسير ليلا فى زقاق مظلم مثلا فيوحى لنفسه انه يلمح جنيا فى احدى الزوايا والمنعطفات ويساعده الظلام على التخيل فيأخذ قلبه بالخفقان وربما أطلق ساقيه للريح من شدة الخوف ، وهو لابد أن يتحدث فى اليوم التالى عن صورة الجنى المرعبة وعن سيقانه الطويلة وعيونه التى تقدح نارا . والسامعون له قد يتأثرون بحديثه وربما جاء دورهم فى الليلة التالية والويل لهم حين يظهر لهم أحد الجن فى منعطف الزقاق المؤدى الى بيوتهم ... والله الساتر على أى حال ! تعليق : الدكتور علي الوردي .

والجواهر والنفائس • وما ان يطلقوا سراحه الا وينكث وعده ، ويسبح فى النهر هاربا ، يسخر منهم ويرميهم بأقذع السباب • وكتبت جريدة (المفيد) البغدادية بعددها الصادر فى ١ آب ١٩٢٢ تصف حيوانا غريبا لا يمكن ان يكون الا عفريت النهر هذا بالذات • وقيل ان البعض شاهده قرب (نورية) السيد لطوفى الآلوسى بنهر الفرات : وانه يشبه البعير عموما ، لكن قائمتيه الاماميتين ووجهه مما يشبه الانسان • ان له شعرا اخضر اللون ، وذنبا كذنب السمكة • • وأيد كثير من الاهلين انهم شاهدوا المارد المخيف فعلا ، فأطلقوا الرصاص عليه ولكنهم لم يصيبوه بأذى • أما (الطنطل) ففض قبيح الشكل ، وهو يقفز على ظهور المارة ليلا ويضع قدمه أمامه فلا يستطيع احدهم حراكا • ومن رآه يقول انه اعلى من المنارة طولا ، وانه يكلف بالحيل الغريبة • ولليهود عفريتهم الخاص ايضا ، ويسمونه (شاباتم) وهو يشبه (الطنطل) ولكنه فارع الطول • انه يقطع الطريق على السابلة فيسألهم عن دينهم ، فان كان المسافر يهوديا صالحا افسح له الطريق ليمضى بسلام ، وقد يحمله باعجوبة الى ما يقصد ، وان كان مسلما أو نصرانيا انهال عليه ضربا ولكما ، وسرق نقوده وتركه بلا حراك •

والحب العنيف عندهم ضرب من الجنون ، ولا يشفى الا بالتعاويذ والرقى • احبت شابة يهودية شابا متزوجا فلم يجدوا لها علاجا الا الاغتسال ، والصوم ، والضرب ، والصلاة ، والتعاويذ • وفي خاتمة المطاف زارت بيت (الحاخام) ومكثت فيه ردحا من الزمن ثم خرجت منه وقد امتلكت قواها العقلية كاملة • وتقوم العجائز باعداد « وصفات الحب » للعشائريين • اعلمنى احد الضباط السياسيين انه تلقى من ابوين شكاوى مفادها ان شابا استطاع الحصول على علاج ، وطعام ، وقطعة قماش بُللت بالناعوظ (شراب الحب) ، وانه هرّب كل ذلك الى ابنتهما ، فأوقعها فى شباك حبه حالا ، أى بمجرد ان أكلت من الطعام وشربت من الناعوظ والعلاج الناجع فى مثل هذا الحال استدعاء (العالم) ليقرأ على البنت عشرا من القرآن ، وان يجرى غسلها يوميا عدة مرات ، وان تتناول طعاما معينا •

ويتم الحفاظ على الطفل بشتى التعاويذ وضروب السحر ، مما يخطر على بال أمه ... وهي في ذلك تنسى الوقاية الصحية الحقة . انهم يضعون سيفا عاريا بجانب الوليد ليطرد عنه الارواح الشريرة ، ويعلق جزء من القرآن في عنقه . ولو سقط الطفل على الارض ، وهو ما يحدث غالبا في بلد يوكل فيه أمره الى اخته الصغيرة ، بادرت الام الى (تبخير) الارض . وقد تذهب في مغيب الشمس الى نفس المكان ومعها ملح[١٥] ، وبيضة ونخالة . ثم انها تعمد الى ايراء النار ، ملقية فيها الملح والنخالة . وقد تكسر البيضة على الارض، ثم تقلبها قائلة : « يا ملائكة الصالحين لا تلحقي بنا الضرر ، فلن يصيبك منا ضرر » وقد تكتفي احيانا بابقاء شمعة مشتعلة في المكان الذي سقط فيه الطفل. وان حال دون فطامه حائل أخذته الى النهر وغسلت وجهه ويديه ، ثم ترمي فيه بيضة وتتركها تنحدر في النهر . وقد تكرر ذلك في ٣ أيام متتالية . وتدعي النسوة ان ذلك « يبرّد » قلب الطفل فيكفّ عن طلب ثدي الام .

وهناك خرافات كثيرة تتصل بالبيوت . فهم لا يستأجرون البيت قبل ان يعرفوا كنهه ؛ أطالعه حسن أم سيىء ؟ لذا فمن الصعوبة بمكان تأجير الجديد من البيوت ، والتجربة اكبر برهان . وهناك من يزعم ان بعض الامــراض تلازم بعض البيوت . وهكذا ، حذّر احد معارفي الانكليز من ان البيت الذي يريد ا[illegible]ه (مسكون) وليس كل بيت تسكنه الجان بسيىء الطالع ، فقد يكون ساكنوه من الاخيار ، أو من الخلان الاوفياء .

ان الاساطير الشائعة بين العراقيين جد كثيرة ، ومن يشرع بتدوينها ينهال على ذاكرته الكثير منها ، وموضوعها يستأهل مجلدا ضخما ، ولكنني لا اريد ان أسهب في ذلك ، لذا أقف عند هذا الحد وأختم فصلي هذا .

---

(١٥) ومن الخرافات الشائعة عند عوام العراق عن الملح : اذا دخل زائر ثقيل على قوم فما لهم سبيل للتخلص منه الا أن يحرقوا ملحا .

(المترجم)

الفصل الثامن

صـــور صغـــار !

- ١ -

وفتحت ابواب السماء بماء منهمر ... انها « فاختية اللون » ، اما الطرق فموحلة ، ومنها ما يشبه الحقول وقد غمرتها المياه في شهر تشـــرين الاول المطير . ويخوض الانسان في وقعة[1] فيبلغ الماء الركبتين ، فان سعى الى انقاذ رجله الغائصة في الطين اللازب[2] سمع لها حسيس وزفير ... وقد يكبو فيسقط في الوحل ان حاول نزع رجله الاخرى .

وينزل الودق[3] من السماء فيتقيه الاعراب بالخَلَق من ثيابهم وبما يسترون به الرؤوس من كفافي ، ومنهم من تراه ملثما في يوم البرد القارص الشديد . ويتجمع اثنان او ثلاثة من الاهلين حول مدفئة « منقلة » ، او قد تتحلق جماعة منهم على الارض الموحلة ، وحول خشبة موقدة ، وعلى رأسهم تقوم احدى الطوق البغدادية .

وهؤلاء الناس حفاة في الغالب . والفقير منهم لا ينتعل في اليوم المطير . والنعال تعلّق على الظهور ، ولا معدى من الخوض في المياه والاوحال بأرجل حافية .

وتشق السيارات طريقها في الشارع الجديد الموحل وهي لا تلوى على شيء . وتسير العربات ايضا فيكون لسيرها عقابيل كاسحة ، فأقدام خيولهـا ترمي وجوه المارة برشاش من طين .

---

(١) مستنقع الماء في الطين .
(٢) اللازب = الطين العلك اللاصق .
(٣) المطر المستمر .

انهم يعلقون فى مؤخرتها سلكا شائكا يصيب الصبية ان أرادوا التأرجح بها بشيء من وخزاته .

- ٢ -

نحن فى اليوم التالى ... وفي المساء ؛ انه الاصيل ، والشمس ترسل اشعتها العسجدية فتصبغ البرك ، والاطيان ، وجدران المسجد الصغير باللون الذهبي . هؤلاء الصبية الصغار ، ذوو الوجوه السمر ما زالوا يخوضون فى الوحول القذرة غائصين حتى الركبتين .

ان كل شيء فى الدنيا يتوهج ويصطبغ بلون الشمس الغاربة .

- ٣ -

وهذه عاصفة ترابية هوجاء . لقد اطبقت الظلمة على الشوارع والبيوت وعلى كل شيء ... ويتخذ الهباء (٤) سبيله الى الانوف ، والحلوق ، والعيون ، والصدور . وعلى الرغم من شدة حرارة الطقس ، تجد الناس ملثمي الوجوه ملتفين بعباءاتهم . ولا فائدة ترتجى من اغلاق النوافذ باحكام ، فالغبار ينفذ منها على الرغم من ذلك كله ، انه يكسو المناضد والكراسى بطبقة رقيقة .

ان لون السماء ، والنهر ، والطريق ، والبساتين واحد : انه اللون الترابى المغبر ...

لقد توقفت الفراشات عن طيرانها ، والببغاء عن المحاكاة .

هذا (طفل) لف بعباءة برتقالية اللون ، وقد ذوى فولت نضارته .

وهذه (يهودية) تصارع الريح العاتية ، ومئزرها الوردى المصنوع من الحرير السميك منتفخ ، وكأنه شراع سفينة تجرى وقد حبست الريح فيه !

---

(٤) الهباء التراب الذى تطيره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم يلتزق لزوقا .

ان هذه المرأة خجلى كاسفة البال ، فلقد كسا الغبار جسمها كله .

لقد أصبحت الدنيا معتمة ، ومن عليها يكاد يختنق أو يصـاب بالدوار والغثيان .

ان النفايات تتطاير فى كل مكان ، وتلوث الغبار ... فكأن روحا خبيثة غشيت المدينة كلها .

- ٤ -

انها ساعة الاصيل ، هذه صفحة دجلة [٥] كمرآة مصقولة واسـعة تعكس السحاب الوردى ، وتضاعف الشعاع العسجدى فما أُحيلَى ذلك !؟.

ونزلت « مليكة الانوار » الى خدرها فى مهابة وجلال . وأعقبت الغسق المتورد ظلمة اطبقت على حوائط [٦] النخيل الممتـدة على سيف [٧] النهر . فان نظرت الى السماء وجدت اسراب الزاغ فيها متزاحمة ولخفق اجنحتهـا صوت يشبه المطر فى تسكابه . وقد تغزو الطيور هذه السماء كلهـا فترى الاسراب متتابعة ، متلاصقة لا تنتهى الى مد البصر . وقد تمر الاسراب فوق الرؤوس وتتكاثف كالسحاب الثقال ، وقد يصحبها احد الصقور الجـوارح ، ولكنه لايهاجمها الا لماما وقد ينقضّ على طير تخلّف عن سربه او كاد !

---

(٥) سمى البابليون والآشوريون هـذا النهر « اى ـ دكـلات I - DI - IK - LAT على ما جاء فى الكتابات المسمارية ، وسماه العبرانيون « حداقل » وبذلك ورد اسمه فى التوراة . وأصل الحـاء فى حداقل « هـ » وهى « الـ التفريق » فى العبرية وسماه الفرس « تيكرا » أما فى العربيـة فهو دجلة وقد انحدر من الاسم البابلى .

راجع أصول أسماء الامكنة العراقية ـ بشـير فرنسيس وكوركيس عواد ـ سومر المجلد الثامن ص ٢٦١ .

(٦) الحوائط = جمع حائط وهو البستان .

(٧) سيف النهر = ضفته .

وهذا شيخ من الصحراء يقدم الى بغداد ونحن مدعوون لديه لتنـاول الطعام • انه سيد الخيام والقطعان ، ولقد استأجر لنا السيارات لتقلنا الى داره مارة بالدروب الضيقة • وتصطدم هذه بالجدران ، ويتراجع الناس عنها الى أبواب دورهم حذرا من الدهس والدعس ، أما الباعة الذين يجلسـون على قارعة الطريق فسرعان ما يجمعون بضاعتهم ويولـّون هاربين فى احدى الطرق الصغار •

ووصلنا البيت فاذا به صغير ساذج ، واعتذر الرجل عن ذلك مفيـدا ان الاجدر به ان يستضيفنا فى بلده • وقادونا الى الطابق الاعلى ، وقدمت لنا السكائر ، ثم قدموا لنا اولاده ، وهم صبية تتراوح اعمارهم بين ١٣-١٥ • ولا يجسر احد منهم على الجلوس بحضرة ابيه ، او معنا • ان سلوكهم حسن وهم يحسنون الكلام ايضا • وقد تعلموا التخاطب بالانكليزية فى مدرسـة مستر فان ايس بالبصرة •

وسألتهم : « كم لكم من الاخوة ؟ » فأجابوا : « أربعة أو خمسـة ، والاخوات ؟ » وظهرت على وجوههم امارات الحيرة ، وعدم اليقين • انالاخوات بنظرهم على شىء منالثقة ، لذلك اتجهوا الى أبيهم بالسؤال ، واذا بالاب حائر مضطرب ايضا • واجابوا اخيرا : انهن ّ كثيرات !

وسألتهم : ولكن ، ما عددهن ّ ؟ واذا بهم جميعا يتشاورون جادين ، وتسفر المشورة عن ان العدد ١٤ او ١٥ او لعلـّه اكثر من ذلك •

وقلت : ان لابيكم ، اذن عددا كبير من النسوة ؟ واحال الصبية أمر الاجابة على ذلك الى أبيهم فقال ، وهو يبتسم ضاحكا ، انه لا يعرف عددهن على وجه التحقيق • انه يحيا حياة يسودها نظام الابوة ، ومن واجب الاب فيه ان يكثر من البنين والبنات ، ويبتهج بالعدد مهما كلـّف الامر •

وانتقلنا الى غرفة مجاورة زينت بالطنافس واعدت فيها المائدة • وكان عدد انواع الاطعمة التى قدمت لنا ١٠ ، ولا تدخل فى هذا العدد الفاكهة والحلويات ، وكثير من هذه الاخيرة حسنة الطهو • والعربى يكلف باللحم السمين الدهين ، وبالحلوى ان كانت اشدّ ما تكون حلاوة : وكانت هناك كثير من الصحون الشهية اعدت للآكلين ، شريطة ان تكون للانسان شهية • وتصيب الانسان الكظة وتذهب الشهية اثر تقديم الصحون الاولى • وقد كنت أرجو ان يبقى لدىّ شىء منها لاستمتع بتلك البرتقالات الكبار التى تزين المائدة • وكان تناولنا للطعام يجرى على طريقة اهل المدن ، لا على طريقة اهل الصحراء ، فلقد كنا نجلس على الكراسى ونستخدم الشوكات والسكاكين •

- ٦ -

خرجت يوم الاربعاء الى الصحراء واتجهت صوب مقبرة المسلمين • انها مدفن موتاهم منذ ايام العباسيين • ويرقد فيها الاتقياء الصالحون والرجال العظام ، ولعلّ (بهلول) فى المقدمة منهم جميعا • والعوام يلقبون بهلول بـ (مضحك هارون الرشيد) ، والحقيقة انه كان من الصالحين وانسانا سويا ، ويزور قبره كثيرمن البسطاء ايضا ، ويومزيارته هو الاربعاء ، على وجهاخص• وزرت السيد ، ذا العمامة الخضراء فى مرقد الشيخ جنيد ، وشاهدت الحجر المقدس الذى اخرج لتراه لمة صغيرة من النساء ورفعت احترامى الى مقام صانع المعجزات • وسرت فى طريق منحنية صوب مرقد بهلول ، وصحبتنى اليه النسوة اللواتى عرفتهن فى تربة الشيخ جنيد[٨] وقامت بيننا فيه الفة •

---

(٨) المتوفى سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) وكانت مقبرته تعرف باسم مقبرة (الشونيزية) •

(المترجم)

الم نكن جميعا رفقة من الزوّار ، تعتلج نفوسنا برغبات خفية ونذور سرية ، قد تستجيب لها السماء او لا تستجيب • ومن يدرى لعل كلمة طيبة تصدر عن الرجل الصالح (بهلول) (٩) وتصعد اليه تعالى فيستجيب لنا !

ويقوم المرقد داخل سور يحيط به من الجوانب كافة • وهناك فناء شجير أمام مرقد الشيخ الصالح • ولو نظرت الى الارض لوجدت الطابوق وقد صفّ هنا وهناك بما يشبه الدور الصغار التى يبنيها الاطفال وقد لا يكون هناك شيء داخلها ، او قد يكون فيها بعض الحصى ، او احدى الخرق ، او بقية ناموسية ، وكلها مرتبة بغير عناية وتمثل اشياء عدة ، كمهد الطفل مثلا • وتسمى النسوة هذه ؛ (البيوت) وكل منها تمثل أمنية مما يهفو لها قلبها •• ان « البيت » الذى يضم المهد معدّ من امرأة عاقر ، وهذا الترتيب الغريب للحزم والخرق يمثل سرير الزوجية وهو امنية قلب فتاة حلّ وقت زواجها ، ولم تتزوج • وتترك النسوة هذه « البيوت » الصغيرة فى فناء المزار للشيخ وتذكّره بصمت بأن لها مطالب قدمتها له • فان اجيب الطلب وتحققت الرغبة هدمت البانية « السعيدة » بيتها وقدمت شكرانها •

والتصقت بى احدى رفيقاتي وكشفت لى عن مكنون قلبها قائلة : « انى

---

(٩) ان قبر بهلول دانه ، الشهير ببهلول المجنون لـ (وهب بن عمر الكوفى) ويقال انه من تلامذة الامام جعفر الصادق • ولقد قرأ الرحالة نيبور (هذ قبر سلطان المجذوبين والنفس المطمسه سنة ٥٠١ (= ١١٠٧ م) ويقول (المستشرق ماسينيون انه قرأ

سنه نين •• ئة
ستة وثما وسبعما
أو ٨٧٦ (= ١٣٨٤)

راجع Mission en Mesopotamie Par Massignon

(المترجم)

يا سيدتى ، تعسة ، وزوجى فى (بمبى) ، وقد مضى على فراقه ١٢ سنة ، فأنا
الآن وحيدة • واروم ان ارسل اليه صورتى ولكنى اخجل من ان ارفع النقاب
عن وجهى فى احد الدكاكين • أبمقدورك ان تصورينى لكى ارسل صورتى
اليه ؟ » •

لقد كانت شابة جميلة ، تشوب وجهها الكآبة والاضطراب • ووعدتها
بذلك • فقالت : ولكن لا تسمحى لاحد ان يراها ، اذ لا اريد ان يرى وجهى
احد ، ولتكن صورة واحدة فقط • وطمأنتها ، اذ لن تزيد على صورتين ،
أعطيها واحدة وأحتفظ بالاخرى• ثم قلت لها : وسأصورك الآن، وليكن جدار
المرقد خلفك • »

وانخلع قلبها على مرأى آلة التصوير ، ثم أخذت تتلفت مروّعة ، وهى
تخشى رفع النقاب عن وجهها • وانبتها النسوة الباقيات على هذا ، وقلـــن :
« السنا جميعا نسوة ، فلم تخجلين ؟ » واستجمعت فى الاخير اطراف شجاعتها
ووقفت صارمة جادة المحيا وخلفها الجدار وقد اضيء بأشعة الشمس ، وصورتها
وانتهى الامر • وكان علىّ ان اشرح لها ان من المتعذر اظهار الصورة فى لحظة،
وانى سآتى بها وائتمن عليها السيد فى تربة الشيخ جنيد ولن تقع عينه عليها
ابدا لاننى سأضعها فى مظروف مختوم واكتب على جانب منه اسمها • وعندما
سألتها عن اسمها نطقت به • ولم يكن لدىّ قلم رصاص فاستعرت واحـدا
من رفيقتى ، وهى سيدة فرنسية عاشت فى افريقية الغربية • وكانت السيدة
هذه تحمل فى كيسها (باقلة سوداء) وهى من تعاويذ الزنوج • وعندما فتحت
السيدة الفرنسية حقيبتها ورأيت حبة الباقلاء اخذتها منها لكى اريهـــا الى
صديقاتنا الجديدات ، وانا اقول : « ان هذه للفأل الحسن » • وتناولتها النسوة
باجلال ، كما اخذتها الفتاة ذات الزوج الغائب فى (بمبى) وقبّلتها ورفعتهـا
لتلامس كلا من عينيها ، الواحدة تلو الاخرى ، وهى تتمتم : « ان شاء الله

يعود ... ان شاء الله يعود . » وكان صوتها يفصح عن شوق حار ، وانتابني الاسى لما هي عليه من وحدة . وودعت النسوة، ذوات العباءات السود ، وتركتهن عند قبر (بهلول) وهنّ يبنين « بيوت المنى » ويقمن الصلاة . فلو استجيبت الرغبات لوددت ان تستجاب رغبتي ، وهي رغبة تلك الزوجة التي غاب زوجها بالذات ، الزوجة ذات العيون الحزينة والقلب الصادق .

آمل ان الرجل الصالح بهلول أخذ بهذه الاشارة ووضعها في الموضع اللائق بها .

- ٧ -

صانع القاشاني

انه رجل بلغ من الكبر عتيا ، ولكنه على الرغم من ذلك شاب في جسمه وعقله . وانه يعمل في جوار المسجد حيث تسطع الشمس ، وحيث تتطاير « ذوات الاطواق » فوق الرؤوس ، وهديلها يملأ الاجواء . ويمر به طلاب العلم الديني في طريقهم للدراسة ، والصلاة ، وكذلك الاطفال الذين يدأبون على قراءة القرآن في ظل القبة الزرقاء . انه كثير الاستغراق في عمله فلا يأبه لأي شيء . يقول هذا «الفيلسوف» ان الصلاة هي العمل . ولعلّ هذا الشيخ الذي استطاع بيديه الماهرتين ان يكسب القاشاني جمالا فتزدان به أماكن الصلاة ، أطول الناس « صلاة »، وعلى الرغم من انه لم يدخل المسجد طوال حياته الا لماما ... انه يضع عمامة خضراء مائلة فوق رأسه . انه ، وتلامذته ، مكلفون باعداد القاشاني ، مما يحتاج اليه في بناء الجوامع وقبابها ، وهو عمل يتطلب مهارة واتقانا . ومن انواع القاشاني ما هو دقيق الصنعة ذو الوان زاهية، وعليه صور الازهار والاوراق، وأواني الورد، وخطوط منحنية مختلفة الاشكال . وصانع القاشاني هذا قادر على تقليدها على احسن وجه . انه شديد الكتمان لطرائقه ، وصقلاته الخزفية ، ولعله سيطلع عليها احد الصنّاع المهرة

قبل ان يحين اجله الموعود • وهو قادر على تقليد انواع القاشانى ، وله طرز خاصة ابتدعها بنفسه • وليس ذلك كل ما يحسن • انه لقادر على صنع اشباه دقيقة للعاديات ، وعلى الاتيان بذلك البريق العجيب الذى يسميه « وهج الشمس » وتصريفها على باعة التحف فى المدينة ، وهؤلاء ، بلا شك يبيعونها على اعتبارها اصلية • ويقوم دكانه فى ركن من اركان الباحة ، وتساكنه فيها قطة بيضاء لطيفة • وتقوم في احد اركان الغرفة (كورة) صغيرة ، وهناك كورة كبيرة بنيت من طين وهى قائمة تحت سدرة عارشة • اما اصباغه فهي محفوظة فى ركن آخر • انه يرسم الطرز التى يبتدعها على الورق ، وهو فى ذلك يستلهم طرز القاشانى القديم ، وقد يعمد الى ادخال شيء فى قالب مهشم ، وينقل رسمه باحداث ثقوب على خطوطه ، ثم يرمى مسحوق الفحم على الورق ليظهر الطراز على قاشانية وضعها تحته • وتخلط الالوان فى صحن صينى انيق ، ولكنه مكسور ويا للأسف • أما المواد المستخدمة فى الخلط فهى : صغار الحصى ، وانواع التراب وقد جرى سحقها جيدا ، وبعض المعادن كالنحاس والذهب وما الى ذلك •

ان اللون الازرق الفارسى الجميل ، وهو اللون الغالب على كل الالوان، نتاج النحاس • وهو يخلط بالماء وبأحد انواع الراتينج (القلفونية) Resin [10] المستورد من ايران ، واوراق احدى الشجيرات ، ويمط المغلى ويصبح جاهزا للاستعمال • وتوضع الالوان ، بعد اعدادها ، فى حقائب صغيرة • ومادة الصقل بسيطة مصنوعة من الحصى الصغيرة والرصاص والزجاج المهشم ، وتلحق بالمسجد احدى الغرف العالية وتجرى فيها العمليات الاولى • ويؤتى بالتراب من بقعة تقع على ضفة دجلة شمالى بغداد ، حيث التراب ملائم للعقد ، ثم تصنع منه قوالب مخططة بالرمل اليابس • ثم تيبس هذه القوالب

---

(١٠) وهو الـ Colophony نسبة الى « قلفونية » (مدينة فى رومة) ولذلك فيسمى (راتينج قلفونية) ويسميه ابن البيطار (صمغ الصنوبر) انظر معجم شرف •

وتشوى قبل أن تفرش عليها الطبقة الاولى من اللون أو الصقال . وقد تتراءى العملية هذه بدائية بسيطة ، ومن يقوم بها قلة من الرجال . وانك لترى فوق رؤوسهم بلبلا فى قفص يشدو ، وأشعة الشمس تنفذ من خلال الباب المفتوح . او قد ترى فوق قبة المسجد رجالا يعملون على اصلاح ما تكسر من قاشانيها . انهم لا يأبهون لحرارة شمس الربيع المحرقة ، وهم يفرشون اولا طبقة من الجبس ثم يضيفون اليها القاشانيات الجديدة فى مكانها اللازم ، على وفق الطراز القائم . والجبس اشد ما يكون اسراعا الى التصلب ، لذا فانك تجد القاشانية وقد ثبتت فى مكانها لدى وضع قاشانية اخرى . ان الزهور والاوراق تشيع فى النسق العربى Arabesque أو (التوريق) العريق، وتستلهم فى أغلب أنواع الريازة ، بما يخالف الشريعة الاسلامية، اذ قد يضع أحدهم فيها صورة مخلوق حى (رأس ديك) فى طرازها .

وتسلقنا سلم المئذنة ، وقد أتموا بناءها مجددا فى الآونة الاخيرة . ان الوانها الوردية والشذرية مشعة زاهية ، ولقد رأينا بغداد من فوقها . انها تتراءى مدينة مسطحة البيوت، شرقية لا غربية، وكما كانت ترى أيام العباسيين . أما دجلة فيظهر كشريط يلتمع ويتلوى بين النخل والشجر الاخضر وخلفه صحراء كانت تقوم فيها (المدينة المدورة) [11] والتى اقام فيها الخلفاء الاولون واستحالت اليوم الى تراب .

وتسمع لمناقير اللقالق على احدى السطوح القريبة قعقعة ، ولعلها تتأمل فى المدينة مثلنا . والاعشاش كثيرة فوق السطوح وهى بصغار اللقالق موقرة، وانك لتجد اللقلق الاب وقد علته المهابة وهو يحاول ارجاع صغيره الذى يريد ان يطير قبل الاوان . ولنترك هذه الطيور تطيل التأمل ولنتخذ السبيل المتلوى المؤدى الى الباحة السفلى ، حيث يقف صانع القاشانى وبيده هدية هى عبارة عن

---

(١١) « المدينة المدورة » شرع المنصور بتخطيطها سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م) وقام بتأسيسها سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وأتمها سنة ١٤٩ هـ (٧٦٦ م) (المترجم)

قاشانية صفراء سقط عنها شيء من صقالها بفعل السنين ، ولكنها مازالت ناعمة الملمس وجميلة • يقول الصانع المذكور انها من العاديات الاصيلة ، وانها ليست مما يصنع للسوق • وشكرناه على ذلك واثنينا على ما يصنع • وليس فى هـذا الصانع القديم شيء من التواضع المصطنع ، انه يقـول : « ليس لي ندّ في العالم ! وليس هناك من يستطيع صنع القاشانى مثلى ، سواء فى بغداد او فى الكاظمية » •

فى مقدور هذا الرجل أن يفخر بأنه أحد صناع القاشانى القدامى ، وهم من طبقة محترمة ، مادام الذى يصنعونه مقدر • كانت شوارع بابل ومعابدها وقصورها ، والمدينة فى اوج قوتها ، تشع بالقاشانى الممّين (١٢) وكنت تجد صور الاسود والغرافين (١٣) الملونة بالاصفر ، الازرق ، والابيض وكأنهـا تمشى متشامخة على سطح الجدران الصقيلة القائمة على جانبى الطريق المقدس ومنها ماكان يرى حتى عهد قريب على بوابة عشتار الكبرى فى المدينة المتهدمة • وكان الازرق الشذرى ، شأنه اليوم ، هو اللون المفضّل فى صنـع القاشانى والخزفيات • ولعل القبة الفخمة التى أمر (قبلاى خان) (*) بانشائها لملذاته ، واستعمل فيها القاشانى اللطيف البهيج ، لم تكن الا من صنع صانع قديم كان يعمل في دكان من دكاكين بغداد •

وما ان أقرأ قصيدة (قبلاى خان) الا وتتراءى لى (القبة الزرقاء) وخلفها اشجار شديدة الاخضرار •

---

(١٢) الممين اثرناها ترجمة لكلمة Enamelled وتعنى المطلى بالميناء •

(١٣) الغرفين : griffin وحش خرافى نصفه سبع ونصفه طير •
(المترجم)

(*) قوبيلاى خان ، اعظم اباطرة المغول طرا ، وحفيد (جنكيز خان) • اتصف بحب الاحسان ورجاحة العقل ، ودوى اسمـه فى كثـير من الارجاء ووصلت جيوشه فى اوروبة حدود بولنده • توفى سنة ١٢٩٤ (المترجم)

انه يوم قائظ من أيام الصيف اللاهبة ، وانه يوم ميلاد الملك فيصل ...

ونظم فيه سباق للسباحة النهرية ، وازدحم المتفرجون فى القوارب الراسية على ضفتى دجلة ، والذى يلفت النظر ان بين الجموع نسوة يرتدين العباءات والمآزر الجذابة . وكانت الاعلام ترفرف في النسيم ، ومن نعم الله ان يستروح الناس فى ذلك اليوم بنسمة شمالية .

وبدأ السباق من (جسر مود)(*) ، أما نقطة السبق فتقع على بعد بضع مئات من الياردات جنوبى النهر المتلألأ ، وقد جلست اللجنة وضيوفها فى باخرة قريبة من تلك النقطة . وانك لترى صبية صغارا يرتدون سراويل السباحة وفى رقابهم ارقام السباق ، واشد ما يكونون توقا لسماع اشارة البدء ، انهم متنقلون جماعات من محل الى آخر .

ودوّت اطلاقة مسدس ، وانطلق عدد من الصبية الصغار يعومون بعيدا عن الجسر ، وينحدرون فى التيار ، وتشجعهم هتافات المتفرجين .

وأعقب ذلك سباق آخر للقوارب (الابلام) ، وهو الاسم الذى اعتدنا على تسميتها به فى بغداد . وضجر المتسابقون من الانتظار لحين انتهاء السابحين من سباقهم ، فانطلقوا يتسابقون ، وكانت النتيجة ان المجاذيف كانت تضرب فى الماء بين السابحين ، وبرحمة منه تعالى لم يصب احد منهم بضرر بليغ . ولم يكن ذلك ليكفى ، فانطلقت القفف تتسابق وراء القوارب ، وبذلك كان المتفرجون يشهدون ٣ سباقات تجرى فى آن واحد ، كما ساد الهرج والمرج قرب نقطة السبق بوجه يند عن الوصف . وينقطع احد ارباب القفف عن الجذف ويترك المغرفة سادرة قبل ان يصل نهاية السباق ، وينادى بانه احرز قصب السبق . وكان من الصعوبة بمكان افهامه ان السباق لم ينته بعد : غريب أمر هذه القفف ما اسرع سيرها ! أكان هناك يا ترى سباق للقفف فى بابل القديمة؟

(*) ويقوم اليوم مكانه جسر الاحرار .   (المترجم)

فمما لا شك فيه ان القفف وجدت في دجلة قبل حكم نبوخذ نصر بأمد طويل،
ولقد قام الفنانون(١٤) الآشوريون بتصويرها على الطنف (الافاريز Friezes
التى قام باستخراجها من الارض (لايرد Layard) ، وهى شبيهة بالقفف
التى تصنع اليوم •

ومما وجد على الطنف الآشورية صور سباحين شدت اليهم جلود الشاة
المنفوخة (جربان) ـ وكان سباق مثل هؤلاء آخر سباق فى منهج اليوم• ويضرب
المتسابقون بارجلهم فى الماء بقوة ، وهم يستندون الى (الجربان المنفوخة)
لتساعدهم على السباحة • ان ايديهم ممدودة الى قدام ، ولقد استطاع احد
المهرة فى فن السباحة أن يسبق زملاءه بمسافة بعيدة • ويشاهد منظر هذا
الصنف من المتسابقين كثيرا فى الموصل ، وحتى فى ايام بواكير الربيع حيث
يكون ماء النهر ببرودة الثلج • فان جمدت مفاصل السابح خرج من النهر
وركض على سيفه قليلا ثم عاد وقد شعر بالدفء مرة اخرى • وقيل انرسولا
خاصا استطاع ان يبلغ بغداد سباحة بهذه الطريقة بعد اقل من يومين من
مغادرته الموصل ، وابان الفيضان العالى بالذات •

ونال السباق ترحيبا كبيرا ، لذا فان اعادته فى سنة اخرى امر محقق•
ويحب البغداديون السباحة ، وصبية اليهود منهم على وجه اخص • وانك لتجد
المئات من هؤلاء سابحين فى اوائل الصيف • ومنهم من يقول ان تعلّم السباحة
جزء من الواجبات الدينية ، وكذكرى لعهد الطوفان ، وقد غزت المياه فيه

---

(١٤) الفنانون جمع فنان Artist • شغل البعض طويلا بالمساجلة حول
استعمال الكلمة فقال فريق انه لا يجوز استعمالها بمعنى رجل الفن
المتخصص له الضليع ، لانها لم ترد فى اللغة الا بمعنى (حمار الوحش) وقال
غيرهم لا مانع من استعمالها ، والصحيح ان الفنان هو الذى يعالج الفن ويزاوله
ويكاد يكون هذا الوزن الثلاثى قياسيا لكثرة ما ورد منه ، فاستعماله لا غبار
عليه ، واتخاذ القياس يزيد اللغة ثروة ويؤدى معانى لم يعرفها السلف ، وهذا
شأن جميع اللغات الحية •
(المترجم)

الارض كلها • وآخرون يرون فيه نوعا من الرياضة التى يأخذ بها الصبية اليهود • ومهما كان الامر ، ان جموع السابحين فى امسيات بغداد جزء لا يتجزأ من حياتها ابان الصيف • ولا يتخلف البريطانيون عن احتذاء هذه الجموع •

وتقيم سلطات نادى العلوية خياما للسباحة على جزيرة تظهر فى النهر أمام النادى ابان الصيف ، فتصبح بمثابة مرسى له • وتستحيل هذه الجزيرة الى شاطىء (دوفيل) المصغّر كل مساء •

هذا وان رحلات السباحة من افضل انواع التسلية خلال تلك الايام والتى ترتفع فيها الجزيرة كثيرا •

وعندما يبرد الجو فى الامسيات ، يرتدى السابحون ملابسهم ، فى احدى البواخر النهرية ، أو على سيف النهر ، ويتناولون عشاءهم رخاء فى أحدى البقع اللطيفة ، وينسون بذلك حرّ اليوم وعناءه •

الفصل التاسع

المرأة العراقية

النسوة العراقيات ...

ان ذكرت هاتين الكلمتين تتابعت الصور متوامضة متواكبة فى المخيلة ! فالمسلمة بتربيتها العالية ، نحيفة القوام ذات مهابة وجلال . انها تلبس العباءة السوداء ، وتسدل الخمار على وجهها فيقيها نظرات الاغراب . وتلبس المرأة المسيحية مئزرا حريريا يميل بلونه الى الزرقة ، وتتبختر المرأة اليهودية بمئزرها وتسدل على وجهها خمارا سميكا له حافة من فضة ، ورقيقات الحال من الموسويات يلبسن مآزر لها شرائط . والمرأة العشائرية لا تسدل على وجهها الخمار ، انها تتألق صحة ونشاطا ، ويظهر ذلك على خديها المتوردين، ويفتر ثغرها دوما عن ابتسامة عذبة . وقد تتخذ الوشم (*) المميز لعشيرتها على الحاجبين والخدين والحنك . والكلدانيات يلبسن البتّ (١) المخرم ، ويضعن

(*) لاتتخذ العشائر البدوية الوشم شعارا مطلقا . فالوشم وسيلة من وسائل الزينة . وقد تختلف العشائر فى الاماكن التى يجرى الوشم عليها من جسم المرأة ولكن ذلك لا يرقى الى مستوى القاعدة المقررة كما لا يمكن مطلقا تمييز امرأة من عشيرة عن اخرى بالوشم . ويبدو ان المؤلفة عممت ما هو معروف عن اتخاذ كثير من القبائل البدائية كسكان استراليا الاصليين والهنود الحمر وسكان جزر المحيطين الهندى والهادى فى مناطق بولونيشيا ومكرونيشيا واوشينيا الاصباغ على الجسم شعارا للقبيلة . وهذه ظاهرة اجتماعية اخرى مبعثها الايمان بالطوطمية وتستعمل فى الاحتفالات الدينية او فى حالة التهيؤ الى الحرب ، ولا علاقة لها البتة بالتجميل بدليل انها تزاول فى اغلب الاحوال فى بعض القبائل ، وحصرا فى قبائل اخرى ، بين الرجال دون النساء ! » تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

(١) البت : كساء من صوف غليظ يصلح للشتاء والصيف .

على رؤوسهن العمامة . وصبايا تلكيف يلبسن لباسا غريبا فيه النضير (٢) والخرز وهو مبعث الدهش والاستغراب . واليزيديات يلبسن ثيابا قرمزية ويتزين بالفضة وتلف الواحدة منهن حول خصرها زنّارا (٣) ، اما الارمنيات فهن اشبه بالفلاحات القبرصيات ، يشددن الرؤوس بالكفافي وتتراءى الواحدة منهن وكأنها تعيش في عالم ثان جميل ..! وغير ما ذكرت كثيرات ..

واني لاذكر الكنائس الكلدانية أيام الاعياد وقد علقت فيها قناديل زرق خافتة الضوء ... فالنسوة يتجمعن في الاماكن المخصصة لهن حصرا ، واذا بذلك اللون الشفقي الخافت يستحيل الى الوان زاهية عندما يحنين رؤوسهن خشوعا وتضرعا . ان دروعهن (٤) تخفي جسومهن جميعا ما خلا الوجوه بطبيعة الحال .. وانك لترى فيها مجموعة الوان : الفضي ، والازرق ، والوردي ، والقرمزي ، والابيض ... وقد تسمع لها هسهسة ، وكأنك تسمع الصوت المنبعث من احد حقول الشعير وقد نشط فيه الحاصدون ! .

ان مئزر اليهودية والمسيحية وعباءة المسلمة هو ما تغطي كل منهن جسمها به خارج البيت فتلبسه على دروعها . ويضم جهاز العروس دوما مئزرا فخما او عباءة فاخرة . وتنفق البغدادية على مئزرها اكثر مما تنفقه الانكليزية المقتصدة من نساء الطبقة المتوسطة على ملابسها طوال شهور سنة . وطراز المئزر ثابت لا يتغير ، وحريره على درجة كبيرة من الجودة ، فلا يبلى طوال عمر صاحبته . انه سميك ، ومصنوع باليد ، وتنسج فيه خيوط من ذهب وفضة ، وقد يبلغ ثمن المئزر الواحد ١٠-١٥ دينارا عادة وقد يفوق ثمن النوع الممتاز منه هذا المبلغ اضعافا مضاعفة . وعلى الرغم من ذلك فليس المئزر بلباس عملي ، انه مزاج من الغطاء والدرع ، وبه اكمام وتتماسك بالشرائط

---

(٢) النضير : الذهب .
(٣) الزنار : ما تلفه الذمية حول الخصر .
(٤) الدرع : (مذكر) ثوب خاص بالنساء

وبالدبابيس • ولا ينكر ما للمئزر من مظهر جذّاب لمن ترتديه خارج الدار وقد يزاح عن الرأس او يعاد عليه بطريقة آلية ..! اما الوانه فهى مختلفة، زاهية وانك لتراه على (جسر مود) ، و (نهـر العشار) فى أمسـيات السبت وكأنك فى ايام الربيع حيث خرجت كل يهودية وقد ارتدت اجمل مئـزر تملكه •

اما العباءة فترتديها المسلمة لتغطى بها الجسم كلّه ، من اعلى الرأس الى اخمص القدم • وقد تكون العباءة بهيجة اللون كالمئزر لكن المسلمات من علية القوم لا يرتدين العباءات باللون الفاتح ويسرن بها فى الشوارع • انهن قـد يرتدين الملابس بالوان قوس قزح فى بعض المناسبات ، كحفلات الزواج مثلا، وتكلف الشابات ، على كل حال ، بالالوان الزاهية كالبرتقـالى والاخضر والاحمر الداكن •

كنت نزيلة البصرة ، وعلى مقربة من مسكننا مدرسة البنات • وكنت انظر الى الطالبات الصغار وهنّ يعبرن الجسر من تحت شباكى فى طريقهن الى مدرستهن ويلبسن العباءات بالوان زاهية وهن كأزاهير الحـدائق ... وكانت كل واحدة منهن بحراسة خادم ، وقد ترنو بعضهنّ الى ... كمـا كنت القى اليهن احيانا بالحلوى فتقع فى جوانب ارديتهن الحريرية •

وما ان تبلغ الصبية سن الشباب الا وتتغطى خارج الدار بالعباءة السوداء، وهى خاصة بعلية النساء المسلمات • وقد تشاهد وجوههن يخفيها الخمار •

فى مقدور الاوروبى ، او الاوروبية ، ان يكشف حقيقة من يصادفه ، رجلا كان ام امرأة ، ومقام كل منهما من نوع اللباس المرتدى • ذلك ان الفوارق فى الدين والرس واضحة المعالم فى البلاد • فأهل الاديان المختلفة لا يختلطون الا في القليل ، كما لا يميل اى رجل ، او امرأة ، الى الظهـور بمظهر يختلف عن مظهر طبقته او دينه • فلا غرابة ان سمعت من يقول : « وكانت هناك نسوة مسيحيات ... » او « وسألت يهوديا ... » او « قالت

لى كلدانية »٠ وهكذا دواليك ٠ فلا لزوم ان يسأل المرء عن الدين او الرس ذلك ان اللباس والمظهر كفيلان بالدلالة عليه ٠

وتميل المسلمة من علية القوم الى اللباس الذى لا يتسم ببهرجة المظهر ٠ والمسلمة المحافظة لا تلبس الملابس المفصلة على الطرز الفرنسية ، ومما تصنعه اخوات الدير الراهبات او تبيعه معاهد اوروزدى باك ، وانما تكتفى بما اعتادت زميلاتها على لبسه ٠ وهى تضفر شعرها فى جديلتين طويلتين تقع كل واحدة منهما على جانب من جانبى وجهها ٠ وهى تشدّ الرأس بعصابة (بويمة) من الحرير الاسود تكاد ان تستره كله : ولهذه ال (عصّابة) طرفان يتدليان على الاذنين ، وقد تشدّ كفية سوداء اخرى فوق الحاجبين وتثبت طرفاها بدبوس من خلف ٠ وهى ترتدى (الزبون) وهو قميص طويل الاكمام مفتوح من قدّام وقد ثبتت فيه (بروش) اى (دبوس) وقد يحزم بخيوط من ذهب احيانا ٠ وفوق (الزبون) ترتدى (الهاشمى) وهو ثوب شف ذو اكمام واسعة ، ويرمى طرفه احيانا فوق الرأس ويصنع عادة من حرير اسود مخطط ٠ وتتخذ المرأة العراقية زينتها وتصطنع لذلك كثيرا من وسائل التبهج [٥] وليس هذا بالشائع الغالب ٠ انها تضع الكحل فى عينيها ، والكحل مسحوق اسود مصنوع فى الغالب من الانتيمونى ، ويقال انه يقوى العينين ويعطيهما حافة سوداء مقبولة ٠ والشعر يفرك فى الحمام باوراق الحناء من قبل الخادمات ، ويقال انه يمنع سقوط الشعر ، ولا تنس ان جلّ العراقيات لهن شعر فينان كثيف ٠

وترتدى المسلمة خارج البيت عباءتين ، تضع في احداهما يديها ، وتضع الثانية على رأسها فتغطى الجسم كله ٠٠ وهى تسدل على وجهها نقابا اسود خفيفا ٠ انها لاتتزين بكثير من المجوهرات ، اذ الحجول لباس الطبقة الدنيا ، والفتيات المسلمات من عامة القوم لسن دقيقات فى حدود الذوق فهن يلبسن الحجول الثقيلة من ذهب وفضة ، وتتراءى الحجول من وراء الجوارب فوق

---

(٥) اثرناها ترجمة لكلمة Cosmetics

نعالهن ، وهى بلا كعوب • ولا تضرب الريفيات الفقيرات نقابا على وجوههن، وهن يكلفــن بنوع من الحـلى يسمــى (خزامــة) ـ خاتــم الانف ، وآخر يسمى (الوردة) وهى تصنع من الذهب واللآلىء والشــذر وتثبت فى المنخر • وهن يلبسن السلاسل الفضية والحجول والحرز والتمائم والاساور •• وعلى الرغم من الوشم فهن مقبولات الشكل ، ضوامر ، وقوامهن سبط ، ولهن سيقان ممشوقة • واعتدت ان اشاهد كل يوم صفا طويلا من هاته النسوة العاملات الصغيرات وهن يعبرن (جسر مود) فى غرة الفجر وقد وضعت كل واحدة منهن ٦ـ٨ علبات من علب (الروبه) ، واحدة فوق اخرى فى عمود متعال • وتجىء البعض منهن من جوف الصحراء ، ومنهن من يعلقن الاطفال فوق ظهورهن • انهن يمشين متبخترات ، « مشية الاميرات » ، ويبتسمن ، ويمرحن ، ويلقين بالتحيات الى من يمر بهن من المعارف • وعندما يصلــن المدينة يقعدن على قارعة الطريق وامامهن علب (الروبه) المستديرة يبعنها الى من يريد ••• وقد يناقلن الحديث بعضهن بعضا مرحات ، او يرضعن اطفالهن بين الفينة والفينة • ويسترن ارجلهن خلال سيرهن الطويل بخرق بالية ، ويشددن رؤوسهن ليحفظنها من اوار الشمس •

وليست بنت الصحراء بدينة او مترهلة • فحياتها كلها تعب واجهــاد فلا سبيل لان تتكدس اللحوم على الجسوم • وانما حرية لاتحلم بها المــرأة المتحجبة ، زوج الثرى فى المدينة • وهن يدفعن ثمن هذه الحرية غاليا ••• ومن العمل الكاد الدؤوب • وسمعت فى الحلة (٦) عن اشاعة تذهب الى ان موسرا تزوج فتاة من شمر ••• والفتاة العشائرية هذه كانت تمضى كل وقتها تتنسم النسمات العليلة وتستروح الهواء الطلق من فوق سطح البيت ••• ولم يرق ذلك للزوج فاضطر الى تطليقها وسرحها بمعروف • فالفرق بين حياة المرأة العشائرية وحياة المرأة في المدينة بيّن شاسع كالفرق بين الشــرف

---

(٦) الصحيح ان تكتب بهاء منقوطة

والغرب • وقد تضطر زوجات الشيوخ الى التخلق باخلاف نساء المدن حتى فى الريف فيسدلن على وجوههن نقابا صفيقا ويجرين على ماتجرى عليه هاته النسوة استجلابا لرضاء ازواجهن • ومن كبار شيوخ العشائر من يحتفظ بعدد كبير من الزوجات ، او بالاحرى زوجات واماء [٧] •• وانهن يعشن تحت سيطرة امرأة بلغت من الكبر عتيا ، ولكل واحدة منهن غرفة خاصة بها • والشريعة الاسلامية تلزم الرجل بان يعدل بين نسائه لذا يوكل الى تلك العجوز ان تقرر من منهن ستتشرف بزيارة الزوج فى ليلة ما بالذات ، وعلى أســاس التتابع العادل • وعندما يمضى الزوج ليلته مع احدى زوجاته ترفع على باب

---

(٧) لقد ابتلى اغلب الكتاب الغربيين بالمبالغة كلما كتبوا عن الشرق والاوضاع الاجتماعية السائدة فيه • وعندى ان من اسباب هذا استمـرار تأثير الكتب التى كتبت عن هذا الجزء من العالم فى العصور المظلمة وبـداية انتشار الاستعمار الغربى فبعض الكتاب الغـربيين يتخيلون ، بسبب حب المبالغة ولخضوعهم لتأثيرات تلك الكتب ، وجود العبيـد والاماء والجـوارى والغلمان فى مجتمعات الشرق حتى الان • فالمؤلفة مثلا تطلق هذا الحـكم الغريب فتدعى انها سمعت ان احد شيوخ المنتفق تزوج بمئــات الزوجات او الاماء •

والذى اعرفه انه لم يجمع رجل عراقى فى الفترة التى تكتب عنهـا المؤلفة ، لا من البدو ولا من الريف ولا الحضرفى وقت واحد مثل هذا العـدد الضخم • صحيح ان واحدا او اكثر من شيوخ العمارة او المنتفق تزوج ـ طيلة حياته ـ بما يقرب من مائة زوجة • ولكن الثابت ان أمثال اولئك المغـرمين بتعدد الزوجات يتزوجون كثيرا ولكنهم لا يحتفظون فى وقت بذاته بعدد كبير من الزوجات بل انهم كانوا يكثرون من الطلاق بقدر ما يتهافتون على الزواج •

اما الاماء ، فى مفهومها التاريخى القديم ، فلم يبق لها وجود فى العراق • لقد ملك كثير من شيوخ العراق قبل الاحتلال البريطانى عددا من العبيد كما تحول عدد من عبدات الشيوخ الى زوجات شرعيات لهم • ولذا فالنساء العبيد فى بيوت الشيوخ كن اما خادمات واما زوجات •

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

غرفتها راية حمراء (٨) . للمسلم ان ينكح ما طاب له من النساء مثنى ، وثلاث ورباع، وقد يتزوج اكثر من ذلك ان عمد الى طلاقهن (*) ولا يتزوج العشائرى فى الغالب اكثر من واحدة (٩) ، واهل السنة منهم على وجه اخص (١٠) .

---

(٨) « وهذا ضرب من خيال مخرجى افلام السينما فى هوليود حين يطلب منهم اخراج افلام عن حياة الشرق الغامضة المترفة التى تعج بالسحر والمؤامرات ، والحرير ، والمجوهرات ، والشبان ، والجوارى ، والفروسية ، والبطولة ، كما يتخيلونها ويقينى ان الذى تدعيه المؤلفة لايمت الى الواقـــع بصلة مطلقا » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

(*) اباحت (الشريعة الموسوية) تعـدد الـــزوجات الى غير عـــدد ، والنصرانية بمقتضى نصوصها تأخذ بشريعة موسى ، الا ما جاء فى الاناجيل او رسائل الرسل بمخالفتها ، ولا يوجد نص صريح او مؤول تأويلا معقولا يدل على انها تمنع ذلك . واباحة تعدد الزوجات فى الاسلام مشروط فيها العدالة والقدرة على الانفاق وبذلك يكون الاسلام قد وقف مانعا الاسراف الذى تقره الشرائع من قبل ، وتعدد الحلائل فى الاسلام خير من تعدد الخلائل فى غيره .

(المترجم)

(٩) « هذا حكم اقل ما يوصف به انه خطأ فاحش . فافراد العشائر فى العراق مولعون اشد الولع فى الاكثار من الزوجات بل ان الرجل من اهل العشائر يعتبر التزوج باكثر من واحدة من اعز الامانى واعذب الاحلام التى يسعى جاهدا لتحقيقها . ولعل الاغلبية الساحقة من العشائريين الذين ظلوا متزوجين بزوجة واحدة انما ظلوا كذلك لانهم فشلوا لاسباب معينة فى أن يتزوجوا باكثر من واحدة . فالدوافع لتعدد الزوجات فى الريف كثيرة منها : انه مجلبة للاعتبار الاجتماعى ، وانه عامل اقتصادى هام اذ ان المرأة فى الريف اداة انتاج فعالة فى كل القطاعات الاقتصادية ، وهو الى جانب ذلك وسيلة لتحقيق رغبة معروفة عند اهل الريف هى الحصول على مزيد من النســل ، والاولاد الذكور بصورة خاصة ، واخيرا فهو من المتع الحلال الطيبة . والجدير بالذكر انه فى المجتمعات التى تكون المرأة فيها عاملا انتاجيا وحيث يكون عدد الاولاد مقياسا للاعتبار الاجتماعى واحتياطيا اساسيا للدفاع عن النفس يصبح تعدد الزوجات والاكثار منهن ضرورة اجتماعية » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

(١٠) « لا علاقة فى رأيى بين المذهب وكثرة الزوجات فى هذا الموضوع بالـــذات . والـــذى يحـــدد عـــدد الزوجات بـين ســـكان العشائر ، على ما اعتقد ، هو العـــامل الايكولـــوجى البيئى لا الـــدينى . فتعـــدد

الف (السيد حبيب شيحا) كتابا ممتعا يسرد فيه في اسهاب كبير عادات البدو فى منطقة بغداد فيقول فيه : ان البدو يحذون دوما حذو احد رؤساء عشيرة (البو محمد) ، وهو الشيخ فيصل بن خليفة ، والذى كانت فى عصمته ٩٨٠ من الزوجات ! اما ابنه الذى خلفه فلم يتزوج اكثر من ٩٢ زوجة . وكان هذا يفصح فى الغالب عن رغبته فى ان تكون له ١٠٠ زوجة ، لكن (الملا) لم يشجعه على تحقيق رغبته هذه واعتبر ذلك من سوء الطالع ، والنحس . وابناء المدن من علية القوم لايتزوجون باكثر من واحدة ، وهم يحذون فى ذلك حذو اهل القسطنطينية المتمدنين ، وهم لا يحلّون الطلاق الا لاسباب قوية صحيحة . واسعدنى الحظ فتعرفت بسيدات عراقيات اصبحن صديقات لى . ان ذكاءهن ولطفهن وجلالهن يؤهلهن لان يبارين افضل السيدات في اى قطر من اقطار العالم . ومن كان منهن فى استانبول ، ومن الطبقات المتعلمة، لايفرقن كثيرا عن الاوربيات فيما خلا التزامهن بالعادات المحلية عندما يأتين الى بغداد. فتجدهن يسدلن على وجوههن النقاب ، ولا يستقبلن الزائرين من الرجال ولا يرتدن الملاهي العامة . وقد يصطحب زوج اوربى المنزع زوجه واهل بيته الى السينما وهن متحجبات ، وفى احد الواجها المنعزلة يشاهدن الاعيب شارلى شابلن وقد يتركن السينما خلسة لئلا يلحظهن احد .

وتختلف العادات كثيرا . فانا اعرف زوجتين مسلمتين لموظفين كبيرين

الزوجات فى المجتمعات الريفية الزراعية المستقرة يكاد ان يكون طرازا اعتياديا ولذلك اسبابه التى المعت اليها فى التعليق رقم (٤) ، فى حين ان البدو بحكم قساوة حياتهم وكثرة تنقلهم وبحكم كون المرأة فى مجتمعهم حملا اقتصاديا بدلا من ان تكون عاملا انتاجيا ، لا يتزوجون اكثر من زوجة واحدة الا فى القليل النادر . فاذا لاحظنا ان الاكثرية الساحقة من سكان الريف والعشائر الزراعية فى جنوبى العراق من اهل الشيعة وان كل البدو من اهل السنة استطعنا ان نتخيل سبب خطأ المؤلفة فى حكمها الذى اصدرته » .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

بغداد يذهبن وهن يسدلن النقاب على الوجه لتناول الطعام مع الزوجين في بيوت الاوبيين . انهن يرتدين ملابس السهرة ويتحادثن مع الضيوف الذين دعوا لمقابلتهن .

لصديق مسلم آخر ام ساحرة واخت ؟ انه اوروبي النزعة الى ابعد حد، ولكنهن محافظات ويعشن في عزلة تامة .

وتقضي التقاليد المحلية بان لا تترك المرأة بيتها ايام الحداد ، ولقد لبست هاتان السيدتان السواد على راحل عزيز لمدة سنتين ، ولم تترك واحدة منهن البيت ابدا . انهن يرفضن بشدة اعتبار مثل هذا امرا مفروضا عليهن . وهناك ذات يشغل مركزا رفيعا ببغداد ويمنع نساء بيته من الخروج مطلقا لا لسبب الا لكونهن نساء وهاته النسوة ينظرن الى مثل هذا الحجر وكأنه من تراثهن الرفيع .

ومن الخطأ ان يتصور المرء ان المسلمات في العراق ينشدن الحرية (١١) وقد يتململن احيانا من ضرورة النقاب ، ولا سيما ابان ايام الطقس الحـار ، ولكنهن يعتبرن العزلة مما يجلب احترام الرجال . وتنظر النسوة المترفات الى البدع التي تأتيها بعضهن بازدراء ، وتنسب ذلك الى سوء تربيتهن . لكن التأثيرات التي قلبت من وضع المـرأة في استانبول ناشطة اليوم في العراق ، فالجيل النابت اخذ يتبرم بالاوضاع . وسمعت بنتا عراقية ، وقد عرف ابوهـا بوفارة الثروة ، تقول لصديقتها التركية التي اعتادت على تذوق الحرية « وددت الا اكون بنت ... انني افضل ان اكون بنت (بلمجي) واتمتع بالحرية » لقد منعتها امها من الذهاب الى السينما عندما دعتها صديقتها الى ذلك . وقالت الصديقة : « وهل من الضروري في الذهاب الى السينما ان تسدل كل واحدة

---

(١١) المؤلفة تسرد وضع المرأة العراقية في زمن نشر الكتاب سـنة ١٩٢٣ ، ان قيمة السرد هذا لايعدو تصوير واقع تاريخي مضى وولى ، وما اعظم الفارق بين ذلك الزمن ويومنا هذا .
(المترجم)

منهن نقابا سميكا على الوجه ؟! » فاجابت الام : « حسنا ... ان متّ فلتفعل بناتي ما تشاء ، ولكنى لن أقر مثل هذا مادمت حيّة ! . » ان الحرية شيء محبب يستأهل كل كفاح ، فلا معدى للمرأة العراقية من ان تسعى اليهـا قدما . وليس فى العراق اليوم رجل مهما بلغ من « التقدمية » و « الانتصار للمرأة » يرضى بان تصبح نساء بيته مضغة فى افواه المتزمتين ، ورجال الدين . قامت النسوة فى استانبول بثورة تلقائية ، وكانت الحرب فى جانبهن وخلعن الحجاب ، وهن اليوم يشغلن وظائف كانت من قبل وقفا على الرجال فمنهـن الكواتب وسائقات حافلات الترام ... ومنهن من يكنسن الشوارع ايضا .

العزلة على وجه العموم ، تضيق من افق تفكير المرأة . شكت لى سيدة تركية من جاراتها البغداديات قائلة : « ليس لهاته النسوة من حديث غـير حديث المطبخ والقيل والقال ... او طول اهداب هذا الشاب او ذاك ! » وصرح لى احد الوزراء ان نساء بيته على شيء من التفه ولا خير يرتجى من ورائهن ، فهو يرى انهن لا يعنين بترتيب البيت شـأن الانكليزيات ، والا سبيل الى انجاز اى شيء فى بيته ... فلو اراد ان تنظف النافذة لوجب عليه ان يقوم لذلك بنفسه .

والتعليم سبب فى تحسين مثل هذه الحال ، ما فى ذلك شك . وتعليم المرأة فى العراق (*) معدوم . وفى استانبول مدرسة بنات ممتازة اسسها الامريكان فى (سكوتارى) ففسحت المجال امام التركيات ليتعلمن . وليس من هذا شيء ببغداد ، وبمقدور الفتاة من علية القوم فيها ان تذهب الى مدرسة الراهبات الفرنسية لتدرس على الاخوات ذوات القلب الطيب الرؤوم : الفرنسيـة والانكليزية والعزف على البيانو ومبادىء التعليم ، وخياطة المخرمات وعمـل

(*) ذلك ما كان عليه الحال ابان تأليف الكتاب أما اليوم فالجامعـة والمدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائيات فيها آلاف من الطالبات ، وقـد تخرجت من الكليات مئات الطبيبات والصيدلانيات والمدرسات والمهندسـات الخ .

(المترجم)

الشرائط قبل كل شيء • ولو لم توجد مدرسة هاته الاخوات الصوالح ، وليس التعليم فيها ممتازا ، لبقيت الفتاة العراقية تعتمد على التعليم الفردى ، وليس هذا بذى مستوى عال •

اما التعليم العالى ففى حكم العدم ، كما ليس هناك من تعليـــم ابتدائى للنساء ، وهناك سيدات موسرات ومن علية القوم ولكنهن فى عداد الاميات • وبعض النســوة العراقيات أشـــد محافظـــة من غيرهن ••• ولا يقدمن على عمــل ما الا بعد الاستخارة • دعوت احـــدى الفتيـــات ••• الى تناول الشاى معى فى يوم ما وارسلت الدعوة لها بوساطة احدى معارفى من السيدات • وكانت الفتاة شديدة التوق لتلبية الدعوة اذ لم يسبق لها ان زارت بيتا اوربيا من قبل • ولكن الام رأت فى مثل هذه الزيارة نحسا ! ورجتهـا زائرتها ان تسمح لابنتها بذلك فوافقت بشرط ان تستخير ، وتناولت سبحتها وعزلت بعض حباتها كيفما اتفق ثم اخذت تعد الحبات اثنتين اثنتين وانتهى التعداد بحبة منفردة ••• ولم يكن ذلك بالفأل الحسن ••• أما الفتاة فلقد اسفرت استخارتها عن زوجين من الحبات ! وسقط فى هذه اللحظة فنجان وانكسر، فماكان من الام الا ان تهتف: ان هذا لدليل على ان الزيارة خاطئة!(١٢) انها حقا لامرأة لطيفة محبوبة على الرغم من ذلك كله ، وقد تستضيف احيانا السيدات الاوروبيات •••

ان الفخار المتهشم ، على كل حال ، عقبة فى سبيل اتمام الزيارة ، فمن سوء الطالع ايضا ان يسقط الفنجان ولا يتهشم !

كانت السيدة التى وصفتها تستضيف جماعة من صديقاتها فى احـــدى المرات وكان ابنها الصغير يلعب بكرة زجاجية ، وسقطت الكرة من يد الطفل

---

(١٢) لقد تلاشت امثال هذه الروحية ، ان وجدت حقا ، نتيجة انتشار التعليم فى العراق •

(المترجم)

ولم تنكسر فأثار ذلك الاشفاق والهلع فى نفس الام فهبت لتكسر الكرة ولكن صديقاتها حلن دون ذلك . ولما اعادت الام الكرة الى موضعها فوق المائدة زوّت وجهها وقالت : سيعترى ابنى منذ هذه اللحظة شحوب ولغوب ويعانى اعراض حمى عالية ... ثم عادت الى حيث وضعت الكرة وهى تقول: لامفر من كسرها ... وكسرتها لكى يستعيد الطفل صحته ولعبه .

والمرأة العراقية تحيط ولدها ، منذ ان تكتحل عيناه بنور الشمس اول مرة بكثير مما تعتقد فيه الوقاية من الشر .

فهى تضع سكينا او سيفا قربه عند ولادته لتطرد بهما الجان ، فالجان تكره كل شيء حاد ... وقد تضع التعاويذ ، والآيات القرآنية مشدودة حول عنقه ايضا . ويؤخذ الوليد فى يومه الاول الى صباغى المحلة كافة فيلطخ كل منهم وجهه بصبغة ، كما يضع جانبا منها على منديل الطفل ايضا . وليست العادة هذه مطردة كثيرا ، وبدونها لايرى الوليد خارج بيته لمدة ٤٠ يوما . وهم لا يغسلون رأسه خلال هذه المدة ، وبعد مضيها يؤخذ الى الحمام فيغسل ولا ضير بعد ذلك ان خرج ...

وتزعم الامهات ان دودة تخرج من « البقعة الرخوة » فوق جمجمة الصبى وقبل ان تتماسك عظامها . ولكننى اشك ان كانت الام تعنى حقا بملاحظة حصول مثل هذا اولا . ويعانى كثير من الاطفال آلام القروح ، فالزعم الشائع ان منظر الصبى النظيف الجذّاب يغرى به العين الشريرة . وهم يثقبون منخر الطفلة ويضعون فيه خيطا فيصبح مثل هذا الجرح سببا فى كثير من المتاعب ، اذ قد تنجم عنه قرحة وقد تسرى القرحة الى الوجه كله . وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الاخت) (١٣) عادة ، وما ان تتقيح الا وتعمد الأم الى طلائها بمستحضر قيرى . وعلى الرغم من ان هذا المستحضر غير ضار بحد ذاته لكن القيح قذارة ، والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك .

---

(١٣) وهى المعروفة بـ Baghdad Boil

والمرضعات يرضعن اطفالهن طويلا ، وقد يستمر الارضاع الى ما بعد ان يدرج الصبي . ولو سقط وجرح فالدواء الشافي ان يلطخ بالطين او التراب شريطة ان يؤخذ من الموضع الذى سقط فيه بالذات . هذا وتطرد الارواح الخبيثة التي سببت له السقوط بايقاد الشموع في المحل ذاته .

والحثر [١٤] شائع جدا ، والام المصابة به تنقله الى اطفالها جهلا واهمالا ، وقد تنسب الى الله عمى العيون او تقرحها ، وان ذهبت الى من يتعاطى طب العوام في احد الاسواق لزودها بمرهم معقم احمر اللون ... لكنها لاتعنى ، ولا يعنى « الطبيب » نفسه بنظافة الخرق المستعملة ، وقد تستعمل الواحدة منهـا من قبل عدد كبير من المصابين .

ان المسلمين والنصارى واليهود سواسية في اهمال وســائل الوقاية الاساسية . وفي مشارف الموصل دير مقدس يسمى بدير (ماركوركيس) . وانك لتجد في داخل الدير عددا من الكفافي علقت على الجدار وتزينها الصلبـان الحمر . ومن يزور الدير يعلم بان لها قدرة على شفاء مرض العيون ، فالقديس كوركيس يعنى بهذا الفرع من المعجزات . لذا اعتاد الناس ان يمسحوا عيونهم بتلك الكفافي واحدة تلو الاخرى ... آملين الشفاء ! هذا وانك لتجد بينهم العجوز المصابة بالسد [١٥] وضعاف البصر من الاطفال وغيرهم ممن يشكون اصابات خطيرة معدية في عيونهم [١٦] .

تم تعيين زائرتين صحيتين ببغداد . انهن يزرن الامهات في بيوتهـن ويسدين لهن المشورة الصحية ويساعدنهن قدر المستطاع . اعلمتني الزائرتان

---

(١٤) الحثر هي التراخوما Trachoma فيما اقره مجمع اللغـة العربية بمصر من مصطلحات علم الرمد

(١٥) اقر مجمع اللغة العربية في القاهرة هذا المصطلح لـ Cataract من مصطلحات علم الرمد راجع مجلته العدد ٥ ص ٢٤٢ .

(١٦) ما اشد الفرق بين تلك الحال وحال الامهات اليوم فهن يزرن المستوصفات ويراجعن دور الحضانة والامومة والطفولة فينـال اطفالهن عناية متزايدة . (المترجم)

ان الامهات يعوزهن الوقوف على كل ما هو باده Common sense في الناحية الصحية وان من الصعوبة بمكان ان يحملن على ادراك قيمة كل ما يساعد على حفظ الصحة كأشعة الشمس والماء الجارى . ولكنهن ، على الرغم من ذلك كله ، يقدّرن ما يسدى اليهن من رعاية وعناية . وقامت صديقة لى ، وقد راعها ما شهدت من جموع الاطفال المصابين بتقرح العيون ، بفتح بيتها لامهات هؤلاء الاطفال وشرعت فى معالجة القروح وسائر الاصابات العينية ... وقد نالت على حسن صنيعها هذا جزاء وشكورا . فمن المريضات من تعمد الى جمع بيضات قلائل او شيئا من الخضر وتقدمها هدية الى تلك الصديقة ... وقد يمس شعورهن ان رفضت هذه قبول مثل تلك الهدايا !

وعلى الرغم من ذلك كله فان مستوى النظافة ، اى نظافة الجسد الفعلية ، بين النسوة المسلمات من الطبقات السفلى اعلى من مستوى النسوة من نفس الطبقة فى بلادنا . وعلينا ان نتذكر ان الماء يجلب الى البيت فى كثير من الاحوال من النهر بالجرار ، وقد يكون المطر منهمرا بشدة شتاء ، وقد تكون الحرارة على اشدها فى الصيف ... وان ذلك كله بسبب ما يُلزمه الدين الاسلامي وتَلتزم به الاغلبية الساحقة .

واعظم حدث فى حياة الفتاة المسلمة طراً هو الزواج والامومة ، والزوجية هى كل شيء لديها فى الحياة . انها تنتظر بمزيج من الصبر والتطلع ذلك اليوم الذى تزور فيه احدى صديقات امها زيارة خفية ، ولصالح ابن الصديقة . فتقترح ان يتصل النسب بين الاسرتين . ان مثل هذا اليوم يجب الاّ يكون بعيدا ، فالفتيات يتزوجن فى العراق مبكرا . وقد تعرف الفتاة الفتى فى ايام الطفولة . لاسيما ان كان ابن عم لها ، كما هو الغالب ، وقد يكون غريبا لم تر وجهه ولن تراه الا فى يوم الزواج . وعلى الرغم من ان واجب الفتاة ان ترضى بما يقرره الوالدان في امثال هذه الامور ، فلقد اصبح من الشائع اليوم ان يسمح الكبار الى الجيل النابت بأن يرى بعضهم بعضا من خصاص النافذة ، او من ورا حجاب ، فان كرهت الفتاة زوجها المقترح فان

القلة من الوالدين فقط ، على ما اظن ، تصّر على اجراء صفقة الزواج . النساء مقامرات بالطبع ، والزواج الذى تقدم عليه المسلمة معصوبة العينين وبلا معارضة (يانصيب) وميدان فسيح للحظ ، وللحظ فصل الخطاب . والـزواج عندها ، على كل حال ، وسيلة لغاية هى : انجاب الاطفال . ان نصف الرقى والتعاويذ التى يعدّها المتعاطون بالسحر مخصصة لمن لا طفل لها . فالعقيـم ترى انها لم تحظ برضاء الله ، وانها مخلوق لا فائدة من وجوده ، او « درب لاينفذ الى شيء » . وهى لا تترك تعويذة سحرية الا وتستعملها ، كما انهـا تزور الاماكن المقدسة وتصلّى وتتضرع اليه تعالى عسى ان يبدل حالها السيء بحال حَسَن .

وما التعاويذ التى تستعمل ابان الزواج وهى الحنطة واوراق الشجر الاخضر وما الى ذلك الا رموز للاخصاب . وهناك آلاف من تعاويذ حمـل الاطفال ، وليس هناك تعويذة واحدة لمنع الحمل ، فليس هناك من امرأةعراقية، مسلمة او يهودية او مسيحية ، تشفق على نفسها من كثرة الاطفال .

والعروس المسلمة تزود من قبل ابويها بصداق (١٧) . ويحدد مقدار الصداق عند عقد القران . وتخطب الفتاة اثر نجاح « المفاوضات الدبلوماسية» التى تجريها (الحريم) ، ثم يتلو الامام صيغة العقد وترتل آى الذكر الحكيم .

وعند المسيحيين واليهود مراسيم تتصل بالخطبة ويحضرها القساوسـة والاحبار وقد يطول امد الخطبة او يقصر ، وليس من اللائق ان تزور العروس خلال هذه المدة بيت ام زوجها المرتقب . وهم يتبادلون الهدايا ويرسـل العريس قبل يوم الزواج بأمد قصير هدايا الى جميع السيدات فى بيت زوجته المرتقبة .

---

(١٧) « العروس المسلمة لاتزود من قبل ابويها بصداق ... فهذا خلاف الشرع والتقاليد . فالذى يقدم الصداق هم اهل العريس . ولكن يجوز ان يقدم اهل العروس لابنتهم مساعدة مالية او اثاثا لاظهار ثرائهم او بسبب حبهم لابنتهم او لمعاونتهم فى تكوين بيت كامل مـريح وبدء حياة زوجيـة هانئة » .
تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

وشهدت الايام الخوالى ، وما زالت بالنسبة لفقراء القوم ، جوقا موسيقيا يعزف فى موكب الهدايا المرسلة(١٨) .

ويوقع عقد القران من قبل الابوين (١٩) او الاوصياء ، او من الطرفين، وتتلى المراسيم الدينية ثم توضع الصيغة القانونية له بعد ذلك .

ويميل المسلمون من علية القوم الى اقامة حفلات الـــزواج مختصرة ومقصورة على الاقارب ، ولكن العادة الشائعة احتشاد النسوة فى الحـــرم ، واجتماع الرجال فى جناحهم والاحتفال بالعرس . وليس هذا بنهاية الزواج. فلقد شهدت مواكبه تسير في الليل غالبا وتعزف فيها الموسيقى وتطلق النسوة فيها الزغاريد ، كما شهدت الصوانى محمولة وقد اوقدت فيها الشموع ونثرت فيها الاوراق الخضر ، كما رأيت من يحمل فى الموكب الفوانيس والنســوة يحملن فوق الرؤوس قطع الاثاث واوانى الطبخ والدواليب والفرش والوسائد والستائر وما الى ذلك . وقد زادتها بهجة ورونقا تلك الشرائط الملونة التى تلف بها . وما ان تصل النسوة دار الحريم الا ويشرعن بترتيب وضع الاثاث كما يحلو لهن . انهن يصرفن جلّ الوقت فى ترتيب فراش العرس ، وهو فراش ممتاز بهيج عليه المخرمات من ذهب وفضة ، وتعلوه الكلّه ويغطـى باغطية من حرير . والوسائد فى بيوت علية القوم من قماش (الساتان) السميك وقد خيط بالذهب والفضة .

ويتلو ذلك كله وصول العروس الى بيت الزوجية واستقبالها من قبل

---

(١٨) اعتقد ان المؤلفــة تقصد الموكب الــذى يسمى محليا فى العراق بـ (الحملة) وهو الموكب الذى تنقل فيه اثاث العرس (الجهاز) من بيت اهـل العريس الى بيت اهل العروس او الى البيت الجديد الذى سيقيم فيه العروسان، ويخرج عادة قبل موعد الزفاف بجوق موسيقى وهلاهل وغناء ورقص » .

(١٩) لا يوقع عقد الزواج من قبل الابوين بل من قبل وكيلى العروس والعريس ، بل كانت العادة قديما ان يبتعد اب العروس واخوانها البالغون عن مكان كتابة العقد والاحتفالات بالمهر والزفاف خجلا ولعل بقايا هذه العادة لا تزال موجودة فى العراق حتى الان .

تعليق : الدكتور شاكر مصطفى سليم

نسوة البيت هذا • وقبل ان يسمح للعريس الشاب ان يرى عروسه عليه ان يذهب الى الجامع مع اصدقائه • ثم يعود بعد ذلك ولا يسمح له برؤية زوجه الا بعد ان يخطو فوق سيف عار موضوع على عتبة غرفة العرس • وفي الغرفة هذه تقف العروس في انتظاره ، ومعها امرأة عالية السن ، هي أم العريس في الغالب ، لتقوم بتقديم الزوجين الى بعضهما ، والدعاء لهما بالسعادة والهناء ، ثم انها تتركهما على انفراد •

وعلى العريس ان يعود الى حيث بقي اصدقاؤه فيتلقى منهم التهـاني والتمنيات قبل ان ينصرفوا •

وزواج النصارى ذو طابع اجتماعي متمايز ، وعلى الرغم من ان النساء والرجال لا يختلطان فيه ، اذ يبقى كل من الجنسين في غرف خاصة • وهم يحتسون فيه مقادير كبيرة من الويسكي والعرق ، ولقد راعني في اول زواج مسيحي حضرته في العراق عدد (الكؤوس) التي كانت تصب في اجـواف المدعوين صبّا • ولكن الاحتفال كان بهيجا لطيفا • فلقد جلست النسوة صفوفا وهن يرتدين اجمل اللباس ، كما جلس الرجال ايضا صفوفا في غرفـة مجاورة • وكانت الموسيقى تعزف بالحان عربية وتركية واوربية مختلطة •

ويذكرني هذا بحادث وقع في البصرة ، فلقد ذهبت احدى صديقاتي الفرنسيات مع القنصل الفرنسي الى حفلة زواج • وكان المدعـوون يعبّون اقداح الويسكي بلا حساب ، وكان كل شيء يجري على المعتاد حين وقف والد العريس وطلب من الجوق ان يعزف النشيد الرسمي الفرنسي اكراما للمدعوين البارزين • واذا بافراد الجوق يتلاغطون ويضوضون ثم يقف النـاس لاول (نوطة) احتراما واجلالا • ووقف المدعوان الفرنسيـان ايضـا اذ ما كان في مقدورهما الا الحفاظ على جدية الامر • وعزف الجوق قطعة من نغـم اخر هو النغم المعروف بالفرنسية La fille de Madame Angot وهو نغـم محبب لدى الاجواق التركية • ومن نافلة القول ان نذكر ان المدعوين لـم يعمدا الى اشاعة الارتباك والحرج بين مضيفيهما الكرام !

الفصل العاشر

شرعة الصحراء واسلوب الحياة فيها

هى « انطباعات » مبعثها هذا القصص المنمـّق ، وتلك الافلام السينمائية المزوقة ... التى يجود بها خيال[1] « كليفورنية » المجنّح !

انها « انطباعات » عن البيداء تراود خيال من هم غرباء عنها ، فتصورها لهم موطنا للفروسية وميدانا للهوى ... وهى ، فى الحق ، ليست من هـذا كله فى شىء !!

فشيخ القبيلة ليس بذى الجسم الجميل الممتاز دوما ، وهو لا يتخلّق باخلاق الامرآء حتما ، ولا يشبه الملك لباسا ... فقد يكون ، فى الغالب ، قميئا ، فضّا ، غليظا ... لا تغلب عليه النظافة ابدا .

انه حلس شهوات ، واسير لذات ، وهو مرهف الحس بازاء الكسب والخسارة ، وقد ينظر الى المرأة نظرة « خاصة » !!

ولكن سلوكه العام لا غبار عليه ، فهو كريم مضياف ، على ما تقـــرره شرعة الصحراء ... ذلك ان التقاليد هى التقاليد سواء أكانت في خيـــام البدو ام فى صالونات « مى فير May Fair »[2] .

وبازاء المرأة ليست فروسيته على قدر كبير من الاهمية ... وانـــك لتستشف ذلك من الحكايات التى سأوردها فيما بعد .

---

(١) تريد المؤلفة مدينة السينما الشهيرة (هوليود) وهى فى كليفورنية من الولايات المتحدة الامريكية ومن احدث مدنها ، بنيت سنة ١٩١٤ وتمت بسرعة ، ومن الظريف ان احد الافلام الشهيرة (حرامى بغداد) تطلب تشييد (مصغر) لبغداد فيها . (المترجم)

(٢) انه الحى الذى يسكنه سراة (لندن) وعلية القوم فيها . (المترجم)

وفي الحق ، انه ماكر مخاتل يجيد الشنقصة (٣) ... ولكنه ، على الرغم من ذلك كله ، قد لايعدم من يميل اليه .

ان حياته العامة على شيء كبير من الشظف والقسوة ... والحرية التي تسودها تجعلها ثمينة ، وجديرة بالاحترام .

ولو سنحت لك الفرصة فقابلته ، فلن تجده ، على ما تصوّره الافلام السينمائية، فاتحا ذراعيه لك بالترحيب، ومنحنيا امامك بالاجلال والتقدير... فالشرقي لا يعرف هذا ابدا ، انه من صنع « ستوديوهات السينما » ، ما في ذلك شك !

قد يحييك ، ان قابلته ، وهو يضع يده على صدره ، او فمه او فوق حاجبه ... وان احنى الرأس احناه قليلا ...

فيا من تنتجون الافلام السينمائية ... اسمعوا الى هذا كلّه وعوا !

ان شيخ القبيلة هو القانون ، والقانون هو ، منذ مئآت السنين . وهو يتجنب الاتصال بحكام المدن ، وكان من نتاج هذا كله قصاص سريع قاس ، وابعد ما يكون عن الكمال المنشود .

لقد اقرّوا شرعة الصحراء هذه الى حد ما (٤) ، ذلك ان اية محاولة في فرض قانون البلد حرفيا على البدو تؤدي الى تعقيدات ، وشيء كثير من سوء الفهم ، وقد يكون الضرر الناجم عن هذا الفرض اكثر من نفعه ... واليك اقصوصة تصور ما اذهب اليه :

في الايام الاولى للاحتلال البريطاني في العراق قتل لامرأة بدوية

---

(٣) ابتزاز الاموال باية وسيلة (المترجم)

(٤) تريد المؤلفة بذلك نظام دعاوى العشائر الذي وضع في دور الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٨ والذي الغته الجمهورية العراقية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . والنظام من المخلفات السيئة لدوري الانتداب البريطاني في العراق ، والعهد الملكي البائد . وخطره واضح فهو يعمد الى التفريق بين مواطني العراق بازاء القانون الواحد الذي لايتجزأ. (المترجم)

ابن ... فعلا العويل فى الخيام واشتد النحيب فيها . والقت الشرطة القبض على القاتل ، وجيء به الى اقرب مدينة كبيرة والقوه فى غيابة السجن حتى موعد اجراء محاكمته . وحكم عليه بالموت ... ومن الغرابة بمكان ان والدة القتيل اخذت تراجع ، اثر صدور الحكم هذا ، الضابط السياسى البريطانى ، واصرّت فى احد الايام على الجلوس وصيد باب داره ، وصممت على عدم الانصراف الا بعد ان يسمح لها بمقابلته . واذن لها بذلك بازاء هذا الالحاح الشديد ، وما ان رأت الضابط الا ّ وارتمت على قدميه مسترحمة منه ، والدموع تنهمر من مآقيها ، ان يأمر باطلاق سراح القاتل فورا !!

واستبهم الطلب على البريطانى ودهش منه كثيرا ، وقال : « ولكن لِمَ تريدين الحفاظ على حياة عدو لك ، وقاتل ولدك الوحيد ؟! »

فلم تحرْ ِجوابا ... بادىء ذى بدء ...

وعندما اصرّ عليها ان تفصح عن السبب ، قالت :ــ

« ان قلته لك ، فقد لاتفهم ما ارمى اليه »

فقال لها : قولى ، وسأحاول ان افهم !

وهنا نظرت اليه الثكلى بعين المسكنة ، وباحت بمكنون الضمير قائلة :

« انى قبل كل شيء ، ارملة ، والقتيل ولدى الوحيد ، وسندى ليوم ابلغ فيه من الكبر عتيا . فلو سمحت بمحاكمة القاتل وفق قانون العشائر فقد احصل على (الديّة) وهى تقيم اودى فى بقية عمرى حتى افارق هـــذه الحياة . ولو شنق القاتل فلن يقضَ على طلب الثأر ، وقد اصبح الآن قائما بيننـــا ... وسيقتل فرد من ابناء عشيرتى ، وفرد من ابناء عشيرته ... وبذلك يراق دم كثير ، وتصبح الشحناء قائمة متأججة بيننا امد الدهر . »

وليست هذه الاقصوصة من اقصوصات الفروسية ، وسحر الخيال ، لكنها تمثل شرعة الصحراء الصارمة القاسية بكل جلاء !

واستطاع الضابط السياسى ان يخفف حكم الاعدام الى السجن ، ودفعت
(الديّة) وحسمت بها القضية .

ولتذليل ما ينجم من امثال هذه العقبات والمصاعب سنّ نظام [(٥)] يحاكم
بموجبه العشائرى من قبل السلطات الادارية وبمشورة رؤســاء العشائر
المختصة ، ولا تنظر فى ذلك المحاكم المدنية .

ولم يجر تطبيق هذا (النظام) بوجه حسن مرض عموما ، ذلك ان من
الصعوبة بمكان التمييز بين من هو عشائرى وبين من هو من اهل المدن ، كما
ان صرامة قانون العقوبات تفوق صرامة العرف العشائرى . لذا يشعر ابن
المدينة ، او العربى المستوطن ، انه واقع تحت وطأة قانون شديد بخلاف جاره
المواطن العشائرى ... وفي حالة ارتكابهما جرمين متماثلين .

قلت ان شرعة الصحراء هذه ليست على حظ كبير من الكمال ، ويصدق
هذا القول بالنسبة الى النساء بالدرجة الاولى . فالفتاة ملزمة بموجب العرف
العشائرى على الزواج من ابن عمها ، ان رغب هو فى ذلك . انها ملك صرف
له بهذا الاعتبار ! وان اراد رجل ان يخطب امرأة ، فلا يكفى رضاء الوالدين
عن هذه الخطبة ، وعلى الرجل ان يحسب لابن العم حسابه ، وقد لا يكون
هذا راغبا فى الزواج من بنت عمه ، لكنه قد يحول دون زواجها من غـيره
لغير سبب ما [(٦)] .

---

(٥) وضعت السلطة المحلية أسس هذا النظام واستهدفت تعزيز المشيخة
واشراك شيوخ العشائر فى الحكم ، كما عين رؤساء العشائر الموالين لها بوظائف
ادارية (مديرين فى النواحى) . ان مثل هذا النظام الذى يهدف الى حسم
المنازعات العشائرية على وفق العادات والتقاليد يراد به جعل المجتمع العشائرى
قائما على « العصبية » ، متمتعا بالاستقلال القضائى والادارى ــ ومعتمــدا
الى اى تنظيم سياسى او ادارى فى البلد فيما خلا العشيرة . ولهذا كان هــذا
النظام من عوامل التصدع والتفسخ الاجتماعى سواء فى عهد الاحتــلال
البريطانى او فى عهد الملكية البائد لانه عمل على تجزئة البلاد الى وحــدات
عشائرية لا يوجد بينها اى انسجام وتضامن ، وعزلها عن المجتمع العراقى
فى المدن ، واحتفظت العشائر باحقادها وضغائنها .

(٦) وقد يسبب ذلك ان تبقى بنت عمه عانسا طوال حياتها !
(المترجم)

فان خطف محب موله مدله مفتون الحبيبة ، بسبب رفض ابن العم هذا ، اعتبر قتلها ، والحبيب الخاطف ، امرا مقضيا ... ولابن العم ان ينفذه ايضا !.

وتتمثل القسوة والصرامة فى شرعة الصحراء هذه باجلى مظاهرها فيما يترتب على قذف اية فتاة عشائرية او ما يروجه حولها الوشاة . ان همزة امرأة حسود ، او لمزة غريم ، او اى نبأ ابتر يأتي به نمّام اشر ... ويعطى به عفاف الفتاة ، حقا كان ذلك ام باطلا ، يجعل قتلها واجبا على اقرب الرجال اليها ، وهو الاخ عادة .

وقد لا يكلف الاخ نفسه عناء التحقق من الطعن ، انه يقدم على القتل جهالة [٧] . ومن الغريب ان نساء العشائر ترضى بكل هذا شرعة ، لا مطعن فيها ولا مراء .

وقد رويت لى قصة تصور ما اقول : فلقد نجم عداء بين امرأتين فذهبت احداهن الى شقيق الاخرى ، وكالت لها المفتريات ، فما كان من الاخ الا ان يهرع الى كوخ امه ، ويجهز على اخته فيه ، حالا . وجيء بالفتاة البائسة الى مستشفى الحلة ، وهي ممزقة كل ممزق ، وتلفظ انفاسها الاخيرة . ومن الغريب انها ارسلت ، وهي فى مثل هذه الحال ، الى الضابط السياسى ترجوه الا يقتل الاخ او يسجن ، مادام هو « صاحب الحق » فى الامر كله ! واجاب الضابط السياسى ، وهو تحت وطأة هذه الجريمة الفظيعة ، ان ليس بمقدوره الحيلولة دون ذلك ، فالعدل يجب ان يأخذ مجراه ، وعندما جاء الضابط ووجدها تغالب الالم بذهاب اثر الحقن المورفينية عادت ترجوه ، وهى ذليلة صاغرة ، وبنحيب يقطع نياط القلب ، ان يعدها بالنظر فى استرحامها هذا !

وغلب الضابط على امره بنتيجة هذا المشهد كله ، فعمل بما ارادت ووعدها بالا يعدم الاخ او يسجن ، ان استطاع الى ذلك سبيلا .

---

(٧) الجهالة ـ التسرع من غير روية وتفكير ولا اناة ، وهى نقيض الحلم

وبقيت الفتاة تعانى آلام الجروح الباضعــة طوال ٧ ايام ، ثم ماتت .
ودعي شيوخ القبيلة وكبارها الى مجلس ، ومثل القاتل امامهم فيه . وشرح لهم الضابط القضية من اولها لآخرها ، واذا بهم جميعا يقولون بلسان واحد :

« والله ، لقد احسنت الفتاة فيما طلبته منك صنعا ، وان تصرفها هــو الفضيلة بعينها ... كذلك هذا الرجل لقد اصاب فى قتلها ايضا . ان ذلــك من واجبه ، وليس لك ان تعاقبه وان كانت الفتاة بريئة ، على ما نعتقد . ان الفتاة هى عرضه ، فان مسّ العرض فلا علاج له غير هذا العلاج » .

ونفى الرجل من عشيرته لزمن محدود فى خاتمة القضية .

وهذه قضية اخرى بمقدور الزوج فيها ان يدافع عن زوجته :

فلقد ذهبت الزوجة الى مدينة بعيدة لتحضر عرسا فيها.ووشت بها امرأة اخرى ابان غيابها هذا . وجاءت المرأة النذر : « لاتعودى ، فلقد اتهموك ورموك بالباطل » لكن قلب المرأة كان يحن الى اطفالها وزوجها ، فلم تلبث ان عادت الى قريتها . فما كان من اولادها الا ان يطلبوا منها ان تفر سريعا قائلين : « لقد اقسم اعمامنا ان يقتلوك ـ لقد حفروا لك قبرا » . اما الـــزوج فلقد ايّد رجاء اولاده ، انه يحب زوجه ، وهو مطمئن الى انها بريئة ولكنه ليس بمستطيع ان يقدم لها عونا . ولقد دفع بها الخوف الى الهروب الى المدينة التى تركتها وطلبت حماية السلطات الرسمية فيها . واستدعى شيخ القبيلة ، واستدعيت المرأة وحلفت ، والدموع تجرى من مآقيها ، والتنهدات تتصاعد انها بريئة أمام الله . والقى الشيخ السمع وهو يغالب الالم على هذه «الطريدة»، وختم الضابط السياسى قوله :

« ... والآن اسلّمها لك لتحميها ... وحذار ان يصيبها مكروه ! »

ورفض الشيخ ذلك قائلا :

« لتبق فى حماك ، فذلك افضل ! » . ولم يكن لدى الضابط مأوى لمثل هذه المكروبة ، فاضطرّ الى ان يسلّمها ، والاسى يغمر قلبه ، الى الشيخ الذى

اصرّ على تزويده بوثيقة تؤكد ان السلطة المحلية تحمي « الطريدة » وعسى ان يكون فيها شيء من النفع . لكنه اخطأ في ظنّه ، فما ان غادرت المرأة باب المبنى الحكومي الآن واجهز عليها ... ولم تفدها تلك الوثيقة التي كانت تحملها بيدها !

لكن الضابط نفسه اصاب نجحا في قضية اخرى : فلقد جاءته في يوم امرأة شابة ، وجلست على ارض ديوانه صامتة . وعندما سألها عمـا تريد ، اجابت « احمني ، فالقوم يأتمرون بي ، ويريدون قتلي ! » وعندما استوضح من الفتاة عن السبب اجابت :

« ان اسمي بنية ، واني آثمة وهذه قصتي :

فاهلي يريدون تزويجي من غول بصورة انسان ، انه والله لفظّ غليظ ، واني لأمقته اشد المقت » . وكانت الشابة بسبيل الزواج منه ، وهي صاغرة لو لم يكن ذلك الحبيب المفتون ... وسارت اجراءات الزواج قدما ، واعدت خيمة (حوفة) ليقضي العروسان فيها الاسبوع الاول ، واعدت الحلوى ... وفي الليلة التي تسبق ليلة (الجلوة) جاء الحبيب الى الخيمة وهو مشتمل بظلام الليل وهمس في اذنها : الهروب ... الهروب فورا « وهنا قالت الفتاة » لقد طار صوابي ، ووهنت قواي فلبيت طلبه » . واتجه الحبيبان الى الصحـراء الطليقة ، وتعالت في اثرهم الصيحات ... وعاشا في وجل شديد لحين من الزمن ، يتواريان عن انظار الرقباء ، ويعانيان كثيرا من العسر والحرمان . وقالت الفتاة ، والدموع تنحدر من مآقيها غزارا ، وصوتها يرتجف فرقا : « ونبذني الشاب ليتخلص من هذه الصعاب التي جاء بها حبه ، ونصحني ان احتمي بك بعد ان لاذ هو بالفرار » .

ولم يرجع الضابط الفتاة الى عشيرتها ، وعلى الرغم من ان الشيخ اخذ على نفسه موثقا بان يحميها في بيته . وكانت الفتاة ترتعد من هـذا الشيخ وتقول : « انه قاتلي حتما بمجرد تسليمي اليه » وسلّم الضابط الفتاة في النهاية

الى احد اتباعه ، وتزوجت شخصا صالحا من ارباب المقاهى وهى اليوم ام لعدة اطفال ، ونسيت بذلك حبيبها المخادع وزال عنها كابوس الموت الى غير رجعة .

ودعا الضابط البريطانى احد شيوخ المنتفق للحضور فى مجلس عشائرى ، فارسل الشيخ من يقول انه يخاف على نفسه من شيخ آخر سيحضر الاجتماع ، وهو من افراد عشيرته بالذات ، وانه لن يحضر ان لم يعط عهدا بالحماية من الضابط المذكور . واعطاه البريطانى (العهد) بادىء الرأى ، وتم الاجتماع في مَضَافة واسعة ، وعندما اكتمل عقد الحاضرين سأل البريطانى الشيخ الخائف : « ممن تخاف من بين هؤلاء ؟ » فاشار الى واحد منهم . فعقب البريطانى : ان اصيب هذا الشيخ ، ضيفى ، بسوء فسيلق المعتدى جزاء وفاقا. وسمع ذلك الكل بصمت عميق ... ولكن ، (ضيف البريطانى) لقى حتفه بمجرد ان ارفض الاجتماع وقفل راجعا الى مضارب قبيلته !.

لن يسلم شرف السلطة البريطانية المحتلة اذن حتى يعاقب الجانى . ويرفض هذا الشيخ الانوف الابى العاتى ان يأتى بالقاتلين من ابناء عشيرته او يدلى باسمائهم . وهنا احتار الضابط السياسى فى امره ، فما عساه ان يفعل يا ترى ؟! راجع بغداد ، وحكومتها غارقة فى لجج المشاكل ، والثأر العشائرى، بالنسبة اليها ، جد بسيط . اذن لينفذ القانون ، وان خرق الدستور ... وحالفه الحظ هذه المرة :

ذلك ان فلكا حربيا مرّ يمخر عباب النهر وهو مشحون بعض البريطانيين ، فما كان من الضابط الا ان يستوقفه ويشرح لمن فيه الحال مستنجدا . وارسل فى مساء ذلك اليوم بالذات كتبا الى شيوخ المنطقة كافة ، باستثناء الشيخ العاصى ، وطلب اليهم الاجتماع به فى موضع يقع على الضفة الشمالية للنهر ... وفي الصبح وصل الضابط السياسى الى المحل الموعود ، وفى الوقت المعين ، فوجد ان ٢٥ شيخا من الذين دعاهم ينتظرون .

وسرعان ما صوبت مدافع القارب الحربى عليهم ...وطلب اليهم التسليم،

فسلّموا انفسهم صاغرين • وقال الضابط :

« اننا لا نريد بكم سوءا ، ولكنى جمعتكم لاظهار قوة الحكومةالبريطانية، وانا ذاهب لاعاقب الشيخ » •

ثم انه دعا احد الشيوخ من اصدقائه واستصحبه الى قرية الشيخ العاصى تاركا الآخرين على احر من الجمر •

وكانت قرية الشيخ هذا من قصب ، فاحرقت واصبحت اثرا بعد عين• اما قصر الشيخ نفسه فلقد شاعت فيه النار كما تشيع فى الحطب اليابس ، ورجاله واقفون ونساؤه يصرخن ويلطمن الخدود • ولم يجسر اى فرد على القيـــام بأمر ••• ما دام الشيوخ انفسهم واقفين تحت رحمة صليات المدافع !•

ومضى حين من الدهر على الحادث ، وكان الضابط السياسى فى احدى جولاته الصحراوية ••• وكان الشيخ الطريد هائما فيها ، واذا بهما يقتربان من بعضهما صدفة ، حتى اذا اصبح الشيخ الطريد من الضابط السياسى بمسمع الصوت الا وازاح اللثام عن وجهه قائلا : « اتعرف من انا ، يا هذا ؟ » فاجابه الضابط : « نعم ! » فقال الشيخ : « اما زالت هناك جائزة يتناولها من يأتى برأسى اليكم ؟ » اجابه الضابط : « اجل ! » فقال الشيخ : « انت تعرف ان ليس فى هذا المكان غيرى وغيرك ، فما الذى يمنعنى من قتلك ؟ » فاجابـــه الضابط : « ان اقدمت على ذلك فانت ، ولاشك ، فاقد صوابك ، اذ سيخلفنى آخر ، وسينزل بك العقاب لا محالة » وهنا تبسم الشيخ من جواب الضابط ضاحكا ، وقال : « قل لى ، أبمقدورك ان تلغى هذه الجائزة ؟ » فقال الضابط : « سأسعى فى سبيل ذلك ان دفعت الديّة الى ذوى القتيل » وافترق الرجلان ليلتقيا مرة اخرى فيدفع الشيخ العاصى ، وقد لان بعد شماس ، ديّة كبـيرة حدد مقدارها من قبل الحكومة البريطانية بالذات وما ان تسلّمها ذوو القتيل الا" والغيت الجائزة الموضوعة على رأس الشيخ المطيع الآن !

وفي احدى المرات استطاع الشيخ ، صديق الضابط السياسى ، والذى

صحبه فى حملة الثأر المذكورة ، ان يحفظ حياة صديقه وكـاد ان يضحى بنفسه فى سبيل ذلك . وخلاصة القضية انهما كانا فى قارب آلى يمخر عباب النهر فاذا ببعض افراد عشيرة الشيخ نفسه يصوبون النار الى القارب . وهنا هب الشيخ منتصبا وجاعلا من نفسه ستارا يقى الضابط من شر اطلاقاتهم ... ولما رأى افراد العشيرة شيخهم كفوا عن اطلاق النـــار ... ولكن بعد ان اصابته منهم طلقة طائشة . وطلب الشيخ من صديقه الضابط ان يرفع علما اسود ، ومعنى ذلك فى العرف العشائرى قيام الثأر بين المعتدَى عليه ، وبين المعتدين . وبعد ٤ او ٥ ايام جاءه الشيخ بـ ٥٠٠٠ روبية تعويضا عن محاولة الاعتداء عليه ، ومعه ناهد من بنات العشيرة فى الـ ١٦ من عمرها واخرى صبية فى الـ ١٣ من عمرها . وهنا قال الضابط البريطانى انه لاينوى الزواج فى ذلك الوقت ، وانه قد قبل الفتاتين ، ولكنه يعيدهن صحبة الشيخ الى مضـــارب قبيلتهن . ذلك ان العرف العشائرى يقضى بأن تصحب الديّة فتاة من قريبات القاتل ليتزوجها اخ القتيل او ابنه .

وهذا العرف ، على ما يظهر لاول وهلة ، شائن فظيع . اذ من المؤمل ان تقوم نساء القتيل بمعاملة هذه الفتاة اسوأ معاملة ، وقد يقع ذلك فعلا ، بادىء الامر .. لكن العرف ، مع ذلك ، ينطوى على جوهر نفيس . اذ المؤمل ان تضع الفتاة بعد زواجها غلاما من زوجها فتصبح الحياة منعمة بالحب بعد ان كانت حالكة بالثأر والبغضاء ... كما ينسى ما مضى ويذهب طلب الثأر الى غـــير رجعة .

فدور الفتاة ، اذن ، دور حمامة السلام .

وفى الصحراء تقاليد اخرى تتصل بالثأر والحرب . فليس من المقبـول شكلا ان تشن الحرب بلا انذار سابق ، والقبيلة المعتدى عليها تنذر غريمتهـا بانها ستشن الحرب عليها ، ويكون الانذار أما شفويا او تحريريا ، وهويسمى

بلغة العشائر « النكا » وايقاف الحرب يسمي « الهدرة » ، و « العلك » (٨) وهو الهدنة .

وعذراء الصحراء لا يطمثها انس الا لماما ، فان حدث شيء من هذا فمصيرها الموت ، الا ان تزوجها هاتك العرض ودفع مبلغا مرضيا الى ذويها . وفى النادر الاقل ايضا ان يتقدم احدهم فيحل محل هذا ويتزوج الفتاة حماية لها من ذويها . وقد تعمد المتزوجات من النساء الى الدس الخفى ، فان افتضح سرهنّ كان الموت عقابا لهن .

وقال لى احد رجال العشائر المجربين المحنكين : ان تسعة اعشار المشاكل العشائرية ناجمة عن المرأة ، على وجه التحقيق . ان استغاثة المرأة « صيحة الحرمة » سبب الثأر والقتل . انها تثير نخوة الرجال فى الوغى ، وتوصم من يحجم عنه بالجبن والعار . والشجاع ذو الشكيمة اثير لديها ومكين مكرم ، ومن يرهب الموت يضلّ السبيل الى قلب فتاة البيداء . ونفوذ نسوة البيداء سبب فى احلال السلام . فان التجأ رجل طريد الى خبائهن حمينه ، ولو كان فى اثره رجالهن بالذات . وهكذا التجأ رجل بريطانى خلال ثورة ١٩٢٠ الى خدر بدوية فقيرة ، والدم منه يسيل ، وفى اثره بعض الثوار العرب ، فماكان من نسوة الخدر الا ان يستقبلن مطارديه شر استقبال ، ثم عمدن الى تهريب الجندى البريطانى الجريح الى مكان امين .

ورجال القبائل نشطون ويكلفون بالحرية والاستقلال . وهم فى سنى الشباب ذوو وسامة ، لكنهم يشوهون خلقهم بـ (الوشم) تارة على الوجه وتارة على الاطراف وسائر اجزاء الجسم . ولكل قبيلة وشمها الخاص ، كما ان لها (وسمة) خاصة تسم بها ما تمتلك من الماشية والانعام . ولو تسنى لاى انسان ان يجمع هذه « الوسمات » لكوّن منها مجموعة ممتعة جدا . ولقد تم حسم

---

(٨) للبدو تعبير خاص يستعمل فى هذه الحال وهو « مردود النكا عليكم »
(المترجم)

كثير من القضايا العشائرية الشائكة الدائرة حول موارد الماء بدلالة قاطعة من هذه « الوسمات » •

لا مراء ان اهم حدث فى حياة المرأة العشائرية هو الزواج ، انها تتزوج في مقتبل العمر ، ويتفق على صداقها مسبقا ، ويدفعه الخاطب الى ابيها قبل شهر ، او اسبوعين ، من ميعاد الزواج • ويبلغ الصداق هذا حوالى اا ٦٠٠٠ روبية ويختلف بالنسبة الى ابنة الشيخ اذ قد يبلغ الـ ٤٠٠٠ روبية ، وهو فى النادر • ويقضى العرف لدى العشائر ان يدفع المبلغ الى العروس ، ويضيف اليه ابوها مبلغا آخر •

وتسافر الفتاة صحبة امها الى احدى المدن لشراء بعض الحلى • وهـذه لاتعدو ان تكون عملية استثمار المبلغ او توفيره ، فالفتاة تتزيّن بهـذه الحلى وتبيعها ان احتاجت الى المال • ويأتلف « جهازها » من نوازم بيتها ، وثيابهـا ، واواني الطبخ والوسائد ، والاغطية ، وفراش العرس ، والستائر ، وتحمل النسوة « الجهاز » الى بيت العروس وهن يزغردن فى طريقهن • ولا تجلب العروس معها فرسا او مهرا • وتقام خيمة خاصة فى الاسبوع الاول مـن الزواج تسمى (حوفة) • وهى تفرش بالبسط والوسائـد وتحاط بستائر تسمى (كنات) • والعريس هو الذى يعدّ الخيمة ، ثم تزف العروس اليهـا ويوافيها بعد ذلك •

وفى الخيمة هذه تقضى العروس ٧ ايام بلياليها ، لاتخرج منها ولا يراها احد ابدا ، باستثناء العريس الذى يستطيع ان يدخلها او يخرج منها انـّى شاء ، بطبيعة الحال • انه يستقبل مهنئيه فى المضيف • وفى اليوم الثامن تترك العروس الخيمة الى بيتها الجديد حيث تباشر واجباتها المنزلية فتجمع الحطب ، وتطحن الدقيق ، وتعدّ الخبز ، وتطبخ وتغزل وما الى ذلك •

ويقيم ذوو العريس مأدبة كبرى ، وبعد تناول الطعام يضعون صحنـا كبيرا فى وسط البيت وترمى فيه النفحات والاعطيات • ويهتف صديق العريس

لدى كل رمية « شاباش محمود » او « شاباش زيد » منوّها باسم المعطـــى

ذكرت آنفا شيئا عن الاستجارة بالمرأة واجارتها ، وما ذلك الا رعاية لعرف قبلى عريق من شرعة الصحراء ، هو (الدخالة) . ولـــو طلب قاتل (الدخالةَ) من اخ القتيل لغدا آمنا . والعرف المتبع فيها ان يدخل المطارد الذى ينشد الدخالة الى البيت ويهتف بها . وعندئذ لا يقتصر واجب رب البيت على ضمان سلامته بل عليه ان يكسيه ، ويطعمه ، وان يوصله الى البيت والقرية والعشيرة حيث يكون المطارد آمنا . ثم يصبح رب البيت فى حلّ من واجباته: وهذا العرف العشائرى على شيء كبير من الصرامة ، فبمقدور اى انسان ان يحمل عصا الشيخ ويمر من مضارب اى قبيلة معادية وهو آمن ... وعـلى الرغم من وجود من يطالب بدمه فى تلك القبيلة بالذات .

وقريب من (الدخالة) ما يسمى بـ (الوجـــه والتسيـــار) . فان هتف عشائرى : (بوجه فلان) فمعنى ذلك انه اصبح بحمايته ، فلو خان الحـامى واجبه اقترف اثما عظيما ، انها وصمة تعلق باسمه وتتعدى الى اسم عشيرته ، وعليه ان يدفع (الحشم) ، مبلغا عظيما الى المعتدى عليه .

ويصحب طلب الثأر شيء كثير من القسوة والغضب ، وقد يؤخذ البرىء بجريرة المذنب .

طلبت امرأتان مقابلة الضابط السياسى فى مكتبه ، ودخلتاه سافرتين ، وكانت احداهن فى الـ ٣٥ من العمر والثانية فتاة طويلة فى الـ ١٥ او ١٦ من عمرها . وقصت الامرأتان قصتهما عليه . قالت احداهن ان لعشيرتها ثأرا مع عشيرة اخرى ، وان رجال العشيرة المعادية خطفوا ابنها ، وهو صبى فى الـ ١٨ من عمره . وفى الصحراء تتناقل الانباء سراعا ، وسرعان ما بلغ المـرأة ان ولدها يسام سوء العذاب ، ففى النهار يرعى ثيران القبيلة ، وفى الليل يدفن ـ فى الرمل ـ حيّا حتى رقبته . انهم يريدون له الموت جوعا ، ومن الحتم ان يعذّب قبل قتله .

مدون

ووجه الضابط السياسى طرفا من الاسئلة ليحيط بالامر خُبْرا • فالقبيلة لا تحظى بعطف الناس وليست بذات سمعة طيبة • وتهاوت المرأة تستعطف قائلة : ان ساعدتنى فى هذا فلك ابنتى هذه ! وأعدّت فى الليلة نفسها قوة من ٤٠ رجلا من (الشبانة) ـ المجندين المحليين ـ وشرحت لهم خطة الحملة • لقد تلقى هؤلاء الرجال النبأ ببالغ السرور واستقلّوا الفلك الحكومى الذى مخر بهم فى النهر صعدا حتي بلغ نقطة تبعد ميلا ، واصبحوا على مقربة من قرية القبيلة • وطلب الجنود المحليون من الضابط ان يبقى في مأمنه داخل الفلك ، وقالوا له : ان بمقدورهم المضى بكل هدوء للبحث عن الصبى واطلاق سراحه خلسة ، قبل اللجوء الى القوة ، ولو كتب لهم الاّ يعودوا قبل منتصف الليل فعليه ان يمضى لوحده ويعود بالنجدة • ونزل المجندون الى سيف النهر ونفذوا من سيقان القصب المتعالى ، والضابط السياسى يلقى السمع مترقبا • واختفى رجاله جميعا وفى هدوء الليل البهيم لم يعد يسمع لهم صوت ••• ولم يكدر ذلك السكون الاّ نقنقة الضفادع ، وهمهمة حشرات الليـــل وهى تدّب ، وهمسات النسيم وهو يداعب الغصون • لم يسمع ازيز اطلاقة ، ولم يرتفع صوت انسان • وانتصف الليل والضابط ينتظر على احر من الجمر • وعلى حين غرّة مزق شمل السكون صوت عيار ، وتلته اطلاقات اخرى ثم سمع صريخ وجلبة ، وخرج من بين سيقان القصب احد المجندين وهـــو يتهالك ويتعثر فى مشيته ويهمس « كن على عجل يا صاحب ، فنحن هنــا جميعا • لقد ذعر اهل القرية ، وعلينا ان ننجو بانفسنا حالا » •

وهنا شوهد بقية المجندين وبينهم السجين وهو عار ويكاد يغمى عليه • وكنت تشاهد فى اعقابهم (الشيخ حاجى ميرى) ، وبيده سكين لنصلها بريق ، وقد وضعها على عنق السجين ليضمن السكون • والحاج ميرى هذا فرد من العشيرة المعادية • ومضى المجندون فى الفلك • وقبل ان تحلّ الظهيرة ردّ المعذب البائس الى امه • وكان بصر هذه الام المسكينة قد خبا وفارقت الحياة بعد ١٠ ايام من اطلاق سراح فلذة كبدها هذا •

وسعت المرأة فى الليلة التى اعقبت اطلاق سراحه الى دار الضابط السياسى البريطاني لتقول انه برّ بوعده ، لذا فهى على استعداد لان تبر بوعدها ايضا فتزوجه بنتها ، فما كان من الضابط الا ان يعتذر عن ذلك ويصرفها .

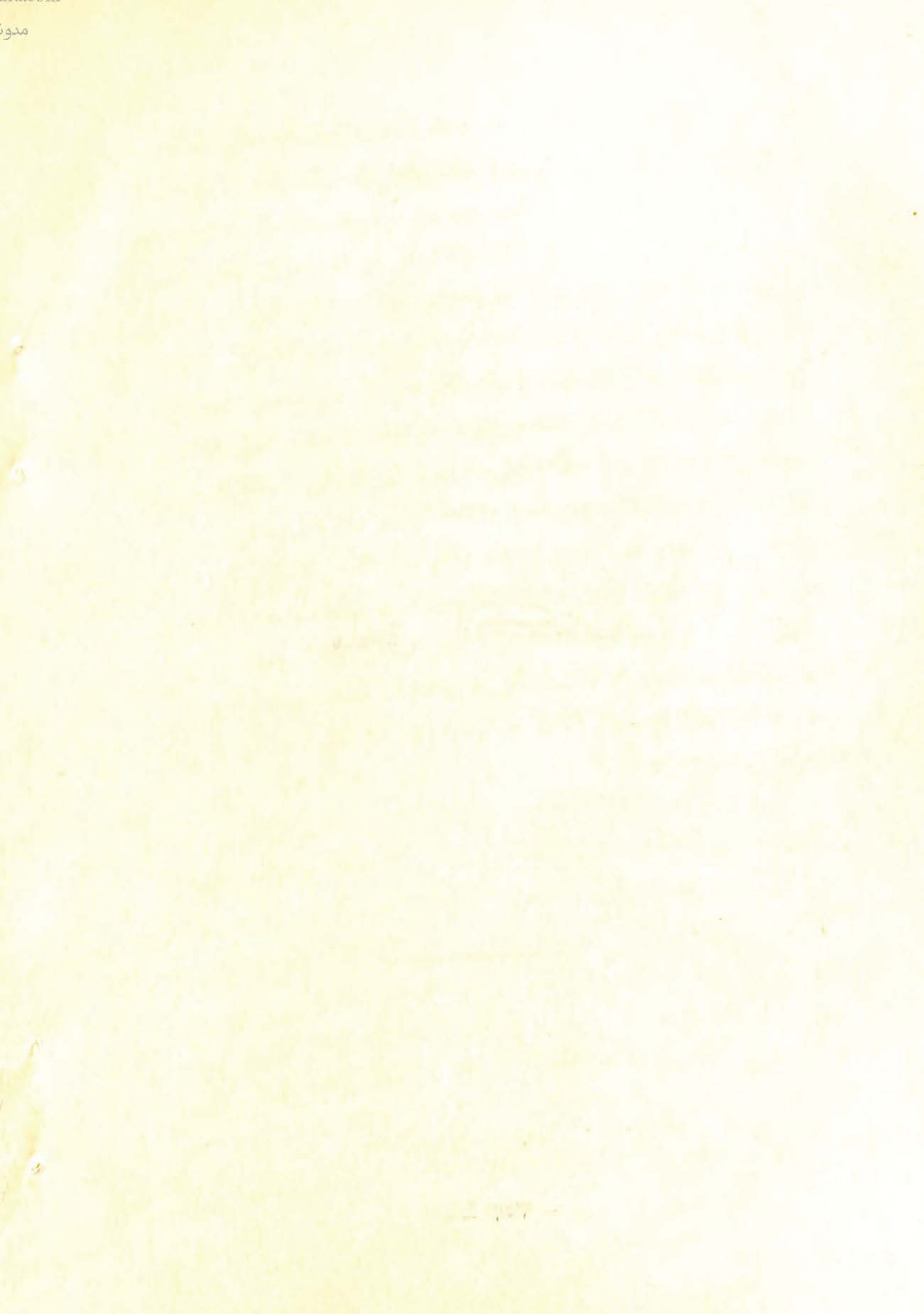
هذا وان قتل رجل عند العشائر امر يفوق خطورة قتل امرأة . وشرف المرأة عزيز لانه ملك اسرتها ، بل هو عنوان شرف هذه الاسرة بالذات ، لكن ليس لكلمتها كبير خطر ، ولا تقدّر مصالحها الا ان كانت هى مصالح الاسرة بالذات . وشهادة امرأة واحدة فى المحكمة لا اهمية لها ، وشهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد .

ولقد نظرت احدى المحاكم فى قضية امرأة قتلت خارج مضارب قبيلتها وكان القتلة هم ابناء عمومتها . فالمرأة كانت تستقى من بئر ومعها امرأتان شهدتا المقتل لكن اكثرية اعضاء المحكمة لم تر فى شهادة الامرأتين بيّنة كافية ، فالقانون يتطلب شهادة رجلين ، او شهادة رجل وامرأتين . ولم يكن فى هذه القضية مجال لحسمها على وفق العرف العشائرى لذلك احيلت الى المحاكم الجزائية المعتادة للنظر فيها . ومما يدعو الى الغبطة ان مثل هذه النظرة الضيقة ليست مما يلتزم به القضاة الوطنيون ، لكن القضية ترينا واحدة من كثير من الصعوبات التى يجابهها من يناط به امر توزيع العدل بين الناس .

وهناك قصة يقصها العرب وقد لا يكون المجال هنا متسعا للاسهاب فيها لكنها ، على كل حال ، مثال حسن على البينات التى تنبثق عن ظروف القضية، وهى بينات لا يطمئن اليها الاّ قليلا . ذلك ان ثلاثة من علماء الشريعه كانوا بسبيلهم الى احدى الغرف حيث اعدّ لهم الطعام . وعلى حين غرة خرج كلب وهو يلعق ما تبقى على فمه من اللبن . وعندما جلس الثلاثة الى الطعام ورأوا ان اللبن مبعثر وقد اصيب منه شيء قال احدهم : « لن اصيب من هذا اللبن

شيئا فلقد أكل الكلب منه ، ولم يعد صالحا لذلك » وهنا سأله الثانى : « كيف عرفت ذلك ؟ » انا لم نر الكلب ولذلك فنحن لا نعرف ذلك ، وبما اننـــا لا نستطيع اثبات التهمة على الكلب فهو برىء بموجب القانون ، ولذلك فلم يعبث باللبن ابدا » • وهنا قال الثالث : « ولكن من الواضح ان الكلب اصاب شيئا من اللبن ، الم تره يسرع خارجا وعلى فكيه شىء من اللبن ؟ » • وبقى الثانى مصرا على رأيه واصاب شيئا من اللبن بينما امتنع الآخران • وترك الثالث رفيقيه وخرج الى الشارع وقد كان خاليا الا من شخصين يتعاركان • وحاول ان يتدخل ليفض الخصام بينهما لكن احد الشخصين طعن الآخـــر بخنجر ، وبعد ان رماه وشاهد غريمه يهوى الى الارض ، اطلق لساقيـــه الريح • وانحني العالم فوق القتيل والتقط الخنجر وقد علق به شىء من الدم المتدفق وهنا هجم عليه بعض الرجال والقو عليه القبض قائلين : « لِمَ هذا يا وغد ؟ لِمَ قتلت الرجل » فقال العالم : « لست بقاتله » وحاول ان يشرح الامر فلم يصدقوه وقالوا : هذا هو الخنجر الدامى بيدك ، وهذا من قتلتـه يلفظ انفاسه الاخيرة ، فكيف تنكر جريمتك ؟ وهنا خرج العالم الثانى من البيت ، والتفت اليه العالم الثالث يقول : « انك على حق ، فالكلب لم يصب شيئا من اللبن » !•

ملحق الكتاب



طير العراق وحيوانه

ورد الربيع ... وهذه « الفاختات المطوّقة » تنوح بين الغصون في البساتين ، وهذا الحمام يساقط على الفناء فى كل مسجد . وانك لتجد فى الجوامع اطفالا يرتلون (القرآن) ، ومعلمهم (الملاّ) ينغُض [1] ويرنو الى الحمام الشادى السابح فى ضوء الشمس ، او المتجمع فى الظل الظليل ، وقد رمته قبةُ المسجد الزرقاء . وقد تسمع الطفل البغدادى يترنم على لسان الفاختة ويقول: (كوكواختى ... وين اختى) اما الحمام الوحشى الذى يعشعش على القباب والمنائر فيسمونه : (طوارنى) ، وهناك اسطورة تدور حوله بالذات : فهم يزعمون ان « فاجعة الحسين » بكربلاء حملت الحمام على مواصلة النواح ، وان اقدامه اصبحت عارية حمراء بغمسها بدم الشهيد ، وما السواد على جناحيه الا شارة الحداد عليه . وهذا الحمام خرّب اقدم منارة ببغداد (منارة سوق الغزل) على ما يزعمون . فمن المتواتر ان (الخليفة المعتصم) الذى بنى المسجد الذى لم يبق منه إلا هذه المنارة (كذا !) كان فى احدالايام مستغرقافي صلاته فرأى اتباعه يطاردون (درويشا) من الفقراء جاء يصلّى فى الجامع . وامر الخليفة اتباعه ان يكفوا عن ذلك ، وانهال عليهم باللائمة ونفح (الدرويش) صرة من النقود . وهنا تقدم هذا البائس الفقير الى الخليفة وقدم له قفصا من الحمام الاليف ، وهو كل ما يملك ، عنوانا على تقديره لصنيع المعتصم وشكرا على افضاله . واطلق الخليفة الحمام الحبيس ، فطار هذا الى المنارة ليعيش فيها جيلا بعد جيل ، وحتى يومنا هذا . وكان الناس يرسلون الحمام الزاجل محملا برسائل تدور حول حركة القوافل وسفرها بين بغداد وغيرها من البلدان ، كالشام مثلا ، وقبل ان تخترع المبرقة Telegraph

---

(١) يشير بالتسليم (نغضا بالرأس) والملا اصلا قصر كلمة (مولى) بمعنى السيد . (المترجم)

وفى بواكير الربيع يعود (اللقلق) و (السنونو) الى العراق ، واهلـه يكلفون بهما كلفا شديدا ، وهما مبعث التفاؤل عند الكثيرين منهم . والطائران يبنيان اعشاشهما فى نفس الاماكن ، سنة بعد سنة . فلا غرابة ان سمعت احدهم يهتف « لقد عاد (لقلق) باب المعظم بالذات » ـ فلهذا الطـائر حسّ خاص بتبدل الجو والاماكن . ولو عمد احد الناس الى ازعاج اللقلق لفرّ هاربا ، وذلك بنظرهم من اسباب التطير .

ومما يحوم حول البيوت (العصفور) و (البوم) ، والاول كثير الضجيج، كصنوه فى انكلترة ، ويلحق الضرر الكبير بالحدائق . واذا ما اكثرت عصافير البيت من الزقزقة كان ذلك ، بنظر اهله ، دليلا على قرب سفر احدهـم . ويتشاءم الناس كثيرا من (البوم) [٢] ، واسمه علم على الزراية ، وان حامت بومة على سرير شخص نائم فوق سريره بسطح الدار وجب عليه ان يهتف : (سكين وملح) ـ ذلك ان السكين والملح ، بنظر البعض ، مما يقى الانسان من النكبات .

ويحب العراقيون بلبلهم ، وانك لتجد البلابل حبيسة فى اقفاص معلقة فى المقاهى والمساجد ... ان للبلبل الحانا عذابا وشدوا صافيا . وقد يسقونه القليل من النبيذ احيانا ، او يطعمونه بعض حبات الرمان ، فان انتشى هـذا الغرّيد انبعثت منه الحان عذاب . ويفسر البعض شدوه باستجداء الورد (شده ورد ، ابو الورد) ويرددون ذلك كثيرا . والبلبل صخّاب كثير الشجار .

والطف طيور الحقول فى العراق طرّا : الوروار [٣] ، وتلتمع الزرقة

---

(٢) لصغار البوم شخير ، ولعلها تنبـه به الابوين لمعرفة مكانها ، وشخيرها عال جدا . وهناك حكاية تقول ان أحد القواد الاتراك كان يجاور (القنصل الامريكى) وكان كل منهما يتهم الآخر بالشخير وبعد لأى اكتشف الاثنان مصدر الشخير ... بومة صغيرة (المؤلفة)

(٣) فى الاصل Bee-eater ، طائر قصير الـرجلين ، طويل المنقار أسوده ، فى قمة رأسه حمرة ، وتحت حنكه طوق يميل الى الصفرة وسائره أخضر ، وفى وسط ذنبه ريشتان أطول من سـائر ريش الذنب ، ووروار حكاية صوته ويسمى خضيراء وخضار أيضا ـ معجم الحيوان (أمين المعلوف) .

والخضرة فيه وهو يطير سابحا فى ضوء الشمس ٠ وهناك (الرفراف) [٤] ؛ وهو من طيور الماء والجداول الشائعة في العراق ٠ ومن هذا الطائر ٣ انواع ، احدها جميل ذو لونين : ابيض ، واسود ٠ وللرفراف الازرق منظر بهيج عندما تطير منه الابابيل [٥] ، ان منظرها كاللهب الازرق وهى تغشى بساتين البصرة او تحوم حول الماء الهادىء المنساب فى جداولها ، وقد قامت على حفافيها بواسق النخـــل ٠

ويستخدم (الهدهد) ، طائر سليمان ، ذو العرف الجميل فى التعاويـــذ والرقى فهو فى زعمهم يقى المرء من طعنات السكين وضرب الرصاص ٠ومثله قنبرة الصحراء ايضا ٠ ومن هذه ما لا عرف لها ، وما له عرف ، ويشيـــع النوعان فى العراق ٠ وقد يرى الانسان بين الفينة والفينة طائر (الذُعَرة)[٦]، المائيـــة منهـــا ، وطائر الســـمان [٧] والشحـــرور [٨] ، العصـــافير المغرِّدة [٩] ، وما الى ذلك من انواع الطيور الشائعة فى انكلترة ايضا ٠

ويـــكثر فى الحلة (العَقْعَق) [١٠] ويشيع الواق [١١] فى البرارى

---

(٤) فى الاصــل Kingfisher طائر طويل المنقار ، قصـير الزمكى والرجلين ، جميل المنظر جدا ــ المصدر نفسه ٠

(٥) الاسراب والجماعات ٠

(٦) فى الاصل Wagtail وهو طائر صغير يكثر من تحريك ذنبـه ، واسمه عند العامة فى العراق (زيطة) ــ المصدر نفسه ٠

(٧) فى الاصل Thrushes وواحدها طائر صغـير أغبر اللون طيب اللحم ــ المصدر نفسه ٠

(٨) فى الاصل Black-bird وهو طائر من الدج اسود اللون حسن الصوت سمي بذلك للونه ٠ ومادة شحر معناها السواد ــ المصدر نفسه ٠

(٩) فى الاصل Finches

(١٠) فى الاصل Magpie وهو غراب أبقع طويل الذنب سمي بحكاية صوته (معجم الحيوان لامين المعلوف) ٠

(١١) فى الاصل Bittern وهو طائر من فصيلة مالك الحزين ، طويل العنق والمنقار والرجلين والاصابع والاظافر قصير الزمكى أصفر الريش مع رقشة وتوشيم يحب العزلة فيختفى فى النهار بين الاس ويكثر الصياح فى

والارض الخلاء . ولم أقف على اسطورة مما يتصل بالنسور، والصقور، أو النَورس(١٢) الذى يغشى دجلة ويطوف على مائه الجارى المنحدر السريع، وسرعان ما تجده يعلو فى الجو ليرجع من حيث ابتدأ . ويحدث الغراب، بنوعيه الابقع والاسود، ضجيجا مزعجا على سطوح البيوت . والزاغ(١٣) أميل طيور العراق الى الهدوء، وأهل الريف يأكلون من لحمه، ولكنهم – بطبيعة الحال – يجهلون « فطائر الزاغ »، ولن أبحث فيما يأكل أهل العراق عموما من لحم الطير، كلحم القطا، والدراج، والسلوى(١٤) والجُهلول، والبط البرى .

ومن المؤسف ان الصياد العربى لا يعني بذبح الطائر الجريح، بل يتركه حيا الى أن يحين زمان طبخه . واشتهر البط البرى منذ زمن الرومان بانها حارس امين، وما زالت شهرته هذه ذائعة فى ارجاء البلاد . وهم يزعمون ان البطة لا تنام، وانها تحمل حصاة فى فمها فان غشيتها سنة من النوم سقطت الحصاة فأيقظتها .

والحيوانات التى تسكن الصحارى، أو جذوع النخل كثيرة، ولعل أصغرها، وألطفها، ما يسمى بجرذى النخل Mongoose أو أبو عرس . انه

الليل – معجم الحيوان لامين المعلوف . وفى الحق ان هذا الطائر يشيع فى المستنقعات الكثيرة القصب ولا يرى نهارا الا اذا أرغم على الطيران .
تعليق : الاستاذ بشير اللوس

(١٢) فى لاصل gull ، واسمه أيضا (زمج الماء) وهو طائر الماء الابيض يعلو فى الجو ثم يزج نفسه فى الماء ويختلس منه السمك ولا يقع على الجيف ولا يأكل غير السمك . (المصدر نفسه) .

(١٣) فى الاصل Rook وهو غراب أسود يلمع بخضرة وحمرة أسود المنقار والرجلين (المصدر نفسه) .

(١٤) فى الاصل Quail وهو طائر من رتبة الدجاج وفصيلة التدرج التى منها الحجل والدراج وربما كان يسمى فى العراق (مريعى) (المصدر نفسه) .

أصغر من صنوه الهندى ، وبمقدور الانسان أن يجعله أليفا مؤنسا • انه يطرد الصراصر والفئران من الحدائق والبيوت • ويشاهد هذا الحيوان بجسمه الدقيق المتلوى تلوى الحية ، وهو يقفز فى الحقول أو عبر المسالك • ومن أغرب الحيوانات الاليفة (سمور الصخر Stone-Marten) • ان فروه غالى الثمن ، وأشك فى ان من يحتفظ به فى بيته [١٥] يستطيع ان يلبس جلده بدون تأنيب من ضميره • انه عطوف على سادته ولكنه شرس وفظ بازاء الحيوانات الاخرى • وعلى الرعم من انه صغير ، يحب العزلة بطبعه ، الا انه قد يثب حتى على ابناء جنسه فى خلال زمن توالده •

والغزال حيوان رشيق وديع ، ويستطيع الانسان أن يجعله أليفا بيسر وسهولة ، لكنه ليس على شىء كبير من الذكاء ، كما ان أرجله الدقاق سهلة الكسر والتهشيم •

ومن « سكان » البرارى : الثعلب ، والذئب ، واليربوع ، وابن آوى • ويسمى ابن آوى (واوى) وهو حكاية صوته ، فصوته أشبه ما يكون بالعويل والنواح • ولو اعولت بنات آوى خارج المدينة أجابتها الكلاب نابحة بصوت أجش ، وكأنها غضبى • والآثوريون من سكان الجبال يروون اسطورة فى هذا الصدد : فالكلاب كانت فى يوم ما تسكن خارج المدن ، وبنات آوى تسكن فى داخلها وتستمتع بالامن والدعة • وسعت الكلاب الى بنات آوى تقول لها : « ان فينا مريضا ، فان أقام فى المدينة واستمتع بوسائل الراحة المتوافرة فيها ، قد يكتب له الشفاء • لنتبادل ، اذن ، المكان لمدة اسبوعين عسى ان نقوم على خدمة مريضنا داخل جدران المدينة • » وأجابت بنات آوى « سمعا وطاعة ، عسى الله أن يعجِّل فى شفاء مريضكم • » وما ان مضى على ذلك اسبوعان الا ورجعت بنات آوى تعول خارج المدينة ، وتقول : « وخي ايله ماريا » ـ أى ، وكيف حال مريضكم الان ؟ فتجيبها الكلاب وهي غضبى :

---

(١٥) فى الاصل Snipe

« بعدو ••• بعدو ••• » وهكذا تتابعت الايام ، وبنات آوى تكرر السؤال ، فتجيبها الكلاب بنفس الجواب •

وتوجد الدببة فى التلال ، ويدعى سكانها انها تفهم لغة البشر • وفى احدى الليالى تسللت فتاة الى احدى البساتين لتسرق شيئا من فاكهتها ، وعندما تطلعت من بين أغصان شجرة من أشجار التفاح شاهدت أقداما عارية • لقد خيل اليها انها أقدام فتى جاء يسرق مثلها ، ولكنها فى الحق لم تكن الا أقدام دب عارية • ونادت الفتاة من حسبتـه فتى وهى قائلة « ارم لى بشـىء من الفاكهة » ولم تسمع لسؤالها جوابا ، بطبيعة الحال • ثم عادت تقول « ان لم ترم لى بشىء فسأخبر البستانى عنك • » وروع الدب من صوت الفتاة فسقط من فوق الشجرة وولى هاربا • وأشق شىء على الفتاة بعد ذلك أن تفهم ان الذى نادته لم يفقه قولها أبدا •

طبيعى ان هناك كثيرا من الحكايات الدائرة حول البعير • فمنظره منظر المزهو المتغطرس ، لا يبعث على الدهش عند العربى • والمعروف ان الخيول لا تحب الابل • وهم يزعمون ان الحصان لم يكن راضيا عن خلقـه وكان يطلب أن تكون عنقه أطول ليستطيع أن يأكل من الحشيش بيسر وسـهولة وكان يتشوق الى ما يقى ظهره من وطأة الاحمال والاثقال ، وكان يصبو الى عرف أطول ، وأقدام طوال • وخلق الله الابل ، وقال للحصان « انظـر الى خلقة هذا القبيح لعلك تطلب أن تكون شبيها له ! ويقود قطار الابل دومـا حمار • وشكا حاله هذا الى الله قائلا : لقد خلقتنى فى أبشع تكوين ، فهذه عنقى طويلة جدا ، وخفاى مشوهتان ، ووضعت على ظهرى سناما محدودبا •• ولا ضير فى ذلك كله ولكن الذى لا أستسيغه أبدا أن حمارا صغيرا يصبح دليلى ويقود قطارا من جنسى !! » •

وفى الجيش المصرى وحدة عسكرية من الهجانة ، وليس مثلهـا فى جيش العراق ، ولكن هناك شرطة هجانة فى الرمادى • وقد يخـال لك

ان النجائب السريعة (الذلول) صالحة ، بوجه خاص ، للاغراض العسكرية لكنها فى الحق ، ليست كذلك • فقد تنزلق أقدامها وتصاب بأضرار عندما يحل موسم الشتاء وتتوحل الارض •

والابل عند البدو ثروة ما بعدها ثروة • فهى لا تحمل أثقالهم الى بلد ليسوا ببالغيه الا بشق الانفس ، فحسب ، ولكنهم يشربون من خلفها(١٦) اللبن ، ويأكلون من لحمها ، وجبنها ، ويتخذون من وبرها لباسا ويصنعون منه بيوتا • وتعد ثروة العشيرة بما تملك من الانعام ، وأخص بالذكر من بين العشائر : شمر ، وبنى لام • ومن أنواع الاغنام : الخروف الكردى ، وهو سمين المؤخرة يغلب عليه اللون الابيض ، وثمين بسبب قوته ونشاطه • أما الخروف العربى ، بنوعيه (العوّاس) و(الشنال) فيجود بصوف ناعم الملمس ، وبالحليب ، والزبدة ، والجبن ، ويتخذون من صوفه لباسا ، وتصدر مصارينه الى أوربة وأمريكة فتصنع منها اللُقانق (١٧) •

ويمكن أن تزدهر في العراق تجارة الجلود شريطة العناية بتنظيفها • فالجلد الخام فيه من أجود الانواع لكنه لا يعالج بوجه جيد ، فلا يصبح صالحا للتصدير • وتربى قطعان المعز مع قطعان الغنم ، وتستخدم لنفس الغاية • وتذبح الشاة على وصيد الباب اكراما للضيف عند قدومه ، فان كان الضيف من علية القوم ، وذوى المكانة الرفيعة ، كشاه ايران ، وزار العتبات المقدسة ، سالت دماء الضحايا من تحت أقدامه غزارا • ولا معدى لفقراء القوم من استخدام الحمار فى قضاء حاجاتهم ، فهم يحملون على ظهره أحمالا ثقالا من البطيخ ، والرمل والطابوق ، ولا تستثنى من ذلك النفايات أو غيرها. ويركب الحمار من رقت حاله ، وهو ، يعد ، من أرخص وسائط نقل الامتعة البيتية • ولا يذكر اسم الحمار الا مسبوقا بكلمة تدل على الاعتذار والتأدب ،

---

(١٦) الخلف — ثدي الناقة •

(١٧) اللقانق – (السجق) اثرناها ترجمة لكلمة Sausages الانكليزية •

(المترجم)

ولا يشذ عن ذلك حتى الحمار الابيض الممتاز الكبير المستورد من نجد ، وثمنه ثمن الحصان • وتظهر على الحمار دوما امارات المرح ، وهم يزينونه بقلائد من الخرز الازرق ، والتعاويذ ، والاجراس ، وقد يعلقون عليه ازارا من الصوف الملون ويصبغون ذيله وعرفه بالحناء • كما قد يضعون على جانبيه سمة تشبه الكف ، فهى تطرد بنظرهم العين الشريرة وتغدق الخير على صاحبه • وقد يعامل هذا المخلوق بقسوة ، فليس فى بغداد جمعية للرفق بالحيوان • وحب العربى لفرسه مشهور • ويقوم (النسّابة) باستقصاء أصل الخيول العربية وبيان اسلافها ، كأسلاف الامراء • ولكن عناية العرب بهذه الخيول وتغذيتها ليست بدرجة كبيرة • وقد يعمد شيخ الصحراء الى اطعام فرسه المفضلة بيديه ، وقد يفوق ثمن الفرس الاصيلة صداق الزوجة « العزيزة » ! ان الفرس زينة الفارس فى البيت ، كالطفل والزوجة • وتفقد الفرس الاصيلة قيمتها ان كانت مياسمها الظاهرة سيئة الطالع • ومن ذلك أن تكون احدى الارجل بيضاء ، والباقية سوداء ، ومثل هذه الفرس لن تركب أبدا • والفرس الاصيلة لا تباع الا فى النادر الاقل ، وقد تباع رجل واحدة منها او رجلان او ثلاث أرجل • ومن الشروط ما يحدد مالك الفرس الاول ، فالثانى ، والخ ••• اذ قد يمتلك الفرس الواحدة ٦ أشخاص ، لذلك فعسير على الاجنبى أن يشترى فرسا ما ، أما الفرس الاصيلة فيتعذر شراؤها اطلاقا • وأصائل الخيول أنواع عدة أهمها : الحمدانى ، الصقلاوى ، كروش ، وثنان ، خيلة ، ضمان ، حركة ، عبيان ، مناجى ، دريبات • والشائع انها تنحدر جميعا من ٥ أفراس نجدية أصيلة ، يرجع عهدها الى ما قبل الاسلام•

وهناك اسطورة تتعلق بالحصان الاول ، وخلقه ، ومفادها ان الله دعا الريح الجنوبية وقال لها : انى خالق من روحك حيوانا جديدا ، فاجمعى أطرافك ، وانى لا أريد أن يرى شكلك أحد » وصدعت الريح بأمره ، ثم انه نفخ فى حفنة منها وخلق الحصان ، ثم أمره الله قائلا : « والآن يا من خلقت

على أجمل صورة ، كن فى خدمة الانسان ، وأجلب له السعادة والمال ، فسيصبح فارسك هذا أشد نبلا وأكثر شهامة » .

ولكل شيخ ، مهما كان مركزه « رباط » خاص به ، والرباط فرس ذات حسب ونسب . لذلك يمتلك ابراهيم بك السعدون (من المنتفك) ٣٠ فرسا وكلها من الاصائل المعروفة باسم (ضمان)[١٨] . والعراقيون جميعا يعلمون ذلك حق العلم . كما ان عشيرة (المطير) بنجد تربى الخيول الاصائل المعروفة باسم (كروش) . والعرب لا تقيم كبير وزن للفرس ان كان عدوها قصير المدى . انهم يثمنون الفرس العادية ان دأبت على عدوها لمسافات بعيدة، لذلك أصبحت سباقاتهم لمسافة ١٠ أو ١٥ ميلا . والسبب فى هذا واضح جلى : فالفرس ، بالدرجة الاولى ، للغزو . وعلى سرعة جريها ، وثباتها ، يتوقف فوز فارسها فيه ، وعودته سالما غانما منعما . ولو غنمت أفراس العدو فى الغزو ، فمن حق كل غاز أن يحتفظ بما غنم ، الا الاصائل فانها تسلَّم الى شيخ العشيرة نفسه . ولو طلب أصحابها الاصلاء استعادتها وجب على الشيخ أن يلبى الطلب ويعيدها لهم . وتباع الفرس الاصيلة ، ومعها نسبها المدوَّن ، ويصادق عليه الشيخ الذى اكتحلت فى كنفه عينا الفرس بالنور اول مرة .

ويربى البقر والجاموس فى العراق أيضا . وفى بغداد ، والبصرة ، والموصل معامل للالبان ، ويمتلك بعضها الاجانب البريطانيون . والجاموس حيوان خامل الحركة ، قبيح المنظر ، لونه رمادى أو بلون الحديد . ويجود الجاموس بلبن جيد ، فيه نسبة الزبدة عالية . ويشاهد هذا الحيوان فى الامسيات الحارة غاطسا فى ماء النهر حتي الرقبة ، وبهذه الطريقة ينعم ببرودة الماء . وقد يعبر قطيع الجاموس النهر بيسر ، ويقود القطيع فى عبوره صبى يركب على جاموسة فيه .

---

(١٨) هو ابراهيم بك بن مزعل باشا السعدون وقد عين متصرفا للناصرية فى أول انشاء الحكومة العراقية .
(المترجم)

ويعتبر الكلب نجسا فى بلاد الاسلام كلها . وكتب أحدهم فى « جريدة الاوقات البغدادية » عن هذا الحيوان ما ترجمته : « ان البغدادى السوى لا يقر قتل الكلاب أبدا ، كما لا تقره النسوة أبدا . ولعل سبب ذلك راجع الى ما جاء فى قول عربى قديم مفاده : ان دم الكلب المستباح سرعان ما يثأر لصاحبه . ومن الخرافات الشائعة بين النساء البغداديات ان من يقسو على الكلب يصبح أبتر ، مقطوع النسل . فان لم يرزق الزوجان الخلف فلا غرابة أن تحرّت الزوجة عن السبب بتكتم اذ عسى أن يكون زوجها قد ضرب كلب جاره مثلا . وعلى الرغم من ان الكلاب فى عداد الانجاس فهم لا يرون فى لمسها ما يجلب العدوى شريطة ان لايكون الكلب مبتلا بماء المطر ، أو من السبح فى النهر . وقد يطبطب العربى على ظهر الكلب ، ولا ضير فى هذا بنظره ، فان لعق الكلب يد صاحبه فذلك غير سائغ . فاليد تصبح نجسا ، ولا معدى من غسلها ٣ مرات فى أول فرصة . ان ذلك من وسائل تطهير اليد ، ولابد أن يصحب غسل اليد « بسم الله » ثلاث مرات أيضا(١٩) .

ويعتبر المسلمون المتزمتون الكلاب غير المبتلة أنجاسا أيضا ، فان لمس أحدهم جسم الكلب نقض وضوؤه ، ولن يقرب الصلاة ما لم يغيّر ملابسه . ومما يحوم حول هذه المعتقدات أيضا استثناء (السلوقي) من ذلك كله . والسلوقى من كلاب الصيد ، ويجيز له صاحبه أن يأكل صيده من الدرّاج أو أى طائر آخر . . » .

وللسلوقى ذنب طويل رائش ، وأذنان طويلتان ، ناعمتا الملمس ، وهم يدربونه على صيد الغزال ، متعاونا فى ذلك مع الصقور ، فالصقر يطير بوجه الطريدة الهاربة ، فاذا ما استقر عليها ضرب بجناحيه على رأسها ، فيسقط فى

---

(١٩) وهناك حديث مشهور عن النبى (صلعم) :
[اذا ولغ الكلب فى اناء أحدكم فليغسله سبعا ، احداهن بالتراب] .
(المترجم)

يدها وتقل سرعة عدوها . وعندئذ تسنح الفرصة للسلوقي فيثب عليها ويسحبها الى مكان أسياده . ولشيوخ العرب ولع خاص باستخدام الصقور في الصيد ، وكثيرا ما يشاهد المرء صقورا ، شدَّ على عينيها بقطعة جلدية ، ووقفت على ساعد أحد أتباع الشيخ .

والاسود تكاد تكون منقرضة في العراق . وما تزال الاساطير تتردد في مضارب البدو حول بطولات شبابهم وهم يلتقون بالاسود وجها لوجه ، فيصرع الشاب أحدها بنفسه ، وما يصحب الطراد بين الاسد والبدوي الشاب من غرائب وعجائب . ومما يدل على ان الاسود كانت كثيرة في بلاد الرافدين هذا العدد الكبير من صور الصيد المنحوتة على الآثار الآشورية . وقد كان عدد من الاسود موجودا بالفعل قبل ما يقارب الـ ٥٠ سنة . وتوجد الفهود أيضا ، والخلاصة ان المرء يستطيع أن يجتاز البلاد بأمن وطمأنينة . ولن يصادفه حيوان مخيف فيما عدا ذئب البلاد الضعيف ، والثعالب وبنات آوى .

وفي الرافدين سمك كثير ، ومنه ، كالبز ، ذو حجم كبير . والبز ليس بذي خطر ، ويؤكل لحمه . لكن الكوسج Shark على جانب كبير من الخطر ، والى حد يجعل السباحة في جداول البصرة محفوفة بالاهوال .. وقد يتخذ سبيله في نهر دجلة . صعدا حتى بغداد ، او في الاقل حتي مصب نهر ديالى . وسمك البني ذو طعم سائغ جدا ، وكذلك الشبوط ، وهناك نوع آخر من الاسماك ذي لحم طيب ولكن الشوك فيه كثير ، فلا يخلو أكله من خطر .

والجرِّي محرم أكله عند الشيعة . ويقال ان السبب في ذلك ان الامام عليا كان جالسا للوضوء على حافة النهر في احدى المرات ، فعكَّرت عليه (الجرِّية) الماء ، فلعنها الامام ، وحرَّم على الشيعة أكلها .

ومن المناظر المألوفة التى يشاهدها من يسكن ضفة النهر صيد السمك بالشباك ، وهى ترمى من القوارب النهرية والقفف ، وقد تكون حصيلة الصيد فى بعض الاحيان كبيرة ، وقد يصاد السمك بالشرك أو يرمى مسحوق خاص يخدرها فتطفو على سطح الماء وتجمع .

ويشاهد الانسان الفرّاشات حتى فى أيام الشتاء المصحية ، وأكثر أنواعها شيوعا (فراشة اللهانة)[٢٠] البيضاء ، و « الاميرال الاحمر »[٢١] و « السيدة المصبوغة » [٢٢] على ما تسمي فى انكلترة .

---

(٢٠) وفى الاصل The White Cabbage Butterfly.

(٢١) وفى الاصل The Red Admiral

(٢٢) وفى الاصل The Painted Lady

مسرد الكتاب
(فهرست)

	صفحة
الاهـــداء	—
تصـــدير	١
مقدمة الكتاب	٥
الباب الاول	
مــن المدن المطمورة فى العراق	
الفصل الاول : من المدن الآشورية المطمورة	٩
نمرود	١٨
آشور	١٩
الفصل الثانى : من المدن البابلية المطمورة	٢٤
بابل	٢٤
بورسبا	٣٧
عقرقوف	٤٠
اور الكلدانيين	٤٣
الباب الثانى	
العتبات المقدسة فى العراق	
الفصل الاول : النجف	٥٩
الفصل الثانى : الكوفة	٧٥
الفصل الثالث : كربلاء	٨٠
الفصل الرابع : مشهد الكاظمين	٨٨
الفصل الخامس : سامراء	٩٦
الباب الثالث	
مدن العراق الكبرى	
الفصل الاول : عاصمة العراق ... واهلها	١٠٩
الفصل الثانى : جوامع بغداد ومزاراتها	١٢٢
الفصل الثالث : الموصل	١٤١
الفصل الرابع : الديارات القديمة والقديسون الاولون	١٥٥
الفصل الخامس : البصرة : مدينة السندباد	١٧٨

الباب الرابع

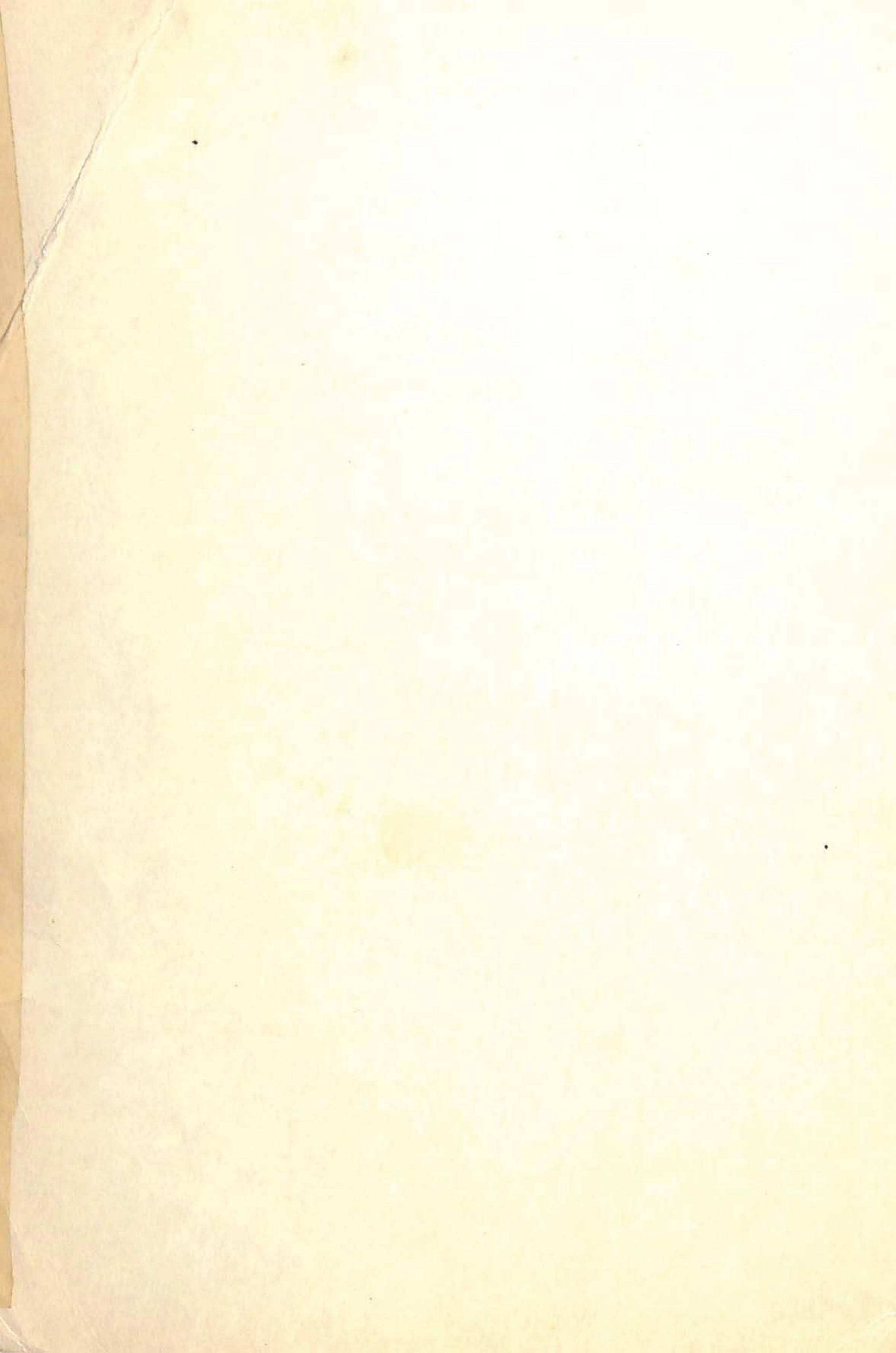
اهل العراق ...

جوانب من : حياتهم العامة ، عقائدهم وشعائرهم الدينية

الفصل الاول : المذاهب الاسلامية	١٩١
الفصل الثانى : المحرم الحرام فى العراق	٢٠١
الفصل الثالث : بنو اسرائيل فى العراق	٢١٤
الفصل الرابع : الصابئة	٢٢٦
الفصل الخامس : اليزيدية	٢٤٧
الفصل السادس : سكان البطائح	٢٧١
الفصل السابع : السحر فى بلاد الرافدين	٢٨٧
الفصل الثامن : صور صغار	٣٠٦
الفصل التاسع : المرأة العراقية	٣٢٠
الفصل العاشر : شرعة الصحراء واسلوب الحياة فيها	٣٣٧

ملحق الكتاب

طير العراق وحيوانه	٣٥٥
معرض الغلط وصوابه	٣٦٧





مترجم الكتاب

- تخرج في الجامعة الاميريكية ببيروت .
- من الوظائف التي أشغلها **بوزارة المعارف العراقية :**

سكرتير الاذاعة اللاسلكية ، مدير التعليم الاهلي والاجنبي ، مدير التعليم الاساسي ومكافحة الامية ... فالمفتش الاختصاصي للغة الانكليزية .

- من الوظائف التي أشغلها **في الوزارات الاخرى :**

مفتش التموين ، مراقب تنظيم التوزيع بالبطاقات ، مراقب المواد الغذائية والمنسوجات المستوردة ، سكرتير تحديد الاسعار .

- حاضر في كليات (**جامعة بغداد**) ويحاضر فيها بموضوع اللغة الانكليزية وآدابها .
- **آثاره المطبوعة :**

١ - **مقالات ... واحاديث - الجزء الاول** — نفد

٢ - **أصول ادرة الشرطة** (مترجم بالاشتراك مع الاستاذ اسماعيل الراشد) - الطبعة الاولى — نفدت

٣ - **أصول ادارة الشرطة** (مترجم بالاشتراك مع الاستاذ اسماعيل الراشد) - الطبعة الثانية — منقحة

٤ - **حضارة العالم الجديد** - فصول تأريخية - أسهم في اعدادها ٦٠ استاذا جامعيا وعلما من الكتاب

٥ - « **فن الدراسة** » - تاليف موركن و ديز (طبع في بيروت)

- **آثاره قيد الطبع :**

٦ - **بغداد ، مدينة السلام** - تأليف ريجارد كوك مترجم بالاشتراك مع الدكتور مصطفى جواد

٧ - **ثورة العراق سنة ١٩٢٠** - تأليف الفريق سر آيلمر هولدين القائد العام للقوات البريطانية في العراق سنة ١٩٢٠

٨ - **العراق ... وما حوله ... في مدونات البلدانيين والمؤرخين القدامى .**

مطبعة شفيق - بغداد